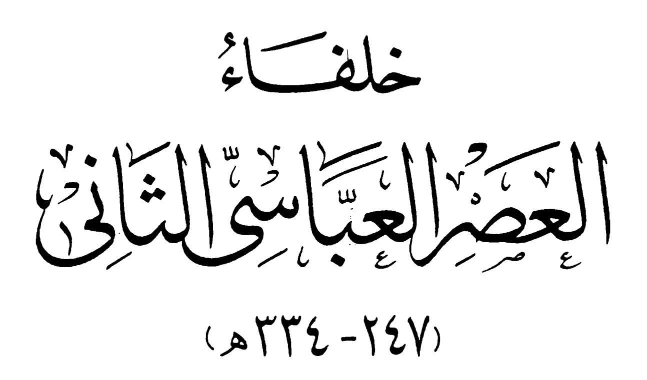

سلسلة الخلفاء
خلفاء
العصر العباسي الثاني
محمود شاكر
المكتب الإسلامي

سلسلة الخلفاء



محمود شاكر

المكتب الإسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم

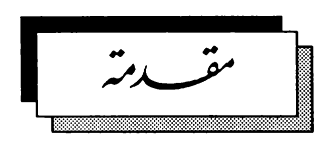
الخلفاء
٢٨ — ٣٩

خلفاء
العصر العباسي الثاني
(٢٤٧ - ٣٣٤هـ)

٢٨ - المنتصر : ٢٤٧ - ٢٤٨هـ
٢٩ - المستعين : ٢٤٨ - ٢٥٢هـ
٣٠ - المعتز : ٢٥٢ - ٢٥٥هـ
٣١ - المهتدي : ٢٥٥ - ٢٥٦هـ
٣٢ - المعتمد : ٢٥٦ - ٢٧٩هـ
٣٣ - المعتضد : ٢٧٩ - ٢٨٩هـ
٣٤ - المكتفي : ٢٨٩ - ٢٩٥هـ
٣٥ - المقتدر : ٢٩٥ - ٣٢٠هـ
٣٦ - القاهر : ٣٢٠ - ٣٢٢هـ
٣٧ - الراضي : ٣٢٢ - ٣٢٩هـ
٣٨ - المتقي : ٣٢٩ - ٣٣٣هـ
٣٩ - المستكفي : ٣٣٣ - ٣٣٤هـ

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ ـ هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى إخوانه أنبياء الله ورسله، وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فإن رسول الله ﷺ، قال: (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران بن حصين، رضي الله عنهما، فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة - ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يُؤتمنون، ويَنذرون ولا يَفون، ويظهر فيهم السِّمَن)[1]. وهذه الخيرية هي خيرية عامة بالقرون التي ذكرها رسول الله ﷺ، ولكن تظهر خيرية خاصة بالقرون التالية خيرية أفرادٍ يتبعون نهج رسولهم الكريم، ويقتدون به وبخلفائه الراشدين المهديين من بعده. فعلى مدى الحياة يظهر أفراد من المسلمين فيهم خير، وفيهم مثال للمسلم الصالح

---

(١) رواه البخاري: ٣٦٥٠.

الذي يُمكن أن يكون قدوةً لأبناء عصره.

وأبناء القرون الخيّرة سادتهم والمسؤولون عنهم أهل خيرٍ عامةً، فالأخيار لا يختارون إلا أخياراً ولا يُسوّدون إلا أخياراً مع عدم الالتفات إلى ما دوّنه المتلوّنون وما أشاعه المغرضون بغية تشويه المجتمع والعمل على الحطّ من شأنه والطعن فيما يعتقد، فسوء الأفراد يدلّ على سوء الاعتقاد، وأهل السوء لا يُسوّدون عليهم إلا أمثالهم، فإذا كان الخلفاء على سوءٍ دلّ ذلك على سوء المجتمع وسوء المعتقد وهذا ما حرص عليه المتلوّنون من العمل المتواصل على الطعن بالخلفاء من افتراءاتٍ وأكاذيب عليهم، وبثّ الشائعات ضدّهم، ودسّ الأقوال عليهم، ونسب ما ساء من أعمالٍ لهم. ورأى المتلوّنون أنهم إن وصلوا إلى ما سعوا إليه ضعفت معنويات الأمة، فنظرت إلى تاريخها الإسلامي نظرة ازدراءٍ، وإلى خلفائها نظرة احتقارٍ فوهنت فيها العزيمة، وضعُفت الهمة، وساد التكاسل وعمّ الخمول، وانزوى أبناء المجتمع في زاويةٍ مهملةٍ من العالم، ليس لهم ما يعتزّون به، وليس لهم رصيد مما يفخرون به، فلا مجد ولا حسب، لا علم ولا أدب، وهذا ما يجعلهم يتّبعون غيرهم، يسير كل فريقٍ

باتجاهٍ، وتأخذ كل جماعةٍ منحىً فتتلاشى الأمة وتصبح أشتاتاً تضيع بين الأمم، وهذا ما يُخططون له ويمكرون، غير أن مكرهم يبور، فالله راعٍ لمن ينصره ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾[1]. ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾[2].
فيُهيّئ الله سبحانه وتعالى بعض رجال العلم والفكر فيُنبّهوا الناس إلى ما وقع من افتراءاتٍ فيما أُشيع وما حدث من زورٍ ومن كذبٍ فيما دُوِّن ليكون أفراد المجتمع على بيّنةٍ وليبور مكر الماكرين.

ورسول الله ﷺ، يذكر خيرية القرون من بعد قرنه، ويقول الراوي: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثةً. والواقع أن الضعف قد حدث بعد المتوكل على الله أي في منتصف القرن الهجري الثاني، ولكن لا يعني هذا أنه لم يكن بعد ذلك أفراد أخيار وخلفاء أخيار، بلى كان أفراد أخيار كثيرين لكن في خضمٍ واسعٍ ممن هم دونهم. وكان خلفاء أخيار غير أنهم قلّة بين من هم أقلّ منهم، فالمعتضد بالله مثلاً (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ) كان خليفةً ذا

(١) سورة محمد: ٧.
(٢) سورة آل عمران: ١٦٠.

خيرٍ واستقامةٍ ودينٍ وأمانةٍ، ويُشبّهونه بعمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وهكذا نحسبه ولا نُزكّي على الله أحداً، وهذا ما نعرفه ـ إن شاء الله ـ عندما نتكلّم عنه.

وُجد عدم الخيرية بعد أن أخلد الناس إلى الأرض بعد أن فُتحت لهم الدنيا، وأقبلت نحوهم بمباهجها، وازَّينت لهم، وتعرّضت لهم بمفاتنها، فاتّجه فريق نحوها فنهل منهم من نهل حتى ارتوى، وغبّ منهم من غبّ حتى غصّ فضعُف أمر الجهاد، وزاد الإقبال إلى الدنيا. ومن هذا الإقبال تطلُّع عددٍ من أفراد أسرة بني العباس إلى الخلافة طمعاً في السلطة ورغبةً في المكانة وحباً للوجاهة، ويتنافسون فيما بينهم يُحرّضهم المتلوّنون بعضهم ضدّ بعضٍ إضعافاً للأمة، ويُحرّكهم المتنفّذون رغبةً في النفوذ، ويدفعهم الطمع في الوصول، ويُشجّعهم الفراغ فلا شيء يُشغلهم إذ لا مُهمّة للأمة ما دام الجهاد قد ضعُف، ولا مسؤولية لهم ما دام المجتمع في ثروةٍ وغنىً، ولا دوافع لهم ما دام الأعداء في صمتٍ وسكونٍ يتهيّبون المسلمين ويرهبون نِزالهم بما رأوا من قتالهم في الماضي وبما عرفوا من جهادهم في العهد السابق، هذا إضافةً إلى إشراقة الدنيا وتزيُّنها، وخصوبة المرعى، ورحابة المجال، والمحرّك إلى

الانسياح في هذا المنحى من أعداء الأمة في الداخل من المتلوّنين الذين ما توقّفت معاوِلهم عن العمل في الهدم فكراً وتشويهاً وتخطيطاً وتحريفاً ودسّاً في كل مجالٍ وإثارةً للفتن.

وكان إقبال الدنيا امتحاناً وابتلاءً لينجو من نجا عن بيّنةٍ ويقع من وقع عن بيّنةٍ، وقد خاض كثيرون في غمرات الدنيا فمنهم من ابتلّت ثيابهم، ومنهم من اتّسخت بالطين، ومنهم من تلوّث بالأوحال، وفي الوقت نفسه بقي كثيرون بعيدين عن الأوحال وفي منأى عن النهم حيث كان. في سيرهم التؤدة فتجنّبوا المزالق، وكان في أخذهم التأنّي فحموا أنفسهم من التخمة فوصلوا بذلك إلى شاطىء الأمان، فتابعوا طريق الدعوة إلى الله، وعملوا على نشر العلم، واتخذوا الحكمة وسيلةً، والإخلاص أسلوباً فكانوا قدوةً، وأدّوا دوراً كبيراً في مهمتهم، وعملوا على تماسك المجتمع، واستطاعوا المحافظة نسبياً على بعض الجوانب، وكان من هؤلاء مسؤولون، وكان منهم من وسط المجتمع، فالخير لا يُعدم من بيئةٍ، ولا يُفقد من طبقةٍ.

وقد يدخل الشيطان على ناصحٍ مخلصٍ فيوهمه أنه إذا اتبع الأساليب التي تتبع للوصول إلى المكانة

المرموقة فربما يصل، وإذا وصل استطاع الإصلاح وتمكّن من تطبيق العدل، فقد يقبل الرأي، ويعمل بما أُوهم به، ويدخل غمار المنافسة، ويتبع أساليبها، ويجد الدعم والتأييد من البيئة الصالحة، فعندها ينضمّ إلى الدعم بعض القادة ليكون لهم النفوذ المأمول عند النجاح المرتقب، ويصل المنافس إلى السدّة، وتبدأ المزالق، ويصل إلى الأوحال فيخوض فيها، ويتلوّث، فتضيع الهيبة، ويبدأ النقد له ولمن كان على شاكلته، ويبلغ الشيطان هدفه.

وأفاد شياطين الإنس اليوم من الماضي فإذا أرادوا شراء الناصح واستعباده، أو المتاجرة به وإسقاطه عرضوا عليه المنصب الرفيع، وزيّنوا له الفائدة فقيام رجلٍ صالحٍ خير من غيره إذ يُمكنه النهوض بالإدارة والإصلاح بالعمل فقد يُدخل عليه بهذا الكلام ويقبل، أو تتغلّب الرغبة في الدنيا عنده إن كان لها طرف في نفسه فيستجيب، وتمرّ الأيام ولا يرى نفسه إلا مُنفّذاً لسيّده، ويتلوّث، ويُتاجر به، ولا يرى نفسه أكثر من رقيقٍ، وهذه وسائل طلّاب الدنيا، فإذا لم يكن الرأس والأكثرية من الأخيار فلا تُجدي الأوهام ولا الآمال.

وفي هذه المرحلة من الخلافة العباسية والتي نحن

بصدد الحديث عنها، ما كان العباسيّ يصل إلى الخلافة حتى يجد أمامه القادة الذين رفعوه والذين يريدون أن يكونوا أصحاب النفوذ، ولا يستطيع الخليفة أن يقف في وجههم لأنه إن فعل تخلّوا عنه وأسلموه إلى منافسه أو الذي كان قد وتره فمصيره معروف، وإن تركهم وشأنهم كان صورةً تُنفّذ الأمور دون رأيه، أو كان ألعوبةً بأيديهم. ومن جهةٍ ثانيةٍ وجد الخليفة حوله من يُحرّضه على هذا ويُحرّكه ضدّ ذاك، ويُغريه بآخر حتى لا يعرف التصرّف، ولا يُحسن الاختيار، ولا يُجيد السير المستقيم.

وقد بالغت الكتب بتدوين هذه المرحلة كما بالغت في غيرها لأنها كُتبت بأيدٍ أكثرها من المتلوّنين، أو كان الذين غذّوها أكثرهم من هذه الفئة لتحقيق أغراضهم.

فنرجو من الله أن نُوفّق في تدوين أقرب ما يكون إلى الواقع إذ نسعى وراء الحقيقة وفي ذلك أمانة والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض: غرّة شهر المحرم ١٤٢٢هـ.
٢٦ آذار ٢٠٠١م.

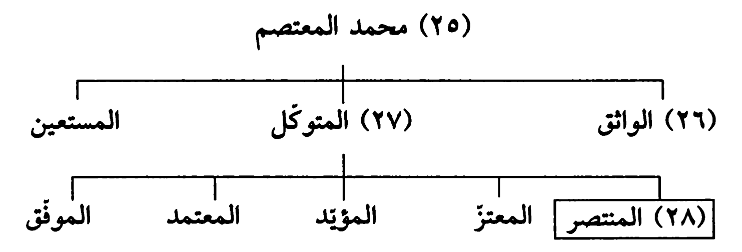
محمود شاكر

الفصل الأول

٢٨ - محمد المنتصر بالله

٢٤٧ - ٢٤٨هـ

المنتصر: هو محمد المنتصر بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



المنتصر قبل الخلافة:

ولد محمد المنتصر سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وعمر أبيه يومذاك سبع عشرة سنة، وأم محمد المنتصر أم ولد رومية تدعى حبشية، وله شقيق يدعى إسماعيل.

وفي سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين عقد المتوكل البيعة من بعده لأبنائه الثلاثة: لمحمد وسماه المنتصر، وللزبير وسمّاه المعتز، ولإبراهيم وسمّاه المؤيد، وذلك في يوم السبت لثلاثٍ بقين من ذي الحجة سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين، وعقد لكل واحدٍ منهم لواءين، أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل.

ضمّ المتوكل لابنه محمد المنتصر إفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب، وجند قنسرين، والعواصم، والثغور الشامية والجزرية، وديار ربيعة، وديار مضر، والحرمين، واليمن، وحضرموت، واليمامة، والبحرين، ومِكران، والسند، ومنطقة الجبال.

وضمّ المتوكل إلى ابنه المعتزّ كور خراسان وما يضاف إليها، وطبرستان، والريّ، وأرمينية، وأذربيجان، وكور فارس. وضمّ إليه سنة أربعين ومائتين خَزْن بيوت الأموال في أرجاء الخلافة كلها، ودور ضرب النقود، وأمر بضرب اسمه على الدراهم.

وضمّ إلى ابنه إبراهيم المؤيد جند الشام (جند دمشق وحمص والأردن وفلسطين).

وكتب المتوكل كتاباً بينهم وأشهد عليه القضاة

والفقهاء والقادة والكُتّاب. وجعل من الكتاب أربع نسخٍ، وُضعت في خزانة أمير المؤمنين، وعند كلٍ من أبنائه أولياء عهده نسخة.

وأخذ المغرضون يلعبون لعبتهم فكانوا يثيرون المتوكل على ابنه محمد المنتصر، ويقولون عنه: إنه متعالٍ، ويفخر بأخواله الأتراك، وأنهم القادة، فيتألّم المتوكّل وربما شتم ابنه محمد المنتصر أمام جلسائه، فيقول لأبيه: يا أبت لو ضربت عنقي أهون عليّ مما تؤذينني به من شتمٍ. ويشيع هؤلاء المغرضون أنفسهم أن المتوكل يحبّ المعتزّ أكثر من المنتصر لأنه يحبّ «قبيحة» أم المعتزّ أكثر من «حبشية» أم المنتصر، وذلك ليفسّر الناس سبب تصرّف المتوكل مع ابنه محمد المنتصر، الولد الأكبر، وولي عهده. وفي الوقت نفسه كان المغرضون يُثنون على المعتزّ، ويُكبرونه، ويمدحون أعماله، ويُبدون إعجابهم بها، حتى كبُر المعتزّ في عين أبيه ورأى تقديمه على أخيه، كما تغيّرت نظرة الخليفة إلى قادته من الأتراك، وشعروا هم بهذا غير أنهم لا يستطيعون فعل شيء.

الفتنة:

وضع الخليفة المتوكل يده على ضياع القائد وصيف

في أصبهان والجبل وأقطعها إلى الفتح بن خاقان[1] في خمسٍ من شعبان سنة سبعٍ وأربعين ومائتين، فثبت في فكر وصيف أن الفتح بن خاقان كان وراء هذه العملية.

وكان الخليفة المتوكل يريد أن يخرج للصلاة بالناس في آخر يوم جمعةٍ من شهر رمضان، وقد شاع خبر ذلك بين الناس منذ بداية شهر رمضان، فاستعدّ الناس لذلك، وجهّز كل من لديه مظلمة أو عنده كلام يريد أن يوصله إلى الخليفة لذلك اليوم وخاصةً بني هاشم. فلما كان ذلك اليوم أراد المتوكل الركوب للصلاة، فقال له الفتح بن خاقان وعبيد الله بن يحيى بن خاقان[2]: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد اجتمعوا

---

(١) الفتح بن خاقان بن أحمد بن غُرطوج، أبو محمد: أديب، شاعر، فصيح، كان فطناً ذكياً، فارسي الأصل من أبناء الملوك، اتخذه المتوكل أخاً له، واستوزره، وجعل له إمارة الشام على أن يُنيب عنه. وكان يُقدّمه على جميع أهله وولده، واجتمعت له خزانة كتبٍ حافلة.
ألّف من الكتب «اختلاف الملوك» و«الصيد والجوارح» و«الروضة والزهر». قُتل مع المتوكل سنة ٢٤٧هـ.
وهو غير (الفتح بن محمد بن خاقان) صاحب «القلائد».

(٢) عبيد الله بن يحيى بن خاقان، أبو الحسن: ابن أخي الفتح بن خاقان، استوزره المتوكل والمعتمد، كان عاقلاً حازماً، استمرّ في الوزارة إلى أن توفي سنة ٢٦٣هـ، وعمره أربع وخمسون سنة.

وكثروا من أهل بيتك وغيرهم، وبعضهم متظلّم وبعضهم يطلب حاجةً، وأمير المؤمنين يشكو، وضيّق الصدر، ومُصاب بوعكةٍ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعض ولاة العهود بالصلاة، ونكون معه جميعاً فليفعل. فقال: قد رأيت ما رأيتما، فأمر المنتصر بالصلاة، فلما نهض المنتصر ليركب للصلاة، قالا: يا أمير المؤمنين، قد رأينا رأياً، وأمير المؤمنين أعلى عيناً، قال: وما هو؟ أعرضاه عليّ، قالا: يا أمير المؤمنين، مُر أبا عبد الله المعتزّ بالله بالصلاة لنشرّفه بذلك في هذا اليوم الشريف، فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعاً فقد بلغ الله به.

أمر المتوكل ابنه المعتزّ فركب وصلّى بالناس. فأقام المنتصر في منزله بالجعفريّة، وكان ذلك مما زاد في إغرائه به. فلما فرغ المعتزّ من خطبته قام إليه الفتح بن خاقان وعبيد الله بن يحيى بن خاقان فقبّلا يديه ورجليه، ولما فرغ المعتز من الصلاة وانصرف، انصرفا معه، ومعهم الناس في موكب الخلافة، والجميع بين يديه، حتى دخل على أبيه وهما معه، ودخل معه داود بن محمد بن أبي العباس الطوسي، فقال داود: يا أمير المؤمنين، ائذن لي فأتكلم، قال: قل، فقال: والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيت الأمين

والمأمون، ورأيت المعتصم، ورأيت الواثق بالله، فوالله ما رأيت رجلاً على منبرٍ أحسن قواماً، ولا أحسن بداهةً، ولا أجهر صوتاً، ولا أعذب لساناً، ولا أكثر خطابةً من المعتزّ بالله، أعزّه الله يا أمير المؤمنين ببقائك، وأمتعك الله وإيانا بحياته، فقال له المتوكل: أسمعك الله خيراً، وأمتعنا بك.

فلما كان يوم الأحد، وكان يومذاك عيد الفطر وجد المتوكل فتوراً في جسمه، فقال: مروا المنتصر فليصل بالناس، فقال له عبيد الله بن يحيى بن خاقان: يا أمير المؤمنين، قد كان الناس تطلّعوا إلى رؤية أمير المؤمنين في يوم الجمعة فاجتمعوا واحتشدوا، فلم يركب أمير المؤمنين، ولا نأمن إن هو لم يركب أن يرجُف الناس بعِلّته، ويتكلّموا في أمره، فإن رأى أمير المؤمنين أن يسرّ الأولياء ويكْبِت الأعداء بركوبه فعل، فأمرهم بالتأهّب والتهيّؤ لركوبه، فركب فصلى بالناس، وانصرف إلى منزله، فأقام يومه ذاك، ومن الغد لم يدع أحداً لما في جسمه من توعّكٍ وفتورٍ وعلّةٍ في بدنه، وأصبح في اليوم الثالث، وهو يوم الثلاثاء نشيطاً فدعا جلساءه والناس.

لكثرة ما تكلّم المتلوّنون للمتوكل عن القادة

الأتراك بُغا الكبير (أبو موسى) وبُغا الصغير (الشرابي) ووصيف وكذلك عن ولي العهد محمد المنتصر فقد عزم المتوكل والفتح بن خاقان أن يفتك يوم الخميس خمسٍ من شوال سنة سبعٍ وأربعين ومائتين بالمنتصر وأن يقتل وصيفاً وبُغا الصغير (الشرابي) إذ كان بغا الكبير (أبو موسى) في ذلك الوقت في منطقة الثغور وغيرهما من القادة الأتراك، وذلك في الغداء الذي قررا أن يكون عند عبد الله بن عمر البازيار. وفي يوم الثلاثاء حيث دعا المتوكل جلساءه صبّ غضبه على ابنه محمد المنتصر فكان يشتمه، ويتوعّده، وأحياناً يضعفه، وأخرى يُهدّده بالقتل حتى ضاق الولد ذرعاً بأبيه، ثم التفت المتوكل إلى الفتح بن خاقان وقال له: برئت من قرابة من رسول الله ﷺ، إن لم تلطمه ـ يعني المنتصر ـ فقام الفتح ولطمه مرتين، ثم قال المتوكل لمن حضر: اشهدوا جميعاً أني قد خلعت المستعجل ـ المنتصر ـ ثم التفت إليه فقال: سمّيتك المنتصر، فسمّاك الناس لحمقك المنتظر، ثم صرت الآن المستعجل، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين، لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل عليّ مما تفعله بي.

وكان القادة الأتراك يتابعون الأحداث وتصرُّفَ

المتوكل ووزيريه الفتح بن خاقان وابن أخيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان، ويحرّضان المنتصر على أبيه ووزيره حتى لان المنتصر لهم بعد أن ضاق ذرعاً بما يجري له، ولم تعد عاطفة البنوة تُشكّل عنده شيئاً. ولما شعر الأتراك بما وصلت إليه الأزمة وأن المنتصر لا يمكن أن يعارضهم فيما إذا أقدموا على شيءٍ، ولا يمكن أن ينتقم فيما إذا قتلوا الخليفة، وكانوا يطمعون بسيطرتهم على الوضع وامتداد نفوذهم.

وحين شعر القادة الأتراك بما آل إليه الأمر قرروا تنفيذ الخطة والإقدام على قتل الخليفة ووزيره الفتح بن خاقان ومن يعترض سبيلهم، والموضوع عندهم جاهز حيث كانوا يتابعون الأمر تماماً، وهم على استعدادٍ في أية لحظةٍ، وإذا كان بُغا الكبير بالثغور - كان بسُمَيْساط - إلا أن ابنه موسى كان جاهزاً، وكان يومها رئيس الحرس في الدار، كما أن بُغا الصغير الشرابي كان حاضراً وجاهزاً وكذا وصيف.

كان محمد المنتصر قد خرج من مجلس أبيه بعد أن أُهين وصُفع، وذهب إلى حجرته وخرج معه غلامه زرافة. ودخل بعدها إلى المجلس بُغا الشرابي فأمر الجلساء بالانصراف إلى حجرهم، فقال له الفتح بن

خاقان: ليس هذا وقت الانصراف، وأمير المؤمنين لم يقم، فقال له بغا: إن أمير المؤمنين أمرني ألا أترك أحداً في المجلس، وها تراه متعباً، فكره الفتح بن خاقان قيامهم، فقال له بُغا: إن حُرم أمير المؤمنين خلف الستارة، فقوموا فاخرجوا، فخرجوا فلم يبق إلا الفتح بن خاقان وخمسة من خدم الخاصة، وأبا أحمد ابن الخليفة المتوكل.

كان بُغا الشرابي قد أغلق أبواب القصر كلها غير باب الشطّ الذي دخل منه القوم الذين عُيّنوا لقتل الخليفة، وخرج أبو أحمد ـ وهو أخو المؤيد بالله ـ من المجلس فرأى القتلة فصرخ بهم: ما هذا يا سفلة! فإذا بالقتلة يتقدّمون، وهم: بُغا الشرابي، وموسى بن بُغا الكبير، وبغلون التركي، وباغر، وهارون بن صوارتكين، فلما سمع المتوكل صوت ابنه أبي أحمد رفع رأسه، فرأى القوم، فقال: يا بُغا، ما هذا؟ قال: هؤلاء رجال النوبة التي تبيت على باب سيدي أمير المؤمنين، فرجع القوم إلى ورائهم عند كلام المتوكل لبُغا، ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف قد حضروا بعد.

شجّع بُغا القتلة فرجعوا إلى المجلس وتقدّم بغلون

فضرب الخليفة ضربةً على كتفه وأُذنه فقدّه، فقال المتوكل: مهلاً قطع الله يدك، ثم قام وأراد الوثوب به، فاستقبله بيده فأبانها، وشاركه باغر، فقال الفتح بن خاقان: ويلكم، أمير المؤمنين! فقال بغا: يا حَلَقيّ ألا تسكت، فرمى الفتح بنفسه على المتوكل، فبعجه هارون بن صوارتكين، فصاح الموت، واعتوره هارون وموسى بن بُغا بأسيافهما، فقتلاه وقطّعاه، وأصابت أحد الخدم ضربة في رأسه، وكان مع المتوكل خادم صغير، فدخل تحت الستارة، فنجا، وهرب الباقون.

كان القتلة قد قالوا للقائد وصيف: كن معنا فإنا نتخوّف ألا يتمّ ما نريد فنُقتل، فقال: لا بأس عليكم، فقالوا له: فأرسل معنا بعض ولدك، فأرسل معهم خمسةً من ولده: صالحاً، وأحمد، وعبد الله، ونصراً، وعبيد الله، حتى صاروا إلى ما أرادوا. إذ كان وصيف يعرف دقّة الخطة، وتأكيد نجاحها.

ولما خرج القتلة بعد أن أنهوا جريمتهم، فاستقبل بُغا المنتصر، فقال المنتصر: ما هذه الضجّة؟ قال: خير يا أمير المؤمنين، قال: ما تقول، ويلك! قال: أعظم الله أجرك في سيدنا أمير المؤمنين! كان عبداً لله دعاه فأجابه، فجلس المنتصر، وأمر بباب البيت الذي قُتل

فيه المتوكل والفتح بن خاقان، فأُغلق وأُغلقت الأبواب كلها، وبعث إلى وصيف يأمره بإحضار المعتزّ والمؤيّد لرسالة المتوكل.

وخرج القتلة إلى المنتصر، فسلّموا عليه بالخلافة، وقالوا: مات أمير المؤمنين، وقاموا على رأس زرافة بالسيوف، فقالوا له: بايع، فبايعه، وأرسل المنتصر إلى وصيف: إن الفتح بن خاقان قتل أبي فقتلته، فاحضر في وجوه أصحابك، فحضر وصيف وأصحابه فبايعوا. وكان عبيد الله بن يحيى بن خاقان في حجرته لا يعلم بشيءٍ من أمر القوم، كان يُنفّذ أمور الخلافة.

خلافة محمد المنتصر:

قُتل المتوكل ليلة الأربعاء بعد العتمة بساعةٍ لأربعٍ خلون من شهر شوال سنة سبعٍ وأربعين ومائتين، وبويع محمد المنتصر يوم الأربعاء، وهو ابن خمسٍ وعشرين سنةً، وكنيته أبو جعفر، ففي صبيحة هذا اليوم حضر الناس إلى الجعفرية من القادة والكتاب والوجوه والشاكرية والجند وغيرهم، فقرأ عليهم أحمد بن الخصيب[1] كتاباً يخبر فيه عن أمير المؤمنين محمد

(١) أحمد بن الخصيب بن عبد الحميد الجرجرائي، أبو العباس، =

المنتصر أن الفتح بن خاقان قتل أباه جعفراً المتوكل فقتله به، فبايع الناس، وحضر عبيد الله بن يحيى بن خاقان، فبايع وانصرف.

وأُحضر المعتز بن المتوكل، فلما رآه المنتصر قرّبه وعانقه وعزّاه، وأخذ البيعة عليه، ثم وافى المؤيّد مع سعيد الكبير، ففعل به مثل ذلك، وأصبح الناس، وصار المنتصر إلى الجعفريّ، فأمر بدفن المتوكل والفتح بن خاقان، وسكن الناس.

ولما كانت صبيحة اليوم الذي بويع فيه المنتصر شاع الخبر في الماحوزة - وهي المدينة التي بناها المتوكل - بقتل الخليفة، وتوافى الجند والشاكرية بباب العامة بالجعفريّ وانضمّ إليهم عدد من العامة، وكثر الناس وازدحموا، وتكلّموا في أمر البيعة، فخرج إليهم عتّاب بن عتّاب فأبلغهم عن المنتصر ما يحبّون،

= ابن أمير مصر: استوزره المنتصر، ثم المستعين. وارتفع شأنه، ثم نفاه المستعين إلى الغرب سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين.

كان كثير الصدقة فلما نُكب قلّت صدقته، وقلّل نفقة نفسه. ولما عُزل صودر، وأُركب حماراً، وهو في سلسلةٍ. وتوفي سنة خمسٍ وستين ومائتين.

فأسمعوه ما لا يحبّ، فدخل إلى المنتصر فأخبره، فخرج وبين يديه جماعة من المغاربة، فصاح بهم! خذوهم، فحمل المغاربة على الناس فدفعوهم إلى الأبواب الثلاثة، فازدحم الناس ووقع بعضهم على بعضٍ، ثم تفرّقوا.

بيعة الخليفة:

أخذ محمد المنتصر بيعة أخويه المعتزّ والمؤيّد، ثم صيغت نسخة للبيعة العامة التي كانت في القصر الجعفريّ. وكانت نسخة البيعة التي أُخذت للمنتصر كما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم. تبايعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعة طوعٍ واعتقادٍ ورضىً، ورغبةً بإخلاصٍ من سرائركم، وانشراحٍ من صدوركم، وصدقٍ من نيّاتكم، لا مكرهين ولا مجبرين، بل مقرّين عالمين بما في هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقواه، وإعزاز دين الله وحقّه، ومن عموم صلاح عباد الله، واجتماع الكلمة، ولمّ الشعث، وسكون الدهماء، وأمن العواقب، وعزّ الأولياء، وقمع الملحدين، على أن محمداً الإمام المنتصر بالله عبد الله وخليفته المفترض عليكم طاعته ومناصحته والوفاء بحقّه

وعقده، لا تشكّون ولا تُدْهنون، ولا تميلون ولا ترتابون، وعلى السمع له، والطاعة والمسالمة، والنصرة والوفاء والاستقامة، والنصيحة في السر والعلانية، والخفوف والوقوف عند كل ما يأمر به عبد الله الإمام المنتصر بالله أمير المؤمنين، وعلى أنكم أولياء أوليائه، وأعداء أعدائه، من خاصٍّ وعامٍّ، وأبعد وأقرب، وتتمسّكون ببيعته بوفاء العقد وذمّة العهد، سرائركم في ذلك مثل علانيتكم، وضمائركم مثل ألسنتكم، راضين بما يرضاه لكم أمير المؤمنين في عاجلكم وآجالكم، وعلى إعطائكم أمير المؤمنين بعد تجديدكم بيعته هذه على أنفكسم، وتأكيدكم إياها في أعناقكم، صفقة إيمانكم، راغبين طائعين، عن سلامةٍ من قلوبكم وأهوائكم ونيّاتكم، وعلى ألا تسعوا في نقض شيءٍ مما أكّد الله عليكم، وعلى ألا يميل بكم مميل في ذلك عن نصرةٍ وإخلاصٍ، ونصحٍ وموالاةٍ، وعلى ألا تُبدّلوا، ولا يرجع منكم راجع عن نيته، وانطوائه إلى غير علانيته، وعلى أن تكون بيعتكم التي أعطيتم بها ألسنتكم وعهودكم بيعةً يطلع الله من قلوبكم على اجتبائها واعتقادها، وعلى الوفاء بذمته بها، وعلى إخلاصكم في نصرتها وموالاة أهلها، لا يشوب ذلك منكم دغل ولا إدهان ولا احتيال ولا تأوّل حتى

تلقوا الله، موفين بعهده، ومؤدين حقّه علكيم.

عليكم بذلك وبما أكّدت هذه البيعة في أعناقكم، وأعطيتم بها من صفقة أيمانكم، وبما اشترط عليكم من وفاءٍ ونصرٍ، وموالاةٍ واجتهادٍ ونُصحٍ، وعليكم عهد الله، إن عهده كان مسؤولاً، وذمّة الله وذمّة رسوله، وأشدّ ما أخذ على أنبيائه ورسله، وعلى أحدٍ من عباده من متأكّد وثائقه، أن تسمعوا ما أخذ علكيم في هذه البيعة، ولا تبدّلوا، وأن تطيعوا ولا تعصوا، وأن تُخلصوا ولا ترتابوا، وأن تتمسّكوا بما عاهدتم عليه تمسّك أهل الطاعة بطاعتهم وذوي العهد والوفاء بوفائهم وحقهم، لا يلفتكم عند ذلك هوى ولا مميل، ولا يزيغ بكم فيه ضلال عن هدىً، باذلين في ذلك أنفسكم واجتهادكم، ومقدّمين فيه حق الدين والطاعة بما جعلتم على أنفسكم، لا يقبل الله منكم في هذه البيعة إلا الوفاء بها.

فمن نكث منكم ممن بايع أمير المؤمنين هذه البيعة عما أكّد عليه مُسرّاً أو مُعلناً، أو مُصرّحاً أو مُحتالاً، فادّهن فيما أعطى الله من نفسه، وفيما أُخذت به مواثيق أمير المؤمنين، وعهود الله عليه، مستعملاً في ذلك الهوينى دون الجدّ، والركون إلى الباطل دون نصرة

الحق، وزاغ عن السبيل التي يعتصم بها أولو الوفاء منهم بعهودهم، فكل ما يملك كل واحدٍ ممن خان في ذلك بشيءٍ نقض عهده من مالٍ أو عقارٍ أو سائمةٍ، أو زرعٍ أو ضرعٍ صدقةً على المساكين في وجوه سبيل الله، محرّم أن يرجع شيء من ذلك إلى ماله عن حيلةٍ يُقدّمها لنفسه، أو يحتال بها. وما أفاد في بقية عمره من فائدة مالٍ يقلّ خطرها أو يجلّ قدرها، فتلك سبيله إلى أن تُوافيه منيّته، ويأتي عليه أجله، وكل مملوكٍ يملكه اليوم إلى ثلاثين سنةً من ذكرٍ أو أنثى أحرار لوجه الله، ونساؤه في يوم يلزمه الحِنْث، ومن يتزوجه بعدهن إلى ثلاثين سنة طوالق البتة طلاق الحرج والسنة، لا استثناء فيه ولا رجعة، وعليه المشي إلى البيت الحرام ثلاثين حجةً، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بها، وهو بريء من الله ورسوله، والله ورسوله منه بريئان، ولا قَبِلَ الله منه صَرْفاً ولا عدلاً، والله عليكم بذلك شهيد، وكفى بالله شهيداً[1].

● بعد بيعة محمد المنتصر بيومٍ واحدٍ ولّى أبا عمرة أحمد بن سعيد ـ مولى بني هاشم ـ المظالم.

---

(١) تاريخ الطبري.

• بعد بيعة محمد المنتصر بعشرة أيام غادر الجعفرية وتحوّل بعياله وقادته وجنوده إلى سامراء.

• أخرج المنتصر من سامراء علي بن المعتصم إلى بغداد، ووكّل به من يراقبه.

• وحجّ بالناس سنة ٢٤٧هـ محمد بن سليمان الزينبيّ.

غزاة وصيف:

كان بين أحمد بن الخصيب والقائد وصيف شيء من النفور أدّى إلى وجود شحناء وتباغض بين الاثنين، فلما بويع المنتصر استوزر أحمد بن الخصيب فأخذ يُحرّض الخليفة على وصيف، وأشار عليه بإخراجه من عسكره غازياً إلى الثغور، ولم يزل به حتى وافق على بعثه غازياً، وأمر بإحضاره، فقال أحمد بن الخصيب: ومن يجترىء على الموالي حتى تأمر وصيفاً بالشخوص. فقال المنتصر لبعض الحجّاب: ائذن لمن حضر الدار، فأذن لهم وفيهم وصيف، فأقبل عليه، فقال له: يا وصيف، أتانا عن طاغية الروم أنه أقبل يريد الثغور، وهذا أمر لا يمكن الإمساك عنه، فإما شخصتَ وإما شخصتُ، فقال وصيف: بل أشخص يا أمير المؤمنين، قال: يا أحمد، انظر ما يحتاج إليه على أبلغ

ما يكون فأقمه له، قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ما نعم! قم الساعة لذلك، يا وصيف مُر كاتبك يوافقه على ما يحتاج إليه، ويلزمه حتى يزيح علّتك فيه، فقام أحمد بن الخصيب، وقام وصيف، فلم يزل في جهازه حتى خرج.

وذُكر أن المنتصر لما أحضر وصيفاً وأمره بالغزو، قال له: إن الطاغية ملك الروم قد تحرّك، ولست آمنه أن يُهلك كل ما يمرّ به من بلاد الإسلام، ويقتل ويسبي الذراريّ، فإذا غزوت وأردت الرجعة انصرفت إلى باب أمير المؤمنين من فورك. وأمر جماعةً من القواد وغيرهم بالخروج معه، وانتخب له الرجال، فكان معه من الشاكرية والجند والموالي زهاء عشرة آلاف رجلٍ، فكان على مقدمته في بدأته مزاحم بن خاقان[1] ـ أخو الفتح بن خاقان ـ وعلى الساقة محمد بن رجاء، وعلى

(١) مزاحم بن خاقان بن أحمد بن عُرطوج، أبو الفوارس: قائد من ولاة العباسيين، بغدادي المنشأ، أرسله المعتزّ العباسي في جيشٍ كبيرٍ من العراق سنة ٢٥٢هـ لإخماد حركة نشبت في الإسكندرية على يزيد بن عبد الله أمير مصر، فقدمها وقمع الحركة، فولّاه إمرة الديار المصريَة سنة ٢٥٣، وتتابعت في أيامه الفتن، وكان شديداً صلباً، أبطل كثيراً من البدع وعاقب عليها، وتوفي سنة ٢٥٤هـ بمصر، وهو بالإمارة.

الميمنة السندي بن بختاشة، وعلى الميسرة نصر بن سعيد المغربي، واستعمل على الناس والعسكر أبا عون خليفته، وكان على الشرطة بسامراء.

وكتب المنتصر عندما بعث وصيفاً مولاه غازياً كتاباً إلى محمد بن عبد الله بن طاهر نسخته.

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمدٍ عبده ورسوله ﷺ وعلى آله. أما بعد:

فإن الله وله الحمد على آلائه، والشكر بجميل بلائه، اختار الإسلام وفضّله، وأتمّه وأكمله، وجعله وسيلةً إلى رضاه ومثوبته، وسبيلاً نهجاً إلى رحمته، وسبباً إلى مذخور كرامته، فقهر له من خالفه، وأذلّ له من عَنَد عن حقه، وابتغى غير سبيله، وخصّه بأتمّ الشرائع وأكملها، وأفضل الأحكام وأعدلها، وبعث به خيرته من خلقه وصفوته من عباده محمداً ﷺ، وجعل الجهاد أعظم فرائضه منزلةً عنده، وأعلاها رتبةً لديه، وأنجحها وسيلةً إليه، لأن الله عزّ وجلّ أعزّ دينه، وأذلّ عتاة الشرك، قال الله عزّ وجلّ آمراً بالجهاد، ومفترضاً له: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[1]. وليست تمضي بالمجاهد في سبيل الله حال لا يُكابد في الله نصباً ولا أذىً، ولا يُنفق نفقةً، ولا يُقارع عدوّاً، ولا يقطع وادياً، ولا يطأ أرضاً، إلا وله بذلك أمر مكتوب، وثواب جزيل، وأجر مأمول، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾[2].

ثم أثنى عزّ وجلّ بفضل منزلة المجاهدين على القاعدين عنده وما وعدهم من جزائه ومثوبته، وما لهم من الزلفى عنده فقال: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾﴾[3].

فبالجهاد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم

---

(١) سورة التوبة: ٤١.

(٢) سورة التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) سورة النساء: ٩٥.

وأموالهم، وجعل جنّته ثمناً لهم، ورضوانه جزاءً لهم على بذلها، وعداً منه حقاً لا ريب فيه، وحكماً عدلاً لا تبديل له، قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1].

وحَكَمَ الله عزّ وجلّ لإحياء المجاهدين بنصره، والفوز برحمته، وأشهد لموتاهم بالحياة الدائمة، والزلفى لديه، والحظ الجزيل من ثوابه، فقال: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[2].

وليس من شيءٍ يتقرّب به المؤمنون إلى الله عزّ وجلّ من أعمالهم، ويسعَوْن به في حطّ أوزارهم، وفكاك رقابهم، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهاد عنده أعظم منه منزلةً، وأعلى لديه رتبةً، وأولى

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠.

بالفوز في العاجلة والآجلة، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم لتكون كلمة الله هي العليا، وسمحوا بها دون مَن وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبيضتهم، وقمعوا بجهادهم العدو.

وقد رأى أمير المؤمنين ـ لما يحبه من التقرّب إلى الله بجهاد عدوّه وقضاء حقه عليه فيما استحفظه من دينه، والتماس الزلفى له في إعزاز أوليائه، وإحلال البأس والنقمة بمن حاد عن دينه، وكذَّب رسله، وفارق طاعته ـ أن يُنهض وصيفاً مولى أمير المؤمنين في هذا العام إلى بلاد أعداء الله الكفرة والروم، غازياً لما عرّف الله أمير المؤمنين من طاعته ومناصحته ومحمود نقيبته وخلوص نيّته، في كل ما قرّبه من الله ومن خليفته.

وقد رأى أمير المؤمنين ـ والله وليّ معونته وتوفيقه ـ أن تكون موافاة وصيف فيمن أنهض أمير المؤمنين معه من مواليه وجنده وشاكريته ثغر ملاطية لاثنتي عشرة ليلةً تخلو من شهر ربيع الثاني سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين، وذلك من شهور العجم للنصف من حزيران ودخوله بلاد أعداء الله في أول يومٍ من تموز، فاعلم ذلك واكتب إلى عمالك على نواحي عملك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا، ومُرْهم بقراءته على من قِبلهم من

المسلمين وترغيبهم في الجهاد وحثّهم عليه واستنفارهم إليه، وتعريفهم ما جعل الله من الثواب لأهله، ليعمل ذوو النيات والحسبة والرغبة في الجهاد على حسب ذلك في النهوض إلى عدوهم والخفوف إلى معاونة إخوانهم والذود عن دينهم والرمي من وراء حوزتهم بموافاة عسكر وصيف مولى أمير المؤمنين ملاطية في الوقت الذي حدّده أمير المؤمنين لهم ـ إن شاء الله ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب أحمد بن الخصيب لسبع ليالٍ خلون من المحرم سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين، وصيّر على ما ذكر على نفقات عسكر وصيف والمغانم والمقاسم المعروف بأبي الوليد الجريري البَجَليّ.

وكتب معه المنتصر كتاباً إلى وصيف يأمره بالمقام ببلاد الثغر إذا هو انصرف من غزاته أربع سنين، يغزو في أوقات الغزو منها إلى أن يأتيه رأي أمير المؤمنين[1].

خلع المعتزّ والمؤيّد:

لما استقامت الأمور لمحمد المنتصر بعد مقتل

---

(١) تاريخ الطبري.

أبيه، قال أحمد بن الخصيب للقائدين التركيين وصيف وبُغا: إنّا لا نأمن الحدثان، وأن يموت أمير المؤمنين فيليَ الأمر المعتزّ، فلا يُبقي منا باقية، ويُبيد خضراءنا، والرأي أن نعمل في خلع هذين الغلامين قبل أن يظفرا بنا. فجدّ الأتراك في ذلك، وألحّوا على المنتصر، وقالوا: يا أمير المؤمنين، تخلعهما من الخلافة، وتبايع لابنك عبد الوهاب، فلم يزالوا به حتى فعل، ولم يزل مكرماً المعتزّ والمؤيّد، على ميلٍ منه شديدٍ للمؤيد، فلما كان بعد أربعين يوماً من ولايته، أمر بإحضار المعتزّ والمؤيّد بعد انصرافهما من عنده، فأُحضرا وجُعلا في دارٍ، فقال المعتزّ للمؤيّد: يا أخي، لِمَ ترانا أُحضرنا؟ فقال: يا شقي، للخلع، فقال: لا أظنه يفعل بنا ذلك، فبينا هم كذلك، إذ جاءهم الرسل بالخلع، فقال المؤيد: السمع والطاعة، وقال المعتزّ: ما كنت لأفعل، فإن أردتم القتل فشأنكم، فرجعوا إلى المنتصر، فأعلموه ثم عادوا بغلظةٍ شديدةٍ، فأخذوا المعتزّ بعنفٍ، وأدخلوه إلى بيتٍ، وأغلقوا عليه الباب.

فذُكر عن يعقوب بن السكيت أنه قال: حدثني المؤيّد، قال: لما رأيت ذلك قلت لهم بجرأةٍ واستطالةٍ: ما هذا يا كلاب؟ فقد ضربتم على دمائنا،

تثبون على مولاكم هذا الوثوب! اعزبوا قبحكم الله! دعوني أكلمه، فسكتوا عنه، وأذنوا له في الاجتماع به بعد إذنٍ من المنتصر بذلك، فدخل عليه المؤيد، فإذا هو في البيت يبكي، فقلت: يا جاهل، تراهم قد نالوا من أبيك ـ وهو هو ـ ما نالوا، ثم تمتنع عليهم! اخلع ويلك ولا تراجعهم، قال: سبحان الله، أمر قد مضيت عليه، وجرى في الآفاق أخلعه من عنقي، فقلت: هذا الأمر قتل أباك، فليته لا يقتلك! اخلعه ويلك! فوالله لئن كان في سابق علم الله أن تلي لتلينّ، قال: أفعل. قال: فخرجت فقلت: قد أجاب، فأعلموا أمير المؤمنين، فمضوا ثم عادوا فجزوني خيراً، ودخل معهم كاتب قد سمّاه، ومعه دواة وقرطاس، فجلس، ثم أقبل على أبي عبد الله، فقال: اكتب بخطك خلعك، فتلكّأ، فقلت للكاتب: هات قرطاساً، أمْلِل ما شئت، فأملى عليّ كتاباً إلى المنتصر، أعلمه فيه ضعفي عن هذا الأمر، وأني علمت أنه لا يحلّ أن أتقلّده، وكرهت أن يأثم المتوكل بسببي إذ لم أكن موضعاً له، وأسأله الخلع، وأعلمه أني خلعت نفسي، وأحللت الناس من بيعتي. فكتبت كل ما أراد، ثم قلت: اكتب يا أبا عبد الله، فامتنع، فقلت: اكتب ويلك! فكتب وخرج الكاتب عنا، ثم دعانا، فقلت: نجدّد ثيابنا أو نأتي في

هذه؟ فقال: بل جدّدا، فدعوت بثيابٍ فلبستها، وفعل أبو عبد الله كذلك، فخرجنا ودخلنا وهو في مجلسه، والناس على مراتبهم، فسلّمنا فردّوا، وأمر بالجلوس، ثم قال: هذا كتابكما؟ فسكت المعتزّ، فبدرت فقلت: نعم يا أمير المؤمنين! هذا كتابي بمسألتي ورغبتي، وقلت للمعتزّ: تكلّم، فقال مثل ذلك، ثم أقبل علينا والأتراك وقوف، وقال: أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له، والله ما طمعت في ذلك ساعةً قطّ، وإذا لم يكن في ذلك طمع، فوالله لأن يليها بنو أبي أحبّ إليّ من يليها بنو عمّي، ولكن هؤلاء ـ وأومأ إلى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد ـ ألحّوا عليّ في خلعكما، فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدةٍ، فيأتي عليكما، فما ترياني صانعاً! أقتله؟ فوالله ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل عليّ، قال: فأكبّا عليه، فقبّلا يده، فضمّهما إليه، ثم انصرفا.

وذُكر أنه لما كان يوم السبت لسبعٍ بقين من صفر سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين خلع المعتزّ والمؤيّد أنفسهما، وكتب كل واحدٍ منهما رقعةً بخطه أنه خلع نفسه من البيعة التي بويع له، وأن الناس في حِلٍّ من

حَلّها ونقضها، وأنهما يعجزان عن القيام بشيءٍ منها، ثم قاما بذلك على رؤوس الناس والأتراك والوجوه والقضاة، وجعفر بن عبد الواحد قاضي القضاة، والقواد وبني هاشم، وولاة الدواوين، ووجوه الحرس، ومحمد بن عبد الله بن طاهر، ووصيف، وبُغا الكبير، وبغا الصغير، وجميع من حضر دار الخاصة والعامة، ثم انصرف الناس بعد ذلك.
والنسخة التي كتباها:

بسم الله الرحمن الرحيم. إن أمير المؤمنين المتوكل على الله قلّدني هذا الأمر، وبايع لي وأنا صغير، من غير إرادتي ومحبتي، فلما فهمت أمري علمت أني لا أقوم بما قلّدني، ولا أصلح لخلافة المسلمين، فمن كانت بيعتي في عنقه فهو من نقضها في حلٍّ، وقد أحللتكم منها، وأبرأتكم من أيمانكم، ولا عهد لي في رقابكم، ولا عقد، وأنتم براء من ذلك.

وكان الذي قرأ الرقاع أحمد بن الخصيب. ثم قام كل واحدٍ منهما قائماً، قال لمن حضر: هذه رقعتي وهذا قولي، فاشهدوا عليّ، وقد أبرأتكم من أيمانكم، وحللتكم منها. فقال لهما المنتصر عند ذلك: قد اختار الله لكما وللمسلمين، وقام فدخل. وكان قد قعد

للناس، وأقعدهما بالقرب منه. فكتب كتاباً إلى العمال بخلعهما وذلك في صفر سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين.

نسخة كتاب المنتصر بالله إلى أبي العباس محمد بن عبد الله بن طاهر مولى أمير المؤمنين في خلع أبي عبد الله المعتزّ وإبراهيم المؤيّد.

من عبد الله محمد الإمام المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين، أما بعد:

فإن الله وله الحمد على آلائه والشكر بجميل بلائه، جعل ولاة الأمر من خلفائه القائمين بما بعث به رسوله ﷺ والذابّين عن دينه، والداعين إلى حقه والممضين لأحكامه، وجعل ما اختصهم به من كرامته قواماً لعباده، وصلاحاً لبلاده، ورحمةً غمر بها خلقه، وافترض طاعتهم، ووصلها بطاعته وطاعة رسوله محمد ﷺ، وأوجبها في محكم تنزيله، لما جمع فيها من سكون الدهماء، واتّساق الأهواء، ولمّ الشعث، وأمن السُّبُل، وقمع العدو، وحفظ الحريم، وسدّ الثغور، وانتظام الأمور، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ

تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾[1]. فمن الحق على الخلفاء الذين حباهم بعظيم نعمته، واختصّهم بأعلى رتب كرامته، واستحفظهم فيما جعله وسيلةً إلى رحمته، وسبباً لرضاه ومثوبته لأن يؤثروا طاعته في كل حالٍ تصرّفت بهم، ويقيموا حقه في أنفسهم والأقرب فالأقرب منهم، وأن يكون محلهم من الاجتهاد في كل ما قرب من الله عزّ وجلّ حسب موقعهم من الدين وولاية أمر المسلمين. وأمير المؤمنين يسأل الله مسألةً رغبةً إليه، وتذلّلاً لعظمته، أن يتولّاه فيما استرعاه ولايةً يجمع له بها صلاح ما قلّده، ويحمل عنه أعباء ما حمّله، ويعينه بتوفيقه على طاعته، إنه سميع قريب.

وقد علمت مما حضرت من رفع أبي عبد الله وإبراهيم ابني أمير المؤمنين المتوكل على الله إلى أمير المؤمنين رقعتين بخطوطهما، يذكران فيهما ما عرّفهما الله من عطف أمير المؤمنين عليهما، ورأفته بهما، وجميل نظره لهما، وما كان أمير المؤمنين المتوكل على الله عقده لأبي عبد الله من ولاية عهد أمير المؤمنين ولإبراهيم من ولاية العهد بعد أبي عبد الله، وإن ذلك العقد كان وأبو عبد الله طفل لم يبلغ ثلاث سنين، ولم

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

يفهم ما عُقد له ولا وقف على ما قُلِّده، وإبراهيم صغير لم يبلغ الحلم، ولم يجر أحكامهما ولا جرت أحكام الإسلام عليهما، وإنه قد يجب عليهما إذا بلغا ووقفا على عجزهما عن القيام بما عُقد لهما من العهد، وأُسند إليهما من الأعمال أن ينصحا لله ولجماعة المسلمين بأن يُخرجا من هذا الأمر الذي عقد لهما أنفسهما، ويعتزلا الأعمال التي قُلّداها، ويجعلا كل من في عنقه لهما بيعة وعليه يمين في حلٍّ، إذ كانا لا يقومان بما رُشّحا له، ولا يصلحان لتقلُّده، وأن يخرج من كان ضُمّ إليهما ممن في نواحيهما من قواد أمير المؤمنين ومواليه وغلمانه وجنده وشاكريته وجميع من مع أولئك القواد بالحضرة وخراسان وسائر النواحي عن رسومهما، ويُزال عنهم جميعاً ذكر الضمّ إليهما، وأن يكونا سوقة من سوق المسلمين وعامتهم، ويصفان ما لم يزالا يذكران لأمير المؤمنين من ذلك، ويسألانه فيه، منذ أفضى الله بخلافته إليه، وأنهما قد خلعا أنفسهما من ولاية العهد، وخرجا منها، وجعلا كل من لهما عليه بيعة ويمين من قواد أمير المؤمنين وجميع أوليائه ورعيته، قريبهم وبعيدهم، وحاضرهم وغائبهم في حلٍّ وسعةٍ من بيعتهم وأيمانهم، ليخلعوهما كما خلعا أنفسهما.

وجعلا لأمير المؤمنين على أنفسهما عهد الله، وأشدّ ما أخذ على ملائكته وأنبيائه وعباده من عهدٍ وميثاقٍ، وجميع ما أكّده أمير المؤمنين من الأيمان، بإقامتهما على طاعته ومناصحته وموالاته في السرّ والعلانية، ويسألان أمير المؤمنين أن يُظهر ما فعلاه، وينشره، ويُحضر جميع أوليائه ليسمعوا ذلك منهما طالبين راغبين، طائعين غير مُكرهين ولا مجبرين، ويُقرأ عليهم الرقعتان اللتان رفعاهما بخطوطهما، بما ذكرا من وقوع الأمر لهما من ولاية العهد، وهما صبيان، وخلعهما أنفسهما بعد بلوغهما، وما سألا من صرفهما عن الأعمال التي يتولّيانها وإخراج من كان بها ممن ضُمّ إليهما في نواحيهما من قواد أمير المؤمنين وجنده وغلمانه وشاكريته وجميع من مع أولئك القواد بالحضرة وخراسان وسائر النواحي عن رسومهما وإزالة ذكر الضمّ إليهما عنهم، وأن يُكتب بالكتاب بذلك إلى جميع عمال النواحي.

وإن أمير المؤمنين وقف على صدقهما فيما ذكرا ورفعا، وتقدّم في إحضار جميع إخوته ومن بحضرته من أهل بيته وقواده ومواليه وشيعته ورؤساء جنده وشاكريته وكُتّابه وقضاته والفقهاء وغيرهم، وسائر أوليائه الذين

كانت وقعت البيعة لهما بذلك عليهم. وحضر أبو عبد الله وإبراهيم ابنا أمير المؤمنين المتوكل على الله، وقُرئت رقعتاهما بخطوطهما بحضرتهما، إلى مجلس أمير المؤمنين عليهما وعلى جميع من حضر، وأعادا من القول بعد قراءة الرقعتين مثل الذي كتبا به.

ورأى أمير المؤمنين أن يجمع في إجابتهما إلى نشر ما فعلاه وإظهاره، وإمضائه ذلك، قضاء حقوقٍ ثلاثةٍ: منها حقّ الله عزّ وجلّ فيما استحفظه من خلافته، وأوجب عليه من النظر لأوليائه فيما يجمع لهم كلمتهم في يومهم وغدهم، ويُؤلّف بين قلوبهم. ومنها حق الرعية الذين هم ودائع الله عنده حتى يكون المتقلّد لأمورهم ممن يراعيهم آناء الليل والنهار بعنايته ونظره وتفقّده وعدله ورأفته، ومن يقوم بأحكام الله في خلقه، ومن يضطلع بثقل السياسة وصواب التدبير. ومنها حق أبي عبد الله وإبراهيم فيما يوجبه أمير المؤمنين لهما بأخوّتهما وماسّ رحمهما، لأنهما لو أقاما على ما خرجا منه لم يؤمن أن يُؤدّي ذلك إلى ما يعظم في الدين ضرره، ويعمّ المسلمين مكروهه، ويرجع إليهما عظيم الوزر فيه، فخلعهما أمير المؤمنين إذ خلعا أنفسهما من ولاية العهد، وخلعهما جميع إخوة أمير

المؤمنين وممن بحضرته من أهل بيته، وخلعهما جميع من حضر من قواد أمير المؤمنين ومواليه وشيعته ورؤساء جنده وشاكريته وكُتّابه وقضاته والفقهاء وغيرهم من سائر أولياء أمير المؤمنين الذين كانت أخذت لهما البيعة عليهم.

وأمر أمير المؤمنين بإنشاء الكتب بذلك إلى جميع العمال ليتقدّموا في العمل بحسب ما فيها، ويخلعوا أبا عبد الله وإبراهيم من ولاية العهد، إذ كانا قد خلعا أنفسهما من ذلك، وحلّلا الخاص والعام، والحاضر والغائب، والداني والقاصي منه، ويسقطوا ذكرهما بولاية العهد، وذكر ما نسبا إليه من نسب ولاية العهد من المعتزّ بالله والمؤيّد بالله من كتبهم وألفاظهم والدعاء لهما على المنابر، ويسقطوا كل ما ثبت في دواوينهم من رسومهما القديمة والحديثة الواقعة على من كان مضموماً إليهما، ويزيلوا ما على الأعلام والمطارد من ذكرهما، وما وسمت به دواب الشاكرية والرابطة من أسمائهما. ومحلّك من أمير المؤمنين وحالك عنده على حسب ما أخلص الله لأمير المؤمنين من طاعتك ومناصحتك، وموالاتك ومشايعتك، ما أوجب الله لك بسلفك ونفسك، وما عرّف الله أمير المؤمنين من

طاعتك ويُمن نقيبتك، واجتهادك في قضاء الحق.

وقد أفردك أمير المؤمنين بقيادتك، وإزالة الضمّ إلى أبي عبد الله عنك وعمن في ناحيتك بالحضرة وسائر النواحي، ولم يجعل أمير المؤمنين بينك وبين أحد يرأسك، وخرج أمره بذلك إلى ولاة دواوينه.

فاعلم ذلك واكتب إلى عمّالك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وأوعز إليهم في العمل على حسبه. إن شاء الله، والسلام.

وكتب أحمد بن الخصيب يوم السبت لعشرٍ بقين من صفر سنة ثمان وأربعين ومائتين[1].

الأحداث أيام المنتصر:

خرج بناحية الموصل أحد الخوارج ويُدعى محمد بن عمرو الشاري سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين، فوجّه إليه المنتصر إسحاق بن ثابت الفرغاني، فتغلّب عليه وأخذه مع عددٍ من أصحابه أسرى فقُتِلوا وصُلبوا.

وتحرّك يعقوب بن الليث الصفّار[2] من سجستان وصار إلى هراة.

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) يعقوب بن الليث الصفّار، أبو يوسف: من أبطال العالم،=

وفاة المنتصر:

اختلف في سبب وفاة محمد المنتصر بن المتوكل فذُكر أنه قد أصابته الذبحة في حلقه يوم الخميس لخمسٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين، ومات مع صلاة عصر يوم الأحد لخمس ليالٍ خلون من شهر ربيع الثاني من السنة نفسها أي بعد عشر أيام من إصابته.

= وأحد الأمراء الدهاة الكبار. كان في صغره يعمل في الصفر (النحاس) في خراسان، ويظهر الزهد، تطوّع في قتال الشراة (الخوارج) فانضوى تحت لوائه جمع، فظفر في معركةٍ معهم، وأطاعه من معه، واشتدّت شوكته، فغلب على سجستان سنة ٢٤٧هـ، ثم امتلك هراة سنة ٢٤٨هـ، وبوشنج وهي على عشرة فراسخ من هراة، فاعترضه الترك فقتل ملوكهم، وشتّت جموعهم، فهابه أمير خراسان وغيره من أمراء الأطراف، ثم تغلّب على كرمان وشيراز واستولى على فارس وجبى خراجها، ثم عاد إلى سجستان قاعدة ملكه. وكتب إلى الخليفة ببغداد وهو يومئذٍ المعتزّ بالله بن المتوكل يعرض عليه طاعته، وقدّم له الهدايا من نفائس أغنام فارس.
وفي سنة ٢٥٩هـ انتحل لنفسه عذراً في اقتحام نيسابور فدخلها عنوةً، وقبض على أميرها محمد بن طاهر آخر أمراء هذه الأسرة، وتمت له السيطرة على خراسان وفارس، وطمع ببغداد، فزحف إليها بجيشه، وكانت أيام الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩)، فخرج إليه جيش الخليفة ونشبت معركة بين الطرفين لم ينتصر فيها طرف، وعاد الصفّار إلى واسط، وتوفي في جنديسابور سنة ٢٦٥هـ.

وذكر أنه توفي عصر يوم السبت لأربعٍ خلون من شهر ربيع الثاني نتيجة ورمٍ في معدته، وأن مرضه كان مدة ثلاثة أيامٍ أو نحوها.

وقيل: إنه وجد حرارةً فدعا بعض من كان يتطبب له، وأمره بفصده ففصده بمبضعٍ مسمومٍ، فكانت فيه منيته. وإن الطبيب الذي فصده انصرف إلى منزله، وقد وجد حرارةً، فدعا تلميذاً له، فأمره بفصده ووضع مباضعه بين يديه ليتخيّر أجودها، وفيها المبضع المسموم الذي فصد به المنتصر، وقد نسيه، فلم يجد التلميذ في المباضع التي وضعت بين يديه مبضعاً أكثر جودةً من المبضع المسموم، ففصد أستاذه وهو لا يعلم أمره، فلما فصده به نظر إليه صاحبه فعلم أنه هالك، فأوصى من ساعته، وهلك من يومه.

وذكر أنه وُجد في رأسه عِلّة فقطّر ابن الطيفوري في أذنه دُهناً، فورم رأسه، وعوجل فمات. وقد قيل: إن ابن الطيفوري إنما سمّه في محاجمه.

وذُكر أن المنتصر لما أفضت إليه الخلافة كان يكثر ذكر قتل أبيه، ويقول في الأتراك: هؤلاء قتلة الخلفاء، ويذكر من ذلك ما تخوّفوه، فجعلوا لخادمٍ له ثلاثين ألف دينارٍ على أن يحتال في سمّه، وجعلوا

لعلي بن طيفور جملةً، وكان المنتصر يكثر من أكل الكمثرى إذا قدّمت إليه الفاكهة، فعمد ابن طيفور إلى كمثراةٍ كبيرةٍ ناضجةٍ، فأدخل في رأسها خلالة، ثم سقاها سمّاً، فجعلها الخادم في أعلى الكمثرى الذي قدّمه إليه، فلما نظر إليها المنتصر أمره أن يقشرها ويطعمه إياها، فقشرها وقطّعها، ثم أعطاه قطعةً قطعةً حتى أتى عليها، فلما أكلها وجد فتوراً، فقال لابن طيفور: أجد حرارةً، فقال: يا أمير المؤمنين، احتجم تبرأ من عِلّة الدم، وقدّر أنه إذا خرج الدم قوي عليه السمّ، فحُجم فحُمّ، وغلظت عِلّته عليه. فتخوّف هو والأتراك أن تطول عِلّته، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الحجامة لم يكن فيها ما قدّرنا في عافيتك، وتحتاج إلى الفصد، فإنه أنجح لما تريد، فقال: افعل، ففصده بمبضعٍ مسمومٍ، ودهش، فألقاه في مباضعه ـ وكان أحدّها وأجودها. ثم إن علي بن طيفور وجد حرارةً، فدعا تلميذاً له ليفصده، فنظر في المباضع فلم يجد أحدّ منه، ولا أحسن منه ففصده فكانت منيته فيه.

توفي محمد المنتصر وهو ابن خمسٍ وعشرين سنةً وستة أشهرٍ، وكانت مدة خلافته ستة أشهرٍ. وكانت وفاته بسامراء في القصر المحدث، وذكر أنه لما حضرته الوفاة قال:

فما فرحتْ نفسي بدنيا أخذتها
ولكن إلى الربّ الكريم أصير

وصلّى عليه عمه أحمد بن محمد المعتصم بسامراء، وبها كان مولده.

وللمنتصر من الولد: أحمد، وعلي، وعبد الله، وعمر.

شخصية المنتصر:

كان المنتصر أعين أقنى قصيراً، مليح الوجه، كبير البطن مهيباً، يكنى أبا جعفر، وأمه أمّ ولدٍ رومية تدعى «حبشية».

• كان المنتصر وافر العقل، راغباً في الخير، قليل الظلم.

• كان يسبّ الأتراك، ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء، فعملوا عليه، وهمّوا به، فعجزوا عنه لأنه كان متحرزاً.

• قال المنتصر لأمه في مرضه: ذهبت يا أماه مني الدنيا والآخرة، عاجلت أبي فعوجلت.

• قال المنتصر: لذّة العفو أعذب من لذّة التشفّي، وأقبح فعال المقتدر الانتقام.

• جلس المنتصر مرةً، فرأى في بعض البُسطِ دائرةً فيها فارس عليه تاج وحوله كتابة فارسية، فطلب من يقرأ، فأُحضر رجل، فنظر، فإذا فيها: .... فقطّب وسكت، وقال: لا معنى له، فألحّ المنتصر عليه، قال فيها: أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز، قتلت أبي، فلم أُمتّع بالملك سوى ستة أشهرٍ، قال: فتغيّر وجه المنتصر، وقام.

• قال جعفر بن عبد الواحد: قال لي المنتصر: يا جعفر، لقد عوجلت فما أذني بأذني، ولا أبصر بعيني.

• كان المنتصر أظهر الإنصاف في الرعية، فمالوا إليه مع شدّة هيبته.

• قال علي بن يحيى المنجم: ما رأيت مثل المنتصر، ولا أكرم فعالاً بغير تبجّحٍ، لقد رآني مغموماً، فسألني، فورّيت، فاستحلفني، فذكرت إضافةً في ثمن ضيعةٍ، فوصلني بعشرين ألفاً.

• عطف المعتزّ على الطالبيين، فردّ فَدَكَ إلى آل عليّ، وسمح لهم بزيارة كربلاء دون الالتفات إلى ما يصنعون. وذُكر أنه لما ولي الخلافة كان أول شيءٍ أحدث من الأمور عَزْلُ صالحٍ عن المدينة وتولية

عليّ بن الحسين بن إسماعيل بن العباس بن محمد إياها، فذُكر عن علي بن الحسين، أنه قال: دخلت عليه أودّعه، فقال لي: يا عليّ، إني أوجّهك إلى لحمي ودمي ـ ومدّ جلد ساعده ـ وقال: إلى هذا وجّهتك، فانظر كيف تكون للقوم، وكيف تعاملهم! يعني آل أبي طالب، فقلت: أرجو أن أمتثل رأي أمير المؤمنين ـ أيّده الله ـ فيهم إن شاء الله، فقال: إذن تسعد بذلك عندي.

• قال محمد المنتصر: والله ما عزّ ذو باطلٍ ولو طلع القمر من جبينه، ولا ذلّ ذو حقٍّ ولو اتفق العالم عليه.

الملاحظة:

لقد فقد القادة الأتراك مكانتهم في النفوس بعد قتل المتوكل حيث أصبح الخلفاء يهابونهم، ويتحرّزون منهم، ويراقبونهم، ويعملون على إبعادهم، حتى الخليفة المنتصر الذي كانوا دعامته قد غدا يمقتهم بعد أن استلم الخلافة، فكان يسميهم قتلة الخلفاء، وقد عمل على إبعاد وصيف إلى الثغور ـ كما رأينا ـ باسم الجهاد. وفي الوقت نفسه كان القادة الأتراك يخشون من انتقام أبناء المتوكل من قتلته، لذا لم يرغبوا أن يتسلّم أحدهم

الخلافة، وقد أسهم هؤلاء القادة في دسّ السمّ للخليفة المنتصر.

وكان للمتلّونين دور فيما حدث، فضعف القادة الأتراك يعيد للمتلوّنين مركزهم، والصراع وعدم الثقة بين الخلفاء والقادة الأتراك يُضعف الخلافة، ويوقع الفتن، وهذا ما يُخطّط له المتلوّنون.

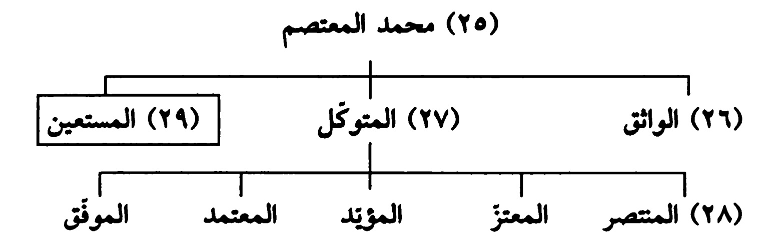


الفصل الثاني

٢٩ - أحمد المستعين بالله

٢٤٨-٢٥٢هـ

المستعين بالله هو أبو العباس أحمد بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عم رسول الله ﷺ. والمستعين بالله هو أخو المتوكل، وعم المنتصر.



المستعين قبل الخلافة:

ولد المستعين سنة إحدى وعشرين ومائتين في خلافة أبيه محمد المعتصم، وأمّه أمّ ولدٍ تسمّى

«مخارق». ولم يكن له دور بارز قبل الخلافة لصغر سنه، فقد توفي أبوه وهو لا يزال صغيراً لم يتجاوز السابعة من العمر، وتولّى أخواه الواثق والمتوكل الخلافة وهو في سن أبنائهما، فهو أكبر من المنتصر ابن أخيه. لسنةٍ واحدةٍ. واستخلف المنتصر بعد أبيه كوليٍ للعهد، كما دعمه القادة الأتراك قتلة أبيه، لذا بقيَ المستعين بعيداً عن مجال الخلافة، ولم يُسند له أمر لذا بقي بعيداً عن الأنظار.

وقُتل أخوه المتوكل ولم يستطع فعل شيءٍ لأن السلطة بيد القتلة لذا كان كارهاً لهم حاقداً عليهم يتمنّى الانتقام منهم غير أنه لا يمكنه عمل شيء، وفي الوقت نفسه فهو حاقد على الخليفة الجديد محمد المنتصر ابن أخيه المتوكل المقتول إذ هو متهم بالتواطؤ مع القتلة إذ هم الذين دعموه وبايعوه. فيرى المستعين أن إبداء رأيه وإظهار موقفه سيؤدّي إلى أزمةٍ جديدةٍ حادةٍ وفتنةٍ مستطيرةٍ لا يعرف مداها لذا كان السكوت لديه أفضل، والبعد عن الساحة خيراً له.

غير أن الخليفة محمد المنتصر رجع إلى عقله وأدرك سوء عمله وأخذ موقفاً جديداً من القادة الأتراك، يتكلّم عنهم ويحذرهم، فيقول لهم: يا قتلة الخلفاء،

وهذا ما جعل المستعين يميل قليلاً إلى المنتصر، ويتناسى ما حدث، ويسعى للاحتكاك بأسرته فاتجهت نحوه الأنظار. غير أن أبناء أخيه المتوكل الآخرين لم ينسوا فاجعتهم بمقتل أبيهم لذا بقي القادة الأتراك يخشون، ويحرصون إبعادهم عن الخلافة.

ويأتي أجل المنتصر ويلحق بأبيه، ويُفكِّر القادة الأتراك فيمن يسلّمونه الخلافة، ويرون في المستعين أخفّ أثراً عليهم، أما أبناء المتوكل فلا يريدونهم إذ يخشون على أنفسهم منهم، وفي الوقت نفسه لا يريدون إبعاد الخلافة عن ولد المعتصم الذي يعود له الفضل في استقدامهم، ورفع مكانتهم، ودعمهم، والدفاع عنهم وحمايتهم، وهذا ما جعلهم يميلون إلى المستعين.

خلافة المستعين:

في اليوم الثاني لوفاة محمد المنتصر اجتمع الموالي في القصر الهارونيّ وبينهم بُغا الكبير أبو موسى، وبغا الصغير (الشرابي)، وأوتامش، فاستحلفوا القادة الأتراك والمغاربة والأشروسنية، وكان الذي يستحلفهم عليّ بن الحسين بن عبد الأعلى الإسكافي كاتب بغا الكبير، يستحلفهم على أن يرضوا بمن يرضى به بغا الكبير، وبُغا الصغير، وأوتامش، وذلك بتدبير

أحمد بن الخصيب، فحلف القوم وتشاوروا بينهم، وكرهوا أن يتولّى الخلافة أحد من ولد المتوكل لقتلهم أباه، وخوفهم أن يغتالهم من يتولّى الخلافة منهم، فأجمع أحمد بن الخصيب ومن حضر من الموالي على أحمد بن محمد المعتصم، فقالوا: لا نُخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم فبايعوه وقت العشاء الآخرة من ليلة الاثنين لستٍ خلون من شهر ربيع الثاني من سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين، وعمره ثمانٍ وعشرين سنةً.

استكتب الخليفة الجديد أحمد بن محمد المعتصم بالله (المستعين بالله) أحمد بن الخصيب، واستوزر أوتامش، فلما كان الصباح خرج إلى دار العامة من طريق العمري بين البساتين، وقد لبس زيّ الخلافة، وحمل إبراهيم بن إسحاق الحربة بين يديه قبل طلوع الشمس، ووافى واجن الأشروسني باب دار العامة من طريق الشارع على بيت المال فصفّ أصحابه صفين، وقام في الصف هو وعدد من وجوه أصحابه، وحضر إلى الدار أصحاب المراتب من ولد المتوكل والعباسيين والطالبيين وغيرهم.

وما أن مضى من النهار حوالي ساعة ونصف حتى سُمع صياح من ناحية الشارع والسوق فإذا نحو من

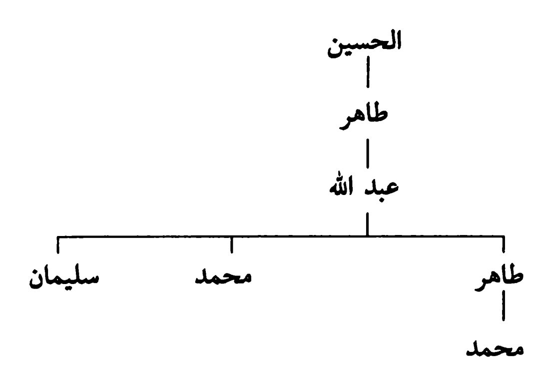
خمسين فارساً من الشاكرية ومعهم أخلاط من الناس من الغوغائيين والسوقة يقرب عددهم من ألف رجلٍ، وقد شهروا السلاح، وأخذوا يصيحون «يا معتزّ يا منصور»، وشدّوا على الأشروسنية الذين صفّهم «واجن» ونشب قتال بين الطرفين وقع فيه كثير من القتلى من الجانبين إلى أن مضى من النهار ثلاث ساعاتٍ، ثم انصرف الأتراك وقد بايعوا أحمد بن المعتصم (المستعين) كما بايع بنو هاشم والآخرون ممن حضر إلى الدار، وخرج المستعين إلى الهاروني، كما حضر إلى الهاروني عدد من الأشروسنية. وقد دخل بعض الأشروسنية دُوراً فظفر بهم الغوغائيون فأخذوا دروعهم وسلاحهم ودوابهم، ودخل الغوغائيون دار العامة متجهين إلى الهاروني فانتهبوا في طريقهم الخزانة التي فيها السلاح، فجاءتهم جماعة من الأتراك فيهم بُغا الصغير فأجلوهم عن الخزانة، وقتلوا منهم عدداً، وأمسكوا قليلاً، ثم انصرف الفريقان وقد كثرت بينهم القتلى. وبقيت بعض الفوضى في سامراء إذ حدث نهب، وهرب بعض أهل السجن.

بعث المستعين إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بكتاب البيعة. ووضع الأرزاق إلى الهاشميين والقادة والجند.

كان أبو عبد الله المعتزّ بن المتوكل يشعر أنه هو ولي العهد بعد أخيه محمد المنتصر، ويجب أن يؤول إليه الأمر، ورأى أن عمّه أحمد المستعين الذي كان حاقداً على الأتراك الذين قتلوا أخاه قد أصبح يعتمد عليهم، ويُسلّمهم كثيراً من الأمر، ويوكل إليهم المهمات، وهم الذين بايعوه وأيّدوه لذا عمل مخالفاً له ومُبايناً للأتراك الذين قتلوا أباه وبالتالي من الوقوف في وجه عمّه الذي يُعدّ في نظره رجل الأتراك، وبهم يتقوّى.

لذا تحرّك أعوانه يهتفون له، وانضمّ إليهم أصحاب المصالح الذين لا يفتقدهم ميدان، ولا تخلو منهم ساحة، كما شاركهم الغوغائيون والسوقة والذين يتحيّنون مثل هذه المناسبات كي ينهبوا ويُحقّقوا رغباتهم، وهكذا كان الخلاف أو كانت الفتنة الأولى.

● توفي طاهر بن عبد الله بن طاهر بخراسان سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين فعقد المستعين لابنه محمد بن طاهر مكانه على خراسان، وعقد لعمه محمد بن عبد الله بن طاهر على العراق، وجعل إليه الحرمين والشرطة.



• توفي بغا الكبير فعقد المستعين لابنه موسى بن بغا على أعمال أبيه مع أعماله، كما ولي ديوان البريد.

• غضب على أحمد بن الخصيب فاستصفى ماله ومال ولده، ونفاه إلى جزيرة إقريطش (كريت).

• صرف علي بن يحيى الأرمني عن الثغور، وعقد له على أرمينية وأذربيجان.

• ابتاع المستعين من المعتزّ والمؤيّد ولدي أخيه المتوكل كل أملاكهما، وأشهد عليهما القضاة والشهود، وكان الشراء باسم الحسن بن مخلد للمستعين، وحبسهما، ووكّل بهما، وجعل أمرهما إلى بغا الصغير. وكان الأتراك يريدون قتلهما عندما حدثت الفوضى، فمنعهم أحمد بن الخصيب، وقال: ليس لهما ذنب، وما كان الشغب من أصحابهما، بل من أصحاب ابن طاهر، ولكن احبسوهما، فحُبسا.

• شغب أهل حمص على كيدر بن عبيد الله عامل المستعين على مدينتهم، فأخرجوه منها، فوجّه إليهم المستعين الفضل بن قارن، فمكر بهم حتى أخذهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وهدم سورهم، وحمل منهم مائة رجلٍ من عيونهم إلى سامراء.

• كان وصيف مقيماً بالثغور، وقد غزا الصائفة وورد عليه موت الخليفة محمد المنتصر، ثم دخل بلاد الروم، وفتح أحد الحصون.

• عقد المستعين لـ «أوتامش» على مصر والمغرب، واتخذه وزيراً.

• عقد المستعين لـ «بُغا» الصغير على منطقة من الجبال تشمل «حلوان» و«ماسبذان».

• جعل المستعين «شاهك» الخادم على داره، وكراعه، وخزائنه، وحرمه، وخاص أموره، وقدّمه أوتامش على جميع الناس.

• غزا الصائفة جعفر بن دينار سنة تسعٍ وأربعين ومائتين فافتتح حصناً، واستأذنه عمر بن عبيد الله الأقطع في دخول بلاد الروم غازياً، فأذن له، فسار ومعه خلق كثير من أهل «ملاطية» فلقيه ملك الروم في موضع يقال له: «أرز» أرزنجان في مرج الأسقف على نهر الفرات

شمال ملاطية إلى الشرق قليلاً على بُعد مائتين وعشرين كيلومترٍ منها، فجرت معركة بين الطرفين ذهب ضحيتها عدد كبير من الفريقين، ثم أحاطت به الروم، وهم خمسون ألفاً، فقتل عمر بن عبيد الله وألف رجل من المسلمين في يوم الجمعة للنصف من رجب.

• أحست الروم بنشوة الظفر بعد قتلهم عمر بن عبيد الله وانتصارهم على أصحابه، فخرج الروم إلى ثغور الجزيرة، وسطوا عليها، واعتدوا على حرم المسلمين فبلغ ذلك علي بن يحيى الأرمني[(١)]، وهو قافل من أرمينية إلى «ميافارقين»[(٢)]، فنفر إليهم في جماعةٍ من أهل ميافاراقين والسلسلة، فقُتل مع أربعمائة رجلٍ من المسلمين، وذلك في شهر رمضان من سنة تسعٍ وأربعين ومائتين.

ولما وصلت الأخبار إلى بغداد وسامراء وما جاورهما من مدن عن مقتل عمر بن عبيد الله الأقطع،

---

(١) علي بن يحيى الأرمني، أبو الحسن: أصله من الأرمن، استعرب أبوه، فنشأ في بيئةٍ عربيةٍ، وأصبح قائداً، ولي الثغور الشامية، ثم أرمينية وأذربيجان ومصر، كان شديد الوطأة على الروم، وله معهم معارك وغزوات، استشهد سنة ٢٤٩هـ.

(٢) ميافارقين: مدينة من مدن ديار بكر.

وعلي بن يحيى الأرمني في الثغور، وكانا شديدين على الروم، ونابين من أنياب المسلمين لذا شقّ على الناس مقتلهم، وعظم على المجتمع التواني في النهوض إلى الجهاد ومعاقبة الروم بما ارتكبوه، وفي الوقت الذي ينال فيه الروم من المسلمين يتسلّط الأتراك أيضاً على الخلفاء فيقتلون من شاءوا ويستخلفون من أحبّوا، ويعزلون من يخالفهم، ويولّون من رغبوا، ويتركون الجهاد، ويسكتون عما يفعله الروم، ولا يبحثون في مصلحة المسلمين فاجتمعت العامة ببغداد تنادي بالنفير للجهاد، وانضمّ إلى الجموع الحاشدة الأبناء، والشاكرية تظهر المطالبة بالأرزاق، ففتحوا سجن نصر بن مالك، وأخرجوا من فيه من السجناء، وعمّت الفوضى. وأخرج أهل اليسار في بغداد وسامراء أموالاً كثيرة ليقووا من خفّ للنهوض إلى الثغور لقتال الروم، وتحصين الثغور.

وانتقل الهياج إلى سامراء ففتح العامة السجن، وأخرجوا من فيه، فوقف في وجه العامة زرافة في جماعةٍ من الموالي، فوثبت بهم العامة وهزمتهم، ثم ركب أوتامش ووصيف وبغا وعامة الأتراك فقتلوا أعداداً من الناس، ورمى بعض العامة وصيفاً بحجرٍ. فأمر

وصيف النفّاطين فقذفوا حوانيت التجار القائمة هناك وبعض منازل الناس بالنار. وانتهبت المغاربة بعض المنازل، ثم هدأت العاصفة وسكن الأمر، وعزل نتيجة ذلك أحمد بن جميل وعُيّن مكانه إبراهيم بن سهل الدرّاج.

مقتل أوتامش:

لما أفضت الخلافة إلى المستعين جعل الأموال تحت تصرّف أوتامش وشاهك الخادم، كما أن العباس بن المستعين كان في حِجر أوتامش فشاركه بالتصرّف بالأموال، وكان تصرّفاً غير حسنٍ، وفيه الكثير من التبذير، فكان العامة ينظرون إلى هذا التبذير، وهم يحتاجون إلى المال مما سبّب نقمةً، كما أن بُغا الصغير ووصيفا كانا في معزلٍ عن هذا، فأغريا الموالي بـ «أوتامش»، ولم يزالا يُحرّضان عليه حتى تذمّرت الأتراك منه، وكذا أبناء فرغانة، وسارت جماعة إليه وهو مع المستعين، فبلغه الخبر، فأراد الهرب فلم يمكنه، فاستجار بالمستعين فلم يُجره، فتوارى، ثم دخلوا عليه وقتلوه، وقتلوا كاتبه شجاع بن القاسم، وانتهبت دار أوتامش.

ولما قُتل أوتامش استوزر المستعين أبا صالح

عبد الله بن محمد بن يزداد، وعزل الفضل بن مروان[1] عن ديوان الخراج، وولى مكانه عيسى بن فرخانشاه. وولى وصيفاً الأهواز، وبُغا الصغير على فلسطين.

وغضب بُغا الصغير على أبي صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، فهرب أبو صالح إلى بغداد، فولّى المستعين مكانه محمد بن الفضل الجرجرائي، فجعل ديوان الرسائل إلى سعيد بن حميد[2].

• عزل المستعين جعفر بن عبد الواحد عن القضاء وولّى مكانه جعفر بن محمد بن عمار البرجميّ من أهل الكوفة.

خروج يحيى بن عمر الطالبي[3]:

كان يحيى في بغداد، وأصابته ضائقة مادية،

---

(١) الفضل بن مروان بن ماسرجس: كان حسن المعرفة بخدمة الخلفاء، جيد الإنشاء، أخذ البيعة للمعتصم ببغداد بعد وفاة *المأمون، وكان المعتصم في بلاد الروم، فاستوزره نحو ثلاث* سنوات، واعتقله، ثم أطلقه، وخدم جماعةً من الخلفاء إلى أن توفي سنة ٢٥٠هـ، له ديوان رسائل.

(٢) سعيد بن حميد بن سعيد، أبو عثمان: كاتب مترسل، من الشعراء، أصله من النهروان، من أبناء الدهاقين، مولده ببغداد، كان ينتقل بين بغداد وسامراء في سكناه، له شعر رقيق، توفي سنة ٢٥١هـ.

(٣) يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن علي زين العابدين بن=

ولزمه دين فضاق ذرعاً، فلقي عمر بن فرج ـ وهو الذي يتولّى أمر الطالبيين ـ عند مقدمه من خراسان أيام المتوكل، فكلّمه في صلته، فأغلظ عمر له القول، فقذفه يحيى بن عمر في مجلسه، فحبس، فلم يزل في السجن إلى أن كفله أهله، فأُطلق، فانتقل من سامراء إلى بغداد، فأقام بها بحالٍ سيئةٍ، فرجع إلى سامراء، فلقي وصيفاً في رزقٍ يُجرى عليه، فأغلظ له وصيف بالقول. فرحل يحيى إلى الكوفة فاجتمع حوله بعض أهل الكوفة فانتقل إلى الفلّوجة ونزل قربة «العمد»، فكتب صاحب البريد بخبره، فكتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامل الكوفة أيوب بن الحسن بن موسى بن جعفر بن سليمان، وإلى عبد الله بن محمود السرخسيّ، عامل معاون السواد يأمرهما بالاجتماع على محاربة يحيى بن عمر. فسار يحيى بن عمر مع سبعة نفرٍ من الفرسان إلى الكوفة فدخلها، وسار إلى بيت المال فأخذ ما فيه،

= الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين: خرج في أيام المتوكل سنة ٢٣٥هـ، واتجه ناحية خراسان بجماعة، فردّه عبد الله بن طاهر إلى بغداد، فأمر المتوكل بضربه وحبسه، ثم أطلقه، فأقام مدةً في بغداد، ثم ارتحل إلى الكوفة، فقام بحركته، وقُتل، كان حسن السيرة، قوي الساعد، ورثاه كثير من الشعراء ومنهم ابن الرومي.

وأظهر أمره بالكوفة، وفتح سجني الكوفة، وأخرج من فيهما جميعاً، ولقيه عبد الله بن محمود السرخسيّ، فضربه يحيى ضربةً أثخنته فهرب عبد الله بن محمود مع أصحابه، وحوى يحيى ما كان مع ابن محمود من الدواب والمال.

انتقل يحيى إلى سواد الكوفة فأقام في موضعٍ يقال له البستان فتبعته جماعة من الكوفة، واجتمعت على نصرته جماعة من أهل تلك النواحي من الأعراب وغيرهم، وكثر جمعه في البستان فأرسل محمد بن عبد الله قوةً لمحاربته بقيادة الحسين بن إسماعيل بن إبرهيم بن مصعب، وضمّ إليه من ذوي البأس والنجدة جماعةً من قواده مثل خالد بن عمران، وعبد الرحمن بن الخطاب، وأبي السناء الغنويّ، وعبد الله بن نصر بن حمزة، وسعد الضبّابي، وأحمد بن محمد بن الفضل وغيرهم.

نزل الحسين بن إسماعيل مقابل يحيى بن عمر دون أن يتقدّم إليه، فانسحب يحيى، وسار خلفه الحسين من غير أن يسعى للحاق به، إلّا أن أصحاب الحسين كانوا يأخذون من عجز عن اللحاق بيحيى من جنده. ومضى يحيى إلى الكوفة فلقيه عبد الرحمن بن

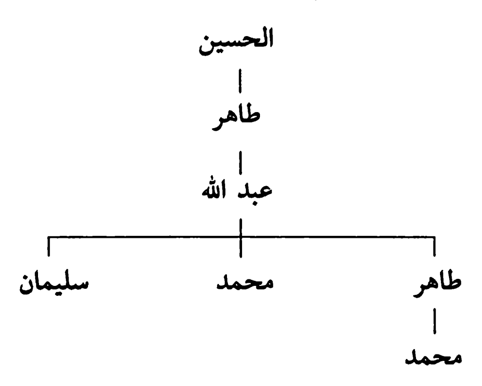
الخطاب المعروف بوجه الفلس، وجرت بين الطرفين معركة حامية قرب جسر الكوفة، فانهزم عبد الرحمن وانحاز إلى ناحية شاهي، ووافاه الحسين بن إسماعيل فعسكر بها. ودخل يحيى بن عمر الكوفة، واجتمعت إليه الزيدية، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وكشف أمره، وتولّاه العامة في بغداد، وبايعته جماعة في الكوفة.

زحف يحيى بن عمر من الكوفة برأي أصحابه نحو الحسين بن إسماعيل وذلك ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلةً خلت من شهر رجب سنة خمسين ومائتين. فحمل عليهم أصحاب الحسين فانهزموا وانكشف العسكر عن يحيى فقُتل، وحُمل ميتاً إلى محمد بن عبد الله بن طاهر.

خروج الحسن بن زيد بن محمد:

بعد أن قُتل يحيى بن عمر أقطع الخليفة المستعين لمحمد بن عبد الله بن طاهر قطائع في طبرستان، وكان عامل طبرستان يومذاك سليمان بن عبد الله بن طاهر خليفة ابن أخيه والي خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله. وسليمان بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بن طاهر والي العراق.

ولما بعث محمد بن عبد الله بن طاهر من يستلم ما أُقطع له جرت خلافات، فأهل المنطقة ليسوا على وئامٍ مع عاملهم سليمان بن عبد الله ولا مع وكيله محمد بن أوس البلخي.



كانت الخلافات بسبب محاولة جابر بن هارون الذي أرسله محمد بن عبد الله بن طاهر لاستلام قطائعه أنه أراد ضمّ بعض الأرض الموات إلى الإقطاعات وأخذها معها فوقف في وجهه محمد بن رستم وأخوه جعفر بن رستم، وكان ابنا رستم رجلين معروفين صاحبي بأسٍ وشجاعةٍ، ومطاعين في منطقتهما بل كانا يضبطان تلك الناحية من جهات بلاد الديلم، وقد استنهضا من أطاعهما في ناحيتهما لمنع جابر بن هارون من حيازة ما أراد حيازته من الأرض الموات، فخاف جابر وهرب ولحق بسليمان بن عبد الله بن طاهر، فأيقن

ابنا رستم ومن معهما بالشر لمكانة سليمان بن عبد الله فهو عم محمد بن طاهر بن عبد الله عامل المستعين على خراسان وطبرستان والمشرق كله، وأخو محمد بن عبد الله بن طاهر والي العراق، فلما أيقن القوم بذلك راسلوا جيرانهم الديلم فوعدوهم بالمعاونة والدعم لمحاربة سليمان بن عبد الله ومحمد بن أوس البلخيّ.

أرسل ابنا رستم محمد وجعفر إلى رجلٍ من الطالبيين الذين كانوا يقيمون يومئذٍ بطبرستان يُدعى محمد بن إبراهيم، يدعونه إلى البيعة له، فأبى وامتنع عليهم، وقال لهم: لكني أدلكم على رجلٍ منا هو أقوم بما دعوتموه إليه مني، فقالوا: من هو؟ فأخبرهم أنه الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ودلّهم على منزله ومسكنه بالريّ. فوجّه إليه القوم رسالة مع رجلٍ يدعونه للقدوم إلى طبرستان فوافاهم الحسن بن زيد فبايعه ابنا رستم، ورؤساء الديلم، وجماعة من أهل الثغور، ثم ناهضوا من في تلك النواحي من عمال محمد بن أوس البلخي فطردوهم عنها، فلحقوا بسليمان بن عبد الله بن طاهر ومحمد بن أوس البلخي، وانضم إلى الحركة جماعات من أهالي طبرستان.

زحف الحسن بن زيد وقوّاده من أهل تلك النواحي نحو مدينة آمل، وهي أول مدن طبرستان مما يلي بلاد الديلم، وأقبل محمد بن أوس البلخيّ ليردّه عنها لكنه لم يستطع ولحق بسليمان بن عبد الله بن طاهر، ودخل الحسن بن زيد آمل وجبى الخراج من أهلها، وكان نجاحه هذا سبباً في قدوم الكثيرين إليه من أصحاب المنافع وغيرهم. ثم نهض الحسن يريد سليمان بن عبد الله في «سارية» فخرج إليه عامل طبرستان سليمان بن عبد الله، ومحمد بن أوس البلخي، فالتقى الفريقان خارج سارية، وجرى القتال، وخالف الطريق بعض قادة الحسن فدخلوا سارية، ووصل الخبر إلى سليمان وابن أوس وأصحابهما فتركوا القتال وانسحبوا إلى جرجان، فأصبحت طبرستان بإمرة الحسن بن زيد.

وجّه الحسن بن زيد إلى الريّ رجلاً من آل بيته يُدعى أيضاً الحسن بن زيد فدخلها، وطرد منها عاملها من قبل آل طاهر، واستخلف مكانه محمد بن جعفر من الطالبيين، وانصرف عنها، وغدت إمارة الحسن بن زيد تشمل طبرستان والريّ إلى حدّ همذان. ووصل الخبر إلى الخليفة المستعين.

وجه المستعين إلى همذان إسماعيل بن فَرَاشة، وأمره بالمقام بها وضبطها. وأرسل والي خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر إلى الري قوةً بإمرة محمد بن ميكال فالتقى مع أمير الريّ محمد بن جعفر الطالبي خارج الريّ، وجرت معركة بين الطرفين وقع فيها محمد بن جعفر أسيراً بيد محمد بن ميكال، وهُزم جيش الطالبي، ودخل محمد بن ميكال الريّ ودعا للخليفة المستعين.

بعث الحسن بن زيد خيلاً إلى الريّ بقيادة رجلٍ من اللازر يدعى «واجن» فخرج إليه محمد بن ميكال وجرت معركة بين الجانبين انتصر فيها واجن على خصمه الذي رجع إلى الريّ، واعتصم بها، فتبعه واجن وتمكّن من دخول الريّ وقتل محمد بن ميكال، وبذا عادت الريّ إلى الحسن بن زيد.

وظهر في الريّ يوم عرفة من سنة خمسين ومائتين أحد الطالبيين ويدعى أحمد بن عيسى بن علي بن حسين بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، كما ظهر إدريس بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فصلى أحمد بن عيسى صلاة العيد بأهل الريّ،

ودعا إلى الرضا من آل محمد فحاربه محمد بن عبد الله بن طاهر، فانتصر أحمد بن عيسى عليه، وهزمه.

وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين كرّ سليمان بن عبد الله بن طاهر راجعاً من جرجان إلى طبرستان، وقدم من «آمل» بجمعٍ كثيرٍ وعتادٍ وفيرٍ من خيلٍ وسلاحٍ، فتنحّى الحسن بن زيد ولحق بالديلم، وكتب سليمان بن عبد الله إلى ابن أخيه محمد بن طاهر بن عبد الله بدخوله طبرستان.

خروج الحسين بن محمد الطالبي:

خرج بالكوفة سنة إحدى وخمسين ومائتين الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فاستخلف بها رجلاً منهم يقال له محمد بن جعفر بن الحسين بن جعفر بن الحسين بن حسن ويكنى أبا أحمد فوجّه إليه الخليفة المستعين مزاحم بن خاقان بن أرطوج، وكان الحسين بن محمد في سواد الكوفة. وكان العامل بالكوفة يومئذٍ أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي.

قتل الحسين بن محمد أحد عشر رجلاً من جند

الكوفة، وهرب أحمد بن نصر إلى قصر ابن هبيرة. ووصل مزاحم بن خاقان إلى قرية شاهي فكتب إلى أحمد بن نصر أن يُوجّه إلى الحسين بن محمد من يردّه إلى الفيئة والرجوع. فوجّه إليه داود بن القاسم الجعفري، وأمر له بمالٍ، فتوجّه إليه وأبطأ داود وخبره على مزاحم، فزحف مزاحم من شاهي إلى الكوفة، وقصد الحسين بن محمد، فهرب الحسين فوجّه في طلبه قائداً. ودخل مزاحم الكوفة، وسجن عدداً من أصحاب الحسين بن محمد.

خروج أهل حمص:

خرج أهل حمص وقوم من بني كلب على عامل المستعين على حمص وهو الفضل بن قارن فقتلوه في شهر رجب سنة خمسين ومائتين، فوجّه إليهم المستعين قوةً بإمرة موسى بن بُغا الكبير، فخرج موسى من سامراء يوم الخميس لثلاث عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان، فلما اقترب موسى من حمص تلقّاه أهلها إلى الشمال منها بينها وبين بلدة الرستن، فحاربهم فهزمهم، ودخل حمص، وقتل من أهلها مقتلةً عظيمةً، وأسر جماعةً من رؤساء أهلها، أما رئيس بني كلب عطيف بن نعمة الكلبي فقد لحق بالبادية.

مقتل باغر التركي:

كان باغر أحد قادة بُغا الصغير، وهو أحد قتلة المتوكل بل هو العنصر الرئيسي في ذلك، وهو الذي باشر الضرب لذا زيد في أُعطياته وأُقطع قطائع وكان منها قطائع في سواد الكوفة، وكان لباغر كاتب يهودي يُشرف على ضياعه مقابل ألفي دينارٍ. فعدا رجل في تلك الناحية يقال له «ابن مارمة» على وكيل باغر، فتناوله أو دسّ إليه من تناوله، فسُجن ابن مارمة، وقُيّد، فعمل حتى تخلّص من السجن، وانتقل إلى سامراء فلقي دُلَيْل بن يعقوب النصراني، وهو يومئذٍ كاتب بُغا الصغير، وصاحب أمره، وإليه أمر العسكر، يركب إليه القواد والعمال لمكانه من بُغا، وكان ابن مارمة صديقاً لدُلَيْل، فمنع دُلَيْل باغر من ظلم ابن مارمة، بل وانتصف له منه، فأوغر ذلك صدر باغر، وباين كل من دُلَيْل وباغر صاحبه بذلك السبب. وباغر بطل شجاع معروف القدر بين الأتراك، وصاحب شرّ، يتوقّاه بُغا وغيره، ويخافون شرّه.

وجاء باغر إلى بُغا ودخل عليه، فقال له: والله ما من قتل دُلَيْل بدّ، ثم سبّه، فقال له بُغا: لو أردت قتل ابني فارس ما منعتك، فكيف دُلَيْل النصراني! ولكن

أمري وأمر الخلافة في يديه فانتظر حتى أجعل مكانه إنساناً، وشأنك به، ثم وجّه بُغا إلى دُليل ألا يركب، وقيل: بل لقي ابن سرجويه طبيب بُغا دُلَيلاً فأخبره بما جرى، فرجع دُلَيل إلى منزله فاستخفى. وبعث بُغا إلى محمد بن يحيى بن فيروز، وكان ابن فيروز يكتب له قبل ذلك، فجعله مكان دُلَيل، فيوهم باغر أنه عزل دُليلاً، فسكن باغر. ثم أصلح بُغا بين باغر ودُلَيْل. وباغر يتهدّد دُلَيْلاً بالقتل إذا خلا بأصحابه. ثم تلطّف باغر للمستعين، ولزم الخدمة في الدار، وكره المستعين مكانه، فلما كان يوم نوبة بُغا في منزله، قال المستعين: أي شيء كان إلى إيتاخ من الأعمال؟ فأخبره وصيف، فقال: ينبغي أن تجعلوا هذه الأعمال إلى أبي محمد باغر، فقال وصيف: نعم، ووصل الخبر إلى دُلَيْل، فركب إلى بُغا، فقال له: أنت في بيتك وهم في تدبير عزلك عن كل أعمالك، فإذا عُزلت فما بقاؤك إلا أن يقتلوك! فركب بغا إلى دار الخلافة في اليوم الذي نوبته في منزله بالعشيّ، فقال لوصيف: أردت أن تزيلني عن مرتبتي، وتجيء بباغر فتجعله مكاني، وإنما باغر عبد من عبيدي ورجل من أصحابي، فقال له وصيف: ما علمت ما أراد الخليفة من ذلك. فتعاقد وصيف وبُغا على تنحية باغر من الدار والاحتيال، وأشاعا عنه أنه

يجعل أمراء، ويضمّ إليه جيشاً سوى جيشه، ويخلع على رجاله، ويجلس في الدار مجلس بُغا ووصيف ـ وهما يُسمّيان الأميرين ـ ودافعوه بذلك، وإنما كان المستعين تقرّب إليه بذلك ليأمن ناحيته، فأحسّ هو ومن في ناحيته بالشرّ، فجمع إليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل أو بعضهم مع غيرهم، فلما جمعهم ناظرهم ووكّد البيعة عليهم كما وكّدها في قتل المتوكل، فقالوا: نحن على بيعتنا، فقال: الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبُغا ووصيفاً، ونجيء بعليّ بن المعتصم أو بمحمد بن الواثق، فنقعده خليفةً حتى يكون الأمر لنا، كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا، وبقينا نحن في غير شيء، فأجابوه إلى ذلك، وانتهى الخبر إلى المستعين، فبعث إلى بُغا ووصيف، فقال لهما: ما طلبت إليكما أن تجعلاني خليفةً، وإنما جعلتماني وأصحابكما، ثم تريدان أن تقتلاني، فحلفا له ما علما بذلك، فأعلمهما الخبر.

وقيل: إن امرأةً لباغر كانت مُطلّقةً منه، سعت إلى أم المستعين وإلى بُغا بذلك، وبكّر دُلَيْل إلى بُغا، وحضر وصيف إلى منزل بغا ومعه كاتبه أحمد بن صالح، فاتفق رأيهم على أخذ باغر واثنين من الأتراك

معه وحبسهم حتى يروا رأيهم فيهم، فأحضروا، فأقبل في عدّة من أصحابه حتى دخل الدار إلى بُغا.

وذُكر عن بشر بن سعيد المَرْثديّ أنه قال: كنت حاضراً دخوله، فمُنع من الوصول إلى بُغا ووصيف وعُطيف، وعُدل به إلى حمامٍ لبُغا، ودُعي له بالقيود، فامتنع عليهم، فحبسوه في الحمام، وبلغ ذلك الأتراك في الهارونيّ فوثبوا على اصطبل السلطان، فأخذوا ما كان فيه من الدواب فانتهبوها وركبوها، وحضروا بالسلاح، وفي المساء أمر وصيف وبُغا رشيد بن سعاد أخت وصيف أن يقتل باغر، فأتاه مع عددٍ فضربوه بالأدوات والطاولات والكراسي حتى قضوا عليه. وانتقل وصيف وبُغا إلى دار وصيف، وهاج الناس بالسلاح ذهاباً وإياباً شغباً، فقال وصيف لمن معه: ترفّقوا حتى تنظروا فإن ثبتوا على المقاومة رمينا إليهم برأسه. فلما بلغ خبر قتله إلى الأتراك أقاموا على ما هم عليه من الشغب حتى علموا أن المستعين وبُغا ووصيف قد انحدروا إلى بغداد. وكان وصيف قد أعطى جماعةً من المغاربة فرساناً ورجالة السلاح، ووجّه بهم إلى هؤلاء المشاغبين، وبعث إلى الشاكرية أن يكونوا على استعدادٍ إذا دعا الأمر. وسكن الناس عند الظهر،

وهدأت الأمور، وكان عدد من القادة الأتراك قد جاءوا إلى هؤلاء المشاغبين وطلبوا منهم الانصراف، وأعلموهم أن المستعين وبُغا ووصيف قد خرجوا إلى بغداد، فأظهروا الندم وانصرفوا منكسرين. ولما انتشر خبر خروج المستعين وبُغا ووصيف إلى بغداد اتجه الأتراك إلى دور دُلَيْل بن يعقوب ونهبوها. ومنع الأتراك الناس من الخروج من سامراء إلى بغداد.

الفتنة بين بغداد وسامراء:

بعد أن ارتحل الخليفة المستعين من سامراء إلى بغداد بايع جند السلطان الذين كانوا بسامراء المعتزّ بن المتوكل، وأما الذين كانوا ببغداد فقد بقوا على الوفاء ببيعة المستعين.

نزل المستعين ببغداد على محمد بن عبد الله بن طاهر في داره وذلك يوم الأربعاء لخمسٍ خلون من المحرم سنة إحدى وخمسين ومائتين. وجاء بعض القادة الأتراك الذين في بغداد ودخلوا على الخليفة المستعين، وسألوه الصفح عنهم والرضا، فقال لهم: أنتم أهل بغيٍ وفسادٍ، وعدّد لهم ما قدّمه لهم، وقال: كل ذلك إرادة صلاحكم ورضاكم، وأنتم تزدادون بغياً وفساداً وتهدّداً وإبعاداً. فقالوا: قد أخطأنا وأمير المؤمنين الصادق في

كل قوله، ونحن نسأله العفو عنا والصفح عن زلّتنا، فقال المستعين: قد صفحت عنكم ورضيت، فقال له بايكباك: فإن كنت قد رضيت عنا وصفحت، فقم فاركب معنا إلى سامراء، فإن الأتراك ينتظرونك، فقال له المستعين: تصيرون إلى سامراء، فإن أرزاقكم دارّة عليكم، وأنظر أنا في أمري ها هنا ومقامي.

فانصرفوا آيسين منه، كما أغضبهم ما كان من محمد بن عبد الله بن طاهر الذي لم يعجبه قولهم، وقال لبايكباك: هكذا يقال لأمير المؤمنين، قم فاركب معنا. وأخبروا من وردوا عليه من الأتراك خبرهم، وخالفوا فيما ردّ عليهم تحريضاً على خلعه واستبداله. وأجمع رأيهم على إخراج المعتزّ بن المتوكل والبيعة له. وكان المعتزّ وأخوه المؤيد في حبسٍ في الجوسق في حجرةٍ صغيرةٍ، مع كل واحدٍ منهم غلام يخدمه، موكّل بهم رجل من الأتراك يقال له «عيسى» وهو خليفة «بليار»، ومعه عدد من الأعوان، فأخرجوا المعتزّ من يومهم، فبويع له بالخلافة، وأمر للناس برزق عشرة أشهرٍ للبيعة، فلم يكف المال، فأُعطوا شهرين لقلّة المال عندهم. وكانت نسخة البيعة التي أخذت:

بسم الله الرحمن الرحيم. تبايعون عبد الله الإمام

المعتزّ بالله أمير المؤمنين بيعة طوعٍ واعتقادٍ، ورضا ورغبةٍ وإخلاصٍ من سرائركم، وانشراحٍ من صدوركم، وصدقٍ من نيّاتكم، لا مكرهين ولا مجبرين، بل مقرّين عالمين بما في هذه البيعة وتأكيدها من تقوى الله وإيثار طاعته، وإعزاز حقه ودينه، ومن عموم صلاح عباد الله واجتماع الكلمة، ولمّ الشعث، وسكون الدهماء، وأمن العواقب، وعزّ الأولياء، وقمع الملحدين، على أن أبا عبد الله المعتزّ بالله عبد الله وخليفته المفترض عليكم طاعته ونصيحته والوفاء بحقه وعهده لا تشكّون ولا تُدْهنون، ولا تميلون ولا ترتابون، وعلى السمع والطاعة، والمشايعة والوفاء، والاستقامة والنصيحة في السرّ والعلانية، والخفوف والوقوف عند كل ما يأمر به عبد الله أبو عبد الله الإمام المعتزّ بالله أمير المؤمنين، من موالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، من خاصّ وعامّ، وقريبٍ وبعيدٍ، متمسّكين ببيعته بوفاء العقد وذمّة العهد، سرائركم في ذلك كعلانيتكم، وضمائركم فيه كمثل ألسنتكم، راضين بما يرضى به أمير المؤمنين بعد بيعتكم هذه على أنفسكم، وتأكيدكم إياها في أعناقكم صفقةً، راغبين طائعين، عن سلامةٍ من قلوبكم وأهوائكم ونيّاتكم، وبولاية عهد المسلمين لإبراهيم المؤيد بالله أخي أمير المؤمنين،

وعلى ألا تسعوا في نقض شيءٍ مما أكّد عليكم، وعلى ألا يميل بكم في ذلك مميل عن نصرةٍ وإخلاصٍ، وموالاةٍ، وعلى ألا تبدّلوا ولا تغيّروا، ولا يرجع منكم راجع عن بيعته وانطوائه على غير علانيته، وعلى أن تكون بيعتكم التي أعطيتموها بألسنتكم وعهودكم بيعةً يطلّع الله من قلوبكم على اجتبائها واعتمادها، وعلى الوفاء بذمة الله فيها، وعلى إخلاصكم في نصرتها وموالاة أهلها، لا يشوب ذلك منكم نفاق ولا ادهان ولا تأوّل، حتى تلقوا الله موفين بعهده مؤدّين حقه عليكم، غير مستريبين ولا ناكثين، إذا كان الذين يبايعون منكم أمير المؤمنين بيعة خلافته وولاية العهد من بعده لإبراهيم المؤيّد بالله أخي أمير المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾[1]. عليكم بذلك وبما أكّدت عليكم به هذه البيعة في أعناقكم، وأعطيتم من صفقة أيمانكم، وبما اشترط عليكم من وفاءٍ ونصرةٍ وموالاةٍ واجتهادٍ. وعليكم عهد الله إن عهده كان مسؤولاً، وذمة الله عزّ وجلّ وذمّة محمدٍ ﷺ، وما أخذ الله على

(١) سورة الفتح: ١٠.

أنبيائه ورسله، وعلى أحدٍ من عباده من مواكيده ومواثيقه، أن تسمعوا ما أخذ عليكم في هذه البيعة ولا تُبدّلوا ولا تميلوا، وأن تمسّكوا بما عاهدتم الله عليه تمسّك أهل الطاعة بطاعتهم، وذوي الوفاء والعهد بوفائهم، ولا يلفتكم عن ذلك هوىً ولا ميل، ولا يزيغ قلوبكم فتنة أو ضلالة عن هدىً، باذلين في ذلك أنفسكم واجتهادكم، ومقدّمين فيه حق الدين والطاعة والوفاء بما جعلتم على أنفسكم، لا يقبل الله منكم في هذه البيعة إلا الوفاء بها.

فمن نكث منكم ممن بايع أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين هذه البيعة على ما أخذ عليكم، مُسرّاً، أو مُعلناً، مُصرّحاً أو مُحتالاً أو مُتأوّلاً، وادّهن فيما أعطى الله من نفسه، وفيما أخذ عليه من مواثيق الله وعهوده، وزاغ عن السبيل التي يعتصم بها أولو الرأي، فكل ما يملك كل واحدٍ منكم ممن ختر في ذلك منكم عهده، من مالٍ أو عقارٍ أو سائمةٍ أو زرعٍ أو ضرعٍ صدقةٌ على المساكين في وجوه سبيل الله، محبوس محرم عليه أن يُرجع شيئاً من ذلك إلى ماله، عن حيلةٍ يُقدّمها لنفسه، أو يُحتال له بها، وما أفاد في بقية عمره من فائدة مالٍ يقلّ خطرها أو

يجلّ، فذلك سبيلها إلى أن توافيه منيّته، ويأتي عليه أجله، وكل مملوكٍ يملكه اليوم وإلى ثلاثين سنةً، ذكر أو أنثى أحرار لوجه الله ونساؤه يوم يلزمه فيه الحنث ومن يتزوّج بعدهنّ إلى ثلاثين سنةً طوالق طلاق الحرج، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بها، وهو بريء من الله ورسوله، والله ورسوله منه بريئان، فلا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، والله عليكم بذلك شهيد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وأُحضر ـ فيما ذُكر ـ أبو أحمد بن الرشيد، وبه النقرس، محمولاً في محفّةٍ، فأُمر بالبيعة فامتنع، وقال للمعتزّ: خرجتَ إلينا خروج طائعٍ فخلعتها، وزعمت أنك لا تقوم بها، فقال المعتزّ أُكرهتُ على ذلك وخفت السيف. فقال أبو أحمد: ما علينا أنك أُكرهت، وقد بايعنا هذا الرجل، فتريد أن نُطلق نساءنا، ونخرج من أموالنا، ولا ندري ما يكون! إن تركتني على أمري حتى يجتمع الناس، وإلا فهذا السيف. فقال المعتزّ: اتركوه، فرُدّ إلى منزله من غير بيعةٍ.

وكان ممن بايع إبراهيم الديرج وعتّاب بن عتّاب، فأما إبراهيم الديرج فخُلع عليه، وأُقرّ على الشرطة،

وأما عتّاب بن عتّاب فقد هرب وصار إلى بغداد. وبايع سليمان بن يسار الكاتب فخُلع عليه، وجعل على ديوان الضياع فأقام يومه يأمر وينهى ويُنفّذ الأعمال، ثم توارى في الليل، وصار إلى بغداد.

ولما بايع الأتراك المعتزّ ولّى عماله، فولّى سعيد بن صالح الشرطة، وجعفر بن دينار الحرس، وجعفر بن محمود الوزارة، ومحمد بن إبراهيم منقار ديوان الخراج، وولّى ديوان الأتراك كاتب سيما الشرابي المعروف بأبي عمر، وقلّد أخا أبي عمر بيوت الأموال وأعطيات الأتراك والمغاربة والشاكرية، واستكتب أبا عمر فكان في حدّ الوزارة، وولّى بريد الآفاق والخاتم سيما السارباني.

وعندما علم محمد بن عبد الله بن طاهر بخبر البيعة للمعتز وتوجيه العمال أمر بقطع الميرة عن أهل سامراء، ومنع الارتحال من بغداد إليها. وأمر المستعين محمد بن عبد الله بن طاهر بتحصين بغداد، وبناء السور عليها، ورتّب على كل بابٍ قائداً من أصحابه، وأمر بحفر الخنادق حول السورين. وكتب الخليفة المستعين إلى عمال الخراج في كل بلدةٍ وموضعٍ أن يكون حملهم ما يحملون من الأموال إلى السلطان ببغداد،

ولا يحملون إلى سامراء شيئاً، وأمر بالكتابة إلى الأتراك والجند الذين بسامراء يأمرهم بنقض بيعة المعتزّ ومراجعة الوفاء ببيعتهم إياه، ويُذكّرهم أياديه عندهم، وينهاهم عن معصيته ونكث بيعته، وكان كتابه بذلك إلى سيما الشرابي، وكتب إلى عمال المعاون في ردّ كتب الأتراك.

ثم جرت بين المعتزّ محمد بن عبد الله بن طاهر مكاتبات ومراسلات، يدعو المعتزّ محمداً إلى الدخول فيما دخل فيه من بايعه بالخلافة وخلع المستعين، ويُذكّره ما كان أبوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من العهد وعقد الخلافة، ودعوة محمد بن عبد الله المعتزّ إلى ما عليه من الأوبة إلى طاعة المستعين، واحتجاج كل واحدٍ منهما على صاحبه فيما يدعوه إليه من ذلك بما يراه حُجةً له.

وكتب كل واحدٍ من المستعين والمعتزّ إلى موسى بن بُغا، وهو مقيم بأطراف الشام قرب الجزيرة ـ وكان خرج إلى حمص لحرب أهلها ـ يدعوه إلى نفسه، وبعث كل واحدٍ منهما إليه بعدة ألويةٍ يعقدها لمن أحبّ، ويأمره المستعين بالانصراف إلى بغداد، ويستخلف على عمله من رأى فانصرف إلى المعتزّ

وصار معه، وقدم عبد الله بن بُغا الصغير إلى بغداد على أبيه، وكان قد تخلّف بسامراء حين خرج أبوه منها مع المستعين وصار إلى المستعين، فاعتذر إليه، وقال لأبيه: إنما قدمت إليك لأموت تحت ركابك. وأقام ببغداد أياماً، ثم استأذن ليخرج إلى قريةٍ بقرب بغداد على طريق الأنبار، فأذن له، فأقام فيها إلى الليل، ثم هرب من ليلته فمضى في الجانب الغربي إلى سامراء مجانباً لأبيه، وممالئاً عليه، واعتذر إلى المعتزّ من سيره إلى بغداد، وأخبره أنه إنما صار إليها ليعرف أخبارهم، وليصير إليه فيُعرّفه صحتها، فقبل ذلك منه، وردّه إلى خدمته.

وورد الحسن بن الإفشين بغداد، فخلع عليه المستعين، وضمّ إليه من الأشروسنية وغيرهم جماعةً كثيرةً، وزاد في أرزاقه ستة عشر ألف درهمٍ في كل شهرٍ.

وعقد المعتزّ لأخيه أبي أحمد بن المتوكل يوم السبت لسبعٍ بقين من المحرم سنة إحدى وخمسين ومائتين على حرب المستعين ومحمد بن عبد الله بن طاهر، وولّاه ذلك، وضمّ إليه الجيش، وجعل إليه الأمر والنهي، وجعل التدبير إلى كلباتكين التركي فعسكر بالقاطول في خمسة آلاف من الأتراك وأهل

فرغانة، وألفين من المغاربة، وضمّ المغاربة إلى محمد بن راشد المغربي، فوافوا عُكْبراء ليلة الجمعة لليلة بقيت من المحرم، فصلّى أبو أحمد، ودعا للمعتزّ بالخلافة. وكتب بذلك نسخاً إلى المعتزّ.

ولما وافى أبو أحمد عُكْبراء ومن معه خرج جماعة من الأتراك الذين كانوا مع بُغا الشرابي ببغداد من مواليه والمضمومين إليه فهربوا ليلاً فاجتازوا باب الشمّاسية، ولم يعلم عبد الرحمن بن الخطاب الذي كان على الباب بخبرهم، وبلغ محمد بن عبد الله بن طاهر ذلك، فأنكره عليه وعنّفه، وتقدّم في حفظ الأبواب وحراستها والنفقة على من يتولّاها. ولما وافى الحسن بن الإفشين بغداد وُكّل بباب الشمّاسية.

وصل أبو أحمد بن المتوكل قائد أخيه المعتزّ مع عسكره باب الشمّاسية ليلة الأحد لسبعٍ خلون من شهر صفر سنة إحدى وخمسين ومائتين، فجعل عندها المستعين على باب الشمّاسية الحسين بن إسماعيل، وجعل من هناك من القادة تحت يده.

ولما كانت ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة ليلةً خلت من صفر عزم محمد بن عبد الله بن طاهر الركوب إلى باب الشمّاسية، وركب معه وصيف وبُغا في الدروع،

ومضى معه بالفقهاء والقضاة، وعزم على دعائهم إلى الرجوع عما هم عليه من التمادي في الطغيان واللجاج والعصيان، وبعث يبذل إليهم الأمان على أن يكون أبو عبد الله المعتزّ ولي العهد بعد الخليفة المستعين، فإن قبلوا الأمان وإلا باكرهم بالقتال يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلةً تخلو من شهر صفر، فمضى نحو باب «قُطْربل» فنزل على شاطىء دجلة هو ووصيف وبُغا، ولم يمكنه التقدّم لكثرة الناس، وعارضهم من جانب دجلة الشرقي محمد بن راشد المغربي.

رجع محمد بن عبد الله بن طاهر، فلما كان من الغد جاءته رسل عسكره أن القوم قد عسكروا بالقرب من الشمّاسية وقد ضربوا مضاربهم، فأرسل إليهم ألا تبدؤوهم، وإن قاتلوكم فلا تقاتلوهم، وادفعوهم اليوم.

جاء اثنا عشر فارساً من عسكر الأتراك إلى باب الشمّاسية فوقفوا على الباب وشتموا من عليه، ومن بباب الشمّاسية سكوت عنهم، ثم رجع الأتراك إلى معسكرهم بعد أن حمل عليهم خصمهم، ونال منهم.

وجاء الأتراك في اليوم التالي إلى باب الشمّاسية، وجرى قتال بين الطرفين، وكان مائتان من القتلى من كل جانبٍ.

وفي اليوم الثاني جاء فيلق من الأتراك وأهل فرغانة إلى باب خراسان غير أنهم قد رُدّوا.

وفي يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلةً بقيت من صفر سنة إحدى وخمسين ومائتين انطلقت جماعة من الأتراك إلى النهروان فخرجت إليهم جماعة مع عبد الله بن محمود غير أنها رجعت هاربةً بعد أن فقدت خمسين رجلاً قتلوا في المعركة التي دارت رحاها بين الفريقين، وهرب من نجا إلى بغداد، بعد أن خسروا ستين دابةً أيضاً، وقد أُرسلت إلى سامراء، وأصبح باب خراسان بيد الأتراك، وانقطع الطريق من بغداد إلى خراسان.

ووجّه المعتزّ عسكراً من الأتراك والمغاربة وأهل فرغانة إلى بغداد، وكان محمد بن عبد الله بن طاهر قد وجّه قوةً انتصرت على الأتراك ومن معهم عند باب القطيعة، وكان عدد الأتراك أربعة آلافٍ قُتل منهم ألفان، وذهب عدد منهم غرقاً.

ولما وصلت أخبار هزيمة الأتراك إلى سامراء، ورأى الغوغائيون ضعف أمر المعتزّ وثبوا على المحلات التجارية وانتهبوا ما فيها، فاجتمع التجار، وذهبوا إلى إبراهيم المؤيد أخي المعتزّ وولي عهده، فشكوا ذلك إليه، وأعلموه أنهم قد كانوا ضمنوا لهم أموالهم

وحفظها عليهم، فقال لهم: كان عليكم حفظ أموالكم في منازلكم.

واستمرّت الفتنة، وبقي الصراع دون أن يكون لقاء حاسم، وامتدّ اللهيب إلى المدائن وإلى الأنبار، ووقعت وقائع بين الطرفين، وتعدّ قليلة الأثر لأنها بين مجموعاتٍ محدودة العدد. وكان محمد بن عبد الله بن طاهر يُقدّم المكافآت، ويعطي المنح لمن يبلي البلاء الحسن في القتال من القادة وجنودهم.

وفي جمادى الآخرة من سنة إحدى وخمسين ومائتين لحق بالمعتزّ في سامراء جماعات من الكتاب والقادة وبني هاشم من بغداد منهم، عليّ ومحمد ابنا الواثق، ومحمد بن هارون بن عيسى بن جعفر، ومحمد بن سليمان من ولد عبد الصمد بن عليّ من بني هاشم، ومزاحم بن خاقان أرطوج من القادة، وعيسى بن يعقوب بن نوح من الكتّاب.

وفي النصف من رجب سنة ٢٥١ هـ اجتمع من كان ببغداد من بني هاشم من العباسيين، فصاروا إلى الجزيرة التي مقابل دار محمد بن عبد الله بن طاهر، فصاحوا بالمستعين ونالوا من محمد بن عبد الله بن طاهر بالشتم القبيح، وقالوا: قد مُنعنا أرزاقنا، وتدفع الأموال إلى

غيرنا ممن لا يستحقها، ونحن نموت جوعاً، فإن دفعت إلينا أرزاقنا وإلا قصدنا إلى الأبواب ففتحناها، وأدخلنا الأتراك، فليس يخالفنا أحد من أهل بغداد. فعبر إليهم الشاه بن ميكال، فكلّمهم ورفق بهم، وسألهم أن يعبر معه ثلاثة منهم ليدخلهم على ابن طاهر، فامتنعوا من ذلك، وأبوا إلا الصياح وشتم ابن طاهر، فانصرف عنهم ابن ميكال، فلم يزالوا على حالهم إلى قرب الليل، ثم انصرفوا من غد ذلك اليوم فوجّه إليهم محمد بن عبد الله بن طاهر، فأمرهم بحضور الدار يوم الاثنين ليأمر من يناظرهم، فصاروا إلى الدار، فأمر محمد بن داود الطوسي بمناظرتهم، وبذل لهم رزق شهرٍ واحدٍ، وأمرهم أن يقبضوا ذلك، ولا يُكلّفوا الخليفة أكثر من هذا، فأبوا أن يقبضوا رزق شهرٍ، وانصرفوا.

وغلب أبو نصر بن بُغا على الأنبار، وكان المعتزّ قد بعثه، وقد هزم جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر، وأجلاهم عن منطقة الأنبار، وبثّ خيله ورجاله في أطراف بغداد من الجانب الغربي، وصار إلى قصر ابن هبيرة، وبها بحونة بن قيس من قبل ابن طاهر فهرب منه من غير قتالٍ جرى بينه وبينه. وكذلك هُزم رجال ابن طاهر في المدائن.

وجمع محمد بن عبد الله بن طاهر جميع قادته المكلّفين بأبواب بغداد وغيرهم، فشاورهم جميعاً في الأمور، وأعلمهم ما ورد عليهم من الهزائم، ثم أدخلهم على المستعين، وأعلمه ما ناظرهم فيه وما ردّوا عليه من الجواب، فقال لهم المستعين: والله يا معشر القادة، لئن قاتلت عن نفسي وسلطاني ما أُقاتل إلا عن دولتكم وعامتكم، وأن يردّ الله إليكم أموركم قبل مجيء الأتراك وأشباههم، فقد يجب عليكم المناصحة والجهد في قتال هؤلاء الفسقة، فردّوا أحسن ردّ، وجزاهم الخير، وأمرهم بالانصراف إلى مراكزهم فانصرفوا.

وفي يوم الاثنين لأيامٍ خلت من شهر ذي القعدة من سنة ٢٥١هـ كانت وقعة عظيمة لأهل بغداد، هزموا فيها الأتراك، وانتهبوا عسكرهم، وقد خرج مع أهل بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر ووصيف وبغا، وقد تراجع الأتراك وتبعهم أهل بغداد حتى صاروا إلى عسكرهم، وانتهبوا سوقهم. ووقف أبو أحمد بن المتوكل يردّ الموالي ويخبرهم أنهم إن لم يكرّوا لم يبق لهم بقية، وأن القوم يتبعونهم إلى سامراء، فتراجعوا، وثاب بعضهم، وبدت الكراهة في وجوه من مع بُغا ووصيف من الموالي والأتراك.

اشتدت الأمور على أهل بغداد، وكتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المعتزّ بالصلح، كما أن مراسلات جرت بين ابن طاهر وأبي أحمد أخي المعتزّ وقائد قواته.

وفي شهر ذي القعدة لسبعٍ بقين منه سنة إحدى وخمسين ومائتين أمر ابن طاهر بإطلاق سراح جميع من في السجون من عسكر أبي أحمد ممن كان قد سجن بسبب الحروب التي جرت بين الطرفين فأُطلقوا. وفي اليوم التالي اجتمع قوم من الجند والعامة، فطلب الجند أرزاقهم، وشكت العامة سوء الحال التي هم بها من الضيق وغلاء السعر وشدة الحصار، وقالوا لابن طاهر: إما خرجت فقاتلت، وإما تركتنا، فوعدهم بالخروج أو فتح الباب للصلح، ومنّاهم فانصرفوا.

وجّه أبو أحمد بن المتوكل خمس سفنٍ من الحنطة والشعير والدقيق والتبن إلى ابن طاهر، فوصلت إليه. ولما كان يوم الخميس لأربعٍ من ذي الحجة علم الناس ما عليه ابن طاهر من عزمٍ لخلع المستعين وبيعة المعتزّ، ووجّه ابن طاهر قواده إلى أبي أحمد لبيعة المعتزّ، وظنّت العامة أن الصلح قد تمّ بإذن الخليفة المستعين، وإن المعتزّ سيكون وليّ عهده.

ولما عرفت العامة حقيقة ما يجري اجتمعوا عند دار ابن طاهر فشتموه وأغلظوا له القول حتى طلب من المستعين إسكاتهم وصرفهم، فخرج إليهم المستعين وكلّمهم أنه يثق بابن طاهر، ولا خوف عليه منه، فطلبت العامة من المستعين أن يخرج من دار ابن طاهر فإنه لا أمان له، فوعدهم بذلك وأنه سينتقل إلى دار عمّته أم حبيب بنت الرشيد. فانصرف أكثر الناس، وسكن أهل بغداد.

انتقل المستعين من دار ابن طاهر إلى دار رزق الخادم، وسار معه وصيف وبُغا، وبقيا معه إلى السحر ثم انصرفا إلى منازلهما.

ركب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المستعين، وحضره عدد من الفقهاء والقضاة، فقال ابن طاهر للمستعين: قد كنت فارقتني على أن تُنفّذ في كل ما أعزم عليه، ولك عندي بخطك رقعة بذلك، فقال المستعين: أحضر الرقعة. فأحضرها فإذا فيها ذكر الصلح، وليس فيها ذكر لخلع، فقال: نعم. أنفذ الصلح.

وفي النصف من ذي الحجة سنة إحدى وخمسين ومائتين ركب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المستعين بالرصافة، ثم انصرف ومعه وصيف وبُغا، فمضوا جميعاً

حتى صاروا إلى باب الشمّاسية، فوقف ابن طاهر، ومضى وصيف وبُغا إلى دار الحسن بن الإفشين. وجاء أبو أحمد بن المتوكل والتقى مع ابن طاهر طويلاً، ثم افترقا فركب بن طاهر ومضى إلى المستعين ليخبره بما دار بينه وبين أبي أحمد، وأقام عنده إلى العصر ثم انصرف.

ثم ركب محمد بن عبد الله بن طاهر في اليوم التالي إلى المستعين لمناظرته في الخلع، فناظره فامتنع عليه المستعين، وظنّ المستعين أن وصيفاً وبُغا معه، فكاشفاه، فقال المستعين: هذا عنقي والسيف والنطع، فلما رأى امتناعه انصرف عنه. فبعث المستعين إلى ابن طاهر بعليّ بن يحيى المنجّم وقومٍ من ثقاته، وقال: قولوا له: اتق الله، فإنما جئتك لتدفع عني، فإن لم تدفع عني فكُفّ عني. فردّ عليه: أما أنا فأقعد في بيتي، ولكن لا بدّ لك من خلعها طائعاً أو مكرهاً.

وذُكر أن محمد بن عبد الله بن طاهر قال لعليّ بن يحيى المنجم: قل له: إن خلعتها فلا بأس، فوالله لقد تمزّقتْ تمزُّقاً لا يُرقع، وما تركتَ فيها فضلاً. فلما رأى المستعين ضعف أمره وخذلان ناصريه أجاب إلى الخلع. وبعث ابن طاهر كتاباً إلى أبي أحمد بن

المتوكل فيه الأشياء التي سألها المستعين حين أجاب إلى الخلع فوصل الكتاب، وأجاب أبو أحمد إلى ما سأل المستعين، وفيه أن ينزل المستعين إلى مدينة رسول الله ﷺ، وأن يكون ارتحاله إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة. فلم يقنع المستعين إلا بخروج ابن الكردية، وهو محمد بن إبراهيم بن جعفر الأصغر بن المنصور، بما سأل إلى المعتزّ، حتى يكتب بإجابته بذلك بخطه بعد مشافهة ابن الكردية المعتزّ بذلك. فتوجّه ابن الكردية بها.

وكان سبب إجابة المستعين إلى الخلع أن وصيفاً وبُغا وبن طاهر ناظروه في ذلك وأشاروا عليه، فأغلظ لهم، فقال له وصيف: أنت أمرتنا بقتل باغر، فصبرنا إلى ما نحن فيه، وأنت عرّضتنا لقتل أوتامش، وقلت: إن ابن طاهر ليس بناصحٍ، وما زالوا يُخوّفونه ويحتالون له، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر: وقد قلت لي إن أمرنا لا يصطلح إلا باستراحتنا من هذين. فلما اجتمعت كلمتهم أذعن لهم بالخلع، وكتب بما اشترط لنفسه عليهم، وذلك لإحدى عشرة ليلةً بقيت من ذي الحجة سنة إحدى وخمسين مائتين.

وفي اليوم التالي وهو يوم السبت لعشرٍ بقين من

ذي الحجة ركب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى الرصافة، وأخذ معه القضاة والفقهاء، وأدخلهم على المستعين جماعةً إثر جماعةٍ، وأشهدهم عليه أنه قد صيّر آمره إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، وأعدّ ابن طاهر للخروج إلى المعتزّ بالشروط التي اشترطها للمستعين ولنفسه ولقواده قوماً ليوقّع المعتزّ في ذلك بخطه، ثم أخرجهم إلى المعتزّ، فمضوا إليه حتى وقّع في ذلك إمضاءً كل ما سأل المستعين وابن طاهر لأنفسهما من الشروط، وشهدوا عليه بإقراره بذلك كله، وخلع المعتزّ على الرسل، وقلّدهم سيوفاً، وانصرفوا بغير جائزةٍ ولا نظر في حاجةٍ لهم، ووجّه معهم لأخذ البيعة له على المستعين جماعةً من عنده، ولم يأمر للجند بشيءٍ، وحُمل إلى المستعين أمه وابنته وعياله بعدما فُتّش عياله، وأُخذ منهم بعض ما كان معهم، وسار معهم سعيد بن صالح. وقد وصلوا إلى بغداد يوم الخميس لثلاثٍ خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

ولما وصلت رسل المعتزّ إلى الشمّاسية أحد أبواب بغداد، قال أحدهم: أنا أخاف من أهل بغداد، فإما أن يحمل المستعين إلى الشمّاسية أو إلى دار محمد بن عبد الله بن طاهر ليبايع المعتزّ ويخلع نفسه، ويؤخذ منه القضيب والبردة.

خلع المستعين وبيعة المعتزّ:

خلع أحمد المستعين بن محمد المعتصم نفسه وبايع ابن أخيه أبا عبد الله المعتزّ بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم، ودعي للمعتزّ على مِنبرَيْ بغداد ومسجدَيْ جانبيها الشرقي منها والغربي يوم الجمعة لأربعٍ خلون من المحرم من سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وأُخذت البيعة له بها على من كان يومئذٍ بها من الجند.

خروج الكوكبي:

نتيجة الفتنة التي حدثت والصراع الذي وقع بين الخليفة المستعين وابن أخيه المعتزّ ضعف سلطان الخلافة فخرج بعض أصحاب الأطماع، وسيطروا على المناطق التي خرجوا فيها، ومن هؤلاء الكوكبي، وهو الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد الأرقط بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وكان خروجه في شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين ومائتين في قزوين وقد غلب عليها، ودخل زنجان، وطرد عنها آل طاهر وعمالهم فيها.

خروج إسماعيل بن يوسف:

ظهر بمكة إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن

عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فهرب عن مكة عاملها جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى، ولم يرض أن يكون الحرم ساحة قتالٍ. فانتهب إسماعيل بن يوسف منزل جعفرٍ، ومنزل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعةً من أهل مكة، وحمل كسوة الكعبة، ونهب بعض الدور، وحرق بعضها وذلك في شهر ربيع الأول من عام إحدى وخمسين ومائتين، وخرج بعد خمسين يوماً إلى المدينة، فتوارى عاملها علي بن الحسين بن إسماعيل.

رجع إسماعيل بن يوسف إلى مكة في شهر رجب من السنة نفسها، فلقي أهل مكة البلاء إذ ارتفعت الأسعار، ثم رحل عن مكة بعد مقام سبعةٍ وخمسينٍ يوماً، واتجه نحو جدة، فحبس عن الناس الطعام، وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب.

ثم وافى إسماعيل بن يوسف الموقف وذلك يوم عرفة، وبه محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور، وعيسى بن محمد المخزومي صاحب جيش مكة، وكان المعتزّ وجههما إليها، فقاتلهم، فقتل نحو ألف ومائة من الحجاج، وسلب الناس، وهرب الحاج إلى مكة، ولم يقفوا ليلاً ولا نهاراً، ووقف إسماعيل وأصحابه، ثم

رجع إلى جدة، فأفنى أموالها. وبقي على حاله في النهب والقتل حتى لُقّب بـ «السفّاك»، ثم مات بالجدري سنة ٢٥٢هـ، وأزال الله عن المسلمين بلاءه. وبموته انتهت حركته.

بنو عقيل:

قطع بنو عقيل طريق جدة فحاربهم عامل مكة جعفر بن الفضل، فقُتل من أهل مكة ثلاثمائة رجلٍ، وارتفعت الأسعار بمكة، وأغارت الأعراب على القرى.

الغزو في بلاد الروم:

كان الجهاد قد ضعف أمره في النفوس إذ شُغل الخلفاء عنه، ولكن لا بدّ من أن يكون غزو حتى لا يطمع الروم في ديار الإسلام، وإن كان المتلوّنون لا يرغبون في الجهاد أبداً، ويسعون ألا يقوم الروم بهجماتٍ أو غاراتٍ حتى لا يتحرّك الجهاد في النفوس، وتتحرّك كتائب المجاهدين، غير أنه لا بدّ من بعض الغارات إظهاراً للقوة أو إعلاناً للاستعداد.

غزا الصائفة وصيف سنة ٢٤٨هـ.

غزا الصائفة جعفر بن دينار سنة ٢٤٩هـ. ودخل عمر بن عبيد الله الأقطع بلاد الروم غازياً، فاستشهد.

وهاجم الروم ثغور الجزيرة وقُتل علي بن يحيى الأرمني.

غزا الصائفة بلكاجور سنة ٢٥٠هـ.

غزا الصائفة بلكاجور سنة ٢٥١هـ، وكان فيها فتح على المسلمين.

ونستطيع أن نقول: إن هذا الغزو كان موضعياً، وعلى مستوىً ضعيفٍ، ويختلف عن الجهاد الذي له هدف في الدعوة ونشر الإسلام.

شخصية المستعين:

- كان المستعين مليحاً أبيض، أحمر الوجه، خفيف العارضين، مربوع القامة، بوجهه أثر جدريٍّ، بمقدم رأسه طول، ألثغ، يلثغ بالسين كالثاء.
- كان مِتْلافاً للمال، مُبذّراً.
- كان جيد الأدب، حسن الفضيلة.
- سيطر القائدان التركيان وصيف وبُغا على المستعين، فكان لا يخالف أوامرهما.

الملاحظة:

نجح المتلوّنون في مخططهم حيث استطاعوا:

١ ـ إيجاد صراع في أسرة بني العباس التي تتسلّم

الخلافة وذلك نتيجة الطمع بالخلافة والخوف من القادة الأتراك أصحاب النفوذ.

٢ ـ إيجاد صراعٍ بين القادة الأتراك طمعاً بالنفوذ والتصرّف بأمور الخلافة، فقد قُتل أوتامش، وقُتل باغر.

٣ ـ إيجاد تشكيلٍ للقوى بدار الخلافة يجعل الخلاف صعب الحلّ ولا بدّ من وقوع صراعٍ. فكان يتبع كل قائدٍ كبيرٍ عدد من القواد، ويتبع كل قائدٍ من هؤلاء جمع يكون أميراً عليهم ويزيد هذا الجمع حسبما يضمّ أميرهم إليهم أو حسبما يضمّ لهم القائد الكبير. وعلى هذا تتعدّد القوى في الخلافة. كما توجد مجموعات إقليمية وأهمها: الأتراك، والمغاربة، والأشروسنية، وأهل فرغانة و... ومع تعدّد القوى تكثر المنازعات وتقع الخلافات بتباين المصالح واختلاف الأهواء، وبوقوع الخلافات يقع الصراع وتضعف الدولة، وهذا ما يُخطّط له المتلوّنون.

يكون المتلوّنون إلى جانب بعض القوى، ثم يُغيّرون موقعهم، فيختلّ التوازن، ويكون الخلاف، لقد كان محمد بن عبد الله بن طاهر إلى جانب الخليفة المستعين بل هو المتصرّف به، ثم تغيّر عنه فجأةً وأقنعه بخلع نفسه، واضطر المستعين إلى ذلك عندما وجد ضعف موقفه وخذلان أعوانه.

الفَصْل الثالِث

٣٠ - المُعتزّ بالله

٢٥٢ - ٢٥٥هـ

المعتزّ: هو أبو عبد الله محمد أو الزبير المعتزّ بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.

(٢٥) محمد المعتصم

(٢٦) الواثق — (٢٧) المتوكّل — (٢٩) المستعين

(٢٨) المنتصر — (٣٠) المعتزّ — المؤيّد — المعتمد — الموفّق

المعتزّ قبل الخلافة:

ولد المعتزّ سنة اثنتين وثلاثين ومائتين في أواخر خلافة عمه الواثق، ولم يلبث أبوه أن استخلف في أواخر سنة ٢٣٢هـ. وأم المعتزّ أُمّ ولدٍ تدعى «قبيحة»،

وهي ذات مكانةٍ ومحبةٍ عند المتوكل.

وفي أواخر سنة ٢٣٥هـ عهد المتوكل لأبنائه الثلاثة من بعده محمد المنتصر، والزبير المعتزّ، وإبراهيم المؤيد، ولم يكن عمر المعتزّ يوم عُهد إليه ليزيد على الثلاث سنوات إلا قليلاً. وضمّ المتوكل لأبنائه الثلاثة أمصاراً واسعةً فكان مما ضمّ للمعتزّ كورخراسان وما يُضاف إليها، وطبرستان، والريّ، وأرمينية وأذربيجان، وكورفارس. وضمّ سنة ٢٤٠هـ خَزْن بيوت الأموال في أرجاء الخلافة كلها، ودور ضرب النقود، وأمر بضرب اسمه على الدراهم.

وكتب المتوكل كتاباً بين أبنائه، وأشهد عليه القضاة والفقهاء والقادة والكتاب.

وأخذ المغرضون يلعبون لعبتهم، فكانوا يقولون أمام محمد المنتصر بالله أن أباه يحب المعتزّ أكثر منه لأنه يحبّ قبيحة أم المعتزّ أكثر مما يحبّ حبشية أم المنتصر حتى وقعت كراهية بين الأخوين. وفي الوقت نفسه كان المغرضون يثيرون المتوكل على ابنه المنتصر فيقولون عنه: إنه متعالٍ، ويفخر بأخواله الأتراك، وذلك تأكيد ما يدّعون من أن المتوكل يفضّل المعتزّ، ولتكون الحزازات بين الأخوين. ويعود المغرضون

للثناء على المعتزّ لإشعال فتيل الخلاف.

وقُتل المتوكل والد المعتزّ يوم الأربعاء لأربعٍ خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ. وبويع محمد المنتصر بن المتوكل أخو المعتزّ، ورجع المغرضون يثيرون بين الإخوة فكانوا يلحّون على الخليفة محمد المنتصر أن يخلع أخويه المعتزّ والمؤيّد من ولاية العهد ويجعلها لابنه عبد الوهاب.

ألحّ الخليفة المنتصر على أخويه المعتزّ والمؤيد حتى خلعا نفسيهما من ولاية العهد بحجة أنهما غير قادرين على إدارة الخلافة، وقد بويعا وهما صغيرين لا رأي لهما بالموضوع ولا علم لهما.

مات الخليفة محمد المنتصر أخو المعتزّ بعد سنةٍ من استخلافه، وبويع عمّه أحمد المستعين بن محمد المعتصم بتأييد من القادة الأتراك.

رأى المعتزّ أنه هو صاحب الخلافة إذ كان ولي عهد أخيه محمد المنتصر الخليفة المتوفّى، وينتقد المعتزّ عمّه المستعين باستلام الخلافة أولاً بينما هو صاحبها، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ ينتقد عمه باعتماده على الأتراك على حين كان يُظهر حقده عليهم لقتلهم أخاه المتوكل، فهو يتبع هواه ولا يتبع الحق.

اشترى الخليفة المستعين من ولد أخيه المتوكل وهما المعتز والمؤيد كل أملاكهما، وأشهد عليهما القضاة والشهود، وكان الشراء بالإكراه وباسم الحسن بن مخلد للمستعين.

سجن المستعين كلاً من المعتزّ والمؤيد.

تنكّر الأتراك للمستعين بعد قتل باغر، وارتحل وصيف وبُغا إلى بغداد لأنهما قتلة باغر، وتبعهما المستعين، وأخرج الأتراك المعتزّ والمؤيّد من السجن، وأخذوا يدعمون مع المغاربة المعتزّ حتى وقع الصدام بين سامراء وبغداد، ورجحت كفّة سامراء، واضطر المستعين إلى خلع نفسه والبيعة للمعتزّ.

خلافة المعتزّ:

بويع المعتزّ بالخلافة بعد أن خلع المستعين نفسه وبايع المعتزّ، ودُعي له على منابر بغداد يوم الجمعة لأربعٍ خلون من شهر المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين أي في مطلع تلك السنة. وكان عمره تسع عشرة سنةً، ولم يلِ الخلافة قبله أحد أصغر منه.

استوزر المعتزّ أحمد بن إسرائيل، وارتحل أبو أحمد أخو المعتزّ إلى سامراء.

وصيف وبُغا:

كتب المعتزّ إلى محمد بن عبد الله بن طاهر في إسقاط اسم بُغا ووصيف من الدواوين.

وتباحث محمد بن أبي عون أحد قادة ابن طاهر مع أخي المعتزّ أبي أحمد في قتل وصيف وبغا إذ كانا مع المستعين في بغداد، وهما من قادة الأتراك وكان الأتراك مع المعتزّ وفي هذا القتل يحرّك الأتراك ضد المعتزّ وتكون فتنة، فوعده أن يقتلهما. وبلغ الخبر وصيف وبُغا فركبا إلى ابن طاهر يوم الثلاثاء لخمسٍ بقين ربيع الأول، فقال له بُغا: بلغنا أيها الأمير ما ضمنه ابن أبي عون من قتلنا، والقوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه، والله لو أرادوا أن يقتلونا ما قدروا عليه. فحلف لهما أنه ما علم بشيءٍ من ذلك، وتكلّم بغا بكلامٍ شديدٍ، ووصيف يكفّه، وقال وصيف أيها الأمير، قد غدر القوم ونحن نمسك ونقعد في منازلنا حتى يجيء من يقتلنا، وكانا قد دخلا في جماعةٍ على ابن طاهر، ثم رجعا إلى منازلهما، فجمعا جندهما ومواليهما، وأخذا في الاستعداد، وتأمين السلاح، وتفريق الأموال في جيرانهما.

وجّه محمد بن عبد الله كاتبه محمد بن عيسى إلى وصيفٍ وبُغا، فأقبلا معه حتى صارا عند دار محمد بن

عبد الله عند الجسر، فلقيهما جعفر الكردي وابن خالد البرمكي، فتعلّق كل واحدٍ منهما بلجام واحدٍ منهما، وقالا لهما: إنما دعيتما لتُحملا إلى العسكر، وقد أعدّ لكما لذلك قوم أو لتُقتلا، فرجعا وجمعا جمعاً، وأجريا على كل رجلٍ كل يومٍ درهمين، فأقاما في منازلهما.

كلّم المؤيّد أخاه المعتزّ في الرضا عن وصيف، فكتب إليه بالرضا عنه، وكلّم أبو أحمد طلحة الموفّق أخاه المعتزّ في الرضا عن بُغا، فكتب إليه بالرضا. واضطرب أمرهما، وهما مقيمان ببغداد.

اجتمع على المعتزّ الأتراك في سامراء فسألوه الأمر بإحضارهما، وقالوا: هما كبيرانا ورئيسانا، فكتب إليهما بذلك، فجاء بالكتاب بايكباك في نحو من ثلاثمائة رجلٍ، فأقام بالبَردان، ووجّه إليهما الكتاب لسبعٍ بقين من شهر رمضان سنة ٢٥٢هـ، فكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بمنعهما، فوجّها بكاتبيهما أحمد بن صالح ودُلَيْل بن يعقوب إلى محمد بن عبد الله ليستأذناه، فأتاهما جيش من الأتراك، فنزلوا بالمصلى، وخرج وصيف وبُغا وأولادهما وفرسانهما في نحو من أربعمائة إنسانٍ، وخلّفا في دورهما الثَّقَل والعيال، ودعا أهل بغداد لهما ودعْوا لهم.

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر قد وجّه محمد بن يحيى الواثقي وبندار الطبري إلى باب الشمّاسية وباب البَردان ليمنعوهما، فمضيا من باب خراسان، ونفذا ولم يعلم كاتباهما بارتحالهما. فلما وصلا إلى سامراء بكّر أحمد بن إسرائيل يوم الأحد لتسعٍ بقين من شوال سنة ٢٥٢هـ في السحر إلى وصيف، وأقام عنده ملياً، ثم انصرف إلى بُغا، فأقام عنده ملياً، ثم صار إلى الدار، فاجتمع الموالي وسألوا ردّهما إلى مراتبهما، فأجيبوا إلى ذلك، وبعث إليهما، فحضرا ورتّبا عليهما خلع المرتبة. ثم ركب المعتزّ إلى دار العامة، وعقد لبُغا ووصيف على أعمالهما، وردّ ديوان البريد كما كان قبل إلى موسى بن بُغا الكبير، فقبل موسى ذلك.

فتنة في بغداد:

وقعت في بغداد في شهر رمضان سنة ٢٥٢ هـ، فتنة بين جند بغداد وبين أتباع محمد بن عبد الله بن طاهر، ذهب ضحيتها عدة أشخاصٍ، وقُتل وصُلب عبدان بن الموفق، وابن الخليل، هذا إضافة إلى ما حدث من شغبٍ وفوضى.

خلع المؤيد وموته:

أمر المعتزّ بسجن أخيه المؤيد لأخذه مبلغاً من عامل أرمينية العلاء بن أحمد، ثم خلعه من ولاية العهد بسامراء يوم الجمعة لسبعٍ خلون من شهر رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وأعلن خلعه في بغداد يوم الأحد لإحدى عشرة خلت من رجب، وأُخذت رقعة بخطه بخلع نفسه، ثم لم يلبث أن توفي لستٍ بقين من شهر رجب من السنة نفسها أي بعد سبعة عشر يوماً من خلع نفسه. وقد جمع المعتزّ القضاة والفقهاء والوجوه والشهود، فأخرج إليهم إبراهيم المؤيد ميتاً لا أثر به ولا جرح، وحُمل إلى أمه، وهي أم أبي أحمد، وحُمل معه كفن وحنوط، وأمر بدفنه.

مقتل المستعين:

كان المستعين يقيم في مدينة واسط بعد أن خلع نفسه، فأرسل المعتزّ كتاباً إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بقتل المستعين، وكان المكلّف بالمستعين ابن أبي خبيصة، وابن المظفر بن سيسل، ومنصور بن نصر بن حمزة ـ وهو على واسط ـ وصاحب البريد. ثم جاء كتاب من المعتزّ إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بيد خادم يدعى سيما يأمر فيه منصور بن نصر بن

حمزة بتسليم المستعين إلى الخادم سيما. فأمر ابن طاهر بتسليم المستعين إليه. ثم وجّه أحمد بن طولون التركي في جيشٍ، فأخرج المستعين لستٍ بقين من شهر رمضان فوافى به القاطول لثلاثٍ خلون من شوال. ورفض أحمد بن طولون قتله، وقال: أنا لا أقتل أبناء الخلفاء. فأُرسل إليه سعيد الحاجب فقتله بعد أن سمح له بصلاة ركعتين بناءً على طلبه، ثم أمر بدفنه.

الفوضى:

ضعف أمر الخلافة فعمّت الفوضى فكان كل واحدٍ يسعى لمصالحه الخاصة، ويعمل لتكون له الغلبة، ويصدر الأوامر لتُعرف مكانته، وتريد كل فئةٍ أن تعلو على الأخرى.

فقد وقعت فتنة بين المغاربة والأتراك، إذ اجتمعت المغاربة حول محمد بن راشد ونصر بن سعيد، واجتمع الأتراك إلى بايكباك ثم أصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين.

وقُتل وصيف بشغب من الأتراك والأشروسنية وأهل فرغانة يطلبون أرزاقهم.

ومات محمد بن عبد الله بن طاهر فعهد لأخيه عبيد الله مكانه كأنه صاحب الأمر.

ونفى المعتزّ أخاه أبا أحمد إلى واسط، كما نفى عمّه علي بن المعتصم إلى واسط أيضاً. ثم نُقل أبو أحمد إلى البصرة، ثم رُدّ إلى بغداد، وقُتل بغا الشرابي.

وعقد بايكباك لأحمد بن طولون على مصر سنة أربعٍ وخمسين ومائتين.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ غزا محمد بن معاذ في ناحية ملاطية فهُزموا، وأُسر محمد بن معاذ.

وانتصر موسى بن بغا الكبير على الكوكبي الطالبي على فرسخ من قزوين، ففرّ الكوكبي إلى الديلم، ودخل موسى قزوين.

الحسن بن زيد الطالبي:

كان الحسن بن زيد الطالبي قد سيطر على طبرستان سنة خمسين ومائتين في أيام الخليفة المستعين، وتمكّن فيها، فسار إليه مفلح سنة خمسٍ وخمسين ومائتين فهزمه، فلحق الحسن بن زيد بالديلم، ثم دخل مفلح آمل، وأحرق منازل الحسن بن زيد، ثم توجّه نحو الديلم في طلبه.

يعقوب بن الليث:

كان يعقوب بن الليث الصفّار قد غلب على سجستان سنة ٢٤٧هـ، ثم امتلك هراة سنة ٢٤٨هـ. وزحف سنة ٢٥٥هـ نحو كرمان فوجّه إليه عاملها علي بن الحسين بن قريش بن شبل من يردّه غير أن من بعثه وهو طوق بن المغلّس قد وقع أسيراً بيد يعقوب، ودخل يعقوب كرمان، واتّجه نحو فارس فخرج إليه علي بن الحسين بن قريش من شيراز غير أنه هُزم ووقع أيضاً أسيراً بيد يعقوب. وأرسل يعقوب بن الليث هدايا إلى المعتزّ.

- ولي سليمان بن عبد الله بن طاهر شرطة بغداد والسواد لستٍ من ربيع الثاني سنة ٢٥٥هـ.

- أخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد وأبا نوح عيسى بن إبراهيم فقيّدهم، وطالبهم بأموالٍ، ولم يُتركوا حتى أُخذ منهم رقاعاً بأموالٍ، ولكن لم يحصل على شيء.

خلع المعتزّ:

عندما لم يصل صالح بن وصيف ومن معه من الأتراك إلى المال الذي كانوا يأملونه من الكتّاب الذين

أخذهم وقيّدهم. ذهب الكتّاب إلى المعتزّ، وطلبوا منه مالاً حتى يقتلوا له صالح بن وصيف، فأرسل المعتزّ إلى أمه يسألها مالاً ليعطيهم فلم تسعفه، أما الأتراك والجند بسامراء فإنهم لما امتنع الكتّاب أن يعطوهم شيئاً صارت كلمة الأتراك والمغاربة وأهل فرغانة واحدةً، واجتمعوا على خلع المعتزّ، وساروا إليه لثلاثٍ خلون من شهر رجب سنة خمسٍ وخمسين ومائتين، وهم: صالح بن وصيف، وبايكباك، ومحمد بن بُغا المعروف بأبي نصر، وقد دخلوا بالسلاح، وجلسوا على باب المنزل الذي ينزله المعتزّ، ثم بعثوا إليه: اخرج إلينا، فبعث إليهم: إني أخذت الدواء أمس، ولا أقدر على الكلام من الضعف، فإن كان أمراً لا بدّ منه، فليدخل إليّ بعضكم فليعلمني. فدخل إليه جماعة من أهل الكرخ والدور من خلفاء القواد، فجرّوا برجله إلى باب الحجرة، وأساءوا إليه، وأدخلوه حجرةً على باب حجرة المعتزّ كان موسى بن بُغا يسكنها حين كان حاضراً، ثم بعثوا إلى ابن أبي الشوارب، فأحضروه مع جماعةٍ من أصحابه، فقال له صالح بن وصيف وأصحابه: اكتب عليه كتاب خلع، فقال: لا أحسنه وكان معه رجل، فقال: أنا أكتب، فكتب وشهدوا عليه وخرجوا. وقال ابن أبي الشوارب

لصالح: قد شهدوا أن له ولأخته وابنه وأمه الأمان، فأشار صالح أن نعم، ووكلوا بذلك المجلس وبأمه نساء يحفظنها.

لما خُلع دُفع إلى من يُعذّبه، ومُنع الطعام والشراب ثلاثة أيامٍ، ولم يلبث أن توفي لليلتين خلت من شعبان سنة ٢٥٥هـ.

فكانت خلافته ثلاث سنواتٍ وستة أشهرٍ وثلاثةً وعشرين يوماً من الرابع من المحرم سنة ٢٥٢هـ حتى ٢٧ رجب سنة ٢٥٥هـ.

وكان عمره يوم تُوفّي ثلاثاً وعشرين سنةً وبضعة أشهرٍ.

شخصية المعتزّ:

كان المعتزّ أبيض جميلاً وسيماً من ملاح زمانه. وكان أسود الشعر كثيفه، حسن العينين والوجه، ضيق الجبين، أحمر الوجنتين، حسن الجسم، طويلاً.

خلّف من الأولاد عبد الله وحمزة.

له شقيق يُسمّى إسماعيل، وأمهما رومية تُدعى «قبيحة».

الملاحظة:

وهي أمر الخلافة حيث زاد تدخّل القادة الأتراك، وكانت مصالحهم هي التي تحرّكهم، لذا كان يقع الخلاف بينهم، ويبعثه ويُحرّكه المتلوّنون كأفراد، ولا يظهرون كجماعة أبداً، لأنهم لو ظهروا كذلك للفتوا إليهم الأنظار، وعُرفت الأهداف، ووقفت أمامهم جماعات، أما كأفراد فيمكن أن يُغيّر الفرد موقفه. وغالباً ما يكون المحرّك صاحب مكانةٍ، يعتمد عليه الخليفة، ويتصرّف كأنه ممثّل للخليفة، ويعدّ الشخص الثاني في الخلافة، وبذا يمكن معرفة الشخص والفئة التي ينتمي لها.

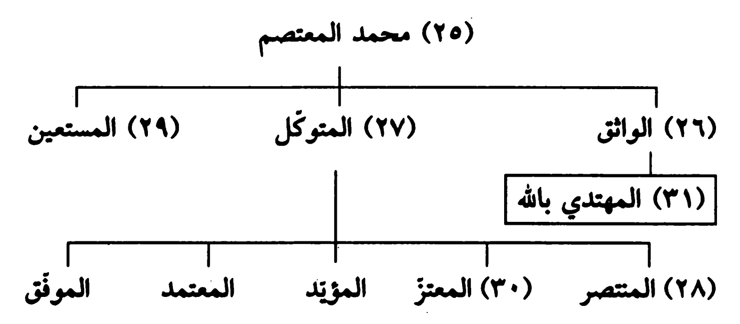


الفصل الرابع

٣١ - المهتدي بالله

٢٥٥ - ٢٥٦هـ

المهتدي بالله هو أبو عبد الله محمد بن هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



المهتدي بالله قبل الخلافة:

لم يظهر المهتدي بالله على الساحة قبل استخلافه حيث لم يبال بالمكانة والرفعة في الدنيا بل كان يسعى

لما بعد ذلك، وعندما قُدّم للخلافة إنما اختير لصلاحه كي يجد الرضا والقبول من العامة، وينسى الناس ما يفعله القادة الأتراك بالخلفاء.

ولد بسامراء سنة اثنتين وعشرين ومائتين.

خلافة المهتدي بالله:

بويع وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنةً، وما قبِل بيعة أحدٍ حتى أُحضر المعتزّ، فلما رآه قام له وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وجلس بين يديه، فجيء بالشهود فشهدوا على المعتزّ أنه عاجز عن أعباء الخلافة، وأقرّ بذلك، ومدّ يده، فبايع ابن عمه المهتدي، فارتفع حينئذٍ المهتدي إلى صدر المجلس، وقال: لا يجتمع سيفان في غمدٍ، وأنشد قول ابن أبي ذؤيب:

تريدين كيما تجمعيني وخالداً

وهل يُجمع السيفان، ويحك في غمد؟

وكانت نسخة الرقعة بخلع المعتزّ نفسه:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أشهد عليه الشهود المسمّوْن في هذا الكتاب، شهدوا أن أبا عبد الله بن أمير المؤمنين المتوكل على الله أقرّ عندهم،

وأشهدهم على نفسه أنه في صحةٍ من عقله، وجوازٍ من أمره طائعاً غير مكرهٍ، أنه نظر فيما كان تقلّده من أمر الخلافة والقيام بأمور المسلمين، فرأى أنه لا يصلح لذلك، ولا يكمُل له، وأنه عاجز عن القيام بما يجب عليه منها، ضعيف عن ذلك، فأخرج نفسه، وتبرّأ منها، وخلعها من رقبته، وخلع نفسه منها، وبرأ كل من كانت له في عنقه بيعة من جميع أوليائه وسائر الناس مما كان له في رقابهم من البيعة والعهود والمواثيق والأيمان بالطلاق والعتاق والصدقة والحج وسائر الأيمان، وحلّلهم من جميع ذلك، وجعلهم في سعة منه في الدنيا والآخرة، بعد أن تبيّن له أن الصلاح له وللمسلمين في خروجه عن الخلافة والتبرّؤ منها، وأشهد على نفسه بجميع ما سمّى، ووصف في هذا الكتاب جميع الشهود والمسمّيْن فيه، وجميع من حضر، بعد أن قرىء عليه حرفاً حرفاً، فأقرّ بفهمه ومعرفته جميع ما فيه طائعاً غير مكرهٍ، وذلك يوم الاثنين لثلاثٍ بقين من رجب سنة خمسٍ وخمسين ومائتين.

فوقّع المعتزّ في ذلك: «أقرّ أبو عبد الله بجميع ما في هذا الكتاب، وكتب بخطه».

وكتب الشهود شهاداتهم: شهد الحسن بن محمد،

ومحمد بن يحيى، وأحمد بن جناب، ويحيى بن زكرياء بن أبي يعقوب الأصبهاني، وعبد الله بن محمد العامري، وأحمد بن الفضل بن يحيى، وحماد بن إسحاق، وعبد الله بن محمد، وإبراهيم بن محمد. وذلك يوم الاثنين لثلاثٍ بقين من رجب سنة خمسٍ وخمسين ومائتين.

ولما كان المهتدي غير متسرّعٍ في تصرّفاته خوفاً من الخطأ في الأحكام، وغير شديدٍ مع الرعية حذراً من الوقوع في الظلم وهذا ما جعل المشاغبين يتحرّكون، والغوغائيين يظهرون، وأصحاب المصالح يبرزون لا يبالون سيف السلطان ولا يهابون الخليفة فهو حليم على رعيته، دقيق بأحكامه، عطوف بشعبه، ولذا وقعت حوادث شغب، وحدثت أعمال فوضى.

أعمال شغب ببغداد:

كان المعتزّ قد سيّر أخاه أبا أحمد الموفّق إلى البصرة حين سخط على المؤيد أخيه من أمه، فلما وقعت العصبية بالبصرة نقله إلى بغداد فكان مقيماً بها. فبعث سليمان بن عبد الله بن طاهر، وإليه الشرطة يومئذٍ ببغداد، فأحضره داره.

وسمع مَن ببغداد من الجند والغوغائيين عن خلع

المعتز وبيعة المهتدي، فاجتمعوا إلى باب سليمان بن عبد الله بن طاهر، وضجّوا هنالك يريدون معرفة صحة الخبر الذي بلغهم، ثم انصرفوا عندما قيل لهم: لم نعلم بالأمر الذي يقال، وذلك يوم الخميس، وفي التالي، وهو يوم الجمعة دُعي للمعتزّ على المنابر، فلما كان يوم السبت هجم الغوغائيون على دار سليمان بن عبد الله، وهتفوا باسم أبي أحمد، ودعوا إلى بيعته، وخلصوا إلى سليمان في داره، وسألوه أن يروا أبا أحمد بن المتوكل، فأظهره لهم فانصرفوا بعد أن تأكّدوا من حفظه.

قتل الكتّاب:

لما استصفى صالح بن وصيف أموال الكتّاب أحمد بن إسرائيل وأبي نوح عيسى بن إبراهيم والحسن بن مخلد، وقيّدهم وضربهم، ونسب إليهم الخيانة، والعمل على الفتن، وذلّ السلطان، وشقّ عصا المسلمين لم يُعارضه الخليفة الجديد المهتدي في شيءٍ من أمورهم، ولم يُوافقه على شيءٍ أنكره من فعله بهم. ثم وجّه صالح إليهم الحسن بن سليمان الدوشابي ليتولّى استخراج شيءٍ إن كان خفي عنه من أموالهم.

بدأ الحسن بأحمد بن إسرائيل، فقال له: يا فاجر،

تظنّ أن الله يمهلك، وأن أمير المؤمنين لا يستحلّ قتلك، وأنت السبب في الفتن والشريك في الدماء، مع عظيم الخيانة وفساد النية والطوية، إن في أقلّ من هذا تستوجب به المُثْلة، كما استوجب من كان قبلك، والقتل في العاجلة والعذاب والخزي في الآجلة، إن لم تسعد من الله بعفوٍ وإمهالٍ، ومن إمامك بصفحٍ واحتمالٍ، فاستر نفسك من نزول ما تستحق بالصدق عما عندك من المال، فإنك إن تفعل ويوقَف على صدقك تسلم بنفسك. فقال أحمد بن إسرائيل: إنه لا شيء عنده، ولا تُرك له إلى هذا الوقت مال ولا عقدة. فدعا صالح بن وصيف بالمقارع وأمر أن يُقام أحمد بالشمس، وأرعد وأبرق، وإن كان ليفوتني الظفر منه بشيءٍ من صرامةٍ ورجولةٍ عنده حتى أوصى إلى مقدار تسعة عشر ألف دينار، فأخذ صالح رقعةً بها.

ثم أُحضر أبو نوح عيسى بن إبراهيم، فقال له صالح مثل ما قال لأحمد أو نحوه، وزاد بأن قال: وأنت مع هذا مقيم على دينك النصرانية و... ولم يُجب أبو نوح بشيءٍ وأظهر ضعفاً وفقراً.

ثم أحضر الحسن بن مخلد فلم يزل يُبكِّته حتى كتب رقعةً بجوهر قيمته نيّف وثلاثون ألف دينارٍ.

ولما كان يوم الخميس لثلاثٍ بقين من شهر رمضان أُخرج أحمد بن إسرائيل وأبو نوح عيسى بن إبراهيم فضربا حتى ماتا، وبقي الحسن بن مخلد في السجن.

وهكذا كان القادة يتحكّمون بما يملكونه من موالٍ ورجالٍ وقوةٍ.

وكان المال السبب الرئيسي للشغب وأعمال الفوضى.

حركة الزنج:

لما عمّت الفوضى بسبب تسلّط القادة واستبدادهم وعدم إمكانية أحدٍ للوقوف في وجههم ما داموا يملكون القوة بالجند الذين يطيعونهم بسبب ما يُقدّمون لهم من بعض الأعطيات بعد السلب والنهب الذي يقومون به وهذا ما حرّك في نفوس الطامعين القيام بحركاتٍ شاملةٍ.

ورأى المتلوّنون أيضاً أن ما يقومون به من فتنٍ تُؤدّي فعلاً إلى ضعف الخلافة وتفكّكها غير أن هذا عمل بطيء، وقد تلتئم الجراح، وتُداوى النفوس، ويكفي النهوض للجهاد مرةً واحدةً لتمسح آثار

الماضي، وتجمع الأمة، وتضمّ أبناءها بعضهم إلى بعضٍ، وينطلق ركب الدعوة والعمل لنشر الإسلام، إذن لا بدّ من حركةٍ أكثر شمولاً، وأشدّ تغييراً في الفكر وفي المفهومات العامة. والأفضل هذه الحركات للعمل الهادف برأي المتلونين من يقودها رجل يقول: إنه ينتمي لآل البيت حتى تكون عاطفة الاندفاع للحركة قويةً وللتضحية شديدةً. ويعتقد المتلوّنون أن الحركة عندما تنجح يكون ما بُثّ فيها من أفكار قد رسخ، وما طُرح من مفهوماتٍ قد تشرّب في النفوس.

رأى المتلوّنون أن أعداداً كبيرةً من أهالي الصومال يعملون في سواد العراق وخاصةً في منطقة البصرة ويُطلق عليهم اسم الزنوج للون بشرتهم، وأن هؤلاء الزنوج يعيشون بعيدين عن أهليهم فهم بحاجةٍ إلى نسائهم كما أن حالتهم المادية ضعيفة، لذا يجب كسب هؤلاء بدعوى تأمين الأموال الكثيرة لهم كما يحلمون، وتأمين (الزواج) لهم، ولا بدّ من أن يحرّكهم رجل يُعلن أنه من آل البيت فيكون في قوله الصدق، وليس فيه مخالفة شرعية، في اتباعه فضل، وله في النفس محبة، لذا يكون الإخلاص عند اللقاء وتكون التضحية. والأمر المهم يكون قطع شوطٍ واسعٍ في هدف

المتلوّنين من تهديم في المجتمع، وبثّ أفكارٍ معاديةٍ للإسلام، وإضعافٍ للأمة.

ظهر رجل في منطقة البصرة في النصف من شهر شوال سنة خمسٍ وخمسين ومائتين زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. جمع إليه الزنج الذين يعملون هناك في منطقة السواد.

وقيل: إن اسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم، ونسبه في عبد القيس، وأُمّه قُرّة ابنة علي بن رحيب بن محمد بن حكيم، من بني أسد بن خزيمة، من ساكني إحدى قرى الريّ، يقال لها: «وَرْزَنين» بها مولده ومنشؤه، وذُكر عنه أنه كان يقول: جدّي محمد بن حكيم من أهل الكوفة كان أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، فلما قُتل زيد وذلك سنة ١٢٢هـ هرب جدي فلحق بالريّ ثم لجأ إلى «ورزنين» فأقام بها. وأما جدّه أبو أبيه عبد الرحيم فرجل من بني عبد القيس، كان مولده بالطالقان في خراسان، وأنه قدم العراق فأقام بها، واشترى جاريةً سنديةً، فأولدها محمداً أباه، فهو عليّ بن محمد هذا. وانتقل علي بن محمد من سامراء إلى

البحرين[1] سنة تسعٍ وأربعين ومائتين فادّعى بها أنه علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب، ودعا الناس بهجر إلى طاعته، فتبعه جماعة كثيرة من أهلها، وأبته جماعة أُخر، واقتتل الفريقان، فانتقل من مكانه الذي هو فيه، وضوى إلى بني الشمّاس وهم حيّ من بني سعد من تميم. وقد جبى الخراج في البحرين، وكان موضع التقدير ثم تنكّر له فئة إذ وتروا بسببه فتحوّل إلى البادية، وتحوّل معه جماعة من أهل البحرين منهم قائد جيشه سليمان بن جامع وهو من موالي بني حنظلة، ومنهم يحيى بن محمد الأزرق المعروف بالبحراني أحد موالي بني دارم، وهو تاجر معروف. وكان علي بن محمد ينتقل في البادية من حيٍّ إلى حيٍّ.

ويجب أن ننتبه إلى أن هناك أمراً خلف ادّعاء النسب، وإن المكان الذي نشأ فيه يدلّ على ما هو عليه من مرامٍ يهدف إليها.

ادّعى بعض الادعاءات، وأوهم العامة بعض

---

(١) البحرين: اسم كان يطلق على سوحل الخليج العربي الغربية من الكويت إلى الإمارات العربية اليوم، وليس على مجموعة الجزر التي تحمل اليوم هذا الاسم.

الأمور، وقبلوها منه، واجتمع حوله جماعة كبيرة فزحف بهم نحو البحرين، وخاض بهم وقعةً كانت الدائرة فيها عليه وعلى أصحابه، فقُتل منهم قتلاً ذريعاً، فنفرت عنه الأعراب وكرهته، وتجنّبت صحبته، فاتجه إلى البصرة سنة أربعٍ وخمسين ومائتين، وكان محمد بن رجاء الحضاري عامل البصرة، وكان خلاف بالبصرة فطمع أن يكسب إليه أحد طرفي الخلاف فلم يفلح، فخرج من البصرة هارباً، فطلبه عاملها ابن رجاء فلم يظفر به، فأخذ بعض أتباعه، وأودعهم السجن، كما أخذ زوجته وابنتها وجاريةً له.

اتجه علي بن محمد يريد بغداد ومعه بعض أصحابه، فلما صاروا بالبطيحة أخذهم عاملها عمير بن عمار، وحملهم إلى محمد بن أبي عون عامل واسط، فاحتال علي بن محمد على محمد بن أبي عون، وتخلّص منه، وصار إلى بغداد، وفيها انتسب إلى أحمد بن عيسى بن زيد، واستمال جماعةً من بغداد إليه، ولم يزل عامه ذلك بمدينة بغداد حتى عُزل محمد بن رجاء الحضاريّ عن البصرة، فخرج عنها، فوثب رؤساء الفتنة من السعدية والبلالية، ففتحوا السجون فأطلقوا من كان فيها. فلما بلغ علي بن محمد

خلاص أهله انطلق إلى البصرة في شهر رمضان سنة خمسٍ وخمسين ومائتين، فنزل المسجد الذي في وسط السوق، وكان يجتمع إليه السودان، وبقي حتى يوم الفطر. فلما أصبح نادى في أصحابه بالاجتماع لصلاة عيد الفطر فاجتمعوا، وركز المرديّ الذي عليه لواؤه، وصلى بهم، وخطب خطبةً ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملكهم العبيد والأموال والمنازل، ويبلغ بهم أعلى الأمور، ثم حلف لهم على ذلك. فلما فرغ من صلاته وخطبته، أمر الذين فهموا عنه قوله أن يفهموه من لا فهم له من عجمهم، لتطيب بذلك أنفسهم. ففعلوا ذلك، ودخل القصر، ووافت بعد يومٍ جماعة من أصحابه الحميريّ في جماعةٍ عند النهر فدفعوهم حتى أخرجوهم إلى الصحراء، فلحقهم صاحب الزنج فيمن معه، فأوقع بالحميريّ وأصحابه، فانهزموا، واستأمن إليه رجل من رؤساء الزنج يكنى بأبي صالح، ويعرف بالقصير، في ثلاثمائةٍ من الزنج فمنّاهم ووعدهم.

فلما كثر من اجتمع إليه من الزنج أمّر قوّاده، وقال لهم: كل من أتى منكم برجل فهو مضموم إليه.

وكان محمد بن أبي عون قد نُقل عن ولاية واسط إلى ولاية البصرة وكور دجلة. وجرت عدة وقائع بين نائب البصرة وصاحب الزنج، وكان أهل البصرة يُهزمون في كل وقعةٍ مما جعل أمر صاحب الزنج يقوى، ويزداد أتباعه، ويكثر جيشه، وهو يحرص ألا يتعرّض لأموال الناس ولا يؤذي أحداً بل يعمل على أخذ أموال السلطان، ثم هُزم أصحابه في بعض وقائعهم هزيمةً منكرةً، وتراجعوا إليه، واجتمعوا حوله، ثم كرّوا على أهل البصرة فهزموهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا أعداداً آخرين. كان لا يؤتى بأسيرٍ إلا قتله، ثم قوي أمره وخافه أهل البصرة، فبعث الخليفة إليها مدداً، وأشار إليه بعض أصحابه أن يهجم بمن معه على البصرة فيدخلونها عنوةً، فرفض صاحب الزنج هذا الرأي، وقال: بل نكون على قربٍ منها حتى يكونوا هم الذين يطلبوننا، ويخطبوننا عليها.

الخلاف بين القادة الأتراك:

انطلق موسى بن بُغا إلى سامراء فدخلها يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من شهر المحرم سنة ستٍ وخمسين ومائتين، وعبّأ موسى أصحابه حتى صار إلى الحَيْر مما يلي القصر، وكان ذلك يوماً جلس فيه

المهتدي للناس للمظالم، وكان ممن أحضره في ذلك اليوم بسبب المظالم أحمد بن المتوكل بن فتيان، فكان في الدار إلى أن دخل الموالي، فحملوا المهتدي إلى دار ياجور، واتبعه أحمد بن المتوكل إلى هناك. ثم رُدّ المهتدي إلى دار الخلافة، وكان القيم بأمر دار الخلافة بايكباك، غير أن المهتدي قد عزله قبل عدة أيامٍ وجعل ساتكين مكانه، فلما قدم موسى بن بُغا إلى الدار لزم ساتكين يومذاك منزله، وترك الدار خاليةً، وصار موسى في جيشه إلى الدار، والمهتدي جالس للمظالم، فعلم موسى بمكانه، فأمسك المهتدي ساعةً عن الإذن ثم أذن لهم فدخلوا عليه فجرى الكلام بشكلٍ رسميٍ، على نحو ما يجري عند قدوم الوفود والرسل، فلما طال الكلام تراطنوا فيما بينهم بالتركية، وأقاموه من مجلسه، وحملوه على دابةٍ، وانتهبوا ما كان في الدار من دواب الخاصة، ومضوا يريدون الكرخ فلما صاروا عند باب الحَيْر في القطائع عند دار ياجور أدخلوه لها. ذلك أنهم ظنّوا أن إطالة الكلام إنما هو حيلة حتى يكبسهم صالح بن وصيف بجيشه. وقد قال المهتدي لموسى: ما تريد؟ ويحك اتق الله وخفه، فإنك تركب أمراً عظيماً، فردّ عليه موسى: إنا ما نريد إلّا خيراً، والله لا نالك منّا شرّ البتة.

ولما صاروا في دار ياجور أخذوا على المهتدي المواثيق والعهود ألّا يمالىء صالحاً عليهم، ولا يضمر لهم إلا مثل ما يظهر، فوعد ذلك، فجدّدوا له البيعة ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة خلت من شهر المحرم سنة ستٍ وخمسين ومائتين، وفي صباح الثلاثاء وجّهوا إلى صالح للحضور للمناظرة والحديث. وهم يريدون مطالبته بدماء الكتّاب وأموالهم، ودم المعتز وأمواله. وعسكر القوم خارج باب الحَيْر عند باب ياجور. وقد استتر صالح، وظهر النداء عليه.

ولي سليمان بن عبد الله بن طاهر مدينة بغداد والسواد، ورجع المهتدي إلى الدار. وكان موسى بن بُغا ومن معه يتهمون المهتدي بأنه يعرف مكان صالح بن وصيف، وأنه يُقدّمه عليهم، وساروا جميعاً إلى دار موسى بن بُغا، وأجمعوا على خلع المهتدي. وعندما أطلعوا أخا بايكباك في المجلس نفسه على ما عزموا عليه، قال لهم: إنكم قتلتم ابن المتوكل، وهو حسن الوجه، سخي الكفّ، فاضل النفس، وتريدون أن تقتلوا هذا من غير ذنبٍ وهو مسلم يصوم ولا يشرب النبيذ، والله لئن قتلتم هذا لألحقنّ بخراسان، ولأشيعنّ أمركم هناك.

ولما وصل الخبر إلى المهتدي خرج إلى مجلسه متقلّداً سيفاً، وقد لبس ثياباً نظافاً، وتطيّب، ثم أمر بإدخالهم إليه، فأبوا ذلك ملياً، ثم دخلوا عليه، فقال لهم: إنه قد بلغني ما أنتم عليه من أمري، ولست كمن تقدّمني مثل أحمد المستعين، ولا مثل ابن قبيحة (المعتز)، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنّط، وقد أوصيت إلى أخي بولدي، وهذا سيفي، والله لأضربنّ به ما استمسك قائمه بيدي، والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكنّ أو ليذهبنّ بها أكثركم. أما دين! أما حياء! أما ورع! كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والإقدام والجرأة على الله، سواء عندكم من قصد الإبقاء عليكم ومن كان إذا بلغه مثل هذا عنكم دعا بأرطال الشراب فشربها مسروراً بمكروهكم وحباً لبواركم! خبّروني عنكم، هل تعلمون أنه وصل إليّ من دنياكم هذه شيء! أما إنك تعلم يا بايكباك أن بعض المتصلين بك أيسر من جماعة إخوتي وولدي، وإن أحببت أن تعرف ذلك فانظر، هل ترى في منازلهم فرشاً أو وصائف أو خدماً أو جواري! أو لهم ضياع أو غلّات أسوةً بكم! ثم تقولون: إني أعلم علم صالح، وهل صالح إلا رجل من الموالي، وكواحدٍ منكم، فكيف الإقامة معه إذا ساء رأيكم فيه! فإن آثرتم الصلح

كان ما أهوى لجمعكم، وإن أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه فشأنكم، فاطلبوا صالحاً، ثم أبلغوا شفاء أنفسكم، وأما أنا فما أعلم علمه. قالوا: فاحلف لنا على ذلك، قال: أما اليمين فإني أبذلها لكم، ولكني أؤخّرها حتى تكون بحضرة الهاشميين والقضاة والمعدّلين وأصحاب المراتب غداً إذا صلّيت الجمعة، فكأنهم لانوا قليلاً، ووجّه في إحضار الهاشميين فحضروا في عشيّتهم، فأذن لهم، فسلّموا، ولم يذكر لهم شيئاً، وأُمروا بالمصير إلى الدار للذهاب لصلاة الجمعة، فانصرفوا، وغدا الناس يوم الجمعة، ولم يحدثوا شيئاً، وصلّى المهتدي، وسكن الناس، وانصرفوا هادئين.

وإن المهتدي لما خُوّن صالح قال: إن بايكباك قد كان حاضراً ما عمل به صالح في أمر الكتّاب ومال ابن قبيحة (المعتزّ)، فإن كان صالح قد أخذ من ذلك شيئاً فقد أخذ مثل ذلك بايكباك، فكان ذلك الذي أحفظ بايكباك. كما قال: وقد كان أبو نصر محمد بن بُغا حاضراً وعالماً بما أجروا عليه الأمر، والشريك في ذلك أجمع، فأحفظ ذلك أبا نصر.

ومنذ أن قدم موسى بن بُغا والقوم منطوون على

الغِلّ، مضمرون خلع المهتدي، غير أنهم كانوا يخشون الاضطراب، والاضطراب تحتاج تهدئته إلى أموالٍ، والأموال غير متوفّرةٍ، وهذا ما أخّر ما ينوون القيام به، فلما جاءت الأموال تحرّكوا، وذلك أنه جاءت من الأهواز وفارس أموال تُقدّر بسبعة عشر ألف ألف درهمٍ وخمسمائة ألف درهمٍ، وقد وصلت إلى سامراء يوم الأربعاء لثلاثٍ بقين من المحرم سنة ستٍ وخمسين ومائتين.

انتشر لدى العامة في غرّة شهر صفر سنة ٢٥٦هـ أن القادة الأتراك قد عزموا أن يخلعوا الخليفة المهتدي، ويفتكوا به، وأنهم أرادوه على ذلك، وأرهقوه، فهال الأمر العامة، فأرادوا إثارة الناس للدفاع عن خليفتهم، فكتبوا الرقاع لذلك، وألقوها في المسجد الجامع والطرقات، وقد جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم. يا معشر المسلمين، ادعوا الله لخليفتكم العدل، الرضى المضاهي لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن ينصره على عدوه، ويكفيه مؤونة ظالمه، ويتمّ النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه، فإن الموالي قد أخذوه ليخلع نفسه، وهو يعذّب منذ أيامٍ، والمدبر لذلك أحمد بن محمد بن ثوابة

والحسن بن مخلد، رحم الله من أخلص النيّة، ودعا وصلّى على محمدٍ ﷺ.

فلما كان يوم الأربعاء لأربعٍ خلون من صفر سنة ستٍ وخمسين ومائتين تحرّك الموالي بالكرخ والدور، ووجّهوا على لسان رجلٍ منهم يقال له عيسى: إنا نحتاج أن نلقي إلى أمير المؤمنين شيئاً، وسألوا أن يُوجّه أمير المؤمنين إليهم أحد إخوته، فوجّه إليهم أخاه عبد الله أبا القاسم، وهو أكبر إخوته، ووجّه معه محمد بن مباشر المعروف بالكرخي، فمضيا إليهم، فسألاهم عن شأنهم، فذكروا أنهم سامعون مطيعون لأمير المؤمنين، وأنه بلغهم أن موسى بن بُغا وبايكباك وجماعة من قوادهم يريدون الخلع، وأنهم يبذلون دماءهم دون ذلك، وأنهم قد قرؤوا بذلك رقاعاً أُلقيت في المسجد والطرقات، وشكوا مع ذلك سوء حالهم، وتأخُّر أرزاقهم، وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم التي أجحفت بالضياع والخراج، وما صار لكبرائهم من الزيادات، وكثر كلامهم في ذلك، فقال لهم أبو القاسم عبد الله بن الواثق: اكتبوا في هذا كتاب إلى أمير المؤمنين، أتولّى إيصاله لكم، فكتبوا ذلك. وانصرف أبو القاسم ومحمد بن مباشر، فأوصلا الكتاب إلى المهتدي، فكتب جوابه بخطه، وختمه بخاتمه، وغدا

أبو القاسم إلى الكرخ، فوافاهم، فصاروا به إلى دار أشناس واجتمع منهم زهاء مائةٍ وخمسين فارساً ونحو من خمسمائة رجلٍ، فأقرأهم من المهتدي السلام، وقال: يقول لكم أمير المؤمنين: هذا كتابي إليكم بخطي وخاتمي، فاسمعوه وتدبّروه، ثم دفع الكتاب إلى كاتبهم فقرأه، فإذا به:

بسم الله الرحمن الرحيم. والحمد لله، وصلى الله على محمد النبيّ وعلى آله وسلّم تسليماً كثيراً، أرشدنا الله وإياكم، وكان لنا ولكم وليّاً وحافظاً، فهمت كتابكم، وسرّني ما ذكرتم من طاعتكم وما أنتم عليه، فأحسن الله جزاءكم، وتولّى حياطتكم، فأما ما ذكرتم من خلّتكم وحاجتكم، فعزيز عليّ ذلك فيكم، ولوددت والله أن صلاحكم يهيّأ بألا آكل ولا أطعم ولدي وأهلي إلا القوت الذي لا شبع دونه، وألا أُلبس أحداً من ولدي إلا ما ستر العورة، والله - حاطكم الله - ما صار إلي منذ تقلّدت أمركم لنفسي وأهلي وولدي ومتقدّمي غلماني وحشمي إلا خمسة عشر ألف دينار، وأنتم تقفون على ما ورد ويَرد، كل ذلك مصروف إليكم، غير مدّخرٍ عنكم. وأما ما ذكرتم مما بلغكم، وقرأتم به الرقاع التي أُلقيت في المساجد والطرق، وما بذلتم من أنفسكم، فأنتم أهل ذلك، وأين تعتذرون مما ذكرتم

ونحن وأنتم نفس واحدة، فجزاكم الله عن أنفسكم وعهودكم وأمانتكم خيراً. وليس الأمر كما بلغكم، فعلى ذلك فليكن عملكم إن شاء الله، وأما ما ذكرتم من الإقطاعات والمعاون وغيرها، فأنا أنظر في ذلك وأصير منه إلى محبتكم إن شاء الله والسلام عليكم. أرشدنا الله وإياكم، وكان لنا ولكم حافظاً، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبيّ وآله وسلّم تسليماً كثيراً.

وبقيت الكتابات والرسل وإظهار الطاعة للخليفة وإخفاء خفايا النفوس، ثم قُتل صالح بن وصيف بيد رجلٍ من أصحاب مفلح، وحُمل إلى المهتدي، فوصلوا به إليه، وقد قام لصلاة المغرب، فلم يره، فأخرجوه ليصلّي، فلما قضى المهتدي صلاته أخبروه أنهم قتلوا صالحاً، فلم يزدهم على أن قال: واروه، وأخذ في تسبيحه. وأخذت الأحقاد تغلي في النفوس، وكلٌّ يعمل لمصلحته.

خلع المهتدي:

استطاع المهتدي أن يستميل إليه بايكباك وهو مع موسى بن بُغا، وكتب المهتدي إلى بايكباك يأمره أن يضمّ العسكر الذي مع موسى إليه، وأن يكون هو الأمير

عليهم، وأن يقتل موسى بن بُغا ومفلحاً، أو يحملهما إليه مقيّدين. فلما وصل الكتاب إلى بايكباك، أخذه ومضى به إلى موسى بن بغا، فقال: إني لست أفرح بهذا، وإنما هذا تدبير علينا جميعاً، وإن فُعل بك اليوم شيء فُعل بي غداً مثله، فما ترى؟ قال: أرى أن ننطلق إلى سامراء، فتخبره أنك في طاعته، وناصره على موسى ومفلح، فإنه يطمئن إليك، ثم نُدبّر في قتله.

فقدم بايكباك على المهتدي، وقد مضوا إلى منازلهم، وقد أظهر له المهتدي الغضب، وقال: تركت العسكر، وقد أمرتك أن تقتل موسى ومفلحاً، وداهنت في أمرهما، قال: يا أمير المؤمنين، وكيف لي بهما؟ وكيف يتهيّأ لي قتلهما؟ وهما أعظم جيشاً مني، وأعزّ مني، ولقد جرى بيني وبين مفلح شيء في بعض الأمر، فما انتصفت منه، ولكني قد قدمت بجيشي وأصحابي ومن أطاعني لأنصرك عليهما، وأقوّي أمرك، وقد بقي موسى في أقلّ العدد. قال: ضع سلاحك، وأمر بإدخاله داراً، فقال: يا أمير المؤمنين، ليس هذا سبيل مثلي إذا قدم من مثل هذا الوجه، حتى أصير إلى منزلي، وآمر أصحابي وأهلي بأمري، قال: ليس إلى ذلك سبيل، أحتاج إلى مناظرتك. فأخذ سلاحه، فلما أبطأ خبره على أصحابه سعى فيهم أحمد بن خاقان

حاجب بايكباك، فقال: اطلبوا صاحبكم قبل أن يحدُث به حدث، فجاشت الترك، وأحاطت بالدار، فلما رأى ذلك المهتدي وعنده صالح بن علي بن يعقوب بن أبي جعفر المنصور شاوره، وقال: ما ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنه لم يبلغ أحد من آبائك ما بلغته من الشجاعة والإقدام، وقد كان أبو مسلم أعظم شأناً عند أهل خراسان من هذا التركيّ عند أصحابه، فما كان إلا أن طرح رأسه إليهم حتى سكتوا، وقد كان فيهم من يعبده ويتخذه ربّاً، فلو فعلت ذلك سكنوا، فأنت أشدّ من المنصور إقداماً، وأشجع قلباً. فأمر المهتدي الكرخي ـ واسمه محمد بن المباشر ـ وكان حداداً بالكرخ يطرق المسامير، فانقطع إلى المهتدي ببغداد فوثق به ولزمه ـ فأمره بضرب عنق بايكباك، فضرب عنقه، والأتراك مصطفون أمام الدار بالسلاح، يطلبون بايكباك، فأمر المهتدي عتّاب بن عتّاب القائد أن يرمي لهم رأسه، فأخذ عتّاب الرأس فرمى به إليهم، فتأخّروا وجاشوا، ثم شدّ رجل منهم على عتّاب فقتله، فوجّه المهتدي إلى المغاربة والأشروسنية وأهل فرغانة ومن بايعه من الأتراك فجاءوا، والتقوا مع الأتراك فكانت بينهم وقعة قُتل فيها من الأتراك ألف رجلٍ. وذلك يوم السبت لثلاث عشرة خلت من شهر رجب سنة ستٍ وخمسين ومائتين.

وفي اليوم التالي وهو يوم الأحد اجتمع الأتراك جميعاً، فصار أمرهم واحداً، فجاء منهم زهاء عشرة آلاف رجلٍ، وجاء أحمد بن خاقان حاجب بايكباك في نحو خمسمائة رجلٍ، وجاء طوغيتا أخو بايكباك ومعه عدد من الموالي، وخرج المهتدي ومعه صالح بن علي يدعو الناس إلى أن ينصروا خليفتهم، فلما التقى الفريقان مال الأتراك الذين مع المهتدي إلى أصحابهم الذين مع طوغيتا أخي بايكباك، وبقي مع المهتدي المغاربة وأهل فرغانة ومن خفّ معه من العامة، فحمل عليهم طوغيتا حملة ثائرٍ حرّانٍ موتورٍ فنقض تعبئتهم وهزمهم، وأكثر فيهم القتل، وولّوا منهزمين، ومضى المهتدي يركض منهزماً، والسيف في يده مشهور، وهو يُنادي يا معشر الناس انصروا خليفتكم حتى صار إلى دار أبي صالح عبد الله بن محمد بن يزداد فدخلها ووضع سلاحه، ولبس البياض ليعلو داراً وينزل أخرى ويهرب. فطُلب فلم يوجد. وجاء أحمد بن خاقان في ثلاثين فارساً يسأل عنه حتى وقف على خبره في دار أحمد بن جميل، فأحدق به الأتراك فحملوه وبه طعنة في خاصرته، وانتهبوا دار الكرخي محمد بن المباشر، ودور بني ثوابة وجماعة من الناس. وأُعلن خلعه يومها وهو يوم الأحد لأربع عشرة خلت من شهر رجب سنة

ستٍ وخمسين ومائتين. وحمل أحمد بن المتوكل المعروف بابن فتيان يوم الاثنين منتصف رجب إلى دار يارجوخ. والأتراك يدورون في الشوارع.

وتوفي المهتدي يوم الخميس لثمان عشرة من شهر رجب سنة ستٍ وخمسين ومائتين أي بعد أربعة أيامٍ من القبض عليه، وقد أهانه الأتراك وعذّبوه. وقد صلّى على المهتدي جعفر بن عبد الواحد.

كانت خلافة المهتدي أحد عشر شهراً وثلاثة وعشرين يوماً، وكان عمره يوم وفاته أربعاً وثلاثين سنةً.

شخصية المهتدي:

كان المهتدي أسمر رقيقاً، مليح الوجه، ورعاً عادلاً صالحاً متعبّداً بطلاً شجاعاً، قوياً في أمر الله، خليقاً بالإمارة، لكنه لم يجد معيناً ولا ناصراً.

• لم يكن المهتدي حريصاً على الخلافة، ساعياً إليها، باذلاً نفسه وراءها، فلم يقبل مبايعة أحدٍ بعد خلع ابن عمه المعتزّ بالله حتى أُحضر المعتزّ. فلما رآه قام له احتراماً له واعترافاً بخلافته وتقديراً لمكانته، وقال له: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وجلس بين

يديه، حتى أعلن المعتزّ تنازله، وخلع نفسه، ومدّ يده، فبايع ابن عمّه المهتدي بالله، فارتفع حينئذٍ المهتدي إلى صدر المجلس.

• ما زال المهتدي صائماً منذ أن استخلف حتى قُتل.

• قال أبو العباس هاشم بن القاسم: كنت عند المهتدي عشيّةً في رمضان، فقمت لأنصرف، فقال: اجلس. فجلست، فصلّى بنا، ودعا بالطعام، فأُحضر خلاف عليه أرغفة وآنية فيا ملح وزيت وخلّ، فدعاني إلى الأكل، فأكلت أكل من ينتظر الطبيخ. فقال: ألم تكن صائماً؟ قلت: بلى، قال: كُلْ واستوفِ، فليس هنا غير ما ترى؟ فعجبت، ثم قلت: ولِمَ يا أمير المؤمنين، وقد أنعم الله عليك؟ قال: إني فكّرت أنه كان في بني أمية عمر بن عبد العزيز، فغِرتُ على بني هاشم، وأخذت نفسي بما رأيت.

• قال جعفر بن عبد الواحد: ذاكرت المهتدي بشيءٍ، فقلت له: كان أحمد بن حنبل يقول به، ولكنه كان يخالف، كأني أشرت إلى آبائه، فقال: رحم الله أحمد بن حنبل، لو جاز لي لتبرّأت من أبي، تكلّم بالحق وقُل به، فإن الرجل ليتكلّم بالحق فينْبُل في عيني.

• وُجد للمهتدي صفط فيه جُبّة صوفٍ، وكساء كان يلبسه بالليل ويصلّي فيه.

• كان قد اطّرح الملاهي، وحرّم الغناء، وحسم أصحاب السلطان عن الظلم. وكان شديد الإشراف على أمر الدواوين، يجلس بنفسه، ويجلس بين يديه الكتّاب، يعملون الحساب، ويلزم الجلوس يومي الخميس والاثنين.

• أراد الأتراك منه أن يخلع نفسه، فأبى، فقتلوه ـ رحمه الله ـ وبايعوا المعتمد.

• كان للمهتدي من الولد: عبد الله (أبو جعفر)، وعبد الصمد (أبو الحسن)، وعبد الرحمن (أبو بكر)، وعبد الله (أبو أحمد)، وهبة الله (أبو الفضل). وفي ذريته علماء وخطباء.

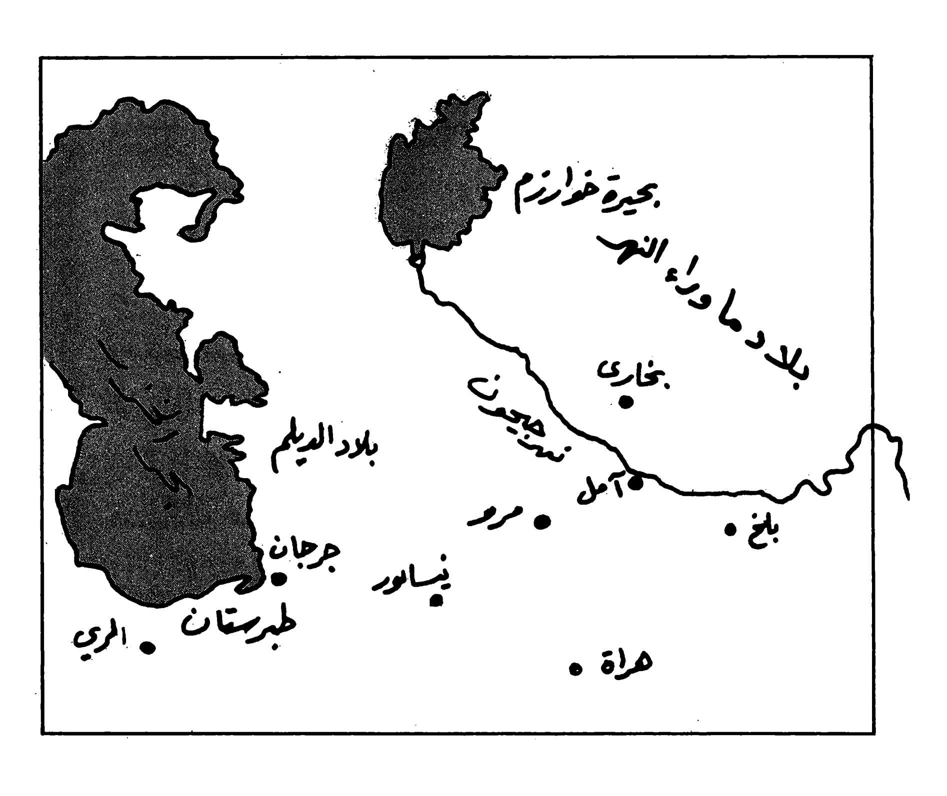
الملاحظة:

زادت حماقة القادة الأتراك، فكثر سعيهم وراء مصالحهم ومكانتهم فزادت الخلافات فيما بينهم لتضارب المصالح وتباين الأهواء، ولم يُبالوا بالخلافة ولا الأمة. وضعُفت عندهم مكانة الخلفاء فإذا لم يستمع لهم الخليفة، أو وقف في وجه مصالحهم، أو

ردعهم عن جورهم اجتمعت كلمتهم على خلعه، وأشاروا إلى قريبٍ له من بني عمومته من بني العباس ليعتلي كرسي الخلافة مكانه، فإن أبى الخلع قتلوه، وادّعوا أن قاتلاً قتله. والخلافة منصب مطموع به. ويريدون من الخليفة الجديد أن يكون لهم مطيعاً، ولمصالحهم منفّذاً، ولقيادتهم مقدّراً.

وأما المتلوّنون فكانوا يُثيرون الفتن بين القادة الأتراك، ويُحرّكونهم على الخلفاء، وإذا كان الخليفة صالحاً زادت إثارتهم عليه خوفاً من تعلّق العامة به، وضبط أمور الخلافة، وهذا ما كان من الإثارة الكثيرة على المهتدي. كما يحرص المتلوّنون على الإبقاء على هذا النظام الذي تتعدّد فيه القوى، ويكثر الصراع، فتتفكّك عرا المجتمع، وكان تحرّكهم بالخفاء، ومن وراء أشخاص وقيادات.





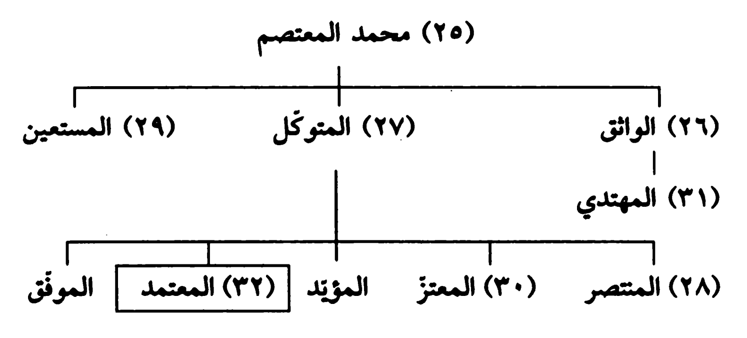
بحيرة خوارزم
بلاد ما وراء النهر
بخارى
نهر جيحون
بلاد الديلم
آمل
مرو
بلخ
جرجان
نيسابور
طبرستان
الري
هراة

الفصل الخامس

٣٢ - المعتمد على الله

٢٥٦ - ٢٧٩هـ

المعتمد على الله هو أبو العباس أحمد بن جعفر المتوكّل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس عمّ رسول الله ﷺ.



المعتمد على الله قبل الخلافة:

ولد المعتمد على الله سنة تسعٍ وعشرين ومائتين في خلافة عمّه هارون الواثق، وأمه أم ولد رومية تسمّى

«فتيان»، وكثيراً ما يقال له: «ابن فتيان» للتمييز.

واستخلف أبوه المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وهو صغير ابن ثلاث سنواتٍ، فنشأ في دار الخلافة ورأى تصرّف القادة الأتراك، وقد عهد أبوه المتوكل لأولاده الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد بولاية العهد من بعده، وهم إخوة المعتمد بل إن أخاه المعتزّ أصغر منه بثلاث سنواتٍ، وهذا ما حزّ في نفسه، ثم عمل المتوكل على تقديم المعتزّ على أخيه المنتصر، ثم خلع المنتصر، ولم يلبث أن قُتل المتوكّل، واستخلف المنتصر، وخلع المعتزّ والمؤيّد أنفسهما من ولاية العهد بالضغط والإكراه فزاد ألم المعتمد من موضوع الخلافة.

وبويع عمه المستعين، ووقعت الفتن فخلع المستعين وبويع المعتزّ أخو المعتمد، فخلع أخاه المؤيّد، وسجنه، ثم أُخرج ميتاً. وهذا ما جعل المعتمد ينصرف إلى اللهو، ويبتعد عن موضوع الخلافة.

وخلع المعتزّ نفسه، وبويع ابن عمه المهتدي، وجاء أجل المعتزّ، وكان المهتدي صالحاً، فلم يجد المتلوّنون ولا القادة الأتراك راحةً بخلافته، وأرادوا خلعه فأبى فقضوا عليه. ويريدون خليفةً لاهياً لا يهتمّ بشؤون الرعية ولا يعمل لمصلحة الأمة بل ينصرف

للهوه، ويترك الأمور الأساسية بيد الآخرين يفعلون ما يشاؤون لذا اتجهت أنظارهم نحو المعتمد، غير أنه لا يريد هو ذلك بعد أن رأى خلع الخلفاء، والتخلّص منهم بالقتل بل لا يريد أحد أن ينزل هذا المنزل. وحتى يقبل بالخلافة عندما يطلبونه رأوا سجنه، فأدخلوه سجن «الجوسق».

وعندما قُتل المهتدي أخرجوا المعتمد على الله من السجن ونصّبوه خليفةً فقبل بذلك إذ رأى خليفةً مطيعاً منفذاً للأوامر حرّاً خارج السجن أفضل من سجينٍ لا يستطيع اللهو ولا يمكنه حرية الحركة.

خلافة المعتمد على الله:

بويع أحمد بن جعفر يوم الثلاثاء لأربع عشرة بقيت من شهر رجب سنة ستٍ وخمسين ومائتين، وسُمّي المعتمد على الله. وبُعث إلى موسى بن بُغا وهو بخانقين بموت محمد بن الواثق وبيعة المعتمد فوافى سامراء لعشرٍ بقين من شهر رجب.

ولي الوزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان لليلتين خلتا من شهر شعبان.

وكان الموفق طلحة أبو أحمد بن المتوكل في مكة

فقدم إلى سامراء لثلاث عشرة ليلةً خلت من شهر ذي الحجة.

الحركات:

كثرت الحركات أيام المعتمد على الله وذلك لاختلاف القادة وتباين المصالح ثم جاء لهو الخليفة وإهماله أمور الخلافة وانصرافه عنها إلى ما اعتاد عليه من لهوٍ.

١" ـ ظهر في الكوفة علي بن زيد الطالبي، فوجّه إليه الشاه بن ميكال في عسكرٍ كثيفٍ، فلقيه علي بن زيد في أصحابه، فهزمه وقتل عدداً كبيراً ممن معه، ونجا الشاه بن ميكال. ثم توجّه كنجور لقتال الطالبي.

٢" ـ ظهر في فارس محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي ومعه رجل من الأكراد يقال له: أحمد بن الليث، وتمكّنا من قتل والي فارس الحارث بن سيما الشرابي، وغلب محمد بن واصل على إقليم فارس. ثم عاد فدخل في طاعة السلطان سنة ٢٥٧هـ.

٣" ـ تغلّب جيش الحسن بن زيد الطالبي على الريّ.

٤" ـ ثار ابن عيسى بن الشيخ في دمشق، فأرسل له أماجور قوةً هُزمت أمام ابن عيسى بعد وقعةٍ جرت

بينهما على أبواب دمشق، فسار أماجور يرتاد عسكراً لنفسه، وكان ابن عيسى بن الشيخ وقائده أبو الصهباء في معسكرٍ لهما قرب دمشق، فبلغهما خبر خروج أماجور، وأنه خرج في نفرٍ يسيرٍ من أصحابه، فطمعا فيه، فزحفا بمن معهما إليه، ولا يعلم أماجور بزحفهما إليه حتى لقياه، ونشبت الحرب بين الفريقين، فقُتل أبو الصهباء، وهُزم الجمع الذي كان معه ومع ابن عيسى.

ثم رضي الخليفة عن ابن عيسى، فعيّنه نائباً على أرمينية، على أن ينصرف عن الشام آمناً، فقبل ذلك وغادر الشام إلى أرمينية.

٥" ـ دخل محمد وعلي ولدا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب المدينة، وقتلا جماعةً من أهلها، وطالبا سكان المدينة بمالٍ. وأن أهل المدينة لم يصلّوا في مسجد رسول الله ﷺ، أربع جمعٍ، لا جمعةً ولا جماعةً. وكان دخول الطالبيين المدينة في غرة صفر سنة ٢٧١هـ.

٦" ـ كان يعقوب بن الليث الصفار قد سيطر على كرمان، ودخل فارس ثم خرج منها سنة ٢٥٥هـ، غير أنه رجع فسار إلى فارس سنة ٢٥٧هـ، فبعث إليه المعتمد

طُغتا وإسماعيل بن إسحاق وأبا سعيد الأنصاري في شهر شعبان سنة ٢٥٧هـ، غير أن الموفّق رغب أن يستميل الصفّار إلى جانب الخلافة، فأرسل إليه كتاباً بولايته على بلْخ وطخارستان إلى ما يلي ذلك من كرمان وسجستان والسند وغيرها، وجعل له من المال في كل سنةٍ، فقبل الصفّار ذلك، وانصرف عن فارس. غير أنه دخل نيسابور مخالفاً محمد بن طاهر، كما دخل طبرستان، وأوقع بالحسن بن زيد، وكان هذا باسم السلطان.

ومات يعقوب بن الليث بالأهواز سنة خمسٍ وستين ومائتين، وخلفه أخوه عمرو بن الليث، وكتب عمرو إلى السلطان بأنه سامع له ومطيع.

الخوارج:

سيطر الخوارج على مدينة هراة، وانتحل رئيسهم عبد الرحمن الخلافة مدة ثلاثين سنةً، وأخيراً تمكّن يعقوب بن الليث الصفّار قتله عام ٢٥٩هـ.

وكان مساور بن عبد الحميد بن مساور البجليّ قد حكّم في بلده الموصل سنة ٢٥٢هـ، وأقام في «البوازيج» من أعمال الموصل قرب تكريت، وكان من قبل يتولّى شرطة الموصل، وبعدها انتقل إلى «الحديثة»

وبقيت تعدّياته، وانتصاراته على من يحاربه حتى توفي سنة ٢٦٣هـ في البوازيج، وهو يستعدّ للقاء جيش الخليفة.

واستولى أحمد بن عبد الله الخجستاني الخارجي عام ٢٦٧هـ على خراسان غير أن أحد جنوده قد قتله في آخر العام، وانتهت حركته.

الزنج:

وهي أهم الحركات التي شغلت الخلافة في هذه المرحلة.

وقد ذهب جُعلان سنة ٢٥٦هـ إلى البصرة لحرب صاحب الزنج علي بن محمد الورزنيني، فجهّز جُعلان عسكره فيها، وزحف منها باتجاه صاحب الزنج حتى بقي بينهما فرسخ، فخندق جُعلان على نفسه ومن معه، فأقام ستة أشهرٍ في خندقه، ثم وجّه جُعلان قوةً إلى صاحب الزنج، فلما التقوا لم يكن بينهم مجال لضيق الموضع بما فيه من النخل والدغل عن مجال الخيل، وأصحابه أكثرهم فرسان، فلم يكن بينهم سوى رمي بالحجارة والنشّاب.

ولما طال مقام جُعلان في خندقه بيّته صاحب الزنج فقتل جماعةً من رجاله، وروّع الباقيين، فاضطر

جُعلان ترك الخندق والانصراف إلى البصرة. وظهر للسلطان عجز جُعلان.

توجّه سعيد الحاجب لحرب صاحب الزنج.

ودخل صاحب الزنج بلدة «الأُبُلّة»[1] لخمسٍ بقين من شهر رجب سنة ٢٥٦هـ، وقتل فيها خلقاً كثيراً وأحرقها، فضعفت معنويات أهل عبادان، فاستسلموا لصاحب الزنج فدخل بلدهم، وأخذ ما فيها من العبيد والسلاح، وأطمعه ذلك بالأهواز، فاستنهض أصحابه إليها، فهرب أكثر أهلها، وانحاز واليها سعيد بن تكسين إلى الزنج، وثبت عامل الخراج إبراهيم بن المدبر مع جماعةٍ، فتمكّن الزنج من دخول الأهواز، وأسروا إبراهيم بن المدبر بعد أن ضُرب ضربةً على وجهه، وحوى الزنج ما كان يملك من مالٍ وأثاثٍ، وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان سنة ٢٥٦هـ.

أصاب الرعب أهل البصرة لما علموا ما حلّ بالأُبُلّة وعبادان والأهواز على أيدي الزنج، فرحل كثير من أهل البصرة عنها، وتفرّقوا في بلدان شتّى، وكثرت الشائعات والأراجيف بين العامة.

---

(١) الأُبُلّة: مدينة غير موجودة الآن، وكان موقعها بين البصرة والقرنة على شط العرب. فهي شمال البصرة.

ووصل إلى البصرة سعيد بن صالح المعروف بالحاجب لقتال صاحب الزنج، ثم انطلق لقتال الزنج، فالتقى بجيشٍ لهم فهزمهم، واستنقذ ما في أيديهم من النساء، وما نهبوه من المناطق التي دخلوها، وأصابت سعيداً في تلك الوقعة جراحات، منها جراحة في فمه. وسار سعيد يتابع صاحب الزنج، ويستعدّ للقائه، فبلغه أن جيشاً لصاحب الزنج بالفرات، فقصده وهزمه، وتوزّع الزنج في أدغال تلك المنطقة يختبئون.

واستطاع إبراهيم بن المدبر أن يتخلّص من سجن صاحب الزنج، ومعه ابن أخيه الذي يعرف بأبي غالب، ورجل معهما من بني هاشم، وكان ثلاثتهم في سجنٍ واحدٍ.

أمر صاحب الزنج علي بن محمد الورزنيني قائده يحيى بن محمد البحراني أن يُوجّه ألف رجلٍ من أصحابه بإمرة سليمان بن جامع وأبي الليث ليُباغتا سعيد الحاجب في معسكره ليلاً ويُوقعا به قبل طلوع الفجر، ففعل ذلك، فصارا إلى عسكر سعيدٍ، فصادف منهم غِرّةً وغفلةً، فأوقعا بهم وقعةً، فقتلا منهم مقتلةً عظيمةً، وأحرق الزنج يومئذٍ عسكر سعيدٍ، فضعف سعيد ومن معه، ودخل أمرهم خلل، وجاء الأمر إلى سعيدٍ

بالانصراف إلى باب السلطان وتسليم الجيش الذي معه وما إليه من العمل هناك إلى منصور بن جعفر.

لما صرف سعيد بن صالح المعروف بالحاجب عن البصرة أقام بُغراج بها يحمي أهلها، وجعل منصور بن جعفر يجمع السفن التي تأتي بالأغذية، فيأخذ ما فيها ويحمله إلى البصرة، ولا يدع شيئاً يصل إلى الزنج الذين ضاقوا ذرعاً بقلّة الأغذية، ثم جهز منصور نفسه وقواته وقصد صاحب الزنج في عسكره، ودخله فجاء الزنج، وكمنوا له كميناً، فقتلوا من أتباعه مقتلةً عظيمةً، واضطر من نجا منهم من الخوض في الماء للهرب فغرق منهم عدد كبير، وحُمل أناس ممن وقع في الأسر إلى معكسر يحيى بن محمد البحرانيّ أحد رجال صاحب الزنج.

كتب يحيى بن محمد البحرانيّ إلى سيّده صاحب الزنج يُشير عليه بتوجيه جيشٍ إلى الأهواز للإقامة بها، ويُرغّبه في ذلك، وأن يبدأ بقطع القنطرة التي على الطريق لئلا تصل الخيل إلى الجيش، فقبل صاحب الزنج الرأي، ووجّه عليّ بن أبان لقطع القنطرة فلقيه إبراهيم بن سيما منصرفاً من فارس فقاتله، فانهزم عليّ بن أبان، وقُتل من الزنج عدد كبير، وترك التوجّه إلى الأهواز.

التقى علي بن أبان أثناء عودته مع شاهين بن بسطام كاتب إبراهيم بن سيما، وجرت بينهما معركة حامية، وثبت فيها أصحاب شاهين، وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم صدمهم الزنج صدمةً قويةً، فولّوا منهزمين، وقد قتل شاهين وابن عمٍ له يدعى حيّان، وكانا أول القتلى حيث كانا في مقدّمة القوم. وأتى عليّ بن أبان مخبر فأخبره بقدوم إبراهيم بن سيما، فأسرع إليه، وهو معسكر هناك، لا يعلم خبر شاهين، فوافاه عليّ بن أبان في وقت العشاء الآخرة، فأوقع بعكسره وقعةً بشعةً قُتل فيها جمع كثير.

دخول الزنج البصرة:

ارتفعت معنويات صاحب الزنج وأتباعه بعد انتصارات علي بن أبان على شاهين بن بسطام وعلى إبراهيم بن سيما، وبعد الضيق الذي أصاب أهل البصرة لقلة التموين وخراب القرى التي حول البصرة فأزمع صاحب الزنج على الهجوم على البصرة وخرابها.

وجّه صاحب الزنج إلى عليّ بن أبان أن يُعسكر في إحدى ضواحي البصرة، وندب محمد بن يزيد الدارمي، وهو أحد من كان صحبه بالبحرين، للخروج إلى الأعراب، وأنفذه فأتاه منهم خلق كثير، فأناخوا

بإحدى ضواحي البصرة. كما تقدّم سليمان بن موسى على تدريب الأعراب.

أمر صاحب الزنج بنهوض عليّ بن أبان وضمّ إليه طائفة من الأعراب، وأمره بإتيان البصرة مما يلي بني سعد. وكتب إلى يحيى بن محمد البحراني، وهو يومئذٍ يحاصر البصرة، في إتيانها مما يلي نهر عديّ، وضمّ سائر الأعراب إليه. وكان عليّ بن أبان أول من نازل أهل البصرة، وبُغراج يومئذٍ بالبصرة في جماعةٍ من الجند، فأقام يُقاتل الزنج يومين ومال الناس نحوه.

أقبل يحيى بن محمد البحراني مما يلي قصر أنس قاصداً اتجاه الجسر، فدخل عليّ بن أبان المهلبيّ وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلةً بقيت من شوال سنة ٢٥٧هـ، فأخذ يقتل ويحرق يومي الجمعة والسبت مع الليل. ودخل يحيى غداة الأحد، فتلقّاه «بُغراج» و«بُرَيْه» في جمعٍ فردّاه، فرجع فأقام يومه ذاك، ثم دخل غداة الاثنين وقد تفرّق جند البصرة، وهرب «بُرَيْه»، وانحاز «بُغراج» بمن معه، فلم يكن في وجهه أحد يدافعه ولقيه إبراهيم بن يحيى المهلبيّ، فاستأمنه لأهل البصرة فآمنهم، ونادى منادي إبراهيم بن يحيى: من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم، فحضر غالبية أهل البصرة

حتى ملؤوا الرحاب. فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة في ذلك منهم، فأمر بأخذ الطرق والدروب لئلا يتفرّقوا، وغدر بهم، وأمر أصحابه بقتلهم، فقتل كل من شهد ذلك المشهد إلا الشاذّ، ثم انصرف يومه ذاك فأقام بقصر عيسى بن جعفر بالخُرَيْبة.

ودخل عليّ بن أبان المسجد الجامع فأحرقه، وأدركه غلام أبي شيث في جماعةٍ من البصريين، فانكشف عليّ وأصحابه عنهم، وقُتل من الزنج قوم، ورجع عليّ فعسكر في الموضع المعروف بمقبرة بني شيبان، فطلب الناس سلطاناً يقاتلون معه فلم يجدوه، وطلبوا بُرَيْهاً، فوجدوه قد هرب، وأصبح أهل البصرة يوم السبت، فلم يأتهم عليّ بن أبان، وغاداهم يوم الأحد، فلم يقف له أحد، وظفر بالبصرة.

وجّه السلطان إلى البصرة محمد المولّد لحرب صاحب الزنج، فانطلق من سامراء يوم الجمعة لليلةٍ خلت من ذي القعدة سنة ٢٥٧هـ، وعندما وصل إلى منطقة البصرة نزل «الأُبُلّة»، وجاء بُرَيْه ونزل البصرة، واجتمع إلى بُرَيْه خلق كثير من أهل البصرة ممن كان هرب. وكان يحيى بن محمد البحراني حين انصرف عن البصرة أقام على النهر المعروف بـ «الغوثي»، فلما قدم

محمد المولّد كتب صاحب الزنج إلى يحيى يأمره أن يُعسكر مقابل محمد المولّد، فعسكر وأخذ يحارب محمد المولّد عشرة أيامٍ، ثم فتر محمد المولّد عن الحرب، واستقرّ به المقام، فكتب صاحب الزنج إلى يحيى بن محمد البحراني يأمره أن يُبّيته، ووجّه إليه الشذا مع أبي الليث الأصبهاني، فبيّته، ونهض محمد المولّد بأصحابه، فقاتلهم بقية ليلته ومن غدٍ إلى العصر، ثم ولّى منصرفاً، ودخل الزنج عسكره، فغنموا ما فيه. فكتب يحيى بن محمد البحراني إلى صاحب الزنج بالخبر، فكتب إليه يأمره باتباعه، فاتبعه إلى الحوانيت، وانصرف فمرّ على القرى، واتبعه، فأوقع بأهل تلك القرى وانتهب كل ما كان فيها، وسفك ما قدر على سفكه من الدماء، ثم عسكر بـ «الجالة»، فأقام هناك مدةً، ثم رجع إلى معسكره الأول عند نهر «معقل».

وبعد أن أنهى صاحب الزنج أمر البصرة أمر عليّ بن أبان المهلّبيّ بالسير إلى «جُبّى» لحرب منصور بن جعفر، وهو يومئذٍ، بالأهواز، فخرج إليه، فأقام على مقربةٍ منه شهراً، وجعل منصور يأتي عسكر عليٍّ وهو مقيم بالخيزرانية، ومنصور إذ ذاك في عدد قليلٍ من الرجال، فوجّه صاحب الزنج إلى عليّ بن أبان باثنتي

عشرة شذاةً مشحونةً بأشدّ رجاله بأساً، وولّى أمرها أبا الليث الأصبهاني، وأمره بالسمع والطاعة لعليّ، فصار أبو الليث إلى عليّ، فأقام مخالفاً له، مستبداً بالرأي عليه. وجاء منصور للقتال فبدر إليه أبو الليث دون أخذ أمرٍ من عليّ بن أبان، فظفر منصور، وقتل عدداً كبيراً من الزنج، وأُفلت أبو الليث فانصرف إلى صاحب الزنج، كما انصرف عليّ إلى معسكره فأقام به شهراً ثم رجع إلى محاربة منصور ووجّه طلائع يأتونه بأخبار منصورٍ وعسكره، وبيّت عليّ والياً لمنصور فقتله، وقتل عامة من كان معه، وغنم ما كان في عسكره، وأصاب أفراساً، وأحرق العسكر، وانصرف من ليلته حتى صار في نهاية نهر «جُبّى». وبلغ الخبر منصوراً فسار حتى انتهى إلى الخيزرانية، فخرج إليه عليّ في جمعٍ من أصحابه وكانت الحرب بينهما منذ ضحى ذلك اليوم إلى وقت الظهر، ثم انهزم منصور وتفرّق عنه أصحابه، وانقطع عنهم، وأدركته طائفة من الزنج اتبعوا أثره، فلم يزل يكرّ عليهم حتى تقصّفت رماحه، ونفدت سهامه، ولم يبق معه سلاح، ثم حمل نفسه على النهر ليعبر، فوثب حصانه وقصرت رجلاه فانغمس في الماء، ووقع منصور في الماء، فأسرع إليه غلام من الزنج وقتله.

إن ما فعله الزنج في البصرة وأهلها قد أثار المسلمين جميعاً، فقد كان القتل والتمثيل بالجثث، والاعتداء على النساء والصغار، ونهب البيوت والأثاث، والسطو على المنازل، وإحراق الدور والمحلاّت، كل هذا كان يثير النفوس، فعبّر بعضهم عما في نفوسهم شعراً، وكتب بعضهم نثراً، وتكلّم الخطباء في المساجد. وكان مما قيل قصيدة لابن الرومي، يقول فيها:

ذادَ عن مُقلتي لذيذ المنام
شُغلها عنه بالدموع السجام
أيّ نومٍ من بعد ما حلّ بالبصـ
ـرة ما حلّ من هناتٍ عظام
أيّ نومٍ من بعد ما انتهك الزنـ
ـج جهاراً محارم الإسلام
إن هذا من الأمور لأمر
كاد أن لا يقوم في الأوهام
لهف نفسي عليك أيتها البصـ
ـرة لهفاً مثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا قبّة الإسـ
ـلام، لهفاً يطول منه غرامي

لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ
ـدان لـهـفـاً يـبـقى عـلى الأعـوام
لهف نفسي لجمعك المتفاني
لـهـف نفسي لعزّك المستضام
بـيـنـمـا أهـلـهـا بـأحـسـن حـالٍ
إذ رمـاهـم عـبـيـدهـم بـاصـطـلام
دخـلـوهـا كـأنّـهـم قـطـع الـلـيـ
ـل إذ راح مـدلـهـمّ الـظـلام
أيُّ هـول رأوا بـهـم أيّ هـول
حُقَّ منه يشيب رأس الغلام
إذ رمـوهـم بـنـارهـم من يـمـيـنٍ
وشـمـالٍ مـن خـلـفـهـم وأمـام
كم أغصّوا من شاربٍ بشرابٍ
كم أغصّوا من طاعمٍ بطعام
صَبَحوهم فكابد القوم منهم
طـولَ يـومٍ كـأنّـه ألـف عـام
ما تـذكّـرت مـا أتـى الزنـج إلّا
أضـرم الـقـلـب أيّـمـا إضـرام
عَرِّجا صاحبيّ بالبصرة الزهـ
ـراء تـعـريـج مُـدْنَـفٍ ذا سـقـام

فاسألاها ولا جوابَ لديها

لسؤالٍ، ومن لها بالكلام

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها

أين أسواقها ذوات الزحام

أين فُلْكٌ منها وفُلْكٌ إليها

منشآت في البحر كالأعلام

أين تلك القصور والدور فيها

أين ذاك البنيان ذو الإحكام

بُدّلت تلكم القصور تلالاً

من رمادٍ ومن تراب ركام

وخَلَتْ من حلولها فهي قفر

لا ترى العين بين تلك الأكام

غير أيدٍ وأرجلٍ بائناتٍ

نُبِذت بينهنّ أفلاق هام

ووجوهٍ قد رمّلَتْها دماء

بأبي تلكم الوجوه الدوامي

وُطِئَتْ بالهوان والذلّ قسراً

بعد طول التبجيل والإعظام

فتراها تسفي الرياح عليها

جارياتٍ بِهَبْوةٍ وقَتام

خاشعاتٍ كأنّها باكياتٌ

باديات الثغور لا لابتسام

أيّ خطبٍ وأيّ رُزْءٍ جليلٍ

نالها في أولئك الأعمام

واحيائي منهم إذا ما التقينا

وهمُ، عند حاكم الحكّام

أيّ غدرٍ لنا وأيّ جوابٍ

حين ندعى على رؤوس الأنام

أيا عبادي أما غضبتم لوجهي

ذي الجلال العظيم والإكرام

أخذلتم إخوانكم وقعدتم

عنهم ويحكم قعود اللئام

بأبي تلكمُ العظام عظاماً

وسقتها السماء صوْب الغمام

وعليها من المليك صلاة

وسلام مُؤكّد بسلام

انفروا أيها الكرام خِفافاً

وثقالاً إلى العبيد الطغام

أَبْرَموا أمرهم، وأنتم نيام

سوءةً سوءةً لنوم النيام

صدِّقوا ظنّ إخوةٍ أمَّلُوكم
وَرَجَوْكم لنوبة الأيّام
أَدْرِكوا ثأرهم فذاك لديهم
مثلُ ردّ الأرواح في الأجسام
لم تقرّوا العيون منهم بنصرٍ
فأقرّوا عيونهم بانتقام
أنقذوا سبيهم وقَلّ لهم ذا
ك حفاظاً ورعيةً للذمام
عارهم لازم لكم أيّها النا
س لأن الأديان كالأرحام
إن قعدتم عن اللعين فأنتم
شركاء اللعين في الآثام
بادروه قبل الروية بالعَزْ
م وقبل الإسراج بالإلجام
لا تُطيلوا المقام عن جنّة الخُلْ
د فأنتم في غير دار مُقام
فاشتروا الباقيات بالعَرَض الأد
نى، وبيعوا انقطاعه بالدوام

مقتل مفلح:

انطلق الموفّق طلحة أبو أحمد بن المتوكل بجيشٍ

كثيفٍ ذي عدةٍ وعتادٍ كاملين من سامراء إلى البصرة لقتال صاحب الزنج، وكان يحيى بن محمد البحراني مقيماً عند نهر معقل، فخاف أن يوافيه جيش السلطان وأصحابه متفرّقون فطلب من صاحب الزنج أن يُغيّر موقعه وألحّ عليه بذلك حتى أذن له، فخرج وتبعه أكثر الزنج.

وكان عليّ بن أبان المهلّبيّ مقيماً بـ «جُبّى» في جمعٍ كثيرٍ من الزنج، والبصرة غدت مغنماً للزنج يغدون إليها ويروحون لنقل ما تناله أيديهم. ووصل جيش أبي أحمد الموفّق وفيه مفلح إلى المنطقة، فلما انتهى إلى نهر معقل هرب من كان هناك من الزنج، ولحقوا بصاحبهم مرعوبين، فراع ذلك صاحب الزنج، فدعا برئيسين من رؤساء جيشه الذي كان هناك، فسألهما عن السبب الذي له تركا موضعهما، فأخبراه بما عاينا من عظم أمر الجيش الوارد، وكثرة عدد أهله وإحكام عُدّتهم، وأن الذي عاينا من ذلك لم يكن في قوتهما الوقوف له في العدّة التي كانا فيها، فسألهما: هل علما من يقود الجيش؟ فقالا: لا قد اجتهدنا في علم ذلك، فلم نجد من يصدقنا عنه. فوجّه صاحب الزنج طلائعه لتقصّي الخبر، فرجعت رسله إليه بتعظيم

أمر الجيش وتفخيمه، ولم يقف أحد منهم على من يقوده ويرأسه، فزاد ذلك في جزعه وارتياعه، فبادر لإرسال عليّ بن أبان، يعلمه خبر الجيش الوارد، ويأمره بالمصير إليه فيمن معه، ووافى الجيش، فأناخ بإزائه، فلما كان اليوم الذي كانت فيه الوقعة وهو يوم الأربعاء، خرج صاحب الزنج ليطوف في عسكره ماشياً، ويتأمّل الحال فيمن هو مقيم معه من حزبه، ومن هو مقيم بإزائه من أهل حربه، فإنه لقي ذلك إذ أتاه أبو دُلف وهو أحد قادة الزنج فقال له: إن القوم قد صعدوا، وانهزم عنهم الزنج، وليس في وجوههم من يردّهم. فصاح به وانتهره، وقال: اغرب عني فإنك كاذب فيما حكيت، وإنما ذلك جزع دخلك لكثرة ما رأيت من الجمع فانخلع قلبك، ولست تدري ما تقول. فخرج أبو دلف من بين يديه، وأقبل على كاتبه.

وكان جعفر بن إبراهيم السجّان قد أمر النداء في الزنج للخروج إلى موضع الحرب. وأتاه السجّان فأخبره أنه قد ندب الزنج فخرجوا، وأن أصحابه قد ظفروا، فأمره بالرجوع لتحريك الرجالة، فرجع ولم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى أصيب مفلح بسهمٍ.

وأتى صاحب الزنج بأحد الأسرى من أهل

فرغانة، فسأله عن رأس الجيش، فأعلمه بمكان أبي أحمد ومفلح، فارتاع لذكر أبي أحمد ـ وكان إذا راعه أمر كذّب به ـ فقال: ليس في الجيش غير مفلح، لأني لست أسمع الذكر إلاّ له.

ولما خرج أصحاب أبي أحمد على الزنج جزع الزنج جزعاً شديداً، وخرجوا من منازلهم، ولجؤوا إلى النهر المعروف بنهر أبي الخصيب ولا جسر يومئذٍ عليه، فغرق فيه عدد كبير من النساء والصبية، ولم يلبث صاحب الزنج إلا يسيراً حتى وافاه عليّ بن أبان في جمعٍ من أصحابه. ولم يلبث مفلح أن مات بسبب إصابته، وانحاز أبو أحمد إلى الأُبُلّة، ليجمع ما فرّقت الهزيمة من أصحابه، ويُجدّد الاستعداد.

فكان صاحب الزنج لا يدري كيف قُتل مفلح، فلما بلغه أنه أُصيب بسهمٍ، ولم ير أحداً ينتحل رميه ادّعى أنه كان الرامي له.

أسر يحيى بن محمد البحراني ومقتله:

لما وافى يحيى بن محمد البحراني لقيه عند فوهة النهر ثلاثمائة وسبعون فارساً من أصحاب والي الأهواز، فلما بصر بهم يحيى استقلّهم، ورأى كثرة من معه من الجمع مما لا خوف عليه معهم، فلقيتهم

أصحابه غير متخذين سبباً يردّ عنهم عاديتهم، فرشقهم أصحاب الوالي بالسهام، فأكثروا فيهم الجراح، فلما رأى يحيى ذلك أمر عشرين ومائة فارسٍ أن يعبروا النهر إليهم، وضمّ إليهم من الرجالة جمعاً كبيراً، وانحاز أصحاب الوالي عنهم، وولج يحيى ومن معه نهر العباس، وذلك وقت قلّة الماء في النهر، وسفن القوافل جانحة على الطين، فلما أبصر أصحاب تلك السفن بالزنج تركوا سفنهم، فحازها الزنج، وغنموا ما كان فيها، ومضوا بها متوجّهين نحو البطيحة، وبعث يحيى بالخيل التي كانت معه إلى قائد الزنج، وجعل معها أبا الليث الأصبهاني. وكان صاحب الزنج قد وجّه إلى يحيى البحراني يعلمه قدوم الجيش الذي ورد عليه، ويأمره بالحذر من منصرفه من أن يلقاه أحد منهم، فوجّه البحراني الطلائع إلى دجلة فانصرفت طلائعه وجيش أبي أحمد منصرف من الأُبُلّة، وكان سبب رجوع جيش أبي أحمد أن رافع بن بسطام وغيره قد كتبوا إلى أبي أحمد يعلمونه خبر يحيى البحراني وكثرة جمعه، فرغب أن يسبق إلى موقعٍ يعسكر به، ويمنعه الميرة، ويحول بينه وبين من يأتيه أو يصدر عنه.

وجّه أبو أحمد عند رجوعه من الأُبُلّة قوةً بإمرة

طاشتمر التركي لقتال يحيى فما رأى الزنج عدوهم قادماً نحوهم حتى أصابهم الرعب، وألقوا أنفسم بالماء، ولم يبق مع يحيى سوى بضعة عشر رجلاً، فنهض يحيى وتلقّى القوم الذين أتوه بمن معه ولكن وابلاً من السهام غمرهم فأُثخنوا بالجراح، وأُصيب يحيى بثلاثة أسهمٍ في عضديه وساقه اليسرى، فلما رآه أصحابه جريحاً تفرّقوا عنه، وأثقلت يحيى الجراحات التي أصابته، فلما رأى الزنج ما نزل به من الجراح اشتدّ جزعهم، وضعفت قلوبهم، فتركوا القتال، وكان همّهم النجاة بأنفسهم، وحاز أصحاب السلطان الغنائم التي كانت في السفن بالجانب الغربي من النهر، ثم عبروا إلى شرقي النهر فأحرقوا هناك السفن التي كانت بأيدي الزنج. وألقى يحيى نفسه ومن معه على الأرض في زرعٍ كان هناك. وخرج يحيى يمشي وهو مثقل، حتى ألقى نفسه، فأقام بموضعه ليلته تلك، فمرّ قوم به فرأوه فدلوا عليه، فأُخِذ. فانتهى خبره إلى صاحب الزنج، فاشتدّ لذلك جزعه، وعظُم عليه توجّعه.

حُمل يحيى بن محمد الأزرق البحراني إلى الموفّق أبي أحمد، فحمله أبو أحمد إلى المعتمد بسامراء، ودخلوا سامراء يوم الأربعاء لتسعٍ خلون من

شهر رجب سنة ثمانٍ وخمسين ومائتين، وقتل في اليوم التالي.

انتقال الموفّق إلى واسط:

كثرت الأمراض في جند الموفّق أبي أحمد، وفشا فيهم الموت فالمنطقة موبوءة على ما يظهر، فانتظر حتى عوفي من مرضه الذين نجوا من الموت، ثم انتقل من مكانه، فأصلح عتاده، وجدّد آلاته، وشحذ همّة عسكره، ونهض لقتال صاحب الزنج، ووجّه جماعةً من قواده إلى مواضع سمّاها لهم على ضفاف نهر أبي الخصيب وغيره، وأمر جماعةً بلزومه والمحاربة معه في الموضع الذي يكون فيه، ووقع القتال إذ التقى الفريقان على نهر أبي الخصيب، وبقي الموفّق في قلّةٍ من أصحابه فلم يغادر موضعه إشفاقاً من أن يطمع فيه الزنج، وعرف الزنج موضعه، فكثروا عليه، واستعرت الحرب، وكثر القتل والجراح بين الفريقين، وأحرق أصحاب الموفق قصوراً ومنازل من منازل الزنج، واستنقذوا من النساء جمعاً كثيراً. وصرف الزنج جمعهم وبذلوا جهدهم إلى الموضع الذي كان به الموفّق، فظهر على الشذا، وتوسّط الحرب محرّضاً أصحابه حتى أتاه من جمع الزنج ما عَلِمَ أنه لا يقاوم بمثل العدّة اليسيرة

التي كان فيها، فرأى أن الحزم في محاجزتهم، فأمر أصحابه عند ذلك بالرجوع إلى سفنهم على تُؤدةٍ ومهلٍ، فصار أبو أحمد الموفق إلى الشذا التي كان فيها بعد أن استقرّ أكثر الناس في سفنهم، وبقيت طائفة من الناس، ولجؤوا إلى تلك الأدغال، فانقطعوا عن أصحابهم، فخرجت عليهم كمائن الزنج فدافعوا عن أنفسهم، وقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتلوا عدداً كثيراً من الزنج، غير أن قلّتهم قد جعلت الزنج يقضون عليهم، وهذا ما زاد من عتو صاحب الزنج، وانصرف الموفق أبو أحمد في الجيش إلى موقعٍ منعزلٍ، وأقام يُعبىء أصحابه للرجوع إلى الزنج، غير أن ناراً قد اشتعلت في طرفٍ من أطراف عسكره، فاحترق العسكر، ورحل الموفق منصرفاً إلى واسط.

ومن واسط ارتحل الموفّق أبو أحمد إلى سامراء فوصل إليها يوم الجمعة لأربعٍ بقين من ربيع الأول سنة تسعٍ وخمسين ومائتين، وذلك بعد أن استخلف محمد المولد على واسط وحرب صاحب الزنج.

دخول الزنج الأهواز:

لم يدرِ صاحب الزنج بالحريق الذي أصاب عسكر الموفق أبي أحمد، ولم يعلم خبره إلا بعد ثلاثة أيامٍ،

ورد به عليه رجلان من أهل عبادان، فأخبراه، فعاد للفساد في الأرض، وانقطع عنه مورد الأرزاق، فأنهض عليّ بن أبان المهلّبيّ، وضمّ إليه أكثر الجيش، وسار معه سليمان بن جامع، وضمّ إليه أكثر الجيش الذي كان مع يحيى بن محمد البحراني وسليمان بن موسى الشعراني، وقد ضمّت إليه الخيل. والمتولّي للأهواز يومئذٍ رجل يقال له: «أصغجون» ومعه «نيزك» في جماعةٍ من القواد.

سار عليّ بن أبان المهلّبيّ نحو الأهواز، ونهض إليه «أصغجون» في أصحابه، والتقى الجمعان، ودارت الدائرة على أهل الأهواز إذ قُتل نيزك، وغرق أصغجون، وأُسر الحسن بن هرثمة، والحسن بن جعفر. ودخل علي بن أبان الأهواز فأقام فيها يعيث الفساد، وكتب إلى صاحب الزنج بالموقعة التي دارت بين الفريقين.

قتال موسى بن بُغا للزنج:

وجّه المعتمد لحرب صاحب الزنج موسى بن بُغا وذلك لثلاث عشرة بقيت من ذي القعدة سنة تسعٍ وخمسين ومائتين، وشيعه المعتمد إلى خلف الحائطيْن، وخلع عليه هناك.

وجّه موسى بن بُغا إلى الأهواز عبد الرحمن بن مفلح، وإلى البصرة إسحاق بن كُنْداج، وإلى باذاورد إبراهيم بن سيما، فاتجه كل من هؤلاء إلى وجهته التي أُمر بها.

لما وافى عبد الرحمن بن مفلح الأهواز أقام بقنطرة «أربُك» عشرة أيامٍ، ثم مضى إلى علي بن أبان المهلّبيّ، فالتقى معه، فاقتتلا قتالاً شديداً، فانتصر المهلبيّ، وافترقا، ثم استعدّ وعاد لمحاربته، فانتصر عليه نصراً مُؤزّراً، وقتل من الزنج قتلاً ذريعاً، كما أسر أعداداً كبيرةً، وانهزم عليّ بن أبان، وأُفلت ومن معه من الزنج، حتى وافوا «بيانا» فأراد صاحب الزنج ردّهم، فلم يرجعوا للذعر الذي خالط قلوبهم، فلما رأى ذلك أذن لهم في دخول عسكره، فدخلوا جميعاً فأقاموا بمدينته.

ووافى عبد الرحمن بن مفلح حصن المهدي ليعسكر به، فوجّه إليه صاحب الزنج عليّ بن أبان، فالتقى معه فلم يقدر عليه، ومضى عليّ بن أبان يريد معسكراً، وإبراهيم بن سيما يومئذٍ بـ «الباذاورد» فالتقى علي وإبراهيم فهُزم عليّ، وعادا للقتال فهُزم عليّ ثانيةً، فمضى في الليل وأخذ معه أدلّاء، فسلكوا به الآجام

والأدغال حتى وافى نهر يحيى، ووصل خبره إلى عبد الرحمن بن مفلح، فبعث إليه قوةً من الموالي، فلم تستطع الوصول إليه لوعورة المكان، وامتناعه بالقصب، فأضرم النار بالقصب، فخرجوا منه هاربين، فأسر منهم أسرى، فحملوا إلى عبد الرحمن بن مفلح مع بشائر النصر.

وكتب علي بن أبان إلى صاحب الزنج يستمدّه ويسأله التوجيه إليه بالشذاءات فوجّه إليه ثلاث عشرة شذاةً، فيها جمع كثير من أصحابه، فسار عليّ ومعه الشذا حتى وافى عبد الرحمن، وخرج إليه عبد الرحمن بمن معه، ولم يكن بينهما قتال، وتوقّف الجيشان يومهما ذلك، فلما كان الليل، انتخب عليّ بن أبان من أصحابه جماعةً يثق بصبرهم وجَلَدِهم، ومضى فيهم ومعه سليمان بن موسى المعروف بالشعراني، وترك سائر عسكره مكانه ليخفي أمره، فصار من وراء عبد الرحمن، ثم بيّته في عسكره، فنال منه ومن أصحابه نيلاً، وانحاز عبد الرحمن عنه، وخلّى أربع شذوات من شذواته، فأخذها عليّ وانصرف، ومضى عبد الرحمن لوجهه حتى وافى موضعاً مناسباً فأقام به، وأعدّ رجالاً من رجاله، وولّى عليهم «طاشتمر»،

وأنفذهم إلى عليّ بن أبان، فوافوه بنواحي باب آزر، وأوقعوا به وقعةً، انهزم منها إلى نهر «السدرة»، وكتب «طاشمتر» إلى عبد الرحمن بانهزام عليّ عنه، فأقبل عبد الرحمن بجيشه إلى المنطقة، فأقام بها، واستعدّ أصحابه للحرب، وهيّأ شذواته وولّى عليها «طاشمتر»، فسار إلى بداية نهر السدرة، فنازل عليّ بن أبان فكانت وقعة عظيمة انهزم منها عليّ، وأُخذ منه عشر شذوات، ورجع عليّ إلى صاحب الزنج مغلولاً مهزوماً، وسار عبد الرحمن من فوره، فعسكر ببيان، فكان عبد الرحمن بن مفلح، وإبراهيم بن سيما يشنّان الهجوم على عسكر صاحب الزنج، فيوقعان به، ويخيفان من معه، وإسحاق بن كُنداج يومئذٍ مقيم بالبصرة يمنع وصول الأقوات إلى صاحب الزنج، فكان صاحب الزنج يجمع أصحابه في اليوم الذي يخاف فيه موافاة عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما حتى ينتهي القتال إن وقع، ثم يصرف فريقاً منهم إلى ناحية البصرة فيقاتل بهم إسحاق بن كُنداج، فأقاموا على ذلك بضعة عشر شهراً إلى أن صُرف موسى بن بُغا عن قتال صاحب الزنج، ووُلِّيه مسرور البلْخيّ حيث وصل الخبر إلى صاحب الزنج.

وحُمل جماعة من الزنج إلى سامراء، وكانوا قد وقعوا بالأسر في الأهواز، فوثبت العامة بهم فقتلت أكثرهم لما كان يُسمع عن فسادهم وسوء أعمالهم.

توجّه عبد الرحمن بن مفلح إلى ناحية فارس بأمر من السلطان، وتولّى أمر الأهواز ومحاربة صاحب الزنج أبو الساج، وجرت معركة بين عبد الرحمن صهر أبي الساج وبين عليّ بن أبان المهلّبيّ، قُتل فيها عبد الرحمن، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مكرم، ودخل الزنج الأهواز، فقتلوا، وسبوا وانتهبوا، وأحرقوا، ثم صُرف أبو الساج عما كان إليه من عمل الأهواز وحرب الزنج، ووُلِّي ذلك إبراهيم بن سيما، فلم يزل مقيماً على عمله حتى انصرف عنه بانصراف موسى بن بغا عمّا كان إليه من عمل المشرق.

ضمّ المعتمد عمل المشرق إلى أخيه الموفّق أبي أحمد فولّى مسروراً البلخيّ الأهواز والبصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين وذلك في شهر شعبان من سنة إحدى وستين ومائتين، هذا إضافةً إلى حرب صاحب الزنج. فسار مسرور البلخي من سامراء مُقدّمةً للموفق لسبعٍ خلون من ذي الحجة سنة إحدى وستين ومائتين، وخلع عليه وعلى أربعةٍ وثلاثين من قواده، وشيّعه وليّا العهد،

ثم تبعه الموفّق من سامراء لتسعٍ بقين من شهر ذي الحجة أي انطلق الموفّق من سامراء بعد خروج مسرور البلْخيّ بأربعة عشر يوماً.

وتعدّدت الوقائع بين قادة مسرور وبين الزنج غير أنها كانت وقعات هامشية، ثم إن مسروراً البلْخيّ قد وجّه أحمد بن ليثويه إلى ناحية كور الأهواز، فلما وصل إليها نزل السوس. وكان الصفّار قد قلّد محمد بن عبيد الله بن أزاذَمَرْد الكردي كور الأهواز، فكتب محمد بن عبيد الله إلى قائد الزنج يُطمعه في الميل إليه، وقد كانت العادة جرت بمكاتبة محمد إياه من أول مخرجه، وأوهمه أنه يتولّى له كور الأهواز ويداري الصفّار حتى يستوي له الأمر فيها، فأجابه صاحب الزنج إلى ذلك على أن يكون عليّ بن أبان المهلّبيّ المتولّي لها، ويكون محمد بن عبيد الله يخلفه عليها، فقبل محمد بن عبيد الله ذلك، فوجّه عليّ بن أبان أخاه الخليل بن أبان في جمعٍ كبيرٍ من الزنج وغيرهم، وأيّدهم محمد بن عبيد الله بأبي داود الصعلوك، فمضوا نحو السوس، فلم يصلوا إليها، ودفعهم أحمد بن ليثويه ومن كان معه من أصحاب السلطان عنها، فانصرفوا مغلولين، وقد قُتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم

جماعة، وسار أحمد بن ليثويه حتى نزل «جنديسابور».

وسار عليّ بن أبان من الأهواز منجداً محمد بن عبيد الله على أحمد بن ليثويه، فتلقّاه محمد بن عبيد الله في جمعٍ من الأكراد والصعاليك، فلما قرب منه محمد بن عبيد الله سارا جميعاً، وبينهما وادٍ، فكانا يسيران عن جانبيه، ووجّه محمد بن عبيد الله رجلاً من أصحابه في ثلاثمائة فارس، فانضم إلى علي بن أبان، فسار علي بن أبان ومحمد بن عبيد الله إلى أن وافيا عسكر مكرم، فصار محمد بن عبيد الله إلى عليّ بن أبان وحده، فالتقيا وتحادثا، وانصرف محمد إلى عسكره، ووجّه إلى عليّ بن أبان القاسم بن عليّ، ورجلاً من رؤساء الأكراد، يقال له حازم، وشيخاً من أصحاب الصفّار يُعرف بالطالقاني، وأتوا عليّاً، وسلّموا عليه، ولم يزل محمد وعليّ على ألفةٍ، إلى أن وافى عليّ قنطرة فارس، ودخل محمد عبيد الله «تُسْتَر». وانتهى إلى أحمد بن ليثويه تضافر عليّ بن أبان ومحمد بن عبيد الله على قتاله، فخرج عن جند يسابور، وصار إلى السوس. وكانت موافاة عليّ بن أبان قنطرة فارس يوم الجمعة، وقد وعده محمد بن عبيد الله أن يخطب الخطيب يومئذٍ، فيدعو لقائد الزنج، وله على

منبر تُسْتَر، فأقام عليّ منتظراً ذلك، ووجّه بهبوذ بن عبد الوهاب لحضور الجمعة وإتيانه بالخبر، فلما حضرت الصلاة قام الخطيب فدعا للمعتمد والصفّار ومحمد بن عبيد الله، فرجع بهبوذ إلى عليّ بن أبان بالخبر، فنهض عليّ من ساعته، فركب دوابه، وأمر أصحابه بالانصراف إلى الأهواز، وقدّمهم أمامه وقدّم معهم ابن أخيه محمد بن صالح، ومحمد بن يحيى الكرماني خليفته وكاتبه، وأقام حتى إذا جاوزوا كسر قنطرةً كانت هناك لئلا تتبعه الخيل.

تبع علي بن أبان أصحابه، ومضى حتى صار إلى الأهواز، ولما انتهى إلى أحمد بن ليثويه كرّ عليّ راجعاً، واستمر أحمد حتى وافى تُسْتَر، فأوقع بمحمد بن عبيد الله ومن معه، فأفلت محمد، ووقع في يده أبو داود الصعلوك، فحمله، إلى باب السلطان المعتمد، وأقام أحمد بن ليثويه بتُسْتَر.

ولما استقرّ أحمد بن ليثويه بتُسْتَر، خرج إليه عليّ بن أبان بجيشه، فنزل قريةً يقال لها «برنجان» ووجّه طلائعه يأتونه بأخباره، فرجعوا إليه، فأخبروه أن ابن ليثويه قد أقبل نحوه، وأن أوائل خيله قد وافت قرية الباهليين، فزحف عليّ بن أبان إليه، وهو يُبشّر

أصحابه، ويعدهم الظفر، ويحكي لهم ذلك عن صاحب الزنج. فلما وافى قرية الباهليين تلقّاه ابن ليثويه في خيله، وهي زهاء أربعمائة فارسٍ، فلم يلبثوا أن أتاهم مدد خيلٍ، فكثرت خيل أصحاب السلطان، واستأمن جماعة من الأعراب الذين كانوا مع عليّ بن أبان إلى أحمد بن ليثويه، وانهزمت خيل عليّ بن أبان، وثبت جماعة من الرجالة، وتفرّق عنه أكثرهم، واشتدّ القتال بين الفريقين، وترجّل عليّ بن أبان، وباشر القتال بنفسه راجلاً، وبين يديه غلام من أصحابه يقال له «فتح»، يعرف بغلام أبي الحديد، فجعل يقاتل معه، وعُرف علي بن أبان، فانصرف هارباً حتى لجأ إلى وادي المسُرقان، فألقى بنفسه فيه، وتبعه فتح، فألقى نفسه معه، فغرق فتح، ورُمي عليّ بن أبان بسهمٍ فأُصيب به في ساقه، وأُخرج من الماء، وانصرف مغلولاً، وقُتل من أبطال الزنج جماعة كبيرة. ومضى عليّ بن أبان إلى عسكر صاحب الزنج، فعالج ما قد أصابه من الجراح حتى برىء.

كرّ عليّ بن أبان راجعاً إلى الأهواز بعد أن برئت جراحه، ووجّه أخاه الخليل بن أبان وابن أخيه محمد بن صالح المعروف بأبي سهل في جيشٍ كثيفٍ إلى

أحمد بن ليثويه، وهو مقيم يومئذٍ بعسكر مكرم، فسارا فيمن معهما، فلقيهما أحمد بن ليثويه على فرسخ من عسكر مكرم، وقد كمن ابن ليثويه كميناً، فلما استحرّ القتال تطارد ابن ليثويه، فطمع فيه الزنج، فتبعوه حتى جاوزوا الكمين، فخرج من ورائهم، فانهزموا وتفرّقوا، وكرّ عليهم ابن ليثويه، فنال منهم، ورجعوا مغلولين، وانصرف هو إلى تُسْتر.

وجّه عليّ بن أبان قوّةً مسلحةً إلى أحمد بن ليثويه فوجّه إليه ثلاثين فارساً من أشدّ أصحابه، وانتهى إلى الخليل بن أبان مسير أصحاب ابن ليثويه للقاء القوة القادمة إليه، فكمن لهم فيمن معه، فلما وافوه خرج إليهم فلم يفلت منهم أحد، وقُتلوا عن آخرهم، ووصلت الأنباء إلى عليّ بن أبان، فبعثها إلى صاحب الزنج، وحينئذٍ أتى الصفّار الأهواز، وهرب عنها ابن ليثويه.

لما صار يعقوب بن الليث الصفّار إلى جنديسابور، نزلها وارتحل عن تلك الناحية كل من كان بها من جند السلطان، ووجّه إلى الأهواز رجلاً من قبله يقال له: «الحصن بن العنبر» فلما اقترب منها خرج عنها عليّ بن أبان قائد صاحب الزنج، فنزل نهر السدرة، ودخل حصن بن العنبر الأهواز، فأقام بها،

وجعل أصحابه وأصحاب عليّ بن أبان يُغير بعضهم على بعضٍ، فيصيب كل فريقٍ منهم من صاحبه، إلى أن استعدّ عليّ بن أبان، وسار إلى الأهواز، فأوقع بالحصن بن العنبر ومن معه وقعةً منكرةً، قتل فيها من أصحاب الصفّار عدداً كبيراً، وأصاب خيلاً، وغنم غنائم كثيرة، وهرب الحصن بن العنبر ومن معه إلى عسكر مكرم، وأقام عليّ بن أبان بالأهواز حتى استباح ما كان فيها، ثم رجع عنها إلى نهر السدرة، وكتب إلى بهبوذ يأمره بالإيقاع برجلٍ من الأكراد من أصحاب يعقوب بن الليث الصفّار كان مقيماً بـ «دورق»، فأوقع به بهبوذ، فأسره وقتل رجاله، ثم منّ عليه وأطلقه، فكان عليّ بن أبان بعد ذلك يتوقّع مسير الصفّار إليه، غير أنه لم يسر، ولكن أمدّ الحصن بن العنبر بأخيه الفضل بن العنبر، وأمرهما بالكفّ عن قتال رجال صاحب الزنج، والاقتصار على المقام بالأهواز. وكتب إلى علي بن أبان يسأله المهادنة، وأن يقرّ أصحابه بالأهواز، فأبى ذلك عليّ دون نقل طعامٍ كان هناك، فلم يقبل الصفّار نقل ذلك الطعام، كما رفض عليّ أن ينقل الصفار علفاً كان هناك. ثم نقل علي بن أبان الطعام، وترك العلف، وتكافّ الفريقان أصحاب عليّ بن أبان وأصحاب الصفّار.

وكذلك انتصر سليمان بن جامع أحد قادة الزنج على تكين وأصحابه وغنم معسكره وأحرق ما فيه.

دخول الزنج واسط:

مضى سليمان بن جامع إلى صاحب الزنج فاعترضه أصحاب جُعلان وأوقعوا به هزيمة فرجع مغلولاً حتى وافى قرية «طهيثا»، فأخبره أهل القرية أن منجور مولى أمير المؤمنين ومحمد بن علي بن حبيب اليشكريّ لما علما غيبة سليمان بن جامع عن قرية «طهيثا» اجتمعا وجمعا أصحابهما، وقدما القرية، فقتلا ما استطاعا قتله، وأحرقا فيها، وانصرفا، وجلا من أُفلت ممن كان فيها، فصاروا إلى القرية المعروفة بالحجّاجية، فأقاموا بها. فأنهض قائد الزنج سليمان إلى «طهيثا» معجلاً، فوافاها، فأظهر أنه يقصد قتال جُعلان، وعبّأ جيشه، وقدّم الجبائيّ أمامه وجعل معه فرساناً ورجالةً، وأمره بموافاة «مازروان» والوقوف مقابل عسكر جُعلان، وأن يُظهر الخيل بحيث يراها أصحاب جُعلان، ولا يوقع بهم، وركب سليمان بن جامع في جيشه جميعه إلا نفراً يسيراً خلّفهم في عسكره، ومضى إلى الأهواز، وسار نحو محمد بن علي بن حبيب اليشكريّ فوافاه فأوقع به وقعةً شديدةً، قتل فيها كثيراً من جيشه، وأخذ خيلاً كثيرة، وحاز غنائم جزيلةً، وقتل أخاً

لمحمد بن علي بن حبيب اليشكري، وأُفلت مخمد، ورجع سليمان بن جامع، وفي طريق عودته وافته خيل لبني شيبان، وقتلت عمير بن عمار أحد قادته، وذلك لأن سليمان كان قد قتل سيداً من سادات بني شيبان، وصعُب على صاحب الزنج مقتل عمير.

ونهض سليمان بن جامع في جمعٍ من أصحابه حتى وافى قرية «حسّان»، وفيها قائد من قواد السلطان يُدعى جيش بن حمرتكين، فأوقع به، ودخل القرية، فانتهبها، وأحرق دورها، وعاث الفساد فيما حولها، وعاد إلى عسكره، وبعدها سيّر الجبّائي إلى بعض المناطق فأدّى دوره في الإفساد من نهبٍ وحرقٍ وإتلاف، واستمرّت حملات الزنج في تلك الجهات، والبلاء يعمّ السكان فيُجلون عن بلادهم عند سماع قدوم الزنج. وكتب سليمان إلى صاحب الزنج بإرسال الشذا إليه، فبعث إليه عشر شذوات مع رجلٍ من أهل عبادان يدعى الصقر بن الحسين، فلما وصلت إليه أظهر أنه يريد جُعلان، ووصل الخبر إلى جُعلان فاستعدّ، فلما قرب سليمان مال إليه جُعلان، وأوقع به، وأصاب ستّ شذواتٍ. ولكن سليمان أوقع به من جهةٍ ثانيةٍ واسترجع سفنه، ونهب المنطقة.

وكتب سليمان بن جامع إلى صاحب الزنج يستمدّه فوجّه إليه الخليل بن أبان في زهاء ألف وخمسمائة فارسٍ، فلما وصل المدد إليه توجّه لحرب محمد المولد، فأوقع به، فهرب محمد المولد، ودخل الزنج واسطاً، فقتلوا بها خلقاً كثيراً، وانتهبوها، وأحرقوا أكثر نواحيها. وكان بها إذ ذاك «كنجور» البخاريّ فذاد يومه ذاك إلى وقت العصر، ثم قُتل. وبعد أن أفسد سليمان بن جامع ما أفسد في واسط مضى بالجيش إلى جُنْبُلاء ليفسد ويُخرّب. ووقع اختلاف بينه وبين الخليل بن أبان فكتب الخليل إلى أخيه عليّ، فاستعفى له صاحب الزنج من المقام مع سليمان، وأذن للخليل بالعودة إلى مدينة صاحب الزنج.

كان عامل الموفّق أبي أحمد علي جُنْبلاء هو أحمد بن ليثويه، فلما جاء سليمان بن جامع إلى جُنْبُلاء، وأخذ بالفساد تصدّى له أحمد بن ليثويه، وكانت بينهما معركة حامية، هُزم فيها سليمان، وقُتل كثير من قادته، وعدد لا يُحصى من أصحابه، واستبيح معسكره، وأُحرقت سفنه، ومضى مهزوماً مغلولاً حتى وافى قرية «طهيثا»، وبقي فيها حتى وصل إليه خبر إقبال الموفق أبي أحمد.

قدوم الموفّق إلى الأهواز:

قرّر الموفّق السير بنفسه لقتال صاحب الزنج بعد إذن أخيه أمير المؤمنين المعتمد. وفي شهر ذي الحجة سنة خمسٍ وستين مضى مسرور البلْخي مقدمةً للموفّق، فتنحّى عن المنطقة عبد الله بن ليثويه في أصحاب أخيه أحمد، وأظهر الخلاف على السلطان، ثم انقاد ومن معه لمسرور البلْخيّ بالسمع والطاعة، واعتذر عما بدر منه، وأقسم أنه حُمل على ما فعل، فقبل منه، وأمر فخلع عليه وعلى عددٍ من القواد معه.

وسار إلى الأهواز تكين البخاريّ مقدمةً لمسرور البلْخي، وقد ولاّه الموفّق أبو أحمد كور الأهواز فاتّجه إليها، فوافاها، وقد صار إليها أيضاً قائد الزنج عليّ بن أبان المهلّبيّ، وقصد تُسْتَر، وأحاط بها في جمعٍ كثيرٍ من الزنج، فخاف أهلها، وكادوا أن يُسلموها، فوافاها تكين البخاريّ في تلك الحال، فلم يضع عنه ثياب السفر حتى نازل عليّ بن أبان وأصحابه، فدارت الدائرة على الزنج، فهُزموا، وتفرّقوا، وقُتل منهم عدد كبير، وانصرف عليّ بن أبان مهزوماً مدحوراً، وهذه هي وقعة باب كُودَك المشهورة.

ونزل تكين البخاريّ تُسْتَر، وانضمّ إليه عدد كبير،

ورحل إليه عليّ بن أبان في جمعٍ كبيرٍ من الزنج، فنزل شرقي المسُرقان، وجعل أخاه في الجانب الغربي في جماعةٍ من الفرسان، وجعل رجالة الزنج معه، وقدّم فئةً من قواد الزنج، وأمرهم بالمقام بقنطرة فارس.

وانتهى الخبر بما دبّره عليّ بن أبان إلى تكين البخاريّ، وقد نقل إليه الخبر غلام يقال له: وصيف الرومي، وقد هرب إليه من عسكر عليّ بن أبان، وأعلمه بمقام هؤلاء بقنطرة فارس، وتشاغلهم بالشراب، وتفرّق أصحابهم في جمع الطعام، فسار إليهم تكين البخاريّ ليلاً في جمعٍ من أصحابه، فأوقع بهم، فقتل عدداً من قواد الزنج، وانهزم الباقون، فلحقوا بالخليل بن أبان، فأعلموه بما نزل بهم.

وسار تكين البخاريّ إلى شرقي المسُرقان حتى لقي عليّ بن أبان في جمعه، فلم يقف له عليّ، وانهزم عنه، ورجع عليّ بن أبان وأخوه الخليل في جمعهما إلى الأهواز، ورجع تكين البخاريّ إلى تُسْتَر.

وكتب عليّ بن أبان إلى تكين يسأله الكفّ عن غلامه الذي أسره وهو جعفرويه، فحبسه، وجرت بين تكين البخاريّ وعليّ بن أبان المهلّبيّ مراسلات وملاطفات، وانتهى الخبر بها إلى مسرور البلْخيّ

فأنكرها، وانتهى إلى مسرور أن تكين ساءت طاعته، وركن إلى عليّ بن أبان ومال إليه.

وسار مسرور البلخيّ وهو مظهر الرضا عن تكين، ولما وصل مسرور إلى وادي تُسْتَر فبعث إلى تكين فعبر الوادي وأتاه مسلّماً، فأمر به فأُخذ سيفه، فتفرّق جيشه عنه، ووضع تكين في السجن، وبقي فيه حتى وافاه الأجل. وبسط مسرور البلخي الأمان لمن بقي من جيش تكين فلحقوا به.

وتولّى أغرتمش ما كان تكين البخاري يليه من الأهواز، فسار أغرتمش فدخلها في شهر رمضان سنة ستّ وستين ومائتين. ووجه مسرور البلخي «أغرتمش» و«أبّا» ومطر بن جامع لقتال عليّ بن أبان، فساروا حتى انتهوا إلى تُسْتَر، فأقاموا بها، وأخرجوا من كان في السجن الذي كان فيه تكين، فقتلوا جميعاً، وكان فيه جعفرويه في جماعةٍ من أصحاب قائد الزنج، وقد تولّى قتلهم مطر بن جامع. ثم ساروا حتى وافوا عسكر مكرم، ورحل إليهم عليّ بن أبان، وقدّم أمامه إليهم أخاه الخليل بن أبان، فصار إليهم الخليل فواقفهم، وتلاه عليّ، فلما كثر عليهم جمع الزنج، قطعوا الجسر وتحاجزوا، وجنّ عليهم الليل، فانصرف عليّ بن أبان

في أصحابه جميعاً إلى الأهواز، وأقام الخليل بن أبان فيمن معه بالمسُرقان، وأتاه الخبر بأن أغرتمش، وأبّا ومطر بن جامع قد أقبلوا نحوه، ونزلوا الجانب الشرقي من قنطرة «أربُك» ليعبروا إليه، فكتب الخليل بذلك إلى أخيه عليّ بن أبان، فأقبل عليّ إليهم حتى وافاهم بالقنطرة، وبعث إلى الخليل يأمره بالقدوم إليه، فوافاه، وارتاع من كان بالأهواز من أتباع عليّ، فمضوا إلى نهر السدرة.

ونشبت الحرب بين عليّ بن أبان وقواد السلطان هناك، ثم تحاجزوا، ورجع عليّ بن أبان إلى الأهواز، فلم يجد بها أحداً من أتباعه حيث قد لحقوا بنهر السدرة، فوجّه إليهم من يردّهم، فلم يرجعوا، فتبعهم، فأقام بنهر السدرة، ورجع قواد السلطان حتى نزلوا بمعسكر مكرم، وأخذ عليّ بالاستعداد لقتالهم، وأرسل إلى بهبوذ بن عبد الوهاب، فأتاه فيمن معه من رفاقه، وبلغ أغرتمش وأصحابه ما أجمع عليه عليّ من المسير إليهم، فساروا نحوه، وقد جعل عليّ بن أبان أخاه على مقدمته، وضمّ إليه بهبوذ وأحمد بن الزرنجي، والتقى الطرفان، فأمر عليّ أخاه أن يجعل بهبوذ كميناً، فجعله، وسار الخليل حتى لقي القوم، ونشب القتال

بينهم، فكان أول نهار ذلك اليوم لأصحاب السلطان، ثم جالوا جولةً، وخرج عليهم الكمين، وحمل الزنج حملةً جادةً فهزموهم، وأسر مطر بن جامع، فضرب الزنج عنقه بعد أن حمله بهبوذ إلى عليّ.

دخل عليّ بن أبان الأهواز، وانصرف أغرتمش وأبّا فيمن أُفلت معهما إلى تُسْتَر. وبقيت الحرب بين الطرفين، وكانت سجالاً بينهما. ووجّه صاحب الزنج أكثر جنوده إلى ناحية عليّ بن أبان، فكثروا على أغرتمش، فركن إلى الموادعة، وأحبّ عليّ بن أبان ذلك، فكانت الهدنة بينهما، والتفت عليّ إلى الغارات على القرى للنهب والسلب والفساد، فكان يرسل بعض الأسلاب إلى سيّده صاحب الزنج.

سار عليّ بن أبان إلى بلدة «لَمتّوث» يريد اقتحامها، فلم يتمكّن لحصانتها وكثرة من يدافع عنها من أهلها، فرجع خائباً، غير أنه أخذ يستعدّ للسير إليها ثانيةً، وهيّأَ السلالم ليرقى بها السور، وجمع رفاقه واستعدّ، فلما عاود المسير إليها سار إليه مسرور البلخي، فوافاه قبيل غروب الشمس، وهو مقيم عليها، فلما رأى أصحاب عليّ أوائل خيل مسرور انهزموا أبشع هزيمةٍ، وتركوا جميع آلاتهم التي كانوا حملوها، وقُتل

منهم جمع كثير، وانصرف عليّ بن أبان مدحوراً مذموماً، ولم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى تتابعت الأخبار عن قدوم الموفّق أبي أحمد أخي أمير المؤمنين المعتمد على الله. ودخل الموفّق «سوق الخميس» و«طهيثا».

لما غلب الزنج على واسط ندب الموفّق ابنه أحمد أبا العباس إلى ناحية واسط لحرب الزنج، فخفّ لذلك أبو العباس في عشرة آلاف رجلٍ فرسان ورجالة في أكمل عدةٍ، وذلك في ربيع الثاني سنة ستٍ وستين ومائتين، وانطلق إلى مهمته فالتقى عند أسفل واسط مع قائد صاحب الزنج سليمان بن جامع وعلى مقدمته الجبائي فهزمهم. فأشار قواد أبي العباس أحمد عليه أن يجعل معسكره بالموضع الذي انتهى إليه، إشفاقاً عليه من مقاربة القوم، فأبى إلا نزول واسط.

كان سليمان بن جامع قد انهزم ولحق بنهر الأمير، ولحق سليمان بن موسى الشعراني بسوق الخميس، وكان قادة الزنج حين لقوا أبا العباس أحمد تداولوا الرأي فيما بينهم، فقالوا: هذا فتى حَدَث، لم تطل ممارسته الحرب وتدرّبه بها، فالرأي أن نرميه بحدّنا كله، ونجتهد في أول لقاءٍ نلقاه في إزالته، فلعلّ

ذلك أن يُروّعه، فيكون سبباً لانصرافه عنا، ففعلوا ذلك، وحشدوا واجتهدوا، فأوقع الله بهم بأسه ونقمته، وركب أبو العباس من غد يوم الوقعة الأولى حتى دخل واسطاً في أحسن ترتيبٍ قياديٍ، وكان يوم جمعة، فأقام بها حتى صلّى بها صلاة الجمعة، واستأمن إليه خلق كثير، ثم انحدر إلى موضعٍ على فرسخٍ من واسط، فقدّم عسكره، وقال: أجعل معسكري أسفل واسط ليأمن من فوقه الزنج، وقد كان نُصير المعروف بأبي حمزة والشاه بن ميكال قد أشارا عليه أن يجعل مقامه فوق واسط، فامتنع من ذلك، وقال لهما: لست نازلاً إلا أسفل واسط، ونزل حيث أحبّ، وأخذ في بناء الشذوات، وجعل يراوح القوم القتال ويغاديهم. ثم إن سليمان قائد الزنج استعدّ وحشد وجمع وقسم رفاقه ثلاث فرقٍ، كل فرقة جاءت من جهةٍ، فلقيهم أبو العباس أحمد، فلم يلبثوا أن انهزموا، وتفرّقوا، وبعد أن تتبع بعض فرقهم انصرف، فجعل يقف على القرى والمسالك، ومعه الأدلاّء حتى وافى معسكره، فأقام به ليرتاح هو وأصحابه. ثم أتاه مخبر أخبره أن الزنج قد جمعوا واستعدّوا لكبس معسكره، وأنهم سيأتون المعسكر من ثلاث جهاتٍ، وأنهم قالوا: إنه حَدَث غِرٌّ يغترّ بنفسه، وأجمع رأيهم على نصب الكمائن له. فأخذ

حذره واستعدّ. وأقبلوا إليه وقد كمنوا زهاء عشرة آلافٍ من كل جهةٍ، وقدّموا جماعات ليغترّ رجال أبي العباس ويتجاوزوا مواضع الكمائن، غير أنه قد منع الناس من ملاحقتهم، ففشلت بذلك خطتهم. ولكن وقع القتال بين الجانبين، ودارت الدائرة على الزنج، وغنم أبو العباس الكثير، وسار الجيش حتى وافى «طهيثا»، ورجع أبو العباس إلى معسكره أسفل واسط. وأقام الزنج عشرين يوماً لا يظهر منهم أحد، وكان الجبّائي يأتي على مقدمة الطلائع كل ثلاثة أيامٍ وينصرف، وكان يحفر حفراً، ويُغطّيها، ويضع مسامير في دروب الخيل ليتهوّر فيها المجتازون، وكان يوافي طرف العسكر متعرّضاً لأهله، فتخرج الخيل طالبةً له، فجاء في بعض الأيام، وطلبته الخيل كما كانت تطلبه، فسقط فرس رجل من قواد أهل فرغانة، فانتبه أصحاب أبي العباس ما كان قد دبّره الجبّائي لهم، فابتعدوا عن اتخاذ تلك الطريق مسلكاً لهم. وحرص الزنج في مغاداة العسكر في كل يومٍ للحرب، وعسكروا على نهر الأمير في جمعٍ كثيرٍ، فلما لم يفدهم ذلك توقّفوا عن القتال ما يقرب من شهرٍ.

كتب سليمان إلى صاحب الزنج يطلب منه إمداده بمراكب نهريةٍ من نوع السميريات، فأمدّه في مدة

عشرين يوماً بأربعين سميريةً، في كل منها مقاتلان، وعاد الزنج يتعرّضون للحرب يومياً فإذا خرج عليهم أصحاب أبي العباس انهزموا أمامهم، ولم يثبتوا لهم، كما تأتي طلائعهم فتهدّم القناطر، وترمي الخيل بالنشّاب، وتُضرم النار بالمراكب و...

وجاء الموفّق أبو أحمد إلى معسكر ولده أحمد أبي العباس أسفل واسط في بداية شهر صفر سنة سبعٍ وستين ومائتين وذلك لحرب صاحب الزنج إذ كان قد وصل إليه أن صاحب الزنج كتب إلى قائده عليّ بن أبان المهلّبيّ يأمره بحشد جميع من معه والتوجّه بهم إلى ناحية سليمان بن جامع ليجتمعا على حرب أبي العباس بن الموفّق.

تلقّى أبو العباس أباه الموفّق في جريدة خيلٍ فيها وجوه قادته وجنده، فسأله أبو أحمد عن أصحابه، فتكلّم خيراً، وتحدّث عن بلائهم ونصحهم، فخلع عليهم.

بدأ الموفق أبو أحمد بحرب سليمان بن موسى الشعراني فسار إليه فلما رأوه الزنج، ثبتوا له قليلاً، ثم انهزموا وتفرّقوا، وهرب الشعراني ومن أُفلت معه، وتبعهم أصحاب الموفق حتى وافوا البطائح فغرق عدد كبير منهم، ودخلت قوات أبي العباس بلدة سوق

الخميس، وأمر الموفق أصحابه بالرجوع إلى معسكرهم قبل غروب الشمس، وانصرف وقد استنقذ من المسلمات زهاء خمسة آلاف امرأة، وأمر بهدم سور البلدة، وأذن بأخذ ما فيها من أمتعة الزنج.

وسار الموفق أبو أحمد وابنه أبو العباس إلى قرية الحوانيت لقتال سليمان بن جامع، غير أنه لم يكن فيها بل كان فيها شبل وأبو النداء، فكان اللقاء بينهم، واستمرت الحرب حتى حجز الليل بين الفريقين. وأُخبر أبو العباس أن سليمان بن جامع في قريته طهيثا التي سمّاها المنصورة، وقد جمع فيها جميع أصحابه عدا شبل وأبي النداء، فذهب أبو العباس إلى أبيه الموفق وأخبره بمكان سليمان بن جامع، فأمر الموفق بالرحيل، وبعد مسير يومين وذلك يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من ربيع الثاني سنة سبعٍ وستين ومائتين أقام أبو العباس ليستعدّ فيهيء كل ما يحتاج إليه، ثم كان الانطلاق. وكان دخول طهيثا لثلاثٍ بقين من ربيع الثاني من هذه السنة دخل الموفق وأصحابه، وأُخرج منها سليمان بن جامع وقُتل بها أحمد بن مهدي الجبّائي.

أقام الموفق سبعة عشر يوماً في طهيثا، وأمر بهدم

سور البلدة، وردم خنادقها، وتتبّع من لجأ إلى الآجام، وقرر السير إلى الأهواز بعد أن أبقى زيرك في طهيثا، وابنه هارون في واسط.

ارتحل الموفق أبو أحمد من واسط يوم الجمعة لليلةٍ خلت من شهر جمادى الآخرة سنة سبعٍ وستين ومائتين، ونزل وهو في الطريق في وادي السوس، وبعث إلى مسرور البلخي عامله على الأهواز يأمره بالقدوم إليه، فوافاه بجيشه وقواده، فأكرمهم.

ووصلت الأخبار إلى صاحب الزنج فاعتراه الهلع فكتب إلى عليّ بن أبان المهلّبيّ، وهو مقيم يومئذٍ بالأهواز في زهاء ثلاثين ألف رجلٍ يأمره بترك كل ما قبله من الأغذية والمتاع والإقبال إليه، وما أن وصل الكتاب إلى المهلّبيّ حتى أتاه خبر إقبال الموفّق إلى الأهواز فأصابه الخوف، فترك كل شيءٍ لديه، واستخلف عليه محمد بن يحيى بن سعيد الكرنبائي الذي دخل الوجل قلبه فترك ما استخلف عليه، وتبع سيده المهلّبيّ، وفي الأهواز ونواحيها من أصناف الحبوب وأنواع التمر والمواشي شيء عظيم، فخرجوا عن ذلك كله.

وكتب صاحب الزنج أيضاً إلى بهبوذ بن

عبد الوهاب ـ وهو عامله على النواحي التي بين فارس والأهواز ـ يأمره بالقدوم عليه، فترك بهبوذ ما كان قبله من الأغذية والمتاع، وكان ذلك شيئاً كثيراً. فأخذ هذا كله الموفّق فكان قوةً له، وخسارةً لصاحب الزنج.

ولما ارتحل المهلّبيّ عن الأهواز تفرّق أصحابه في القرى فانتهبوها، وأجلوا أهلها عنها. وتخلّف كثير ممن كان مع المهلّبيّ من الفرسان والرجالة عن اللحاق به، فأقاموا بنواحي الأهواز، وكتبوا إلى الموفق يسألونه الأمان لما انتهى إليهم من عفوّه عمن ظفر به من رجال صاحب الزنج في طهيثا وغيرها.

رحل الموفق عن وادي السوس إلى جند يسابور فأقام بها ثلاثاً، وقد عمل على إصلاح ما أفسده الزنج، وأنفذ إلى كل كورة من كور الأهواز عاملاً عليها يُقيم أمورها، ويُنظّم شؤونها، ويجبي أموالها.

وأقام الموفّق بالأهواز أياماً حتى أصلح أصحابه أمورهم، وأخذوا ما احتاجوا إليه، وحسنت حال دوابهم، ووافت كتب الذين كانوا تخلّفوا عن المهلّبيّ، وأقاموا بسوق الأهواز يسألونه الأمان، فآمنهم، فأتاه نحو من ألف رجلٍ، فأحسن إليهم، وضمّهم إلى أصحابه، وأجرى لهم الأرزاق.

كتب الموفق كتاباً إلى صاحب الزنج يوم السبت للنصف من رجب سنة سبعٍ وستين ومائتين، يدعوه فيه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وإخراب البلدان والأمصار، واستحلال الفروج والأموال، وانتحال ما لم يجعله الله له أهلاً من النبوة والرسالة، ويعلمه أن التوبة له مبسوطة، والأمان له موجود، فإن هو نزع عما هو عليه من الأمور التي يسخطها الله، ودخل في جماعة المسلمين، محا ذلك ما سلف من عظيم جرائمه، وكان له به الحظ الجزيل في دنياه، وأنفذ ذلك مع رسوله إلى صاحب الزنج، والتمس المبعوث إيصاله، فامتنع رجال صاحب الزنج من إيصال الكتاب، فألقاه المبعوث إليهم، فأخذوه وأتوا به إلى صاحب الزنج، فقرأه فلم يزده ما كان فيه من الوعظ إلا نفوراً وإصراراً، ولم يجب على الكتاب بشيءٍ، وأقام على اغتراره، ورجع المبعوث إلى الموفق فأخبره بما فعل. وترك صاحب الزنج الإجابة على الكتاب.

استعدّ الموفّق، ثم سار في أصحابه، ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة صاحب الزنج التي سمّاها المختارة وهي على نهر أبي الخصيب، فأشرف عليها

وتأمّلها، فرأى من مناعتها وحصانتها بالأسوار والخنادق المحيطة بها، وكثرة المقاتلين فيها، فتوكّل الموفّق على الله، ثم أمر ابنه أبا العباس بالتقدّم إلى سور المدينة ورشق من عليه بالسهام، ففعل ذلك، ودنا حتى لامس السور، وابتدأ رمي الزنج على المحاصرين من سهامٍ وحجارةٍ، ولكن ثبت المهاجمون ثبات المؤمنين، ورأى صاحب الزنج ورفاقه من جدّ المهاجمين، واجتهادهم وصبرهم ما لا عهد للمدافعين بمثله من أحدٍ قاتلهم.

أمر الموفق ابنه أبا العباس ومن معه بالرجوع إلى مواقعهم ليرتاحوا قليلاً ويُداووا جراحهم، ففعلوا ذلك. وكان الموفق يكرم من يأتيه مستأمناً ويخلع عليه، وكثر هؤلاء المستأمنون عند الموفق، وهذا ما أخاف صاحب الزنج.

وركب الموفق يوم السبت لأربع عشرة خلت من شهر شعبان سنة سبعٍ وستين ومائتين فكان في حوالي خمسين ألف رجلٍ أو يزيدون فوازى جيش صاحب الزنج الذي كان في ثلاثمائة ألف إنسانٍ. فلما أضحى أمر الموفق فنودي أن الأمان مبسوط للناس جميعاً ودون تمييز إلا صاحب الزنج نفسه فلا أمان له، وأمر

كذلك برقاعٍ مكتوب فيها مثل الأمان الذي نودي به، ووعد الناس فيها بالإحسان، وعُلّقت بسهام، ورُمي بها إلى عسكر صاحب الزنج، فأتاه جمع كثير، ثم انصرف إلى معسكره، ولم يكن في هذا اليوم حرب.

وانتقل الموفق في النصف من شعبان إلى معسكرٍ تمّ إصلاحه، وكانت مضاربه وابنيه أبي العباس وهارون قريبة من موضع صاحب الزنج، وأقام المسجد الجامع، واتخذ دوراً لضرب النقود، فجمعت مدينة الموفق المرافق كافةً، وسمّى هذه المدينة «الموفّقية»، فأمر صاحب الزنج قائده بهبوذ بن عبد الوهاب بالإغارة على الموفقية، فقتل جماعةً، وأسر جماعةً، وأحرق بعض الأكواخ، فأمر الموفق عندئذٍ بتشديد الحراسة، وعدم مغادرة المعسكر. وتقدّم أبو العباس أحمد بن الموفق فقاتل إبرهيم بن جعفر الهمداني فقتل خلقاً كثيراً، وأسر جماعةً، وأُفلت الهمداني في مركبٍ كان قد أعدّه لنفسه. ثم توجّه أبو العباس لقتال محمد بن أبان المعروف بأبي الحسن، وهو أخو عليّ بن أبان، واحتوى أصحاب أبي العباس على ما كان في أيدي الزنج، ونقلوه إلى معسكرهم، وهذا ما جعل الزنج في ضيقٍ.

وكان الموفّق تقدّم إلى ابنه أبي العباس في بذل الأمان لمن رغب فيه، وأن يضمن لمن صار إليه الإحسان، فصار إليه طائفة منهم في الأمان فآمنهم، فصار بهم إلى أبيه فأكرمهم.

استأمن إلى الموفق رجل من رؤساء صاحب الزنج وشجعانهم، يقال له مُهذّب، فحُمل في المركب إلى الموفق، فأعلمه أنه جاء راغباً في الأمان، وأن الزنج قد عزموا على العبور في تلك الليلة ليبيّتوا عسكره، وأن صاحب الزنج قد ندب لذلك أبطالهم وشجعانهم، فاستعدّ الموفق لذلك، وأمر من يعترض سبيلهم في العبور ويحاربهم، فلما علم الزنج باستعداد عسكر الموفق ولّوا منهزمين، فكثر المستأمنة من الزنج وغيرهم وتتابعوا، فبلغ عدد من جاء إلى عسكر الموفق إلى آخر شهر رمضان سنة ٢٦٧هـ خمسة آلاف رجلٍ من مختلف الأقاليم.

اختار صاحب الزنج أهل الجَلَد والبأس من قيادة أصحابه وأمر المهلبيّ بالعبور بهم ليبيّت عسكر الموفق، ففعل ذلك، وكان عدد من عبر مع المهلّبيّ زهاء خمسة آلاف رجلٍ أكثرهم من الزنج، وفيهم نحو مائتي قائدٍ، وخططوا أن يأتوا من خلف عسكر الموفق، ثم تعبر

جماعة ثانية تكون في مواجهة عسكر الموفق، وبذا يكون جند الموفق قد وقعوا بين قوتين. وبلغ الخبر الموفق عن طريق أحد الملاحين، فأمر الموفق ابنه أبا العباس والقادة بالاستعداد والمواجهة، وأمر الرجالة بالزحف عليهم من النخل، فلما رأى الزنج ومن معهم الاستعداد الذي لم يحسبوه كرّوا راجعين من الطريق التي أتوا منها طالبين الخلاص. وانتهى خبر رجوعهم إلى الموفق فأمر ابنه أبا العباس بالانحدار في المراكب وسبقهم إلى النهر ليمنعوهم من العبور، كما أمر الموفق أن يقود ثابت جماعةً تتبعهم، ففعل وأدركهم وجرى قتال بين الطرفين، انتصر فيه ثابت فقتل وأسر من خصومه الكثير، كما غرق منهم عدد ليس بالقليل، وانصرف أبو العباس ومعه ثابت بالفتح.

هجوم الموفق على مدينة صاحب الزنج:

لما كانت أكثر المنطقة من السبخات ومجاري الأنهار كانت المراكب إحدى وسائل القتال، ولم تكن لتقع معارك حاسمة بل جانبية يقتل فيها أفراد، ويؤسر آخرون، وتغرق جماعة، وتؤخذ بعض المراكب من شذوات وسُميريات كما كانت تسمى، ومن ينال بعض النصر، أو يحصل على بعض المغانم يدفعه للإقدام

فيثأر مما لحقه، ويستعدّ الطرف الآخر فيقوم بهجومٍ على خصمه، أو يبيّته في عسكره، أو يربح بعض المراكب، ثم غدا الكسب ما يأخذه الموفق من رجال صاحب الزنج الذين يطلبون الأمان ويتبرّؤون مما كانوا فيه. وأخيراً قرّر الموفق العبور إلى مدينة صاحب الزنج، فاستعدّ لذلك حتى تهيّأ له أكثف جمعٍ، وأكمل عدةٍ.

وفي يوم الأربعاء لستّ ليالٍ بقين من شهر ذي الحجة من سنة سبعٍ وستين ومائتين، خطّط، وعبر، وقصد ركناً من أركان مدينة صاحب الزنج المختارة وكان قد حصّنه بابنه المعروف «انكلاي» ودعمه بعلي بن أبان المهلّبي وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمداني، ونصب المجانيق، وأعدَّ الناشبة، وجمع فيه أكثر جيشه، وأحسن العتاد لديه.

عبر رجال الموفق النهر رغم كثرة الرمايات عليهم، وانتهوا إلى سور المدينة، وارتقوه، وقُتل من الطرفين أعداد كثيرة، وترك الزنج السور بعد أن قاتلوا عنه أشدّ قتالٍ، وقُتل أحد قادة الموفق وهو المدعو ثابت، وهو من خيرة القادة، وقد أُصيب بسهمٍ في بطنه.

وعندما تمكّن أصحاب الموفق من السور أحرقوا ما كان عليه من منجنيق وأقواسٍ وعرّادات وغيرها، وحاول عليّ بن أبان المهلبي أن يعترض سبيل أبي العباس بن الموفق غير أنه فشل وقُتل عدد كبير من رجاله، وأفلت هو ففرّ مذموماً مدحوراً. وثلم رجال أبي العباس ثلمةً في السور ودخلوا منها فأسرع سلميان بن جامع ليحول دون ذلك ففشل. ونصب رجال الموفق جسراً مُعدّاً فوق الخندق وعبروا عليه، فلما رأى الزنج ذلك ارتاعوا وهربوا إلى سورٍ ثانٍ، وأصحاب الموفق يتبعونهم وقد دخلوا المدينة، وولّى صاحب الزنج ومن حوله منهزمين، وحمل الداخلون على عليّ بن أبان المهلّبيّ فأدبر هارباً، ووصلت أخبار ذلك إلى صاحب الزنج فركب في جمعٍ من أصحابه فتلقّاه رجال الموفق فحملوا عليه فتفرّق عنه أصحابه ومن كان معه، وحجز بينهما الليل، فأمر الموفق أصحابه بالرجوع إلى مراكبهم، فرجعوا سالمين، وقد حقّقوا نصراً.

حثّ صاحب الزنج رفاقه، وحرّضهم، واستنجد أشياعه، فشدّوا على المراكب المتأخّرة فنالوا منها شيئاً، وكان بهبوذ بن عبد الوهاب مقابل مسرور البلخي فأوقع بهم فقتل جماعةً وأسر أخرى. ورغب كثير من

قادة الزنج في الأمان ومنهم ريحان بن صالح المغربي فناله، وضمّ إلى أبي العباس، وكذلك جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجّان، وقد ضمّ إلى أبي العباس أيضاً، وتتابع الناس في طلب الأمان. ورجع الموفق إلى مدينته الموفقية بعد معركةٍ آخر العام ليرتاح أصحابه مما وجدوه، ولم يجر قتال بين الفريقين حتى ربيع الثاني سنة ٢٦٨هـ.

وعبر الموفق إلى مدينة صاحب الزنج لأربع عشرة ليلةً بقيت من شهر ربيع الثاني، وقد وهت قوة صاحب الزنج نتيجة الحصار الذي فرضه الموفق إذ حال دون وصول المواد الغذائية إلى المختارة، حتى استأمن عدد كبير من رجال صاحب الزنج لما نالهم من ضيقٍ.

وجّه الموفق كل قائدٍ إلى ناحيةٍ من نواحي مدينة صاحب الزنج المختارة، ووجّه مع كل قائدٍ عمالاً لهدم ما يليهم من السور، وأمر كل جماعةٍ بالهدم فقط دون أن يدخلوا المدينة، ووكلّ بكل موضعٍ من المواضع التي وجّه إليها القواد مراكب فيها الرماة، وأمرهم أن يحموا بالسهام من يهدم السور من العمال والرجالة الذين يخرجون للدفاع عنهم، فوجدت ثلم كثيرة في السور، ودخل رجال الموفق المدينة من الثلم جميعها

في وقتٍ واحدٍ، وجاء رجال صاحب الزنج يحاربونهم فهزمهم أصحاب الموفق، واتبعوهم حتى وغلوا في طلبهم، واختلفت بهم طرق المدينة وفرّقت بينهم الدروب حتى دخلوا إلى مواضع بعيدةٍ، وقتلوا وحرقوا.

ثم تصايح رجال صاحب الزنج، وشجّع بعضهم بعضاً، فرجعوا وحملوا على المهاجمين، فخرجوا من مواضع غير معروفةٍ كأنهم كمائن، فهم أدرى بمداخل مدينتهم وأعلم بتفرّعاتها، واضطر أصحاب الموفق أن يعودوا إلى مواقع الدفاع فيدافعوا عن أنفسهم، وتراجعوا، ووقف ثلاثون من فتية أهل الديلم في وجه الزنج يحمون المتراجعين، ويدافعون عنهم حتى سلموا، وقُتل الديالمة عن آخرهم بعد أن نالوا من الزنج ما أحبوا، وانصرف الموفق بمَن معه إلى مدينته الموفقية.

الإيقاع بالأعراب الذين يمدّون الزنج:

لما دخل الزنج البصرة وخرّبوها سنة ٢٥٧هـ، ولّوا أمرها أحمد بن موسى بن سعيد المعروف بـ «القلوص» وهو من قدماء أتباع صاحب الزنج، فكان التجار والأعراب يتردّدون على البصرة، ويحملون المواد الغذائية التي كان السكان بحاجةٍ إليها بعد أن حلّ بمدينتهم ما حلّ، فكان يُنقل بعض هذه المواد إلى

المختارة مدينة صاحب الزنج، حتى إذا دخل الموفق «طهيثا» وأسر «القلوص»، أسرع صاحب الزنج فولّى على البصرة مالك بن بشران، وهو ابن أخت «القلوص» وذلك كي تبقى البصرة على صلةٍ بالمختارة تُنقل إليها الحاجات التي ترد البصرة، ولكن الموفق أوقع بمالك بن بشران، فولى صاحب الزنج على البصرة مكانه، وأوقع أبو العباس بن الموفق بالأعراب الذين يفدون إلى البصرة. وولّى الموفق على البصرة أحد رجاله فضاق الأمر بصاحب الزنج لقلة المواد الغذائية في مدينته «المختارة».

وأوقع أبو العباس بن الموفق بجماعةٍ من بني تميمٍ كانوا يتجرون بالمواد مع الزنج. ثم إن كثيراً من أتباع صاحب الزنج قد طلبوا الأمان من الموفق فنالوه، فازداد الأمر ضيقاً على أهل «المختارة».

وجعل الموفق وابنه أبو العباس يُغاديان حرب صاحب الزنج ومن معه ويراوحانها بأنفسهما ومن معهما، فيقتلان ويأسران. وأصاب أبا العباس سهم في بعض تلك الوقعات فجرحه، ولكن برىء منه ـ بإذن الله.

مقتل بهبوذ:

كان بهبوذ بن عبد الوهاب أكثر رجال صاحب

الزنج غاراتٍ وتعرّضاً للمراكب والزوارق في مياه الأنهار والسبخات، وأعدّ رجالاً يساعدونه في ذلك، وقد جمع مالاً وفيراً من وراء تلك الأعمال. وقد يركب شذاةً، ويجعلها مثل شذوات الموفق، ويرفع عليها مثل أعلامه، فإذا أصاب غرةً من العسكر أوقع بهم. فكان يعبث في أموال السابلة ودمائهم. فعندما انتهى خبر ذلك إلى الموفق ضبط مخارج الأنهار، ورتّب المراكب الكبيرة على فوهات الأنهار ليؤمّن سُبَل الناس ومسالكهم، ويأمن عبث بهبوذ.

دخل بهبوذ نهر أبي الخصيب في مراكب تشبه مراكب الموفق، ورفع عليها مثل أعلامهم، وملأها بشجعان رجاله، وانطلق حتى انتهى إلى المراكب التي رتّبها الموفق لحفظ النهر، وكان أهلها في غفلةٍ، فأوقع بهم فقتل جماعةً وأسر أخرى، وأخذ ستة مراكب، وكرّ راجعاً، وانتهى الخبر بما كان من بهبوذ إلى الموفق، فأمر ابنه أبا العباس بمعارضته، وأمل أن يسبقه إلى المعترض فيمنعه من العودة إلى مأمنه، فأسرع أبو العباس وسبق بهبوذ، وأدرك مراكبه، فوقع القتال بينهما، فقتل أبو العباس جمعاً من رجال بهبوذ، وأسر فريقاً، واستأمن إليه جماعة، ودافع عن بهبوذ فريق من أتباعه دفاعاً شديداً فأُفلت.

وأقام على حصار صاحب الزنج ومن معه، وسدّ المسالك التي كانت تأتيه المواد الغذائية عن طريقها، فكثر المستأمنون من أهل مدينة المختارة، فكان الموفق يكرمهم تشجيعاً لآخرين كي يتركوا صاحب الزنج ويتخلّوا عنه، وانتهى الخبر إلى الموفق أن الضرّ والبؤس قد أحوج جماعةً من رجال صاحب الزنج إلى التفرّق في القرى لطلب القوت من السمك والتمر، فأمر ابنه أبا العباس بالمسير إلى تلك القرى والإسراع إليها بالمراكب، وأن يستصحب أبطال أصحابه وشجعانهم ليحول بين أولئك الرجال وبين رجوعهم إلى مدينة صاحب الزنج، فتوجّه أبو العباس لذلك، وعلم صاحب الزنج بمسير أبي العباس له، فأمر بهبوذ أن يسير في أصحابه في المراكب في الأنهار الجانبية، فنهض بهبوذ لما أمره صاحب الزنج فاعترض له في طريقه مركب من مراكب أبي العباس، فطمع بهبوذ في هذا المركب، فحاربه أهله، فأصابته طعنة في بطنه، فهوى في الماء، فابتدره رجاله، فحملوه، وولّوا به منهزمين إلى عسكر صاحب الزنج، فلم يصلوا به إليه حتى كان قد فارق الحياة. فكان ذلك فاجعةً على صاحب الزنج، ولم يعلم الموفق بذلك حتى أخبره أحد الملاحين الذين استأمنوه.

إصابة الموفق:

لما هلك بهبوذ بن عبد الوهاب طمع صاحب الزنج بأمواله فحبس أولياءه وأقرباءه وأصحابه، وضربهم بالسياط، وفتش دوراً من دوره، وهدم أبنيةً من أبنيته طمعاً في أن يجد شيئاً مدفوناً من أمواله وجواهره، فلم يجد ما يبغي، غير أنه أفسد قلوب أصحابه فدعاهم ذلك إلى الهرب، فأمر الموفق بالنداء بالأمان في أصحاب بهبوذ، فأسرعوا إليه راغبين فيه، فأكرمهم الموفق، ورأى ذلك فرصةً للتوسّع في غرب دجلة ويبني معسكره هناك ليتمكّن في كل وقتٍ من العبور إلى عسكر صاحب الزنج، فأمر بقطع أشجار النخل، وإصلاح موضع الخندق، وتحصين السور ليأمن مداهمة الزنج، وجعل لكل قائدٍ من قواده نوبةً يغدو فيها برجاله، ومعه العمل في كل يومٍ لإحكام أمر العسكر الذي عزم على اتخاذه، فقابل صاحب الزنج ذلك بأن جعل علي بن أبان المهلّبيّ، وسليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمداني على نوباتٍ، فكان لكل واحدٍ يوم ينوب فيه.

رأى صاحب الزنج أن اقتراب الموفق منه في المعسكر انتقاض لتدابيره التي يزمع عليها، وإدخال

الرهبة في نفوس أصحابه، وتقريب للمسافة للذين يريدون الأمان واللحاق به، وفساد لجميع أموره، لذا أمر أصحابه بمحاربة من يعبر من القواد في كل يومٍ، ومنعهم من إصلاح ما يحاولون إصلاحه من أمر معسكرهم الذي يريدون الانتقال إليه.

وعصفت الريح في بعض الأيام فحالت دون عبور القائد صاحب النوبة، فبقي القائد الذي في غرب دجلة من أصحاب الموفق وحده، فرمى صاحب الزنج ذلك القائد الذي في غرب دجلة بجميع جيشه، وكاثره برجاله، فقوي الزنج على ذلك القائد وأصحابه، فأزالوهم من موضعهم، وأدركوا جماعةً منهم، فثبتوا لهم فقُتلوا عن آخرهم، ولجأت جماعة إلى الماء، فتبعهم الزنج فأخذوا منهم أسارى، وقتلوا منهم نفراً، وأُفلت أكثرهم، وأدركوا مراكبهم، فألقوا أنفسهم فيها، وعبروا إلى المدينة الموفقية، فاشتدّ جزع الناس، وتأمّل الموفق فيما دبّر من النزول في الجانب الغربي من دجلة، فلم يجده مفيداً فانصرف عنه، وجعل هدفه هدم سور مدينة صاحب الزنج المختارة، فأمر عند ذلك أن يُبدأ بهدم السور مما يلي النهر.

وجّه صاحب الزنج ابنه «انكلاي»، وعليّ بن أبان

المهلّبيّ، وسليمان بن جامع لمنع ذلك، وكل في نوبةٍ محدّدةٍ له، فإذا كثر عليهم رجال الموفق التقوا جميعاً لمدافعة من يأتيهم.

فلما رأى الموفق حشد صاحب الزنج والعمل على منعه من هدم السور أصرّ الموفق على مباشرة ذلك وحضوره ليزيد نشاط رجاله وجدّهم بالعمل، كما يستدعي ذلك الصبر على القتال ففعل ذلك، واندلعت الحرب بين الفريقين وكثر القتلى والجرحى من الطرفين، وأقام الموفق أياماً يغادي الزنج ويراوحهم، والقتال لا يهدأ. وكان رجال الموفق لا يستطيعون الولوج على الزنج، لأن الزنج كانوا يصلون إلى رجال الموفق عن طريق قنطرتين على نهرٍ هناك فينالون منهم، ويحجزونهم من الوصول للعمل في هدم السور. فرأى الموفق إعمال الحيلة في هدم هاتين القنطرتين، فأمر قادةً من أصحابه أن يستغلّوا فرصة غفلةٍ من الزنج عن حراسة القنطرتين، وهيّأ لهم ما يحتاج العمل إليه من آلاتٍ. وانتهى القادة إلى ما أُمروا به، وبرز لهم الزنج، ودار القتال بين الفريقين، وظهر رجال الموفق على خصومهم، وأصابوا أبا النداء فقتل، ودافع أصحابه عن جثته، ثم حملوها وانهزموا، وهدم رجال الموفق القنطرتين، ورجعوا فأخبروا الموفق بما تمّ، فسُرّ كثيراً بذلك.

وشدّد الموفق على صاحب الزنج بالقتال والهدم من السور ما أمكنهم به الولوج عليهم، فشغلوهم بالحرب في مدينتهم عن المدافعة عن سورهم فأسرع الهدم فيه، وانتهى أصحاب الموفق إلى سوقٍ لصاحب الزنج كان اتّخذها مظلّةً على دجلة، سمّاها «الميمونة» فهُدّمت، كما هُدم بعد جهدٍ وقتالٍ مريرٍ البناء الذي سمّاه صاحب الزنج المسجد الجامع، وانتهوا إلى المنبر فاحتمل فأُتي به إلى الموفق فانصرف به إلى مدينته الموفّقية مسروراً.

وعاد الموفق لهدم السور فهدمه حتى وصل إلى بعض خزائن صاحب الزنج ودواوينه فانتهبت وأُحرقت وشعر الموفق بتباشير الفتح، ولكن أُصيب الموفق بسهمٍ في صدره وذلك يوم الاثنين لخمسٍ بقين من جمادى الأولى سنة تسعٍ وستين ومائتين، فتحامل على ذلك وصبر ولم يتكلم عما أصابه، وانصرف إلى المدينة الموفّقية، فعولج في ليلته تلك من جراحته، وبات ثم عاد إلى الحرب على ما به من ألم الجراح، يشدّ بذلك قلوب أصحابه من أن يدخلها وهن أو ضعف، وخوفاً من أن يعلم الأعداء فيشدّ ذلك من قوتهم، ويرفع من معنوياتهم، فزاد ما حمل نفسه عليه من الحركة في زيادة عِلّته فغلُظت وعظُم أمرها حتى خيف عليه، واحتاج إلى

علاجٍ بأكثر مما تعالج به الجراح، فاضطرب العسكر، وخاف من قوة صاحب الزنج عليهم، فأشار عليه بعض ثقاته بالرحيل من معسكره إلى بغداد، ويخلف من يقوم مقامه، فأبى ذلك، وخشي أن يكون فيه ائتلاف ما قد تفرّق من أمر صاحب الزنج، فأقام مع شدّة عِلّته عليه، فمنّ الله عليه بالعافية، وظهر لقواده وخاصته، وكان قد أطال الاحتجاب عنهم، ثم قوي ونهض للحرب وقتال صاحب الزنج.

إحراق قصر صاحب الزنج:

رجع الموفق بعد معافاته إلى قتال صاحب الزنج الذي كان قد سدّ بعض الثلم التي أُحدثت في السور، وعاد الموفق ثانيةً لهدم السور، وتمكّن رجاله من هدم أجزاء من السور مما يلي نهر أبي الخصيب، ودخلوا المختارة، ووصلوا إلى قصور قادة صاحب الزنج، فأخذوا ما فيها، واستنقذوا عدداً من النساء اللواتي كنّ فيها، ثم أحرقوا تلك القصور، وانصرف الموفق مع غروب الشمس بالظفر والسلامة، وعاد للقتال في اليوم التالي، وهمّه هدم السور، وتمكّن من ذلك، ودخل المختارة، ورأى إحراق دار صاحب الزنج والهجوم عليها من دجلة، فهيّأ المراكب المطلاة بموادٍ ضد

النيران، كما فيها جماعة من حذّاق النفّاطين، وأمر ابنه أبا العباس بالقصد إلى دار محمد بن يحيى المعروف بالكرنبائي، وهي جوار دار صاحب الزنج في شرق نهر أبي الخصيب، وأن يتقدّم إليها ويحرقها وما يليها من منازل قواد صاحب الزنج لإشغالهم عن إنجاده ومعاونته، ففعل أبو العباس ذلك، وحاول الزنج الوقوف أمام المهاجمين دفاعاً عن سيّدهم غير أنهم قد هُزموا، ونصر الله أبا العباس ومن معه، وأُحرقت تلك الأبنية، واشتعلت النار في قصر صاحب الزنج، وأخذ رجال الموفق ما لم تأت عليه النار، واستنقذوا جماعةً من النساء كان صاحب الزنج قد استرقّهنّ، أما صاحب القصر فقد ولّى هارباً، تاركاً وراءه كل شيء.

وفي يوم الأحد لعشرٍ بقين من شعبان سنة ٢٦٩هـ، غرق نصير المعروف بأبي حمزة، ونهض الموفق يحارب الزنج، وثبت سليمان بن جامع حتى خرج من خلفه بعض أصحاب الموفق فانهزم، وأصابته جراحة في ساقه، وسقط على بعض الحرائق، فاحترق بعض جسده، وحامى عنه بعض جماعته، ونجا من الأسر. ورجع الموفق ظافراً، ولكن أصابته عِلّة من وجع المفاصل فأقام بقية شعبان ورمضان وأياماً من

شوال دون قتال صاحب الزنج، فلما تماثل للشفاء أمر بالاستعداد لقتال الزنج.

أعاد صاحب الزنج بناء إحدى القنطرتين اللتين هدمهما الموفّق فأرسل الموفّق قائدين له يكون أحدهما غرب القنطرة ويكون الثاني إلى الشرق منها، ويحاربا رجال صاحب الزنج، ثم يهدما القنطرة. فتقدّما قائدا الموفق، والتقوا مع رجال صاحب الزنج يقودهم انكلاي ابن صاحب الزنج وعلي بن أبان المهلّبيّ وسليمان بن جامع، واشتبك الفريقان، ودافع الزنج عن القنطرة دفاعاً مستمياً ثم هُزموا وتركوا مواقعهم، وأزال رجال الموفق القنطرة، ودخلوا نهر أبي الخصيب، وانصرفوا غانيمن قبل حلول الظلام إلى مدينة الموفّقية، وقد استأمنت جماعة من الزنج فأكرمهم الموفق، كما أكرم من أبلى في القتال من أصحابه.

انتقال صاحب الزنج إلى شرقي النهر:

بعد أن هدم الموفق قصر صاحب الزنج ودور أعوانه في غرب نهر أبي الخصيب، وأحرق قسماً، ضاقت على الزنج الحال، إذ قلّت المواد الغذائية حتى غدا قويهم يسطو على ضعيفهم فرأى صاحب الزنج الانتقال إلى شرق النهر، ففعل، ودبت الحياة في

المنطقة، فرأى الموفق أن يلحق هذه المنطقة بأختها في النهر بالهدم، فاستعدّ وتحرّك، ووقع القتال، وكشف أصحاب الموفق خصومهم، ووضعوا فيهم السلاح، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً.

قادة صاحب الزنج يطلبون الأمان:

طلب سليمان بن موسى الشعراني أحد رؤساء صاحب الزنج الأمان من الموفق فأعطاه ذلك بعد ترددٍ لما بدر من سليمان من جرائم. فوضع الزنج مكان سليمان أحد رجاله، وهو شبل بن سالم، ثم لم يلبث أن طلب الأمان فحصل عليه، وقاتل شبل رجال صاحب الزنج وأوقع بهم، وكانوا رفاقه بالأمس. وأكرم الموفق الذين حصلوا على الأمان، وبيّن لهم ما كانوا من الضلالة، وأن التكفير عما سبق لهم أن فعلوه هو طاعة الله سبحانه وتعالى، ومنها الاجتهاد في قتال أعداء الله، والصدق في ذلك، والإخلاص بالعمل لله وحده، فوافقوا وأبدوا استعدادهم لقتال صاحب الزنج سيدهم بالأمس القريب.

دخول الموفق دار صاحب الزنج:

عزم الموفق على الهجوم على دار صاحب الزنج

بالجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، وأخذ يستعدّ لذلك، فجمع المراكب والسفن، وأمر ابنه أبا العباس بالتأهّب للقاء العدوّ، وقد تمّ ذلك كله.

أمر الموفّق ابنه أبا العباس بالعبور بأصحابه إلى الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب، وأمر مولاه راشداً بالخروج في الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب في حوالي عشرين ألفاً من الفرسان والرجالة، وأمر آخرين بالتحرّك من جهاتٍ متعددةٍ، وأعطى التعليمات بأن يزحفوا جميعاً نحو دار صاحب الزنج، فإن أظفرهم الله به كان الهدف وإلا قصدوا دار علي بن أبان المهلّبيّ، وقد بلغ عددهم حوالي خمسين ألفاً.

خرج صاحب الزنج بجيشه للقاء الموفق وأصحابه، وتمّ اللقاء ووقع القتال، ودافع أتباع صاحب الزنج عن مدينتهم وسيّدهم أشدّ دفاعٍ، واستماتوا في ذلك، وصبر أصحاب الموفق وصدقوا القتال فمنّ الله عليهم بالنصر، وقتلوا من أعدائهم مقتلةً عظيمةً، وأسروا عدداً كبيراً.

أُتي الموفّق بالأسارى، فأمر بضرب أعناقهم فدقّت والمعركة لا تزال مستعرةً، وقصد دار صاحب الزنج فوافاها وكان قد لجأ إليها صاحبها، وجمع فيها

أكثر رفاقه عناداً للدفاع عنها، فلم يُغن ذلك شيئاً، إذ أسلمها راعيها، وتفرّق أتباعه عنها، ودخلها رجال الموفق فأخذوا ما سلم من مالٍ ومتاعٍ، كما أخذوا أهله. ومضى صاحب الزنج هارباً نحو دار عبد الله بن أبان المهلّبيّ لا يلوي على أهلٍ ولا مالٍ. وأحرقت الدار.

لجأ أكثر الزنج إلى دار عبد الله بن أبان المهلّبيّ، كما أن رجال أبي العباس بن الموفق قد قصدوا الموضع الذي أُمروا بقصده من دار المهلّبيّ، ودخلوا الدار، وتشاغلوا بأخذ ما كان المهلّبيّ قد غلب عليه من أموال المسلمين وأبنائهم ونسائهم، وجعل كل من ظفر بشيءٍ انصرف به إلى مركبه في نهر أبي الخصيب.

وتبيّن للزنج قلّة من بقي من أصحاب أبي العباس وتشاغلهم بالنهب، فخرجوا عليهم من عدة مواضع كانوا قد كمنوا فيها، فأزالوهم عن مواضعهم، فانكشفوا، وأتبعهم الزنج حتى وافوا نهر أبي الخصيب، وقتلوا من فرسانهم ورجّالتهم جماعةً قليلةً.

وكذلك كان أصحاب الموفق الذين قصدوا دار صاحب الزنج في شرقي نهر أبي الخصيب قد تشاغلوا بحمل ما حصلوا عليه إلى المراكب فأطمع بهم الزنج

فهجموا عليهم فهزموهم، وثبتت جماعة فردّوا وجوه الزنج حتى ثاب الناس وتراجعوا إلى مواقفهم فدار قتال بينهم استمرّ إلى وقت صلاة العصر، فأثار الموفق أصحابه وشجّعهم فحملوا على الزنج حملةً صادقةً فانهزم الزنج وتناوشتهم السيوف حتى انتهوا إلى دار صاحب الزنج، ثم رأى الموفق أن يصرف جماعته ليأخذوا الراحة بعد مشقة القتال، فأمرهم بالرجوع، فانصرفوا إلى مراكبهم، واتجه هو إلى مركبه، ولم يتمكّن الزنج من ملاحقتهم لما نالهم في آخر الوقعة.

وجاء مدد إلى الموفق من سامراء بإمرة كاتبه صاعد بن مخلد، ويزيد عدد هذا المدد على عشرة آلافٍ من الفرسان والرجالة، فأمر الموفق بإراحة أصحابه، وتجديد أسلحتهم، وإصلاح أمورهم، والاستعداد لقتال صاحب الزنج، فأقام أياماً بالموفّقية بعد قدومه ثم أخذ بالتأهّب.

قدوم لؤلؤ لقتال صاحب الزنج:

وبينما كان الموفق يستعد لشنّ حربٍ جديدةٍ ضدّ صاحب الزنج إذ ورد كتاب لؤلؤ صاحب ابن طولون مع بعض قواده إلى الموفق، يسأله فيه الإذن له في القدوم عليه ليشهد معه حرب صاحب الزنج. فأجابه إلى ذلك،

فأذن له في القدوم عليه، وأخّر ما كان عزم عليه من مناجزة صاحب الزنج انتظاراً منه قدوم لؤلؤ، وكان لؤلؤ مقيماً بالرقة في جيشٍ عظيمٍ من نخبة أصحاب ابن طولون، فلما ورد على لؤلؤ كتاب الموفق بالإذن له بالقدوم عليه جاء إلى بغداد في جميع رجاله، وأقام بها مدّةً، ثم قصد الموفق فوافاه بعسكره يوم الخميس لليلتين خلتا من شهر المحرم سنة سبعين ومائتين.

انطلق الموفق مع من اجتمع له من مقاتلين، فلما رأوهم الزنج قادمين ولّوا هاربين فتبعهم أبو العباس فأدركهم ووضع السيف فيهم فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسر عدداً كبيراً، وأفلت آخرون فتلقّاهم القائد «زيرك» في أصحابه فأعمل فيهم قتلاً فلم ينج منهم إلا الشريد. وهدم أبو العباس القنطرتين، وأزال العوائق أمام الدخول في نهر أبي الخصيب.

أعطى الموفق لكل قائدٍ مهمته، ثم أمر الناس أن يزحفوا على صاحب الزنج وذلك لثلاث ليالٍ بقين من شهر المحرم سنة سبعين ومائتين فلقيهم الزنج وقد حشدوا وجمعوا، وجرى قتال ضارٍ، وذهب جمع كثير من الطرفين، وصبر أصحاب الموفق فمنّ الله عليهم بالنصر، وولّى الزنج الأدبار، وأتبعهم رجال الموفق

يقتلون ويأسرون، كما غرقت أعداد منهم في النهر، وسيطر رجال الموفق على مدينة صاحب الزنج كاملةً، واستنقذوا من كان فيها من الأسرى من الرجال والنساء والصغار، كما أخذوا بأهل علي بن أبان المهلّبيّ وأخويه الخليل ومحمد، وحُملوا إلى الموفّقية. أما صاحب الزنج فقد هرب هو وابنه انكلاي وعبد الله بن أبان المهلّبيّ وسليمان بن جامع وعدد من قادتهم إلى موضعٍ كان صاحب الزنج رآه لنفسه ومن معه ملجأ إذا غُلبوا على مدينته.

ووصل الموفق ومعه لؤلؤ إلى ملجأ صاحب الزنج والذين معه، فقاتلوهم فولّى الزنج هاربين، فعبر لؤلؤ وأصحابه خلفهم، ثم رجعوا للراحة قليلاً، وبعد أخذ قسطٍ منها، عاودوا الكرة على رجال الزنج، وتمكّنوا من أسر سليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمداني، وهو أحد أمراء جيوش صاحب الزنج، كما أُسر نادر الأسود المعروف بالحفّار، وهو أحد قدماء رجال صاحب الزنج.

مقتل صاحب الزنج:

كان صاحب الزنج قد قُتل وكُتم أمره، وعندما قُتل عطف أصحابه الذين كانوا معه على رجال الموفق

حتى أزالوهم عن مواقفهم، وفترت هممهم، وأحسّ الموفق بذلك فحثّ رجاله وشجّعهم، وتقدّمهم في متابعة صاحب الزنج، وجدّ في الطلب، ونهض رجاله معه، وإذا بالبشير يأتيه بمقتل صاحب الزنج، ومعه كفّ زعم أنها كفّه، ثم أتاه رجل من أصحاب لؤلؤ يسرع على فرسٍ ومعه رأس صاحب الزنج، فخرّ الموفق ساجداً لله على ما أولاه من نعمة النصر والانتهاء من الخبيث، وسجد أبو العباس بن الموفق والقادة وكثير من الجند شكراً لله، وأكثروا حمد الله والثناء عليه.

عندما أحاط رجال الموفق بصاحب الزنج الذي لم يبق معه من رؤساء أصحابه إلا عليّ بن أبان المهلّبيّ، وقد تركه وولّى هارباً، ومن قبل كان انكلاي بن صاحب الزنج قد فارق أباه. وأخذ أتباع صاحب الزنج يطلبون الأمان ويمنحهم إياه الموفق.

وصل إلى الموفق خبر عليّ بن أبان المهلّبيّ وابن صاحب الزنج انكلاي ومكان إقامتهما مع من تبعهما من قادة الزنج فبعث قوةً تطلبهم، وأمر بالتضييق عليهم، فلما أيقنوا بأن لا ملجأ لهم أعطوا بأيديهم، فظفر بهم الموفق وبمن معهم، حتى لم يشذّ أحد، فأمر الموفق بسجن انكلاي وعليّ بن أبان المهلّبيّ.

وكان قد هرب «قرطاس» الذي رمى الموفق بسهمٍ فأصابه فيما مضى، فعرفه رجل كان قد رآه في عسكر صاحب الزنج فدلّ عليه عامل البلد، فأخذه وحمله في وَثاق فقتله أبو العباس بعد إذن أبيه الموفق.

أقام بعدئذٍ الموفق بمدينته «الموفقية» ليزداد الناس بإقامته أمناً وولّى العمال على البصرة، والأُبلّة، وكور دجلة، وواسط، والأهواز، وقدّم ابنه أبا العباس إلى بغداد فوصل إليها يوم السبت لاثنتي عشرة من شهر جمادى الأولى سنة سبعين ومائتين.

وهكذا انتهت حركة الزنج التي كانت تهدف إلى التهديم بالإسلام من الداخل باستحلال الفروج والأموال وجذب الشباب إليها تحت هذا العنوان، لقد انتهت بعد أن استمرّت ما يقرب من خمس عشرة سنةً أقضّت فيها مضاجع الناس والخلافة، وأفسدت في المنطقة التي سيطرت عليها فساداً كبيراً، واستحلّت كثيراً من المحارم. لقد كان خروج صاحب الزنج يوم الأربعاء لأربعٍ بقين من شهر رمضان سنة ٢٥٥هـ، وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من شهر صفر سنة ٢٧٠هـ. فكانت أيامه من يوم خرج إلى اليوم الذي قُتل فيه أربع عشرة سنةً وأربعة أشهرٍ وستة أيامٍ، وكان دخوله الأهواز

لثلاث عشرة ليلةً بقيت من شهر رمضان سنة ٢٥٦هـ، وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقها لثلاث عشرة ليلةً بقيت من شوال سنة ٢٥٧هـ.

آثار حركة الزنج:

قامت جماعة من الزنج في واسط سنة اثنتين وسبعين ومائتين، وأخذت تصيح (انكلاي يا منصور)، وكان انكلاي بن صاحب الزنج، وعليّ بن أبان المهلّبيّ، وسليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمداني، وسليمان بن موسى الشعراني، وآخر معهم من قادة الزنج مسجونين في دار محمد بن عبد الله بن طاهر ببغداد، وكان القائم عليهم أحد رجال الموفق، ويدعى فتح السعيدي، فكتب الموفق إلى فتح أن يُوجّه إليه رؤوس هؤلاء الستة، فنفّذ فتح ما أُمر به.

وفاة الموفق:

أصيب الموفق بمرض النقرس، واشتد به الوجع، ثم صارت عِلّة رجله داء الفيل، وكان أجله يوم الأربعاء لثمانٍ بقين من شهر صفر سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين، ودُفن في اليوم التالي يوم الخميس في بغداد في الرصافة.

ولاية العهد:

عهد المعتمد بولاية العهد لابنه جعفر لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر شوال سنة إحدى وستين ومائتين، وسمّاه المفوض إلى الله، وولاّه غربي الخلافة، وضمّ إليه موسى بن بُغا، وولّاه إفريقية والشام والجزيرة الفراتية والموصل وإرمينية وطريق خراسان، وولّى أخاه الموفق أبا أحمد العهد بعد جعفر، وولّاه المشرق، وضمّ إليه مسرور البلْخيّ، وولّاه بغداد والسواد والكوفة وطريق مكة والمدينة وكور دجلة والأهواز وفارس وأصبهان وقُم والدينور والريّ وزنجان وقزوين وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والسند، وعقد لكل واحدٍ منهما لواءين: أبيض وأسود، وشرط إن حدث به حدث الموت وجعفر لم يكمل للأمر، أن يكون الأمر لأخيه الموفق أبي أحمد ثم لجعفر. وأخذت البيعة على الناس بذلك، وفُرّقت نسخ الكتاب، وبُعث بنسخةٍ مع الحسن بن محمد بن أبي الشوارب ليُعلّقها في الكعبة، فعقد جعفر المفوّض إلى الله لموسى بن بُغا على المغرب في شوال وبعث إليه بالعقد مع محمد المولّد.

وتوفي الموفق سنة ٢٧٨هـ فبويع لولده أبي العباس

بولاية العهد بعد المفوّض إلى الله، ولقب بالمعتضد بالله، وذلك في اليوم التالي لوفاة أبيه يوم الخميس لتسعٍ بقين من صفر سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين، وخطب يوم الجمعة للمعتمد على الله، ثم لولده جعفر المفوّض إلى الله، ثم لأبي العباس أحمد المعتضد بالله.

ولثمانٍ بقين من المحرم سنة تسعٍ وسبعين ومائتين خُلع جعفر المفوّض إلى الله من ولاية العهد، وبويع في اليوم نفسه لأحمد المعتضد بالله بأنه ولي العهد من بعد المعتمد على الله، وأُنشئت الكتب بخلع جعفر وتولية المعتضد، ونُفّذت إلى البلدان، وخُطب يوم الجمعة للمعتضد بولاية العهد، وأُنشئت عن المعتضد كتب إلى العمال والولاة بأن أمير المؤمنين قد ولّاه العهد، وجعل إليه ما كان الموفق يليه من الأمر والنهي والولاية والعزل.

ظهور القرامطة:

ينتسب القرامطة إلى رجل يدعى حمدان بن الأشعث، يعود أصله إلى الأهواز، وعُرف في سواد الكوفة حوالي سنة ٢٥٨هـ، وكان يظهر الزهد والتقشف في أول أمره فاستمال إليه بعض الناس، وقد لُقّب باسم «قرمط» لقصرٍ كان فيه، حيث كان قصير القامة، ورجلاه

قصيرتان بشكلٍ يلفت النظر، فكان خطوه قصيراً، الأمر الذي جعله ناقماً على المجتمع، يُبدي التأفّف والتضجّر، ويحقد على الناس جميعاً، ويظهر التذمّر من كل المجتمعات التي تحيط به أو التي ينتقل إليها، ويضمر البغض على كل وضعٍ.

التقى حمدان قرمط مرةً بأحد المتلوّنين، وهو حسين الأهوازي الذي كان يتجوّل في سبيل فكرته، فاجتمع به، وهو في طريقه من «السلمية» في بلاد الشام شمال شرقي حمص إلى سواد الكوفة وذلك حوالي سنة ٢٦٥هـ، حيث كان حسين الأهوازي ينتقد الخلفاء العباسيين، ويتذمّر من وضعهم، فلقي هذا مكاناً في قلب حمدان. ولما مات حسين الأهوازي أصبح حمدان قرمط القائم بالأمر مكانه بالدعوة، بناء على عهدٍ من حسين، وقد ترقّى حمدان قرمط بالدعوة التي عُرفت فيما بعد بالإسماعيلية بسرعةٍ فائقةٍ نتيجة جدّه ونشاطه، أو لأمور لا تزال غامضةً حتى الآن، وربما كان بالأصل أحد المتلوّنين لكنه غير معروفٍ، أو قام بهذا الدور من التمثيل ليكسب بعض الناس حوله بادىء ذي بدءٍ فأظهر التقوى ليخدع من حوله بذلك، ويكسب ثقتهم، وإذا ظهر بمظهر صاحب الدين استطاع أن يلعب

ويغيّر بعض المبادىء للعامة حتى تصبح عُرفاً وتترسّخ في النفوس. وإن أوائل الذين أقبلوا على هذه الأفكار كانوا من المتلوّنين أمثال: زكرويه بن مهرويه، وعبدان بن الأشعث الأهوازي ابن عم حمدان وختنه، والحسن بن بهرام الذي عُرف باسم «أبو سعيد الجنّابي» وقد كان لكلٍ من هؤلاء دور في قيادة هذه الفكرة الضالة.

والقرامطة إذن نسبةً إلى «قرمط» لقب حمدن بن الأشعث، والنسّابون يضبطوه بكسر القاف والميم (قِرْمِط)، وأما اللغويون فيفتحون القاف والميم (قَرْمَط).

ورغم أن القرامطة يدّعون أنهم من الإسماعيلية غير أنهم يختلفون عنهم إذ تعتقد الإسماعيلية بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أما القرامطة فيدّعون أن محمد بن إسماعيل حيّ لم يمت، وأن روحه تحلّ بإمامهم وهو داعية له يمثّله، ويعمل برأيه، وحسب تعليماته، وهذا ما يفيد المتلوّنين الذين لا يريدون أن يظهروا أنفسهم، إذ يمكن أن يزعم أيّ مُدّعٍ أنه يُمثّل الإمام وهو حجته إلى الناس.

انتشر القرامطة في سواد الكوفة، وسكت عنهم عامل المنطقة أحمد بن محمد الطائي، فانطلق قوم من

الكوفة إلى بغداد، ورفعوا إلى السلطان أمر القرامطة، وأنهم قد أحدثوا ديناً غير الإسلام، وأنهم يرون السيف على أمة محمدٍ إلا من بايعهم على دينهم، وأن الطائي يخفي أمرهم على السلطان، فلم يلتفت إليهم، ولم يسمع قولهم لأنه لم يأت عن طريق الوالي، فهذا شكاية على الوالي.

وكان فيما حكي عن القرامطة من مذهبهم أنهم جاؤوا بكتاب فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم. يقول الفرج بن عثمان ـ وهو من قريةٍ يقال لها نصرانة ـ داعية المسيح وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدي وهو أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل، وذكر أن المسيح تصوّر له في جسم إنسان، وقال له: إنك الداعية وإنك الحجّة، وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك يحيى بن زكريا وإنك روح القدس، وعرّفه أن الصلاة أربع ركعاتٍ ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها، وأن الأذان في كل صلاةٍ أن يقول المؤذن: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله مرتين أشهد أن آدم رسول الله أشهد أن نوحاً رسول الله أشهد أن إبراهيم رسول الله أشهد أن موسى رسول الله أشهد أن عيسى رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، وأن يقرأ في كل ركعةٍ

الاستفتاح وهي من المنزّل على أحمد بن محمد بن الحنفية، والقبلة إلى بيت المقدس (والحج إلى بيت المقدس) وأن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء، والسورة الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المتخذ لأوليائه بأوليائه قل إن الأهلّة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام وباطنها أوليائي الذين عرّفوا عبادي سبيلي اتقوني يا أولي الألباب وأنا الذي لا أُسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وامتحن خلقي فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنّتي وأخلدته في نعمتي ومن زال عن أمري وكذب رسلي أخذته مهاناً في عذابي وأتممت أجلي وأظهرت أمري على ألسنة رسلي، وأنا الذي لم يعلُ عليّ جبّار إلا وضعته ولا عزيز إلا أذللته وليس الذي أصرّ على أمري ودام على جهالته وقالوا لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون، ثم يرجع ويقول في ركوعه: سبحان ربي ربّ العزّة وتعالى عما يصف الظالمون يقولها مرتين، فإذا سجد قال: الله أعلى الله أعلى الله أعظم، ومن شريعته أن يصوم يومين في السنة، وهما: المهرجان والنيروز، وأن النبيذ حرام والخمر حلال، ولا غسل من جنابةٍ إلا الوضوء كوضوء الصلاة، وإن من حاربه وجب قتله، ومن لم

يحاربه ممن يخالفه أخذ منه الجزية، ولا يؤكل كل ذي نابٍ ولا كل ذي مخلبٍ.

وكان مصير قرمط إلى سواد الكوفة قبل مقتل صاحب الزنج، فسار قرمط إليه، وقال له: إني على مذهبٍ ورأيٍ، ومعي مائة ألف ضارب سيفٍ، فتُناظرني فإن اتفقنا على المذهب مِلت إليك بمن معي، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك، فتناظرا، فاختلفت آراؤهما فانصرف قرمط عنه[1].

قتال الروم:

لقد أخذت كفة الروم في هذه المرحلة ترجح على كفة المسلمين، وإن لم يكن رجحاناً واضحاً إلا أنهم قد تشجّعوا على دخول بلاد المسلمين، أو أن هيبة المسلمين قد قلّت في أعين الروم بعد أن كانت كبيرةً وذلك لما وقع في ديار الإسلام من خلافاتٍ، وما قام فيها من حركاتٍ تهدف تقويض الأركان.

غير أن الأمر المهمّ أن المتلوّنين كانوا يبذلون جهدهم باتصالاتهم السرية مع الروم، فإن المصلحة

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

السياسية تقتضي ألا يقوم الروم بهجماتٍ قويةٍ مركّزةٍ على ديار الإسلام لأن ذلك يدعو إلى وحدة المسلمين وسيرهم جميعاً للجهاد وعندئذٍ لا يمكن الانتصار عليهم، كما يُقوّي ذلك الأمة الإسلامية ويُوحّد جهدها، ويُصلح الخلل الذي يتسع فيها، وفهم الروم ذلك، فقلّلوا من هجماتهم، ولكن لا يمكن وقفها تماماً إذ يدلّ ذلك على انتهاء المقاومة ويُشجّع المسلمين على التحرّك، وهذا غير مقبولٍ، لذا كانت غارات جانبية، وقتال على مستوى ضعيفٍ.

وثب «بسيل» المعروف بالصقلبيّ[1] على الامبراطور ميخائيل بن تيوفيل فقتله، بعد أن ملك ميخائيل الروم مدة أربعٍ وعشرين سنةً منفرداً بالحكم، وملك بسيل الروم بعده، وذلك سنة ٢٥٧هـ.

هاجم الروم مدينة «سُمَيْساط»، ودخلوها، ثم تقدّموا إلى مدينة «ملاطية» وحاصروها فنهض أهلها في وجههم فغلبوهم ـ بإذن الله ـ وقتل أحمد بن محمد القابوس نصراً الإقريطشي بطريق البطارقة، وذلك سنة ٢٥٩هـ.

---

(١) بسيل من أفراد الأسرة الحاكمة للروم، ولكنه عُرف بـ «الصقلبي» لأن أمه صقلبية.

استولى الروم عام ٢٦٠هـ على بلدة «لؤلؤة» من أيدي المسلمين، وهي إحدى قلاع الثغور.

دخل عبد الله بن رشيد بن كاوس أرض الروم على رأس أربعة آلاف مقاتلٍ من الثغور الشامية، وذلك سنة ٢٦٤هـ، وحقق نصراً غير أن بعض البطارقة قد خرجوا عليه أثناء عودته، وأحدقوا بقواته من كل ناحيةٍ، فنزل المسلمون عن رواحلهم، وقاتلوا مستميتين فقُتل أكثرهم، ونجا منهم ستمائة رجلٍ، أما أميرهم عبد الله بن رشيد فقد وقع في الأسر بعد أن جُرح عدة جراحاتٍ، وحمله الروم إلى لؤلؤة، ثم حُمل إلى طاغية الروم، وبعد سنةٍ بعثه ملك الروم مع عددٍ من أسرى المسلمين إلى أحمد بن طولون في مصر كنوعٍ من الهدية، من أجل الصلة، ولبقاء الخلاف مع بغداد أو لزيادته.

وخرج خمسة من بطارقة الروم على رأس ثلاثين ألف مقاتلٍ، واتجهوا نحو مدينة «أضنه» وقد تمكنوا من الوصول إلى مصلى البلدة، كما أسروا «أرخوز» الذي كان والي الثغور، ثم عُزل لكنه بقي مرابطاً هناك فأُسر مع أربعمائة رجلٍ معه، وقتل الروم من الذين نفروا إليهم حوالي ألف وأربعمائة مقاتلٍ، وانصرفوا في اليوم

الرابع، وذلك في شهر جمادى الأولى من سنة ٢٦٥هـ.

وشجَّع الروم ما حقّقوه من نصر عام ٢٦٥هـ، لذا كرّروا الهجوم سنة ٢٦٦هـ، فوصلوا إلى «تل بَسْمى» من ديار ربيعة فقتلوا عدداً من المسلمينْ، وأسروا نحواً من مائتين وخمسين رجلاً، فنفر أهل نصيبين وأهل الموصل، فرجعت الروم من نفير المسلمين العام ورفع راية الجهاد.

وغدا بعد ذلك جزء من ثغور بلاد الشام يتبع الطولونيين، فسار عام ٢٦٦هـ ثلاثمائة مجاهدٍ من أهل طرسوس، ودخلوا بلاد الروم فخرج عليهم أربعة آلاف روميٍّ فانتصر المسلمون رغم قلّتهم، وقتلوا عدداً كبيراً من الروم.

وخرج طاغية الروم ابن الصقلبية فأناخ على ملاطية، وانتشر الخبر، فنهض أهل مرعش وأهل الحَدَث، واتجهوا نحو ملاطية دعماً لأهلها، فانهزم الطاغية فلاحقه المسلمون، وذلك سنة ٢٦٨هـ.

وغزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية سنة ٢٦٨هـ خَلَف الفرغاني عامل ابن طولون فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً، وغنم الناس.

وغزا الصائفة سنة ٢٧٢هـ «يازمان».

وكذلك غزا «يازمان» الصائفة في شهر رمضان سنة ٢٧٤هـ.

وغزا «يازمان» في البحر سنة ٢٧٥هـ، فأخذ للروم أربعة مراكب.

وجاء أحمد العجيفي مدينة «طرسوس»، وغزا مع «يازمان» الصائفة، ووصلوا إلى حصن «سَلَنْدو»، فحاصروه، فأصابت شظية من حجر منجنيق في أضلاعه، وهو مقيم على الحصن، وكانوا قد أشرفوا على فتحه، فارتحل العسكر، فتوفي في الطريق غداة يوم الجمعة لأربع عشرة ليلةً خلت من رجب سنة ٢٧٨هـ، فحُمل على أكتاف الرجال إلى طرسوس حيث دُفن هناك.

وفاة المعتمد:

توفي المعتمد على الله ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلةً بقيت من شهر رجب سنة تسعٍ وسبعين ومائتين ليلاً، فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنةً وثلاثة أيامٍ. وفي صبيحة هذه الليلة بويع لأبي العباس المعتضد بالله أحمد بن طلحة الموفق بالخلافة. مات المعتمد على الله وعمره خمسون سنةً.

شخصية المعتمد على الله:

- كان المعتمد أسمر، رقيق اللون، أعين جميلاً، خفيف اللحية. وكان نحيفاً ثم سمن، وأسرع إليه الشيب.

- كان يميل إلى اللهو واللعب، وشُغل عن الرعيّة، فكرهه الناس، وأحبّوا أخاه طلحة الموفق.

- خرج عليه أخوه طلحة الموفق سنة أربعٍ وستين ومائتين، ثم اصطلحا، ولكن بقي المعتمد يتخيّل أخاه الموفّق، واشتدّ تخيّله سنة تسعٍ وستين ومائتين، فكاتب المعتمد نائبه على مصر أحمد بن طولون، واتفقا على أمرٍ، فخرج ابن طولون حتى قدم دمشق، وخرج المعتمد من سامراء على سبيل التنزّه، وقصده دمشق. فلما بلغ ذلك الموفق كتب إلى إسحاق بن كُنداج ليردّه، فركب ابن كُنداج من نصيبين إلى المعتمد، فلقيه بين الموصل والحديثة، فقال: يا أمير المؤمنين، أخوك في وجه العدوّ، وأنت تخرج عن مستقرّك ودار ملكك، ومتى صحّ هذا عنده رجع عن مقاومة الخارجيّ، فيغلب عدوّك على ديار آبائك، ثم وكّل بالمعتمد جماعةً، ورسم على طائفةٍ من خواصه، ثم بعث إلى المعتمد يقول: ما هذا بمقامٍ فارجع، فقال المعتمد: فاحلف

لي أنك تنحدر معي ولا تسلّمني، فحلف له، وانحدر إلى سامراء، فتلقّاه صاعد بن مخلد كاتب الموفق، فسلّمه إسحاق إليه، فأنزله في دار أحمد بن الخصيب، ومنعه من نزول دار الخلافة، ووكّل به خمسمائة رجلٍ يمنعون من الدخول إليه. وأقام صاعد في خدمة المعتمد على الله، ولكن ليس للمعتمد حلّ ولا ربط، فقال المعتمد في ذلك:

أليس من العجائب أن مثلي
يرى ما قلّ ممتنعاً عليه؟
وتؤخذ الدنيا باسمه جميعاً
وما من ذاك شيء في يديه
إليه تحمل الأموال طرّاً
ويمنع بعض ما يجبى إليه

• ومن شعر المعتمد أيضاً:

أصبحت لا أملك دفعاً لما
أُسام من خسفٍ ومن ذلّة
تمضى أمور الناس دوني، ولا
يشعرني في ذكرها قلّتي
إذا اشتهيت الشيء ولّوا به
عنّي وقالوا: ها هنا عِلّتي

- هو أول خليفةٍ قُهر، وحُجر عليه، ووُكّل به.
- كان المعتمد أول خليفةٍ انتقل من سامراء إلى بغداد، ثم لم يعد إليها أحد من الخلفاء بل جعلوا إقامتهم بغداد.
- كان الخليفة المعتمد على الله أكبر سنّاً من أخيه طلحة الموفق بستة أشهرٍ.
- كتب للمعتمد سليمان بن وهب ثم عبيد الله بن يحيى بن خاقان.
- كانت خلافة المعتمد بهمّة أخيه طلحة الموفّق بالله.
- جلس المعتمد مجلساً عاماً، وأشهد فيه على نفسه أنه خلع ولده جعفراً المفوّض إلى الله من ولاية العهد، وبايع لأبي العباس أحمد بن أخيه طلحة الموفق، ولقّبه المعتضد بالله.
- كان للمعتمد على الله من البنين: جعفر، ومحمد، وعبد العزيز، وإسحاق، وعبيد الله، وعبّاس، وإبراهيم، وعيسى، وعدة بناتٍ.



الإمارات

قامت عدة إماراتٍ منفصلةٍ عن ديار الإسلام، ومنها:

١ ـ الإمارة الطولونية:

تقلّد القائد «بايكباك» مصر، فأرسل إليها من قبله أحمد بن طولون[1]، فدخلها سنة ٢٥٤هـ، وقُتل «بايكباك» سنة ٢٥٦هـ، وتولّى أمر مصر «يارجوخ» وهو صهر أحمد بن طولون، فكتب إليه «تسلّم من نفسك لنفسك»، وبذلك أقرّه على ما بيده، وزاد في سلطته بأن

(١) كان طولون مولىً لنوح بن أسد الساماني صاحب بخارى وما وراء النهر فأهداه مع عدة مماليك إلى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠هـ. وولد أحمد بن طولون في سامراء سنة ٢١٤هـ، فتفقّه وتأدّب وتقدّم عند الخليفة المتوكل، وولي إمرة الثغور، وتوفي طولون سنة ٢٤٠هـ، كان أحمد بن طولون من حفظة كتاب الله، كثير الصدقات، كريماً عادلاً في الرعية، جواداً شجاعاً، شديداً على خصومه، يباشر الأمور بنفسه. توفي في مصر في شهر ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ. وقام بعده ابنه خمارويه، ثم جيش بن خمارويه، ثم أخوه هارون.

استخلفه على مصر كلها فقوي مركزه، وتغلّب على منافسيه.

وفي سنة ٢٥٩هـ مات «يارجوخ» صاحب إقطاع مصر الذي كان ابن طولون يحكمها نيابةً عنه، ويدعو له على منابرها بعد الخليفة، فتوطّدت قدم ابن طولون فيها، وأصبح ولياً عليها من قبل الخليفة مباشرةً.

وفي سنة ٢٦٣هـ كتب الخليفة المعتمد إلى ابن طولون يستحثّه على إرسال الخراج، فردّ عليه (لست أطيق والخراج في يد غيري) فقلّده خراج مصر، وولّاه الثغور الشامية، وبذلك أصبحت أعمال مصر جميعها الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية في يده[١].

كان الخليفة المعتمد على الله يميل إلى أحمد بن طولون غير أن أخاه الموفق كان لا يرغب فيه، وأمور الدولة بيد الموفق، وهذا ما أجبر الخليفة على عزل ابن طولون عن الثغور الشامية، ولكنه عاد فردّها إليه مستفيداً من اشتغال الموفق بحرب الزنج، ومحتجاً باضطراب تلك الثغور بعد إبعاد ابن طولون عنها.

وعندما توفي والي الشام «ماجور» سار ابن طولون

---

(١) تاريخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن.

إليها فدانت له مدنها، ودُعي له على منابرها سنة ٢٦٥هـ، ودخل «أنطاكية» بعدما أوقع بـ «سيما الطويل» إذ حاصره بإنطاكية في شهر المحرم ولم يزل مقيماً عليها حتى دخلها وقتل «سيما». وخافه الروم، فأرسلوا له الهدايا، ثم اضطر إلى الانسحاب منها بعد أن خلع طاعته ابنه العباس. وذلك أن أحمد بن طولون عندما سار إلى الشام استخلف ابنه العباس على مصر، فلما قرّر العودة حمل العباس ما في بيت مال مصر من الأموال، وما كان لأبيه هناك من أثاثٍ وغيره ولحق ببرقه مع من تبعه مخالفاً لأبيه، فلما رجع ابن طولون إلى مصر وجّه جيشاً إلى ابنه فظفر به، وردّه إلى أبيه، فحبسه عنده، وقتل جماعةً ممن شايعوا ابنه.

وفي سنة ٢٦٦هـ، أسر «لؤلؤ» غلام أحمد بن طولون موسى بن أتامش.

أظهر «لؤلؤ» خلاف سيّده أحمد بن طولون سنة ٢٦٨هـ ثم تركه، وكان واليه على الرقة وحمص وحلب وقنسرين وديار مُضر، وكتب «لؤلؤ» إلى الموفق أخي الخليفة المعتمد في القدوم إليه ومفارقة ابن طولون بشروطٍ فأجابه الموفق إلى ما سأل فسار إليه. وذلك سنة ٢٦٩هـ.

عزم الخليفة المعتمد على الله اللحاق بمصر والتخلّص من أخيه الموفق إذ شعر أن كل شيءٍ في الدولة أصبح بيد الموفق، غير أن والي الموصل والجزيرة «إسحاق بن كُنداج» قد ردّ الخليفة إلى سامراء بأمر الموفق، وأعلن الخليفة عن عزل أحمد بن طولون عن مصر، وإعطائها إلى إسحاق بن كنداج وذلك سنة ٢٦٩هـ. وبذا ضعف مركز ابن طولون، وهُزمت جيوشه في طرسوس، كما هُزمت في مكة. ولم يستطع إسحاق بن كُنداج الوصول إلى مصر فبقيت بيد ابن طولون.

وتوفي أحمد بن طولون لستٍ خلون من شعبان سنة ٢٧٠هـ، فاختار الجند ابنه «خمارويه» والياً على مصر، ولم يكن للخليفة إلا أن يوافق على ذلك، وكان المعتمد قد دخل بغداد في النصف من شعبان.

تحركت جيوش الخليفة بقيادة أبي العباس أحمد بن الموفق من بغداد باتجاه الشام، وتحرّكت جيوش الطولونيين سنة ٢٧١هـ، وجرت بينهما معركة الطواحين فانتصر أبو العباس على خمارويه ودخل دمشق، غير أن كميناً كان قد نُصب لأبي العباس، فخرج الكمين وشدّوا على أصحاب أبي العباس،

وكانوا قد وضعوا السلاح فانهزموا وتفرّقوا وذهب أبو العباس إلى طرسوس فدخلها يوم ستة عشر من شوال سنة ٢٧١هـ. ثم إن أهل طرسوس قد أخرجوا أبا العباس من مدينتهم لخلافٍ وقع بينه وبين «يازمان» وذلك في النصف من المحرم سنة ٢٧٢هـ.

سار خمارويه بنفسه على رأس جيشٍ فدخل دمشق سنة ٢٧٣هـ، وواصل التقدّم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، ووافق الخليفة المعتمد وأخوه الموفق على إعطاء مصر لخماريه وأولاده مدة ثلاثين سنةً.

اختلف إسحاق بن كُنداج صاحب الموصل ومحمد بن أبي الساج صاحب قنسرين، فدعا ابن أبي الساج إلى خمارويه فدعمه، وحارب إسحاق بن كُنداج الذي فرّ إلى قلعة ماردين، وأخذ محمد بن أبي الساج الموصل والجزيرة، وخطب على منابرها لخمارويه، ثم عاد فاختلف معه سنة ٢٧٥هـ، واقتتلا عند «ثنية العقاب» شمال شرقي دمشق وعلى بعد ثلاثين كيلومتراً منها، فهزم محمد بن أبي الساج، ولاحقه خمارويه من كل جهةٍ حتى فرّ إلى الخليفة، وعاد إسحاق بن كُنداج إلى الجزيرة.

وفي سنة ٢٧٧هـ دعا «يازمان» لخمارويه.

زادت سلطة خمارويه بعد وفاة الموفق أبي أحمد وإسحاق بن كُنداج سنة ٢٧٨هـ، ثم موت الخليفة المعتمد على الله سنة ٢٧٩هـ، ثم بيعة الخليفة أحمد المعتضد بالله إذ أقرّه الخليفة الجديد والياً على الأرض الممتدة من الفرات حتى برقه هو وأولاده من بعده لمدة ثلاثين سنةً، كما تزوّج المعتضد بالله ابنة خمارويه «قطر الندى» في سبيل جمع الكلمة وترك الخلاف.

وتوفي خمارويه سنة ٢٨٢هـ.

٢ ـ إمارة بني زياد:

كان بنو زياد يحكمون اليمن، ثم استولى بنو يعفر على صنعاء سنة ٢٢٥هـ، وبنو الكرندي على إقليم جند.

واستمر حكم بني زياد على بقية اليمن، وقد تولّى أمرهم إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد ٢٤٢ ـ ٢٨٩هـ أي مدة سبعٍ وأربعين سنةً.

٣ ـ إمارة بني يعفر:

وكانت في صنعاء، واستمرّ حكم مؤسسها إبراهيم بن يعفر ٢٢٥ ـ ٢٦٠هـ، ثم جاء ابنه عبد الرحيم الذي خلفه ابنه يعفر، ودام ملكه ٢٦٠ ـ ٢٨٢هـ.

٤ ـ الإمارة الصفّارية:

احتلّ يعقوب بن الليث الصفار سنة ٢٥٩هـ نيسابور قاعدة بني طاهر على غير رأي الخليفة مدّعياً أن أهل خراسان طلبوه بسبب الضعف الذي آل إليه بنو طاهر، كما حارب ملوك الترك الذين يجاورون سجستان حتى أذعنوا له، وكان قد تولّى أمر بلْخ، وطخارستان، وكرمان، وسجستان، والسند بكتابٍ من أبي أحمد الموفق أخي الخليفة على أن يعود عن فارس وذلك عندما اتجه إليها سنة ٢٥٧هـ فوافق وتراجع عنها.

وسار يعقوب إلى طبرستان فدخلها، وهزم الحسن بن زيد الطالبي وذلك سنة ٢٦٠هـ، ثم عاد فانسحب منها فرجع إليها الطالبي، وفي العام التالي سار إلى الأهواز فدخلها، ورغب في التوجّه إلى بغداد حيث حصل بينه وبين رجال الدولة خلاف، ثم أرسل رسله إلى الخليفة وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس وكل ما كان تحت يد طاهر بن الحسين، وشرطتي بغداد وسامراء، وولاية كرمان وسجستان، وأن يُقرأ خلاف ما قُرِىء من قبل من لعنٍ له فوافق الموفق أخو الخليفة، ومع هذا فقد ازدادت أطماعه فاتّجه نحو بغداد، ودخل واسطاً قهراً فالتقى بجند الخلافة وقد تقدّمهم الخليفة

نفسه المعتمد على الله، فثار الجند على يعقوب وهُزم وذلك سنة ٢٦٢هـ، غير أنه عاد، واستولى على جنديسابور سنة ٢٦٣هـ، وأخذ الأهواز من صاحب الزنج بعد معارك عنيفةٍ. ومات يعقوب بن الليث سنة ٢٦٥هـ بالأهواز، وخلفه أخوه عمرو بن الليث الذي كتب إلى الخليفة بالسمع والطاعة، فأقرّه الموفّق على خراسان، وفارس، وأصبهان، وسجستان، وكرمان، والسند، وشرطة بغداد وسامراء، فأناب عنه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في شرطة بغداد وسامراء.

عاد الخليفة فعزل عمرو بن الليث عن خراسان سنة ٢٧١هـ، وولّى محمد بن طاهر مكانه، غير أن هذا قد آثر البقاء في بغداد، وأناب عنه رافع بن هرثمة، ووقع القتال بين جيوش الخلافة وبين جيوش الصفاريين، وانتصرت جيوش الخلافة، وخرج الموفق لحرب عمرو بن الليث عام ٢٧٤هـ غير أنه لم يستطع دخول كرمان وسجستان واضطر إلى العودة، وبقي الوضع على ما آل إليه طيلة الأيام الباقية للمعتمد.

٥ ـ الإمارة السامانية:

ينتسب السامانيون إلى أحد رجالات الفرس المسمّى «سامان» الذي كان مجوسياً، واعتنق الإسلام

في أواخر أيام الدولة الأموية، وسمّى ابنه «أسد» باسم أسد بن عبد الله القسريّ والي خراسان في ذلك الحين، وظهر أولاد أسد كزعماء في عهد المأمون بن هارون الرشيد، فولّى أحمد بن أسد «فرغانة»، ونوح بن أسد سمرقند، ويحيى بن أسد «الشاش» و«أشروسنة» والياس بن أسد «هراة»، وذلك حوالي عام ٢٠٤هـ، ولما آل حكم خراسان والمشرق إلى طاهر بن الحسين أقرّ أولاد أسد بن سامان على ما تحت أيديهم. ولما توفي أحمد بن أسد خلفه ابنه نصر فحكم فرغانة أو أقرّه الطاهريون عليها، وفي سنة ٢٦١هـ ولّاه الخليفة المعتمد على الله بلاد ما وراء النهر كلها، فجعل قاعدة ملكه مدينة سمرقند، وولّى أخاه إسماعيل مدينة بخارى، ولكن وقع الخلاف بين الأخوين فسار نصر لحرب أخيه إسماعيل سنة ٢٧٢هـ غير أنهما تصالحا، ثم عادت الحرب بينهما سنة ٢٧٥هـ، وانتصر إسماعيل على نصر الذي وقع في الأسر، وحُمل إلى أخيه إسماعيل فلما وصل إليه ترجّل إسماعيل وقبّل يديه، وأعاده إلى سمرقند، وعدّه هو الوالي، أما هو فعدّ نفسه نائباً لأخيه على بخارى، وبقي الأمر هكذا حتى مات نصر سنة ٢٧٩هـ فآلت زعامة السامانيين إلى إسماعيل.

٦ ـ الإمارة الطالبية في طبرستان:

أصاب أهل طبرستان حيف، فحدثت فوضى فاستدعى أهلها الحسن بن زيد الطالبي فجاءهم فبايعوه، واستطاع أن يطرد منها واليها سليمان بن عبد الله بن طاهر، ثم وجّه جيشاً إلى الريّ فدخلها وأخرج منها الطاهريين غير أن أهل الري كرهوا واليهم، فوجّه محمد بن طاهر جيشاً أخذ الريّ التي استمرّ الطرفان يتنازعانها، وفي العام التالي دخل سليمان بن عبد الله بن طاهر طبرستان، وفرّ منها الحسن بن زيد إلى بلاد الديلم، وبعد مدةٍ عاد إليها، وفي سنة ٢٥٥هـ دخل مفلح بن عبد الحميد طبرستان والتجأ الحسن بن زيد الطالبي إلى بلاد الديلم ثانيةً، لكنه رجع إلى طبرستان مرةً أخرى لأن مفلح بن عبد الحميد تركها وسار نحو بغداد. وأراد الحسن بن زيد أن يتوسّع في بلاد خراسان فحاربه موسى بن بُغا، وانتصرعليه، وبقي الحسن بن زيد الطالبي هذا شأنه حتى توفي سنة ٢٧١هـ بعد أن حكم طبرستان تسعة عشر عاماً وستة أشهرٍ، وخلفه فيها أخوه محمد بن زيد، وقد هُزم أمام جند الخليفة سنة ٢٧٢هـ، وخرج من الريّ.

٧ ـ إمارة الأغالبة:

كان يحكم دولة بني الأغلب في القيروان ٢٥٠ ـ

٢٦١هـ محمد الثاني بن أحمد، ويُلقّب بأبي الغرانيق، وتابع فتح جزيرة صقلية، كما حاول مدّ الفتح إلى جنوبي شبه جزيرة إيطالية، وعندما توفي خلفه ابنه، ولكن لم يلبث بالإمرة سوى عدة أيامٍ حتى أخذ عمه الإمارة وهو إبراهيم الثاني، الذي فتح المسلمون في عهده مدينة «سرقوسة» في صقلية سنة ٢٧٤هـ، واستمرّ حكمه حتى سنة ٢٨٩هـ، وقد قاتل العباس بن أحمد بن طولون الذي خرج عن طاعة أبيه، واتجه نحو الغرب، وراسل إبراهيم الثاني هذا، وادّعى أن الخليفة أمر له بولاية المغرب، وطلب أن يُدعى له على منابرها، وسار العباس حتى وصل إلى مدينة «لبدة» في ليبية اليوم إلى الشرق من طرابلس الغرب وعلى بُعد مائة وعشرين كيلومترٍ على ساحل البحر، فاستقبله أهلها، وغرّته نفسه فتابع السير نحو الغرب فقاتله إبراهيم الثاني أمير الأغالبة، وهزمه، واضطره إلى العودة إلى برقة. وكان إبراهيم الثاني حازماً عادلاً في أموره، أمّن البلاد، وقتل أهل البغي والفساد، وكان يجلس للعدل في جامع القيروان، يومي الاثنين والخميس، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم، وينصف بينهم، وكان عاقلاً حسن السيرة محباً للخير والإحسان.

٨ ـ إمارة الأدارسة:

كان الخلاف يعمّ منطقة المغرب الأقصى في هذه المرحلة إذ يتنازع على الحكم أبناء أسرة الأدارسة، ويستعين بعضهم بغيرهم على بعضٍ.

٩ ـ إمارة الخوارج الأباضية الرستمية:

توفي أفلح بن عبد الوهاب سنة ٢٥٨هـ، وخلفه ابنه أبو بكر، وفي أيامه استبدّ محمد بن عرفة بالأمر، أو كان هو المتنفّذ، واستاءت قبيلة نفوسة من هذا باستثناء بطنٍ منها وهو بطن «هوارة» وتسلّم أخو الإمام أبي بكر بعض المسؤوليات، وهو أبو اليقظان محمد بن أفلح، فأحسن فيها العمل، ولما ارتفعت أسهمه، وخاصةً عند قبيلة نفوسة، وعند أسرته بالذات بدأ يُحرّض أخاه أبا بكر على قتل محمد بن عرفة، وتمّ هذا، واعتزل أبو بكر الإمامة سنة ٢٦٠هـ، وتولّى أمرها أخوه أبو اليقظان، فحدثت خلافات عصبية اضطر إثرها أبو اليقظان أن يغادر قاعدته «تاهرت»، وتسلّم الجند الأمر بعد أن سيطروا على المدينة، ولكن لم يلبث أن اقتحم بدو «هوارة» المدينة، ونصبّوا عليها محمد بن مسالة، وقد اتسم حكمه بالهدوء، ووقع خلاف بين قبيلتي «هوارة» و«لواته» فأُخرجت الأخيرة من المدينة

فانضمّت إلى أبي اليقظان فاستطاع العودة إلى حكم تاهرت سنة ٢٦٨هـ، واستقرّ له الأمر حتى توفي سنة ٢٨١هـ.

١٠ ـ إمارة الخوارج الصفرية المدرارية:

كان أمير بني مدرار ميمون بن بقيّة أو أمير الصفرية في «سجلماسة» وبقي حتى عام ٢٦٣هـ، وكان قاسياً، وقد اضطر إلى هذا السلوك لمواجهة الخوارج الإباضيين في إمارته، والذين يدعمون أخاه ميمون بن الرستمية، وقد هجر أكثر الأباضيين مدينة «سجلماسة»، واتجهوا نحو وادي «درعه»، وخلفه ابنه محمد بن ميمون، وقد طارد الأباضيين، وبقي حتى توفي سنة ٢٧٠هـ، وخلفه اليسع بن ميمون بن مدرار بن اليسع بن أبي القاسم، ولُقّب بالمنتصر، واستمر في إمرته حتى مقتله على يد العبيديين. سنة ٢٩٧هـ.

١١ ـ الأندلس:

كان الأمير في الأندلس محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني، وقد حكم منذ سنة ٢٣٨هـ، وبقي حتى وفاته سنة ٢٧٣هـ حيث خلفه ابنه المنذر، وفي أيام محمد الأول توطّد الأمن، وأرسل حملاتٍ إلى

الإمارات النصرانية، وقد تكلّلت أكثر حملاته بالنصر، ولم تطل أيام المنذر إذ لم يدم حكمه سوى سنتين توفي بعدها سنة ٢٧٥هـ، وقد أحبه الناس، وكان عادلاً، وخلفه أخوه عبد الله، وكان قاسياً، وانتشرت الفوضى في أيامه، وخرج عليه الولاة، وأعلنوا استقلالهم عنه، واستمرت إمرته حتى سنة ٣٠٠هـ حيث خلفه حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله.

الملاحظة:

رأى المتلوّنون أن العمل لإيقاع خلافٍ بين أفراد أسرة بني العباس وإحداث جرحٍ ينزف باستمرارٍ ويكون الصراع على الدوام أمراً بعيد المنال إذ ما يقع الخلاف ويحدث الصدام حتى يذهب الفكر للنظر في مصلحة الأمة، وما يقتضيه الإسلام فتلتقي القلوب، وتتصافى النفوس، وتجتمع الكلمة، وتُضمّد الجراح، ويُنسى الماضي، ويرجع العمل للدعوة ونشر الإسلام والجهاد في سبيل الله لذا يجب العمل على تهديم الفكر الإسلامي من الأساس وذلك باستغلال أهواء النفس بالمال والجنس وبالإفادة من أولئك الذين دخلوا بالإسلام حديثا أو أظهروا الإسلام فإن هؤلاء ليس عندهم المعرفة الجيدة بالإسلام وفي الوقت نفسه

فالإيمان ضعيف ورسوخه بالقلوب ضئيل إضافةً إلى أولئك الذين أظهروا الإسلام ليتمكّنوا من الهدم من الداخل بمدّ الأيادي في كل مجالٍ ما داموا يظهرون الإسلام لأهدافٍ يسعون وراءها لا إيماناً بما أظهروا.

ومع هذا يبقى العمل لإيجاد الخلاف بين بني العباس دون الاكتفاء به أو التركيز عليه.

ورأى المتلوّنون أن إيمان المسلمين بعقيدتهم قويّ لا يتزحزح، وأن محبْتهم لنبيّهم وآله شديدة لا تتزعزع، ورأى أولئك الماكرون أن أفضل عملٍ للتهديم من الداخل هو إدخال شيءٍ في العقيدة، وقدّروا أن يكون ذلك عن طريق رجلٍ يدّعي الانتماء لآل بيت رسول الله ﷺ، وربما يكون منهم ولكن للنفس حظّ أو يمكن التأثير عليه عن طريق خبثاء ماكرين دهاةٍ حاقدين. ويكون العمل عن طريق إضفاء صفاتٍ فوق مستوى البشر لبعض آل رسول الله ﷺ، ومن أصحابه الذين قدّموا للدعوة الكثير، ويشهد لهم المسلمون جميعاً بذلك إضافةً إلى شجاعتهم وعلمهم وفضلهم، ويرى الماكرون أن هذا يُدخل على العقيدة تشويهاً ولكن يقبل عليه العامة عاطفةً ومحبةً لآل البيت، وفي الوقت نفسه يلتفّ حول هذه الفكرة كثيرون من العامة والبسطاء

وأصحاب العاطفة أي الذين يندفعون بعواطفهم لا بعقولهم.

ورأى المتلوّنون أن العمل الأمثل بالنسبة لهم هو إبعاد أهل العلم عن الساحة عامةً وعن مراكز القيادات حتى لا يكون لهم أثر في التوجيه ومعالجة القضايا من وجهة نظر شرعيةٍ، والعمل لمصلحة الأمة، وملاحظة الأمور الإسلامية، والتنبيه للأخطار التي قد تتعرّض لها الأمة، ويكون هذا بتسليم القيادات العسكرية الرئيسية إلى قادةٍ دخلوا بالإسلام حديثاً أو أظهروا الإسلام لأهدافٍ معينةٍ سريةٍ.

وبناءً على ما توصّل إليه مكر المتلوّنين وما أضلّتهم إليه عقولهم فقد ظهرت في هذه المرحلة حركة الزنج، والقرامطة، والنصيرية، والعبيدية، وكلها نتاج المكر والخبث والحقد والضلال ومعظم هذه الحركات يستحلّ الفروج والأموال مستغلّاً أهواء النفس ورغباتها، جذباً للشباب وأصحاب الأهواء، وإفساداً للمجتمع، وابتعاداً به عن العقيدة.

وكذلك فقد نُسب لأحد الصحابة من آل البيت صفات فوق مستوى البشر إذ قد يقبل المغفلون من مثل هذا الكلام من باب العاطفة والمحبة لآل البيت وخاصةً

عندما يرون من يتبنّى هذا من آخرين ولكن المغفّل لا ينتبه إلى أن حملة هذا الفكر غرباء إذ أظهروا الإسلام، وادّعوا الالتزام به والعمل له. ثم جعل المتلوّنون مؤسسي تلك الحركات التي تكلمنا عنها ممن ينتسب إلى ذاك الصحابي من آل البيت، أو أحد مواليه، أو رجاله والمؤيدين له، في سبيل الكسب للناس وتشويه العقيدة.

جعل المتلوّنون بما وصلوا إليه من مكانةٍ أكثر القادة منهم، أو ممن أظهر الإسلام، أو اعتنقه حديثاً وليس له علم به، كي يشمئز بعض أهل العلم، ومن لهم دراية وخبرة، ومن لهم ارتباط صادق بالأمة، وحماسة للإسلام.. ويكفي أن نذكر أسماء بعض هؤلاء القادة الذين وضعوا في أمكنتهم الطبيعية لنعرف مدى الخطر الذي أقدم عليه أولئك المتلوّنون والفساد الذي توصلوا إلى نشره (سيما، بُغراج، كُنداج، يارجوخ، كنجور، كيغلغ، وهسوذان، تكين، ساتكين، نشتكين، أغرتمش، بهبوذ، طُرناج، أتامش، بنغجور، أماجور...). وهذا يدلّ على أن هؤلاء قد دخلوا بالإسلام حديثاً إن لم يكونوا قد أظهروا ذلك، لأنه لو كان آباؤهم مسلمين لما أسموهم بهذه الأسماء. ونتيجة

احتلال هؤلاء الساحة فقد انزوى أصحابها الأساسيون وانصرفوا إلى أملاكهم ومماليكهم، ويسمعون ما يجري على ساحتهم من بعيدٍ. والأصل ألا يفعلوا ذلك بل عليهم أن يتمسّكوا بحقوقهم، غير أن المهازل أحياناً تجعل الحليم حائراً، ويتصرّف بما لا يقبل، ونحن نتحدّث من موقعٍ بعيدٍ وتاريخٍ بعيدٍ. وقد حقّق المتلوّنون بهذا بعض ما يريدون.

ولم يظهر خلاف في هذه المرحلة بين بني العباس إذ كان أبو أحمد طلحة الموفّق هو الذي برأيه تُدار الخلافة، كما يتولّى قتال الخارجين والمارقين بنفسه، وله مكانته بين أسرته جميعاً، وأولهم أخوه الخليفة المعتمد على الله. كما أن المتلوّنين لم يُركّزوا في هذه المرحلة على إثارة الفتن وإحداث الخلاف بين العباسيين بعضهم مع بعضٍ.



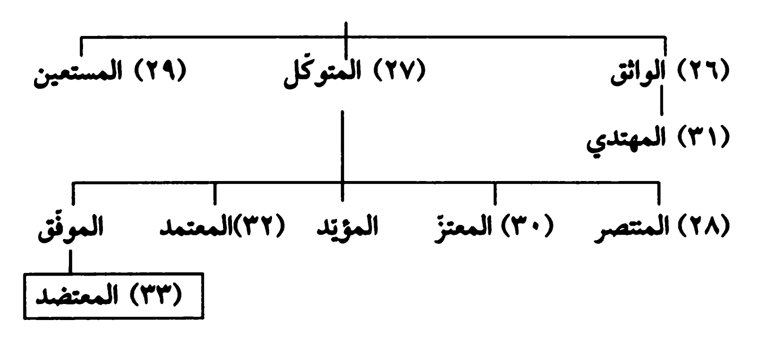

القسطنطينية
أنقره
عمورية
قونية
انطالية
قبرص
طرسوس
المصيصة
عين زربة
مرعش
الحدث
زبطرة
ملطية
سميساط
حلب
قنسرين
الرقة
حران
رأس العين
نصيبين
الموصل
قرقيسيا
نهر الفرات
نهر دجلة

الفَصل السَّادِس

٣٣ - المعتضد بالله

٢٧٩ - ٢٨٩هـ

المعتضد بالله هو أبو العباس أحمد بن طلحة الموفّق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



المعتضد قبل الخلافة:

ولد المعتضد بالله في شهر ذي القعدة سنة اثنتين

وأربعين ومائتين، وأمه أم ولد تُسمّى «صواب» وقيل: «حرز»، وقيل: «ضرار».

ولي عمّه المعتمد على الله الخلافة يوم الثلاثاء لأربع عشرة بقيت من رجب سنة ستٍ وخمسين ومائتين. وبعد خمس سنواتٍ وثلاثة أشهرٍ وأربعة أيامٍ جلس المعتمد في دار العامة، فولّى ابنه جعفراً العهد، وسمّاه المفوّض إلى الله، وولّى أخاه طلحة الموفق أبا المعتضد العهد بعد جعفر. فأصبح أبو المعتضد ولياً للعهد، وكان ابنه المعتضد قد بلغ من العمر تسعة عشر عاماً، فأحبّ أبوه أن يُعدّه لمهمةٍ كبيرةٍ، وكان الموفّق يتولّى قتال الزنج، فأوكل إلى ابنه أبي العباس أحمد المعتضد المهمة مكانه، فكان خير قائدٍ، وكان ساعد أبيه في تلك الحرب.

وعُرف المعتضد بشجاعته في قتاله، وحنكته في حروبه، وحكمته مع قواده، وحلمه في معاملة جنده، فأحبّه الجند كما أحبوا أباه، واستهابه القواد، وكانت له مكانة في الرعية.

ولاحظ الموفّق سنة خمسٍ وسبعين ومائتين هفوةً على ابنه فأراد أن يوقفه عند حدّه وأن يؤدّبه، فسجنه، فشغب أصحابه، وحملوا السلاح، وركب غلمانه،

واضطربت بغداد، فركب أبو أحمد الموفق لذلك حتى بلغ باب الرصافة، وقال لأصحاب ابنه وغلمانه: ما شأنكم؟ أترونكم أشفق على ابني مني! هو ولدي واحتجت إلى تقويمه، فانصرف الناس، ووضعوا السلاح، وذلك يوم الثلاثاء لستٍ خلون من شوال سنة خمسٍ وسبعين ومائتين.

وتوفي والد المعتضد يوم الأربعاء لثمانٍ بقين من صفر سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين ودُفن في اليوم التالي في الرصافة، وجلس المعتضد للتعزية، وبعد وفاة والده بايع القواد والغلمان لأبي العباس المعتضد بولاية العهد بعد جعفر المفوّض إلى الله وذلك يوم الخميس لثمانٍ بقين من صفر سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين أيّ في اليوم التالي لوفاة والده، وأخرج للجند العطاء، وخُطب يوم الجمعة أي في اليوم التالي للمعتمد، ثم للمفوّض إلى الله، ثم لأبي العباس المعتضد.

وفي سنة تسعٍ وسبعين ومائتين ضعف أمر الخليفة المعتمد على الله لتمكّن المعتضد بن الموفّق من الأمور، وطاعة الجيش له، فجلس الخليفة المعتمد مجلساً عاماً، وأشهد فيه على نفسه أنه خلع ولده المفوّض إلى الله من ولاية العهد، وبايع لأبي العباس

المعتضد، وذلك لثمانٍ بقين من شهر المحرم سنة تسعٍ وسبعين ومائتين. وأُنشئت الكتب بخلع جعفر وتولية المعتضد، ونفذت إلى البلدان، وخُطب يوم الجمعة للمعتضد بولاية العهد. وأُنشئت عن المعتضد كتب إلى العمال والولاة بأن أمير المؤمنين قد ولّاه العهد، وجعل إليه ما كان الموفق يليه من الأمر والنهي والولاية والعزل.

أمر المعتضد ألا يقعد في الطريق مُنجّم ولا قصّاص، ونودي بهذا في بغداد. واستحلف المعتضد الورّاقين أن لايبيعوا كتب الفلاسفة والجدل وعلم الكلام.

وبعد أشهرٍ مات المعتمد في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلةً بقيت من شهر رجب سنة تسعٍ وسبعين ومائتين. وفي صبيحة اليوم التالي بويع للمعتضد بن الموفق.

خلافة المعتضد:

في أول يومٍ من أيام خلافة المعتضد ولّى غلامه بدراً الشرطة، وعبيد الله بن سليمان بن وهب الوزارة، ومحمد بن الشاه بن ميكال الحرس، وحجبة الخاصة والعامة صالحاً المعروف بالأمين، فاستخلف صالح خفيفاً السمرقندي.

ولليلتين خلتا من شعبان وبعد بيعة المعتضد بثلاثة عشر يوماً قدم على المعتضد رسول عمرو بن الليث الصفّار بالتهنئة والهدايا ويسأل ولاية خراسان، فوجّه المعتضد عيسى النوشري مع الرسول، ومعه منح ولواء عقده له على خراسان، فوصلوا إليه في شهر رمضان، فنصب عمرو اللواء في صحن داره ثلاثة أيامٍ، وعزل المعتضد بذلك عن خراسان رافع بن هرثمة[1] غير أن رافعاً قد امتنع، فقاتله عمرو بن الليث، فانهزم وما زال يتتبعه حتى قتله سنة ٢٨٣هـ. وكان المعتضد قد كتب إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف بمحاربة رافع بن هرثمة، ورافع بالريّ، فزحف إليه أحمد، فالتقوا يوم الخميس لسبعٍ بقين من ذي القعدة سنة ٢٧٩هـ، فانهزم رافع بن هرثمة، وخرج عن الريّ، ودخلها أحمد بن عبد العزيز.

---

(١) رافع بن هرثمة، أو ابن نومرد، وهرثمة زوج أمه: ولي خراسان من قبل محمد بن طاهر سنة ٢٧١هـ، واستولى على طبرستان سنة ٢٧٧هـ في أيام المعتمد، ولما ولي المعتضد عزله عن خراسان، فامتنع، واتصل بالطالبيين وحشد جيشاً احتلّ به نيسابور، وخطب فيها لمحمد بن زيد الطالبي، وقال: اللهم أصلح الداعي إلى الحق. وقاتله عمرو بن الليث الصفار، فانهزم رافع وقتل سنة ٢٨٣هـ.

وقدم على المعتضد أيضاً الحسين بن عبد الله المعروف بـ «ابن الجصّاص» من مصر رسولاً لخمارويه ابن أحمد بن طولون، ومعه هدايا كثيرة، فوصل إليه يوم الاثنين لثلاثٍ خلون من شهر شوال سنة ٢٧٩هـ، وتكلم ابن الجصّاص في زواج عليّ بن المعتضد من ابنة خمارويه، فقال المعتضد: أنا أتزوجها، فتزوجها. إذ وجد المعتضد أن خمارويه يصلح أن يكون أميراً على مصر وغيرها ما دام لا يحمل خلافاً في العقيدة، كما أنه يقاتل الروم بحقٍ فهو أفضل من غيره.

وحُملت قطر الندى بنت خمارويه إلى بغداد في موكبٍ، فوصلت إليها يوم الأحد لأربع خلون من شهر ربيع الثاني سنة ٢٨٢هـ. وقد أطنب المغرضون في موكب قطر الندى وما فيه من إسرافٍ وتبذيرٍ في سبيل الطعن بالمعتضد، إذ لم يجدوا مدخلاً للطعن به سوى هذا فغالوا جداً، وبالغوا في الوصف. وماتت قطر الندى سنة ٢٨٧هـ.

وهلك خمارويه إذ قتله بعض خدمه لثلاثٍ خلت من ذي الحجة سنة ٢٨٢هـ.

وعقد المعتضد لراشد مولى أبيه على الدينور وذلك يوم السبت لسبعٍ بقين من شوال سنة ٢٧٩هـ.

أخذ أحمد بن عيسى بن شيخ قلعة ماردين من محمد بن إسحاق بن كُنداج.

بناء دار الخلافة:

كانت هذه الدار مُلكاً للحسن بن سهل، وتُعرف بالقصر الحسني، ثم صارت بعد ذلك لابنته بوران زوجة الخليفة المأمون، فعمرتها حتى استنزلها المعتمد عنها فأجابته إلى ذلك، ثم أصلحت ما وهى منها، ورممت ما قد أصاب بعضها، وفرشتها بأنواع الفرش في كل موضعٍ منها ما يليق به من المفارش، ووضعت فيها الخدم، ثم أرسلت مفاتيحها إلى المعتمد، فلما دخلها هاله ما رأى فيها.

وتوفيت بوران سنة ٢٧١هـ، ولم يستعملها المعتمد داراً للخلافة، بل أفاد منها بأمورٍ جانبيةٍ، وكان ينزل بها أحياناً، فلما ولي المعتضد وسّعها وزاد فيها، وجعل لها سوراً حولها، وبنى الميدان، ثم بنى فيها قصراً مشرفاً على دجلة. وكان المعتضد أول من سكنها من الخلفاء، وبقيت داراً للخلافة إلى آخر خلافة بني العباس، وقد خرّبها المغول عندما دخلوا بغداد سنة ٦٥٦هـ، وقضوا على الخلافة العباسية.

وكان الخليفة المكتفي قد بنى بها التاج، ولما

كانت أيام المقتدر زاد فيها زياداتٍ كبيرةً.

قتال الخوارج:

ظهر هارون الشاري بن عبد الله في منطقة الموصل، فقصد الخليفة المعتضد المنطقة لقتاله في مطلع سنة ٢٨٣هـ، فوجّه إليه الحسين بن حمدان بن حمدون[١] في جماعةٍ من الفرسان والرجالة من أهل بيته وغيرهم من أصحابه. فقال الحسين للمعتضد: أنا إن

(١) الحسين بن حمدان بن حمدون التغلبي: وهو أحد الأمراء الشجعان، وهو عمّ سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان، وعمّ أبي فراس الحمداني الحارث بن سعيد بن حمدان، وأول من ظهر أمره من ملوك بني حمدان، ارتفعت منزلته عند المعتضد، وأقام ببغداد إلى أن كانت فتنة خلع المقتدر واستبداله بابن المعتز، فكان الحسين من أنصار ابن المعتز، فلما أُعيد المقتدر رحل الحسين بأهله إلى الموصل، فطلبه المقتدر فلم يظفر به، فبعث إليه بالأمان فعاد إلى بغداد، فولّاه بلدة قُم، فسار إليها، ثم امتنع على المقتدر، فسيّر الجيوش في طلبه، ورضي عنه بعد ذلك، فولّاه ديار ربيعة فأقام فيها إلى أن عزله وزير المقتدر علي بن عيسى، فعاد الحسين إلى الخروج عن الطاعة، واجتمع له في الجزيرة حوالي عشرين ألف مقاتلٍ، ولكنه لم يلبث أن تفرّق جيشه، وقُبض عليه، فحُمل إلى بغداد سنة ٣٠٣هـ، فحبسه المقتدر ثم قتله سنة ٣٠٦هـ.

جئت به إلى أمير المؤمنين فلي ثلاث حوائج إلى أمير المؤمنين، فقال: اذكرها، قال: أولها إطلاق أبي، وحاجتان أسأله إياهما بعد مجيئي به إليه. فقال له المعتضد: لك ذلك فامض، فقال الحسين: أحتاج إلى ثلاثمائة فارسٍ أنتخبهم، فوجّه المعتضد معه ثلاثمائة فارس مع موشكير.

فقال: أريد أن يأمره أمير المؤمنين ألّا يخالفني فيما آمره به، فأمر المعتضد موشكير بذلك.

فمضى الحسين حتى انتهى إلى مخاضة دجلة، فتقدّم إلى وصيف ومن معه بالوقوف على المخاضة، وقال له: ليس لهارون طريق إن هرب غير هذا، فلا تبرحنّ من هذا الموضع حتى يمرّ بك هارون، فتمنعه العبور، وآتيك أنا، أو يبلغك أني قد قتلت، ومضى حسين في طلب هارون فلقيه وقاتله، وكانت بينهما قتلى، وانهزم الشاري هارون، وأقام وصيف على المخاضة ثلاثة أيامٍ، فقال له أصحابه: قد طال مقامنا بهذا المكان القفر، وقد أضرّ ذلك بنا، ولسنا نأمن أن يأخذ حسينُ الشاري فيكون الفتح له دوننا، والصواب أن نمضي في آثارهم. فأطاعهم ومضى. وجاء هارون الشاري منهزماً إلى موضع المخاضة، فعبر، وجاء

الحسين في أثره، فلم يرَ وصيفاً وأصحابه بالموضع الذي تركهم فيه، ولا عرف لهارون خبراً، ولا رأى له أثراً، وجعل يسأل عن خبر هارون حتى وقف على عبوره، فعبر في أثره، وجاء إلى حيٍّ من أحياء العرب، فسألهم عنه فكتموا أمره، فأراد أن يوقع بهم، وأعلمهم أن المعتضد في أثره، فأعلموه أنه اجتاز بهم، فأخذ بعض دوابهم، وترك دوابه عندهم ـ وكانت قد كلّت وأعيت ـ واتبّع أثره، فلحقه بعد أيامٍ وهارون بن عبد الله الشاري في نحوٍ من مائةٍ، فناشده الشاري وتوعّده، فأبى إلا محاربته، فحاربه، فرمى الحسين بن حمدان بنفسه عليه، فابتدره أصحاب الحسين فأخذوه، وجاء به إلى المعتضد سلماً بغير عقدٍ ولا عهدٍ، فأمر المعتضد بحلّ قيود حمدان بن حمدون والد الحسين، والتوسعة عليه والإحسان إليه إلى أن يقدم فيطلقه ويخلع عليه.

فلما أسر هارون، وصار في يد المعتضد انصرف راجعاً إلى بغداد، فوافاها لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين، فنزل باب الشماسية، وعبّأ الجيش هناك، وأكرم الحسين بن حمدان.

قتال الروم:

بقي القتال أشبه بغاراتٍ تُؤدّي بعض أغراضها

ويعود الهدوء، فالمسلمون يريدون المحافظة على الثغور، وإثبات المكانة لهم كي لا يطمع بهم الأعداء. والروم يبغون إبداء شيءٍ من القوة حتى لا يُشجّع السكوت المسلمين على دخول أرض الروم وإعلان الجهاد، فيقوى المسلمون بذلك، وتجتمع جهودهم، وفي الوقت نفسه لا يرغبون في شنّ هجماتٍ واسعةٍ تدفع المسلمين إلى ترك ما بينهم من خلافاتٍ والدعوة إلى الجهاد، لأنه إذا أعلن المسلمون الجهاد لن يقف أمامهم عدوّ، وهذا ما استفاده أعداء المسلمين جميعاً من خبرتهم في قتال المسلمين وعرفوه يقيناً، لذا كان حرصهم دائماً أن يبقى بين المسلمين وجهادهم حائل. كما أن المتلوّنين في ديار الخلافة يتوسّلون إلى الروم بتخفيف اللقاء مع المسلمين كي يبقى بأسهم بينهم شديداً، ويقع الخلاف ويحدث الصراع، فإذا ما اشتدّ ذلك ذهبت ريح المسلمين، ولكن الروم يسمعون من المتلوّنين، ويُبدون الموافقة، غير أنهم لا يقبلون كل ما يقال لهم، من خارج دائرتهم، وإن كانوا في هذه الناحية على اتفاقٍ مع المتلوّنين لكن لهم موقفهم الذي ينطلقون منه، ومصحلتهم التي تقتضيها الظروف.

دخل أحمد بن أبّا طرسوس لغزو الصائفة لخمسٍ

خلون من رجب سنة ٢٨٠هـ، من قبل أمير مصر خمارويه بن أحمد بن طولون، ودخل بعده بدر الحمّاميّ، فغزوا جميعاً مع أمير طرسوس العجيفيّ، وتقدّموا في أرض الروم.

ودخل طُغج بن جُفّ طرسوس لغزاة الصائفة من قبل خمارويه، فانتصر وغنم، وذلك سنة ٢٨١هـ.

وفي شهر شعبان من سنة ٢٨٣هـ جرى فداء بين المسلمين والروم على يدي أحمد بن طُغان، وكان جملة من فودي به من المسلمين من الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائةٍ وأربعة أنفسٍ، وأطلق المسلمون «سميون» رسول ملك الروم، وأطلق الروم فيه «يحيى بن عبد الباقي» رسول المسلمين في الفداء. وانصرف الأمير أحمد بن طُغان، وخلف على عمله على طرسوس بعده «دميانة»، ثم وجّه بعده يوسف بن الباغمرديّ، ولم يرجع هو إليها.

وفتح المسلمون مدينة «قرّة» على يد راغب مولى طلحة الموفق، وذلك في رجب سنة ٢٨٤هـ.

وفي شهر شعبان سنة ٢٨٥هـ غزا راغب مولى الموفق في البحر، فأظفره الله بمراكب كثيرةٍ، وبجميع من فيها من الروم، فضرب أعناق ثلاثة آلافٍ من الروم

الذين كانوا في المراكب، وأحرق المراكب، وفي البر فتح عدة حصونٍ من حصون الروم، ورجع إلى طرسوس بمن معه سالمين غانمين.

وغزا ابن الأخشاد بأهل طرسوس بلاد الروم في شهر ذي الحجة سنة ٢٨٥هـ، ونصره الله على خصومه، ورجع إلى قاعدته في العام ٢٨٦هـ.

وتنازل هارون بن خمارويه سنة ٢٨٦هـ عن قنسّرين، والثغور إلى السلطان، كما وعد أن يحمل إلى بيت المال ببغداد في كل سنةٍ أربعمائة وخمسين ألف دينارٍ، وسأل في الوقت نفسه الخليفة المعتضد أن يُجدّد له ولاية مصر والشام، وأن يُوجّه المعتضد بخادمٍ من خدمه إليه بذلك، فأجابه إلى ما سأل، وأنفذ إليه بدراً القدامي وعبد الله بن الفتح بالولاية والمنح. وتسلّم عمّال المعتضد أعمال قنسّرين والثغور من أصحاب هارون في شهر جمادى الأولى سنة ٢٨٦هـ.

عاد ابن الأخشاد إلى الغزو، واستخلف مكانه على طرسوس أبا ثابت، وتوفي ابن الأخشاد وهو في الغزو، فبقي أبو ثابت أمير طرسوس، وطمع الروم بالمسلمين فاتجهوا إلى طرسوس، ووصلوا إلى باب «قلمية»، فنهض لهم أبو ثابت، وتبعهم إلى نهر

الريحان، وجرت هناك معركة وقع أبو ثابت فيها أسيراً وأُصيب الناس. وكان ابن كلوب غازياً في درب السلامة، فلما قفل من غزاته جمع أعيان أهل طرسوس ليتفقوا على أميرٍ يلي أمورهم، فاتفق رأيهم على عليّ بن الأعرابيّ، فولّوه أمرهم بعد خلاف ابن أبي ثابت.

ذكر ابن أبي ثابت أن أباه استخلفه، وجمع جمعاً لمحاربة أهل البلد حتى توسّط الأمر ابن كلوب، فرضي ابن أبي ثابت، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٢٨٧هـ. وكان «النُّغيْل» يغزو ببلاد الروم، فانصرف إلى طرسوس، وجاء الخبر أن أبا ثابت حُمل إلى القسطنطينية من حصن «قونية» ومعه جماعة من المسلمين.

وفي سنة ٢٨٨ غزا الصائفة نزار بن محمد عامل الحسن بن عليّ، ففتح حصوناً من حصون الروم، وحمل إلى طرسوس مائة وستين عِلْجاً.

وأغار الروم على أرض المسلمين في جهات نهر الفرات، واستاقوا عدداً كبيراً من المسلمين بين رجلٍ وامرأةٍ وصبيٍّ، ومضوا بهم، وأخذوا فيهم قوماً من أهل الذمة.

القرامطة:

تنسب القرامطة إلى قرمط وهو حمدان بن الأشعث، فأصبحت كل حركةٍ تحمل فكرته تُنسب إليه، وتعتمد فكرته على استحلال الفروج والأموال. وقد نشأ عدد من الأفراد حملوا أفكار قرمط، وقادوا حركات، ولكنها حملت جميعاً اسم القرامطة، وإن كان بينها خلاف حركي، أو تباعد في المكان والبيئة.

أولاً:

في جنوبي العراق ظهر زكرويه بن مهرويه، ويريد الظهور والشهرة والقيادة ورغم أنه يحمل أفكار حمدان قرمط غير أنه رغب أن يتقدّم عليه لذا اشتدّ أتباع حمدان قرمط عليه، وناصبوه الخلاف، وفي الوقت نفسه فإن الخليفة المعتضد قد اشتدّ في ملاحقة أتباع هذه الأفكار الخبيثة إذ أنها كفر كما أنها دنيئة، ولكن زكرويه صمّم على متابعة طريقه، وقرّر التخلّص من مخالفيه القرامطة، فبدأ بقتل «عبدان» ابن عم حمدان قرمط، ويبدو أن الذي قتله هو يحيى بن زكرويه، وأعقبه بقتل حمدان قرمط نفسه، وظنّ أنه يستطيع أن يضمّ إليه القرامطة جميعاً إليه بزوال رئيسهم حمدان قرمط، ومفكرهم عبدان ما دامت الفكرة واحدةً، ولكن ظنّه ظهر أنه

بالخيال والأحلام. وأما ضغط الخليفة فلم يجد زكرويه معه بُدّاً من الاختفاء، فاختفى مدة أربع سنواتٍ.

رأى زكرويه أن الفوضى تعمّ الشام وأن الحكم الطولوني قد أصبح ضعيفاً فيها لذا يمكن أن تكون مجالاً لنشاطه، فبعث أولاده إليها. أرسل ابنه يحيى بعد أن بايعه أتباع أبيه زكرويه في سواد الكوفة سنة ٢٨٩هـ، ولقّبوه بالشيخ، كما كان يُعرف بكنية أبي القاسم. ادّعى يحيى نسباً طالبياً، فزعم أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وادّعى لجماعته أن ناقته مأمورة، فإن تبعوها ظفروا، وأظهر لهم عَضُداً ناقصةً، وزعم أنها آية، وقد تسمّى جماعته بالفاطميين، وأرسل لهم هارون بن خمارويه جيشاً بقيادة «طغج بن جفّ» فهزمته القرامطة، وسارت نحو دمشق بعد أن انتهبت وانتهكت البلاد التي مرّت عليها كلها، وحاصرت دمشق سنة ٢٩٠هـ، ولكنها عجزت عن فتحها، وأرسل الطولونيون للقرامطة جيشاً آخر بقيادة بدر الكبير غلام أحمد بن طولون، فانتصر على القرامطة، وقتل قائدهم يحيى بن زكرويه.

أرسل زكرويه بن مهرويه من مخبئه ابنه الثاني

«الحسين»، وادّعى الآخر نسباً طالبياً كأخيه فزعم أنه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر، ووضع شامةً على وجهه لذا عُرف باسم «صاحب الخال» أو «أبو شامة»، وذكر لأصحابه أنها آية له، وسار في أثر أخيه قبل أن يُقتل.

كان يحيى بن زكرويه عندما شعر أنه عاجز عن دخول دمشق إذ جاءت لأهلها نجدات من بغداد ومن مصر، وأحسّ أنه مقتول لا محالة ادّعى أنه سيطلع إلى السماء غداً، وأنه سيبقى فيها أربعين يوماً، ثم يعود، وأن أخاه الحسين سيأتي غداً في نجدةٍ ـ وكان قد بلغه ذلك ـ فعليهم بيعته والقتال معه والسير وراءه، وفي اليوم التالي جرت معركة قرب دمشق قُتل فيها يحيى بن زكرويه، وكان قد عُرف يومذاك بصاحب الجمل حيث كان يمتطي جملاً خاصاً.

سار الحسين بن زكرويه من الرملة إلى دمشق فوجد أخاه يحيى قد قُتل، فالتفّ القرامطة حول الحسين، فحاصر بهم دمشق، لكنه عجز عن دخولها، فطلبه أهل حمص فسار إليهم، فأطاعوه، ثم انتقل إلى السلمية فامتنعت عنه، ثم فتحت أبوابها له بعد أن أعطى أهلها الأمان، وما أن دخلها حتى نكّل بأهلها، فأحرق

دورها، وهدّم القلاع فيها، وقتل من فيها من الهاشميين دلالةً على الحقد الذي يغلي في صدور هذه الفئة على آل البيت رغم ادّعاء زعمائها الانتساب إلى آل البيت، ودلالةً أيضاً على كراهية الإسلام الذي قضى على المجوسية، ثم قتل من استطاع قتله من آل محمد بن إسماعيل بن جعفر الذي يدّعي العمل لهم، كما قتل آل عبيد الله بن الحسين القداحيّ حيث يعمل كل لنفسه، رغم ادعائهم النسب الواحد، ولكن كل منهم يعمل لنفسه، وكان عبيد الله قد رفض إعطاء آل زكرويه مراكز مهمةً في الدعوة التي يعمل لها.

ثم سار الحسين بن زكرويه من السلمية[1] على رأس قرامطته إلى حماة، والمعرة، وبعلبك وعمل القتل في أهل كل بلدٍ وصل إليها، وأغارت جماعته على حلب، غير أن القرامطة قد هُزموا في جهات حلب لذا

---

(١) السلمية: مدينة تقع إلى الشمال الشرقي من حمص وعلى بُعد خمسةٍ وأربعين كيلاً منها. وقيل: إنها قرب المؤتكفة، فلما نزل بأهل المؤتكفة ما نزل من العذاب رحم الله منهم مائة نفسٍ فنجّاهم فنزحوا إلى سلمية فعمروها وسكنوها فسمّيت «سلم مائة» ثم حُرّف إلى «سلمية» ثم إن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس اتخذها منزلاً وبنى هو وولده فيها الأبنية ونزلوها.

عادوا فاتجهوا إلى نواحي الكوفة، وهناك قاتلهم الخليفة المكتفي، فوقع الحسين بن زكرويه أسيراً فحُمل إلى بغداد حيث قُتل وصُلب فيها سنة ٢٩١هـ.

وعندما قُتل ولدا زكرويه بن مهرويه يحيى والحسين خرج أبوهما من مخبئه الذي اختفى فيه مدة تقرب من أربع سنواتٍ، وعندما خرج سجد له أتباعه المقرّبون الذين يعرفون أهداف الحركة، وسار بأتباعه إلى بلاد العرب فأمعنوا بالقتل، واعترضوا طريق القوافل والحجاج، وارتكبوا من الفواحش ما يصعب وصفه. وأغار زكرويه على حجاج خراسان، وكانوا نحو عشرين ألفاً فأفنى أكثرهم، وانتشرت جماعته بين زبالة[١] وفيد[٢]، وأوقع بقافلةٍ أخرى كبيرةٍ من الحجاج، وتنقّل بين فيد والنباج[٣]

---

(١) زبالة: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية. زبالة بعد القاع من الكوفة وقبل الشقوق، وفيها حصن وجامع لبني غاضرة من بني أسد.

(٢) فيد: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة عامرة إلى الآن، وهي جنوب شرقي مدينة حائل، وعلى بعد مائة كيلٍ منها، كان الحجاج يودعون عند أهلها ما يثقل من أمتعتهم وأزوادهم، فإذا رجعوا أخذوا ما ودعوا ووهبوا شيئاً من ذلك لمن أودعوا عندهم.

(٣) النباج: هناك عدة مواضع تحمل هذا الاسم، والمقصود هنا منزل لحجاج البصرة، ويقال له: نباج بني عامر، وهو قريب من فيد، والنباج من البصرة على عشر مراحل.

وحفير أبي موسى[1]، وانتدب المكتفي الجيوش لقتاله، فأصيب في معركةٍ بين القادسية وخفّان، فمات بعد أيامٍ، وحُملت جثته إلى بغداد فأُحرقت، وأُرسل رأسه إلى خراسان لئلا ينقطع أهلها عن الحج من الخوف من اسم هذا المجرم.

وكان زكرويه قد أرسل عبد الله بن سعيد إلى الشام، فاتجه نحو مدينة دمشق فحاصرها ولكنه عجز عن دخولها وأخيراً هُزم وقُتل بعد أن عاث في الأرض الفساد. وتشتّت قرامطة زكرويه فمنهم من ارتحل إلى البحرين، ومنهم من انتقل إلى بلاد الكلبية وبهراء في الشام واختلط مع أهلها الذين يعيشون في قلاعهم ومعاقلهم في الجبال الشمالية الغربية من بلاد الشام والذين يلتقون معهم ببعض الأفكار، وإن كانوا إلى الأسرة القداحية أقرب حيث الأصل اليهودي، ومنهم من اختفى في البوادي ثم تحالف مع الضاربة فيها، أو سار إلى أماكن نائيةٍ حيث ضاع فعله بين السكان الآخرين، وهكذا انتهى القرامطة من جنوبي العراق، واتجهوا إلى بلاد الشام فهزموا وذابوا.

---

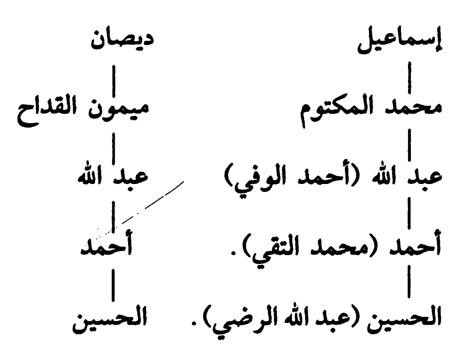
(١) حفير أبي موسى: منزل لحجاج البصرة أيضاً.

ثانياً ـ الأسرة القداحية:

وتنتسب إلى ميمون القداح بن «ديصان» اليهودي، وأمر ميمون القداح أبناءه بأن يتسموا بأبناء محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر كي تختلط الأسماء وتتشابه أسماء الأبناء والآباء ويمكن الادّعاء بالانتساب إلى آل البيت عند الحاجة.

أقامت هذه الأسرة القداحية في بلدة «السلمية»، وادّعت الانتساب إلى محمد بن إسماعيل، وأظهرت العمل لإمامته، وهي وريثته، واشتدّ طلب الخليفة المعتضد على هذه الأسرة التي تزعم العمل لمحمد بن إسماعيل، وتعمل في الواقع لنفهسا، وتخفي في الباطن ما تدعو له، ولها هدف سياسي واضح من أصلها اليهودي، وبسبب الطلب من الخليفة فقد فرّ عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح من السلمية، وهو رأس هذه الأسرة، واتجه نحو الجنوب حيث اختفى بمدينة الرملة، وفي هذا الوقت كان الحسين بن زكرويه في طريقه من الكوفة إلى أخيه يحيى بدمشق، فعرّج الحسين على الرملة، وعرف مكان عبيد الله، والتقى به، وحاول استرضاءه وإظهار الطاعة له عسى أن يستفيد منه، وأظهر عبيد الله رضاءه عنه وموافقته على عمله خوفاً من أن يقتله، أو يرشد عليه

عامل العباسيين عن طريق أحد معارفه، حيث كان آل زكرويه يريدون التفرّد بالسلطة ويرجعون بأصولهم إلى غير ما يرجع إليه، إذ يرجعون إلى المجوسية ويرجع هو إلى اليهودية، وإن عبيد الله هو أقوى من يقف في وجههم، وما أن غادر الحسين بن زكرويه الرملة حتى انصرف منها أيضاً عبيد الله متجهاً إلى مصر، ووصلت إليه أخبار ما حلّ في سلمية على يد الحسين بن زكرويه، وما نزل بآل محمد بن إسماعيل فيها أيضاً فأيقن أن الطلب سيلاحقه في مصر، كما بلغه أن الدعوة الشيعية قد قويت في المغرب على يد أبي عبد الله الشيعي الذي سار إليها من اليمن عن طريق رستم بن الحسين بن حوشب، فيمّم عبيد الله القداحي وجهه نحو المغربِ على أنه عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.



ومما ساعد القداحية على ادّعاء الانتساب إلى آل البيت أنه كانت هناك أسماء سرية لأبناء إسماعيل بن جعفر الصادق أو أسماء حركية باصطلاح اليوم الأمر الذي جعل التشابه غامضاً إذ كان يعرف محمد بن إسماعيل بـ (المكتوم)، وابنه عبد الله بـ (أحمد الوفي)، وابنه أحمد بـ (محمد التقي) وابنه الحسين بـ (عبد الله الرضي).

ثالثاً ـ في اليمن:

نجح رستم بن الحسين بن حوشب فيما دعا إليه، وأسس دولة إسماعيلية (قرمطية)، وأخذ يرسل أتباعه إلى نواحي مختلفة يعملون بالدعوة إلى القرمطية، حتى بعث رجالاً إلى المغرب، وكان من أكبر أعوانه وقادته في اليمن عليّ بن الفضل الذي اختلف معه، وافتتن بالتفاف الناس حوله لتحقيق شهواتهم واتباع أهوائهم إذ سار بعيداً في الفساد، واستطاع أن يحكم منطقة، فدخل زبيد، وصنعاء، وادعى النبوة، وأباح المحرمات، وكان المؤذّن في مجلسه يقول: «أشهد أن عليّ بن الفضل رسول الله». كما أنشد شاعره:

خذي الدفّ يا هذي والعبي
وغنيّ هزاريك واطربي

تــولّــى نــبــيّ بــنــي هــاشــمٍ
وهــذا نــبــيِّ بــنــي يَــعْــرُب
لــكــلّ نــبــيٍّ مــضــى شــرعــة
وهــذي شــريــعــة هــذا الــنــبــي
فقد حطّ عنا فروض الصلاة
وحــطّ الــصــيــام ولــم يــتــعــب
إذا الناس صلّوا فلا تنهضي
وإن صــامــوا فــكــلــي واشــربــي
ولا تطلبي السعي عند الصفا
ولا زورة الــقــبــر فــي يــثــرب

ثم امتدّ به عتوّه فجعل يكتب إلى عماله: «من باسط الأرض وداحيها، ومزلزل الجبال ومرسيها عليّ بن الفضل إلى عبده...»، ثم مات مسموماً سنة ٣٠٣هـ. ولم تلبث دولة القرامطة في اليمن أن دالت.

رابعاً ـ في البحرين:

قدم إلى البحرين سنة ٢٨١هـ رجل يقال له: يحيى بن المهدي، ودعا أهلها إلى بيعة المهدي فاستجاب له رجل يدعى عليّ بن العلاء بن حمدان الزيادي، وساعده في الدعوة إلى المهدي، وجمع الذين

يدّعون أنهم من أعوان آل البيت وشيعتهم من الذين كانوا بالقطيف فاستجابوا له، وكان من جملة من استجاب له أبو سيعد الجنّابي، واسمه الحسن بن بهرام، ويعود في أصله إلى بلدة «جنّابا» قرب مدينة «سيراف» في فارس على ساحل الخليج، وقد نزل البحرين منفياً، فعمل بائعاً للطعام، ثم اشتغل بالفراء، وكان ينتقل بين البحرين وسواد الكوفة، وصحب حمدان قرمط أو عبدان وتأثّر به، وعندما رجع إلى القطيف برز بين جماعته بدعوته. أما يحيى بن المهدي فقد ادّعى النبوة، وتفرّد بمجموعة تبعته، وتزعّم أبو سعيد الجنّابي بقية المجموعة، وأجابه عدد من السوقة، ومن ساءت حالتهم المعاشية، وعدد من الشباب الذين أغراهم بالنساء التي جعلها مُباحةً لهم، كما منّاهم بالمال وامتلاك الأرض، وهيّأ لهم طريق الشهرة بالقوة التي أظهرها إذ زاد عددهم، وبدا لهم أنهم أصبحوا جماعةً يخشى جانبها، فظهروا سنة ٢٨٦هـ فعاثوا في الأرض الفساد إذ قتلوا وسبوا في بلاد هجر كثيراً، ثم ساروا إلى القطيف، فقتلوا الكثير من أهلها، وأظهر أبو سعيد الجنّابي أنه يريد البصرة فجهّز له الخليفة جيشاً قوامه عشرة آلافٍ بإمرة العباس بن عمرو الغنوي، فانتصر القرامطة، وأسروا الجيش العباسيّ كله، وقتل أبو سيعد

الجنّابي الأسرى جميعهم باستثناء أمير الجيش العباس بن عمرو الغنوي الذي أطلق سراحه ليكون متهماً عند الخليفة وينال عقوبة الاتهام ممن عليه طاعته.

واستمر نشاط القرامطة في البحرين حتى عام ٣٠١هـ حيث قُتل أبو سعيد الجنّابي على يد خادمه بالحمام، ثم قُتل خمسة آخرون من كبارهم كانوا من أصحاب حمدان قرمط وابن عمه عبدان، لذا لم يدعموا أبناء زكرويه عندما قاموا بنشاطهم وحركاتهم، وإنما عملوا منفردين في منطقة البحرين.

خامساً ـ في المغرب:

لما توفي عبد الله بن ميمون القداح قام مكانه ابنه أحمد وصحبه رجل يقال له: رستم بن الحسين بن حوشب بن دادان النجار من أهل الكوفة، فبعث أحمد إلى اليمن ابن حوشب، وأمره بلزوم العبادة والزهد والدعوة إلى المهدي، وأنه خارج في هذا الزمن باليمن، فسار ابن حوشب إلى اليمن ونزل بـ «عدن» قرب بني موسى، فالتقى بهم فإذا الفكر واحد فأمرهم بجمع الخيل والسلاح، وأخبرهم أن هذا أوان ظهور المهدي، ومن عندهم يظهر، ووصلت أخبارهم إلى العراق، فجاءتهم جموع، فكثر جمعهم، وأغاروا على

من جاورهم، فسبوا، وجبوا الأموال، وأرسلوا إلى المغرب رجلين يعرف أحدهما بالحلواني والآخر بأبي سفيان، وقالوا لهما: إن المغرب أرض بور فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر، فسارا فنزل أحدهما بأرض «كتامة»، والآخر قريباً منه فمالت إليهما قلوب أهل تلك النواحي، وحملوا إليهما الأموال، فأقاما هناك سنين، وماتا، وكان أحدهما قريب الوفاة من الآخر.

وكان الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا والمعروف بأبي عبد الله الشيعي من أهل صنعاء وقد سار إلى ابن حوشب النجار بعدن، وصار من كبار أصحابه، وكان له دهاء ومكر. فلما أتى خبر وفاة الحلواني وأبي سفيان في المغرب إلى ابن حوشب، قال لأبي عبد الله الشيعي: إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك. فخرج أبو عبد الله إلى مكة، وأعطاه ابن حوشب مالاً وسيّر معه عبد الله بن أبي ملاحف. فلما قدم أبو عبد الله مكة في الموسم سأل عن حجاج كتامة، فأُرشد إليهم، فاجتمع بهم، ولم يُعرّفهم قصده، وجلس قريباً منهم، وكانت زيارات

ولقاءات، وكان يُحدّثهم بما لم يعلموا، وسألوه أين مقصدك؟ فقال: أريد مصر، ففرحوا بصحبته، وأظهر لهم العبادة والزهد فازدادوا فيه رغبةً، وخدموه، وكان يسألهم عن بلادهم وأحوالهم وقبائلهم وعن طاعتهم لسلطان إفريقية، فقالوا: ماله علينا طاعة وبيننا وبينه عشرة أيامٍ، قال: أفتحملون السلاح؟ قالوا: هو شغلنا، ولم يزل يتعرّف أحوالهم حتى وصلوا إلى مصر، فلما أراد وداعهم، قالوا له: أيّ شيءٍ تطلب بمصر؟ قال: أطلب التعليم بها، قالوا: إذا كنت تقصد هذا فبلادنا أنفع لك، ونحن أعرف بحقك. ولم يزالوا به حتى أجابهم إلى المسير معهم. ووصلوا إلى بلاد كتامة منتصف شهر ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين.

وأتى البربر إلى أبي عبد الله من كل مكانٍ، وعظم أمره إلى أن تقاتلت كتامة عليه مع قبائل البربر، وهو لا يذكر اسم المهدي، واجتمع أهل العلم لمناظرته فلم يتركه الكتاميون يناظرهم، وكان اسمه عندهم أبا عبد الله المشرقي. وبلغ خبره إلى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب[1] أمير إفريقية فأرسل إلى عامله على مدينة

---

(١) إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب: ولد سنة ٢٣٧هـ، =

«ميلة» يسأله عن أمره، فصغّره، وذكر له أنه يلبس الخشن ويأمر بالخير والعبادة فسكت عنه.

وقال أبو عبد الله لأبناء كتامة: أنا صاحب البدر الذي ذكر لكم الحلواني وأبو سفيان فازدادت محبتهم له وتعظيمهم لأمره، وبرز الحسن بن هارون، فسلّمه أبو عبد الله أعنّة الخيل، وترك التستّر، وشهر الحرب، وحقّق النصر فغنم الأموال، وانتقل إلى مدينة «ناصرون» وخندق عليها، وجاءت قبائل البربر، ووقع القتال، وانتصر أبو عبد الله، وصارت إليه أموالهم، فاستقام له أمر البربر وعامة كتامة.

زحف أبو عبد الله إلى مدينة «ميلة» وجاءه منها

= وكانت إقامته بالقيروان والياً عليها لأخيه محمد (أبو الغرانيق)، وولي إفريقية بعد وفاة أخيه سنة ٢٦١هـ، وكان عاقلاً محسناً حازماً، وحدثت في أيامه عدة ثورات فقمعها، وأمن الناس في عهده، وانتقل إلى تونس سنة ٢٨١ هـ فسكنها، واتخذ بها القصور، وغزا الإفرنج، وفتح كثيراً من حصونهم وقلاعهم. وأصيب بمرض «الماليخوليا» فقتل كثيراً من أصحابه وكتّابه وحجّابه ونسائه، وقتل اثنين من أبنائه وثمانية إخوة له وسائر بناته، فشكاه أهل تونس إلى الخليفة العباسي المعتضد فعزله سنة ٢٨٩هـ، فرحل إلى صقلية غازياً، فمات بها سنة ٢٨٩هـ، وحُمل إلى القيروان ودفن بها.

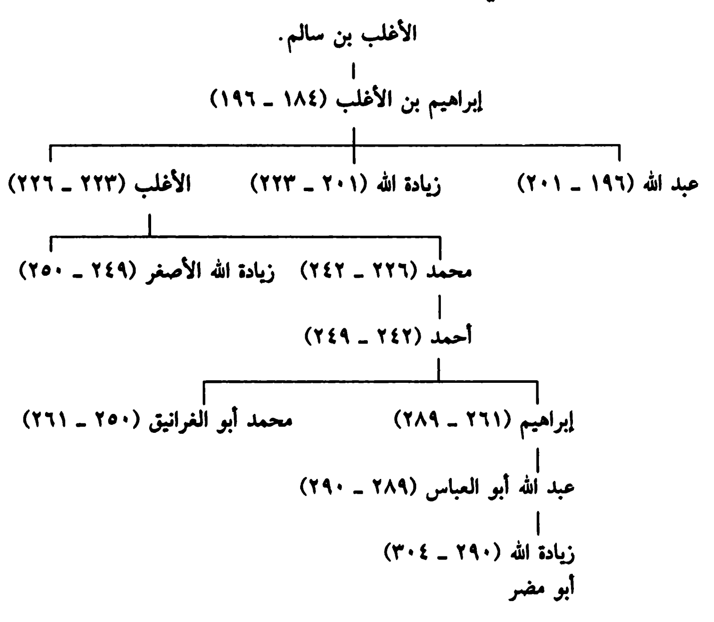
رجل يُدعى الحسن بن أحمد فأطلعه على غرّة البلد، فقاتل أهلها قتالاً شديداً، وأخذ الأرباض، فطلبوا منه الأمان، فأمنهم، ودخل مدينة «ميلة» وبلغ الخبر أمير إفريقية، وهو يومئذٍ إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب فبعث ولده الأحول في اثني عشر ألفاً وتبعه مثلهم فالتقيا فاقتتل العسكران، فانهزم أبو عبد الله، وكثر القتل في أصحابه، وتبعه الأحول، وسقط ثلج عظيم حال بينهم، وسار أبو عبد الله إلى جبل« انكجان»، ووصل الأحول إلى مدينة «ناصرون» فأحرقها، وأحرق مدينة «ميلة» ولم يجد بها أحداً. وبنى أبو عبد الله بجبل انكجان دار هجرةٍ فقصده أصحابه، وعاد الأحول إلى تونس.

جاء إلى أبي عبد الله خبر وفاة إبراهيم بن محمد بن الأغلب فسّر به، ثم أتاه خبر ولاية زيادة الله[1] وكان منصرفاً إلى اللهو، وقتل أباه،

---

(١) زيادة الله بن أبي العباس عبد الله بن إبراهيم الأغلبي، أبو مضر: آخر أمراء الدولة الأغلبية بتونس، كان ميالاً إلى اللهو، ولّاه أبوه إمارة صقلية، فعكف على لذاته، فعزله عنها وسجنه، فدسّ لأبيه ثلاثةً من خصيان الصقالبة، فقتلوه، ونادوا بزيادة الله أميراً على إفريقية، فتولّاها سنة ٢٩٠هـ، وقتل الخصيان الثلاثة، وفتك بمن قدر عليه من أعمامه وإخوته، وعاد إلى ملازمة ندمائه، فأهمل شؤون الملك، فاستفحل أمر أبي عبد الله الشيعي، فصبر له زيادة الله ودافعه زمناً إلى أن=

وأخاه، ثم استدعى عمّه الأحول وقتله، فعندئذٍ انتشرت جيوش أبي عبد الله، وصار يقول: سيخرج المهدي في هذه الأيام وسيملك الأرض فيا طوبى لمن هاجر إليّ وأطاعني، ويغري الناس بأبي مضر زيادة الله الأغلبي ويعيبه.



= يئس من النصر، فجمع أهله وماله وفرّ من إفريقية سنة ٢٩٦هـ، فنزل مصر، ثم قصد بغداد، فمرّ بالرقة، فاستوقفه الوزير ابن الفرات مدة سنة، واستأذن فيه المقتدر العباسيّ، فأمر بردّه إلى المغرب، فعاد إلى مصر، فمرض، فقصد بيت المقدس، فمات بالرملة سنة ٣٠٤هـ، وانتهت دولة الأغالبة.

توفي عبد الله بن ميمون القداح، وخلفه ابنه أحمد الذي ادّعى أنهم من ولد عقيل بن أبي طالب، وتوفي أحمد، وخلفه ولده الحسين فسار إلى «سلمية» من أرض حمص، وله بها ودائع وأموال من ودائع جده عبد الله القداح، وغلمان ووكلاء، وكان الحسين يدّعي أنه الوصي وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه، واتفق أنه جرى بحضرته حديث النساء بـ «سلمية» فوصفوا له امرأة رجلٍ يهوديٍّ حدّادٍ، مات عنها زوجها ـ وهي في غاية الحسن ـ فتزوّجها، ولها ولد من الحداد يماثلها في الجمال، فأحبّها وحسن موقعها معه، وأحبّ ولدها فأدّبه وعلّمه، فتعلّم العلم، وصارت له نفس عظيمة وهمّة كبيرة، ثم إن الحسين مات، ولم يكن له ولد، فعهد إلى ابن اليهودي الحداد ـ وهو عبيد الله ـ وعلّمه أسرار الدعوة من قولٍ وفعلٍ، وأين الدعاة، وأعطاه الأموال والعلامات، وتقدّم إلى أصحابه بطاعته وخدمته، وأنه الإمام والوصي، وزوّجه ابنة عمّه أبي الشلغلغ.

توفي الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان، وقام بعده عبيد الله، وانتشرت دعوته، وأرسل إليه أبو عبد الله رجالاً من كتامة من المغرب ليخبروه بما فتح الله عليه، وأنهم ينتظرونه،

وشاع خبره عند الناس أيام المكتفي فطُلب، فهرب هو وولده أبو القاسم نزار الذي ولي بعده، وتلقّب بـ (القائم) ـ وهو يومئذٍ غلام ـ وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب، وذلك أيام زيادة الله الأغلبي آخر أمراء الأغالبة، فلما انتهى إلى مصر أقام متستّراً بزيّ التجار، وكان عامل مصر حينئذٍ عيسى النوشري، فأتته الكتب من الخليفة بصفته وحليته، وأُمر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه، فأُخبر عبيد الله من قبل بعض أتباعه هناك، وأُشير عليه بالانصراف فخرج من مصر مع أصحابه وأموالٍ كثيرةٍ. فلما وصل الكتاب إلى النوشري فرّق عيونه في طلب عبيد الله، وخرج بنفسه فلحقه فلما رآه لم يشكّ فيه فقبض عليه، ولكن تلطّف له، وأبدى الزهد، وأظهر الطاعة فرق له وأطلقه، فجدّ عبيد الله بالهرب حتى انتهى وولده إلى طرابلس الغرب، وتفرّق صحبه من التجار، وكان في صحبته أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي، فقدّمه عبيد الله إلى القيروان ببعض ما معه، وأمره أن يلحق كتامه. فلما وصل أبو العباس إلى القيروان وجد الخبر قد سبقه إلى زيادة الله الأغلبي بخبر عبيد الله، فسأل عنه رفقته فأُخبروا أنه تخلّف بطرابلس، وأن صاحبه أبا العباس بالقيروان، وأُخذ أبو العباس وسُئل فأنكر، وقال: إنما أنا رجل تاجر صحبت

رجلاً في القفل محبسه، وسمع عبيد الله فنأى، ووصل كتاب زيادة الله إلى عامل طرابلس بأخذه، وكان عبيد الله قد أهدى له واجتمع به، فكتب العامل بخبره أنه قد سار ولم يدركه.

واستطاع عبيد الله أن يصل إلى «سجلماسة» فأقام بها، وكان صاحب سجلماسة هو اليسع من بني مدرار أمراء دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة، فأهدى إليه عبيد الله وواصله، فقرّبه اليسع وأحبّه. فأتاه كتاب زيادة الله الأغلبي يُعرّفه بالرجل الذي عنده، وأنه هو الذي يدعو له أبو عبد الله الشيعي، ويعدّه المهدي فعندئذٍ قبض اليسع على عبيد الله، ووضعه في السجن، فلم يزل محبوساً حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعي.

كان أمر أبي عبد الله الشيعي قد قوي فكتب إلى عبيد الله وهو في سجن سجلماسة يُبشّره، وبعث الكتاب مع بعض ثقاته، فدخل السجن في زيّ قصّابٍ يبيع اللحم فاجتمع به وعرّفه ذلك.

استطاع أبو عبد الله أن يدخل القيروان كما دخل رَقّادة يوم السبت مستهل شهر رجب سنة ستٍ وتسعين ومائتين، ونزل ببعض قصورها، وفرّق دورها على قبيلة كتامة، ولم يكن قد بقي أحد من أهلها فيها، وأمر

فنودي بالأمان فرجع الناس إلى أماكنهم.

لما استقرّت الأمور لأبي عبد الله الشيعي في رقادة أتاه أخوه محمد أبو العباس، ففرح به كثيراً، وكان هو الكبير، فسار أبو عبد الله في شهر رمضان من سنة ستٍ وتسعين ومائتين من رقادة، واستخلف على إفريقية أخاه أبا العباس. اتجه أبو عبد الله نحو المغرب بجيوشٍ كثيفةٍ فخافته قبيلة زناته، وابتعدت القبائل عن طريقه، وجاءته رسلهم، ودخلوا في طاعته، فلما اقترب من سجلماسة وانتهى خبره إلى اليسع بن مدرار أمير سجلماسة أرسل إلى عبيد الله ـ وهو في حبسه ـ يسأله عن نسبه وحاله، وهل إليه قصد أبو عبد الله فحلف له عبيد الله أنه ما رأى أبا عبد الله ولا عرفه، وإنما أنا رجل تاجر، فاعتقله في دارٍ وحده، وكذلك فعل بولده أبي القاسم، وجعل عليهما الحرس، وسأل ولده أيضاً فما حاد عن كلام أبيه، وسأل رجالاً كانوا معه وضربهم فلم يُقرّوا بشيءٍ. وسمع أبو عبد الله ذلك فشقّ عليه فأرسل إلى اليسع يتلطّفه، وأنه لم يقصد الحرب، وإنما له حاجة مهمّة عنده، ووعده الجميل، فرمى اليسع الكتاب وقتل الرسل، فعاوده بالملاطفة خوفاً على عبيد الله، ولم يذكره له، فقتل الرسل أيضاً، فأسرع أبو

عبد الله في السير، ونزل عليه، فخرج إليه اليسع وقاتله يومه ذلك، وافترقوا، فلما جنّ عليهم الليل هرب اليسع مع أصحابه من أهله وبني عمه، وبات أبو عبد الله ومن معه في غمٍّ عظيمٍ لا يعلمون ما صُنع بعبيد الله وولده، فلما أصبح خرج إليه أهل البلاد وأعلموه بهرب اليسع، فدخل هو وأصحابه البلد، وأتوا المكان الذي فيه عبيد الله، فاستخرجوه، واستخرجوا ولده، وكانت مسرة عندهم، فأركبهما أبو عبد الله ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يقول للناس هذا مولاكم، وهو يبكي من شدّة الفرح حتى وصل إلى فسطاطٍ قد ضُرب له فنزل فيه. وأصبح عبيد الله يُعرف بالمهدي. وأمر أبو عبد الله بطلب اليسع فطُلب، فأُدرك، فأُخذ، وضُرب بالسياط ثم قُتل.

فلما ظهر المهدي عبيد الله أقام بسجلماسة أربعين يوماً ثم سار إلى تونس، فمر على جبل اكنجان الذي أقام به أبو عبد الله دار هجرةٍ فأخذ الأموال، وتابع إلى رقادة فوصل إليها في العشر الأخير من شهر ربيع الثاني سنة سبعٍ وتسعين ومائتين، وزال مُلك بني الأغلب من إفريقية، ومُلك الخوارج الأباضية من بني رستم في مدينة تاهرت، ومُلك الخوارج الصفرية بني مدرار في

سجلماسة. وملك عبيد الله المهدي ذلك. فلما اقترب من رقادة تلقّاه أهلها وأهل القيروان، وأبو عبد الله ورؤساء كتامة مشاة بين يديه، وولده خلفه، فسلّموا عليه فردّ ردّاً جميلاً، وأمرهم بالانصراف، ونزل بقصرٍ من قصور رقادة، وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد، وتلقّب بالمهدي أمير المؤمنين. وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف، ومعه الدعاة، وأحضروا الناس بالعنف والشدّة ودعوهم إلى مذهبهم، فمن أجاب أُحسن إليه، ومن أبى سُجن، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس ـ وهم قليل ـ وقُتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم.

قسَّم المهدي عبيد الله على رجاله أعمال إفريقية، ودوّن الدواوين، وجبى الأموال، واستقرّت قدمه ودانت له البلاد، واستعمل العمال عليها جميعاً، وجعل إسحاق بن المنهال قاضياً في صقلية فأساء السيرة فاستبدله بعلي بن عمر البلوي.

ولما استقامت البلاد لعبيد الله المهدي وباشر الأمور بنفسه كفّ يد أبي عبد الله الشيعي ويد أخيه أبي العباس بعد أن كانا ساعديه إذ الأصول مختلفة، والأهداف البعيدة متباينة، ولكن كان الاتفاق والخط

الواحد في الأهداف المرحلية، وديصان الجد الأعلى لعبيد الله فأصله وما يعتقد لا يقبلان إلا تبعية الآخرين لهم، ولا يرضيان إلا تحقيق ما يرميان إليه.

عظم أمر كفّ اليد والإبعاد عن الأمر والنهي والأخذ والعطاء على أبي العباس أخي أبي عبد الله الشيعي، فأخذ أبو العباس يزري من قدر المهدي عبيد الله في أي مجلسٍ يجلسه وخاصةً في مجلس أخيه أبي عبد الله وأخوه ينهاه، ولا يرضى فعله فما يزيده إلا لجاجاً.

ثم إن أبا العباس أظهر أبا عبد الله على ما في نفسه، وقال له: ملكت أمراً فجئت بمن أزالك عنه، وكان الواجب عليه ألا يُسقط حقك، ولم يزل حتى أثّر في قلب أخيه. فقال أبو عبد الله يوماً للمهدي: لو كنت تجلس في قصرك، وتتركني مع كتامة آمرهم وأنهاهم لأني عارف بعاداتهم لكان أهيب لك في أعين الناس، وكان عبيد الله المهدي سمع شيئاً مما يجري بين أبي عبد الله وأخيه أبي العباس فتحقّق ذلك، غير أنه ردّ ردّاً لطيفاً، فصار أبو العباس يشير إلى المقدّمين بشيءٍ من ذلك فمن رأى منه قبولاً كشف له ما في نفسه، وقال: ما جازاكم على ما فعلتم، وذكر لهم الأموال التي

أخذها عبيد الله المهدي من جبل انكجان (دار الهجرة)، وقال: هلا قسمها فيكم. وكل ذلك يصل إلى عبيد الله، وهو يتغافل، وأبو عبد الله يُداري. ثم صار أبو العباس يقول: إن هذا ليس الذي كنا نعتقد طاعته وندعو له، لأن المهدي يختم بالحجة، ويأتي بالآيات الباهرة. فأخذ قوله بقلوب كثيرٍ من الناس، منهم رجل من كتامة يقال له: شيخ المشايخ فواجه المهدي بذلك، وقال: إن كنت المهدي فأظهر لنا آيةً فقد شككنا فيك، فقتله المهدي، فخافه أبو عبد الله الشيعي، وعلم أن عبيد الله المهدي قد تغيّر عليه، فاتفق هو وأخوه ومن معه على الاجتماع عند أبي زاكي تام بن معارك، وعزموا على قتل المهدي، واجتمع معهم رؤساء قبائل كتامة إلا قليلاً منهم، وكان معهم من يظهر أنه منهم وينقل ما يجري إلى عبيد الله المهدي، ودخلوا عليه مراراً فلم يجسروا على قتله، فاتفق أنهم اجتمعوا ليلةً عند أبي زاكي تمام بن معارك، فلما أصبحوا لبس أبو عبد الله ثوبه مقلوباً ودخل على المهدي فرأى ثوبه فلم يعرفه به، ثم دخل عليه ثلاثة أيامٍ والقميص بحاله، فقال له المهدي: ما هذا الأمر الذي أذهلك عن إصلاح ثوبك فهو مقلوب منذ ثلاثة أيامٍ فعلمت أنك ما نزعته؟ فقال: ما علمت بذلك إلا ساعتي هذه، قال: أين كنت

البارحة والليالي قبلها؟ فسكت أبو عبد الله، فقال: أليس بتّ في دار أبي زاكي؟ قال: بلى، قال: وما الذي أخرجك من دارك؟ قال: خفت، قال: وهل يخاف الإنسان إلا من عدوّه؟ فعلم أن أمره ظهر للمهدي، فخرج وأخبر أصحابه، وخافوا، وتخلّفوا عن الحضور، فذكر ذلك للمهدي وعنده رجل يقال له: ابن القديم كان من جملة القوم، وعنده أموال كثيرة من أموال زيادة الله الأغلبي، فقال: يا مولاي إن شئت أتيتك بهم، فمضى فجاء بهم، فعلم المهدي صحة ما قيل عنه، فلاطفهم وفرّقهم في البلاد، وجعل أبا زاكي والياً على طرابلس، وكتب إلى عاملها أن يقتله عند وصوله، فلما وصل إليها قتله عاملها، وأرسل رأسه إلى المهدي، فهرب ابن القديم فأُخذ فأمر المهدي بقتله فقُتل. وأمر عبيد الله المهدي عروبة ورجالاً معه أن يرصدوا أبا عبد الله وأخاه أبا العباس ويقتلوهما، فلما وصلا إلى قرب القصر حمل عروبة على أبي عبد الله، فقال: لا تفعل يا بني، فقال: الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك، فقُتل هو وأخوه، وكان قتلهما في اليوم الذي قُتل فيه أبو زاكي.

وثارت فتنة بسبب قتلهما، وجرّد أصحابهما السيوف، فركب المهدي، وأمن الناس فسكتوا، ثم

تتبعهم حتى قتلهم، وثارت فتنة ثانية بين كتامة وأهل القيروان، قُتل فيها خلق كثير، فخرج المهدي وسكّن الفتنة، وكفّ الدعاة عن طلب التشيّع من العامة، ولما استقامت الدولة لعبيد الله المهدي عهد لولده أبي القاسم نزار بالخلافة، ورجعت كتامة إلى بلادهم، فأقاموا طفلاً، وقالوا: هذا هو المهدي، ثم زعموا أنه نبيّ يوحى إليه، وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت، وزحفوا إلى مدينة ميلة، فبلغ ذلك المهدي، فأخرج ابنه أبا القاسم فحصرهم فقاتلهم فهزمهم، ولاحقهم حتى انتهوا إلى البحر، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وقتل الطفل الذي أقاموه، وخالف عليه أهل صقلية مع ابن وهب فأنفذ إليهم أسطولاً فدخلها، وأتى بابن وهب فقتله، وخالف عليه أهل تاهرت فغزاها فدخلها وقتل أهل الخلاف، وقتل جماعةً من بني الأغلب برقادة كانوا قد رجعوا إليها بعد وفاة زيادة الله الأغلبي.

الإمارات:

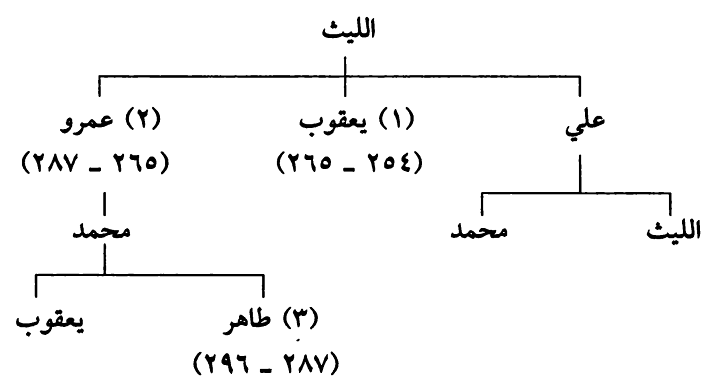
لم تتغيّر الإمارات كثيراً أيام الخليفة المعتضد عما كانت أيام سابقه عمه المعتمد، وهي:

١" ـ **الدولة الصفارية**: عندما تولى المعتضد بالله أمر

الخلافة العباسية عزل عن خراسان رافع بن هرثمة، وكان محمد بن طاهر قد أنابه عليها، وأعادها إلى عمرو بن الليث غير أن رافعاً قد رفض ذلك، وشقّ عصا الطاعة، وحارب عمرو بن الليث إلا أنه هُزم، ودخل عمرو بن الليث نيسابور سنة ٢٨٠هـ، وخرج عمرو منها، فرجع إليها رافع، وخطب لمحمد بن زيد الطالبي، فرجع عمرو إلى نيسابور وحاصرها، وأخيراً قتل رافعاً سنة ٢٨٣هـ.

وطلب عمرو بن الليث من الخليفة ولاية بلاد ما وراء النهر، وكانت بيد إسماعيل بن أحمد الساماني، ولم يجد الخليفة بُدّاً من موافقته، غير أن إسماعيل بن أحمد الساماني حاول صدّه عن هذا الطلب، وأن يقنع بما تحت يده، فلما لم يقبل جرت الحرب بين الطرفين، ووقع عمرو بن الليث أسيراً بيد إسماعيل بن أحمد الساماني الذي سيّره إلى الخليفة، ولم يلبث عمرو أن مات فآل حكم الدولة الصفّارية إلى طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث سنة ٢٨٨هـ، وكان صغيراً، فاستبدّ بالسلطة «سبك السبكري» غلام عمرو بن الليث، ودخلت جنوده فارس، ثم إن السبكري قد قبض على طاهر وأخيه يعقوب، وبعث بهما إلى بغداد سنة ٢٩٦هـ، ولكن الليث بن علي بن الليث قد طرد السبكري من فارس سنة ٢٩٧هـ،

فاستنجد السبكري بالخليفة فأمدّه بجيشٍ فحلّت الهزيمة بالليث، واستبدّ السبكري بما تحت يده، واستعصى على الدولة، فأرسلت له الجيش إثر الجيش حتى استطاع أحمد بن إسماعيل الساماني من القبض على السبكري وعلى محمد بن علي بن الليث الصفّاري وإرسالهما إلى بغداد سنة ٢٩٨هـ، ودالت الإمارة الصفّارية.



٢" الدولة السامانية: أصبح إسماعيل بن أحمد الساماني سيّد السامانيين بعد وفاة أخيه نصر سنة ٢٧٩هـ، وكان خيّراً يحبّ أهل العلم ويكرمهم، كما كان عاقلاً عادلاً حسن السيرة في رعيته، حليماً. وطمع محمد بن زيد الطالبي صاحب طبرستان بخراسان، وسار إليها، فأرسل إليه إسماعيل جيشاً بإمرة محمد بن هارون، وفي المعارك التي دارت بين الطرفين أُصيب

محمد بن زيد، وأُسر ابنه زيد، ودخل محمد بن هارون طبرستان وذلك سنة ٢٨٧هـ، غير أن محمد بن هارون لم يلبث أن خالف إسماعيل، واستبدّ بما سيطر عليه، فسار إليه إسماعيل وجرت معركة بالريّ هرب إثرها محمد بن هارون، والتجأ إلى بلاد الديلم، ودخل إسماعيل الريّ، وتوفي إسماعيل سنة ٢٩٥هـ.

٣" ـ الدولة الطالبية في طبرستان: كان محمد بن زيد الطالبي أمير هذه الدولة في هذه المرحلة، وقد هُزم أمام محمد بن هارون قائد إسماعيل بن أحمد الساماني فخرج من طبرستان عام ٢٨٧هـ، ثم عاد إليها بعد مدةٍ خليفته إذ توفي هو بعد إصابته بقتاله مع محمد بن هارون.

٤" ـ دولة بني زياد في زبيد باليمن: كان إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد أمير الدولة إلى نهاية أيام المعتضد بالله عام ٢٨٩هـ حيث مات، وخلفه ابنه إسحاق بن إبراهيم، وفي أيامه هاجم عليّ بن الفضل القرمطي مدينة زبيد وانتهبها.

٥" ـ دولة بني يعفر في صنعاء باليمن: كان يعفر بن عبد الرحيم يحكم صنعاء ٢٦٠ ـ ٢٨٢هـ، وخلفه أسعد بن أبي يعفر حيث دام سلطانه حتى سنة

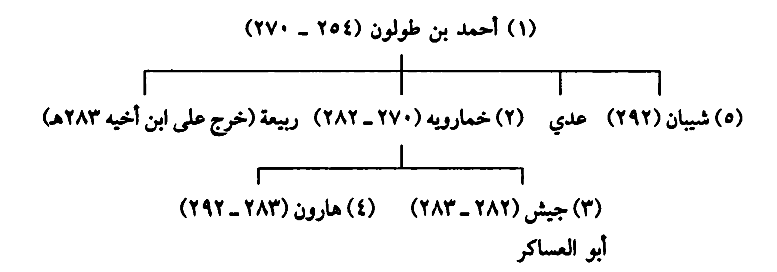
٣٣١هـ، وقد هاجم صنعاء عليّ بن الفضل القرمطي، وأخرجه منها عدة مراتٍ منها: عام ٢٩٣هـ، وعام ٢٩٨هـ، كما كان في حربٍ مع الهادي الزيدي الذي أنشأ إمارةً له في صعدة سنة ٢٨٤هـ.

٦" ـ **الدولة الزيدية في صعدة باليمن**: كان يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب يقيم بالمدينة المنورة فجاء وفد من اليمن يدعوه إلى بلادهم ليقوم بأمرهم فسافر إليهم سنة ٢٨٠هـ، غير أنه لم يجد ما كان يتوقّعه، لذا رجع إلى المدينة المنورة، فجاء ثانيةً وفد آخر، ووعدوه بالنصر، واعتذروا إليه عما كان منهم من تقصيرٍ فوافق ورجع إلى اليمن عام ٢٨٤هـ، فأقام في مدينة صعدة، والتفّ حوله أهلها، فأراد التوسّع فاصطدم بمقاومة حكام اليمن المحليين، وكان أشدّهم عداوةً بنو يعفر في صنعاء التي أراد غزوها عام ٢٨٥هـ، غير أنه عجز عن دخولها، ولكنه دخلها سنة ٢٨٨هـ بمساعدة أبي العتاهية الطريفي الذي قُتل في معركة حدّين قرب صنعاء، وهو يقاتل مع الزيود سنة ٢٨٨هـ.

٧" ـ **الدولة الطولونية**: حكم خمارويه بن أحمد بن

طولون ٢٧٠ ـ ٢٨٢هـ، وكانت صلته بالخليفة المعتضد جيدةً، إذ تزوج الخليفة قطر الندى بنت خمارويه، وكانت الثغور الشامية تحت إشراف الطولونيين، ويقوم الغزو منها إلى بلاد الروم، وبقيادة أمراء من قبل الدولة الطولونية، وقُتل خمارويه سنة ٢٨٢هـ بيد أحد خدمه، وهو نائم، وكان يومذاك بدمشق، وسار ابنه جيش أبو العساكر بجنده إلى مصر، وتولّى الأمر إلّا أن الناس قد أخذوا عليه أموراً أثارتهم عليه، كما تنكّر له كبار الأمراء العسكريين، وخلع طاعته «طغج بن جفّ»، ووثب عليه الجند وخلعوه، وسجنوه، فمات بالسجن بعد أيامٍ وذلك سنة ٢٨٣هـ، كما تبرّأ العلماء من بيعته، وبايعوا أخاه أبا موسى هارون بن خمارويه، وكان صغيراً، لم تزل سنّه دون الخامسة عشرة، غير أن بعض الجند استقدموا عمه ربيعة بن أحمد بن طولون من الإسكندرية، ووعدوه بالنصر، فسار ربيعة بجيشٍ إلى الفسطاط، فلما اقترب منها خرج إليه جند هارون بن خمارويه وغلبوه، وأسروه، وضربوه حتى مات تحت العذاب وذلك عام ٢٨٤هـ.

أرسل هارون بن خمارويه جيشاً إلى الشام لقتال القرامطة ولكن حلّت به الهزيمة وذلك سنة ٢٩٠هـ.



وعندما فكرت الدولة العباسية بإنهاء الإمارة الطولونية واستعادة السيطرة عليها أرسلت جيشاً بإمرة محمد بن سليمان[١] فوصل إلى فلسطين فدخلها، واتجه نحو مصر، وفي الوقت نفسه سار أسطول عباسيّ،

---

(١) محمد بن سليمان الكاتب الحنيفي، أبو علي، ويلقب بالأستاذ: قائد، مظفر، جبار، عراقي المولد، من أبناء الكتاب، نسبةً إلى رجلٍ يدعى «حنيفة السمرقندي»، رحل إلى مصر، وولي الكتابة للؤلؤ (غلام أحمد بن طولون)، ثم عاد إلى بغداد، واتصل بالخليفة المكتفي، وصار من قواده، وولّاه قتال القرامطة في الشام، فزحف بجيشٍ قضى على فتنتهم سنة ٢٩١هـ، وعاد إلى بغداد، فخلع عليه المكتفي، ووجّهه إلى مصر، وفيها بقية من الطولونيين، فقاتلهم، وأزال ملكهم، ومحا آثارهم، وهدم قصورهم، وعاد بأموالهم ورجالهم يريد بغداد وذلك سنة ٢٩٢هـ، ونقل إلى المكتفي من أخباره بمصر ما أثار نقمته عليه، فأمر به فاعتقل قبل وصوله إلى بغداد، وصودرت أمواله، وظلّ سجيناً إلى أن أطلقه (ابن الفرات) في أيام المقتدر حوالي سنة ٢٩٧هـ، وولاه الضياع والأعشار في قزوين. وقُتل في معركةٍ على باب الريّ سنة ٣٠٤هـ.

وخرج الأسطول المصري لملاقاة الأسطول العباسيّ، والتقيا في «تنّيس»، وهُزم الجيش المصريّ على يد محمد بن سليمان ومولاه أحمد بن فضلان بن العباس[1]، وفرّ هارون بن خمارويه إلى العباسة وهو مشغول باللهو، فقتله عمّاه شيبان وعدي ولدا أحمد بن طولون، ولم يناهز الثانية والعشرين من عمره، ورجع شيبان ليتولّى أمر الفسطاط إلا أن العسكريين قد غضبوا عليه لما فعل، وكتبوا إلى محمد بن سليمان يستقدمونه إلى الفسطاط، فسار إلى العباسة، وهناك استقبله «طغج بن جفّ» بجموع القادة، وانتهت الدولة الطولونية.

٨" ـ **دولة الأغالبة**: كان إبراهيم الثاني أمير الأغالبة ٢٦١ ـ ٢٨٩هـ، وكان عادلاً، وعندما توفي خلفه ابنه عبد الله الثاني، ولم يدم حكمه أكثر من سنةٍ،

---

(١) أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد: صاحب الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة المعروفة بـ «رحلة ابن فضلان كان في أول أمره من موالي محمد بن سليمان، ثم أصبح من موالي المقتدر، وأوفده المقتدر إلى ملك الصقالبة في بلغار (قازان) إجابةً لطلب بُلغار الفولغا يرجون العون لمقاومة ضغط الخزر عليهم من الجنوب، وليفقههم في الدين، وتوفي بعد سنة ٣١٠هـ.

ثم تولّى بعده أمر الأغالبة زيادة الله الثالث، وهو آخر أمراء بني الأغلب حيث قضى على إمارتهم العبيديون القدّاحيون سنة ٢٩٦هـ.

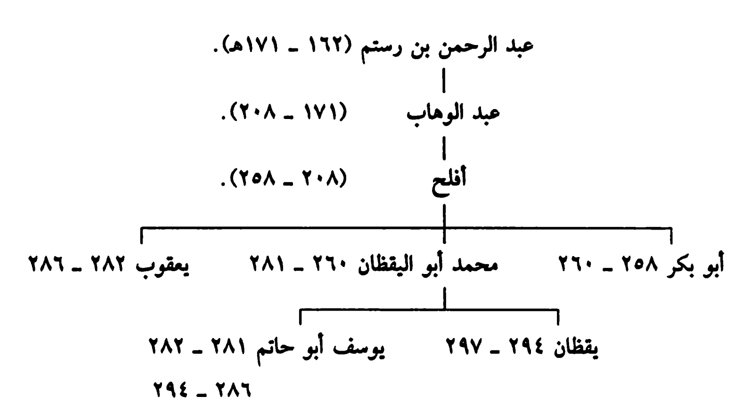
٩" ـ دولة الأدارسة في المغرب: كان يحكم إمارة الأدارسة يحيى الثالث ٢٦٥ ـ ٢٩٢هـ، وهو ابن القاسم بن إدريس الثاني بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان وضع الإمارة في فوضى واضطرابٍ بسبب القتال بين أبناء إدريس من جهةٍ وبين الخوارج الصفرية من جهةٍ ثانيةٍ، وبسبب هذه الحروب فقد ساءت الحالة الاقتصادية والاجتماعية.

١٠" ـ دولة الخوارج الأباضية في تاهرت: كان إمام الخوارج الأباضية في هذه المرحلة أبو حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان ٢٨١ ـ ٢٨٢هـ، وقد عمّ الخلاف وكثرت الفوضى في أيامه، وطُرد أبو حاتم من مدينة تاهرت ومعه أسرته وأعوانه من قبيلة نفوسة فلجأ إلى قبائل «صنهاجة» و«لواتة» وجمع منها ومن أنصاره السابقين جمعاً، وهاجم مدينة تاهرت وحاصرها، وكادت المدينة تستسلم لولا تعنّت أبي حاتم وطلبه تسليم زعماء المدينة، وعندئذٍ رفض أهل المدينة

الاستسلام، واستدعوا عمه يعقوب بن أفلح من «زواغة» وبايعوه بالإمامة سنة ٢٨٢هـ، وعمل أبو حاتم بعدها على استمالة بعض زعماء المدينة عن طريق الأموال فانحازوا إلى جانبه، ولما شعر عمه يعقوب بن أفلح بذلك غادر المدينة بعد أن حكمها مدة أربع سنواتٍ، ودخل أبو حاتم مكانه عام ٢٨٦هـ، وأصدر عفواً عاماً عن الأهالي، وأصبح زعماء العامة يتدخلون في شؤون الدولة، وكذلك فإن يعقوب بن أفلح قد عمل في دعم الطيب بن خلف بن السمح في زواغة في منطقة طرابلس، وحدث احتكاك بين زواغة ونفوسة فهما قبيلتان متجاورتان وأصبحتا تؤيدان زعيمين متنافسين، كل واحدةٍ منهما تدعم واحداً منهما، حتى قُبض على الطيب بن خلف وسُجن في جبل نفوسة من قبل الياس بن منصور عامل أبي حاتم على الجبل، وأخيراً قُتل يوسف أبو حاتم عام ٢٩٤هـ على يد أبناء أخيه، وآلت الإمامة إلى يقظان بن أبي اليقظان، وعدّته الأباضية مغتصباً، واتسم عهده بالفتن والفوضى التي كانت تُثيرها الفرق غير الأباضية أو أبناء أخيه أبي حاتم للأخذ بثأر أبيهم حتى إن دوسر بنت أبي حاتم وأخاها قد توجّها إلى أبي عبد الله الشيعي ودعواه إلى «تاهرت» ودخولها انتقاماً من قتلة أبيهما، كما أن الشيعة

والصفرية تضايقوا من أمرهم، ووجدوا في أبي عبد الله منقذاً لهم.

وانتهى أمر الخوارج الأباضية سنة ٢٩٧هـ على يد العبيديين القداحيين.



١١" ـ دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة:

كان أمير الخوارج الصفرية في سجلماسة في هذه المرحلة اليسع بن ميمون (ابن بقية) بن مدرار (المنتصر) بن اليسع أبي المنصور بن أبي القاسم سمكو، وقد آل الأمر إلى اليسع بن ميمون سنة ٢٧٠هـ، واستمر حتى ٢٩٧ حيث جاء أبو عبد الله الشيعي ودخل سجلماسة.

بدأ اليسع بن ميمون يقاتل الأدارسة لأن قبيلة «مطغرة» كانت تخضع لحكم الأدارسة، وعدد غير قليلٍ

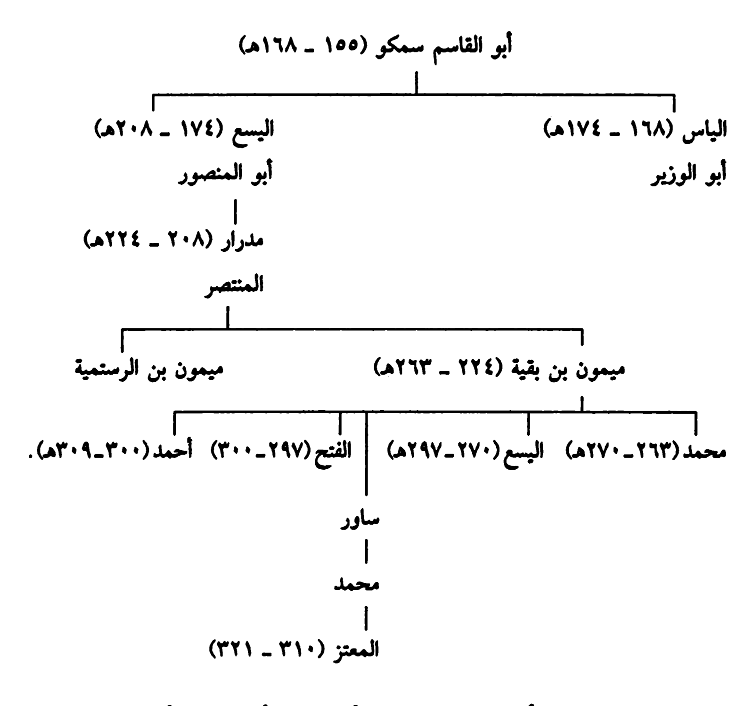
من أبناء هذه القبيلة يحمل الفكر الخارجي الصفريّ، وبدأ الأدارسة يضطهدون الخوارج الصفرية فاستنجدوا بإمامهم اليسع بن ميمون، فأخذ على عاتقه حرب الأدارسة.

وصل إلى سجلماسة عبيد الله القداحي، وأهدى إلى اليسع بن ميمون، فقرّبه اليسع وأحبّه حتى أتاه كتاب زيادة الله الأغلبي يُعرّفه أن ضيفه إنما هو الذي يدعو له أبو عبد الله الشيعي، فعندئذٍ قبض اليسع بن ميمون على عبيد الله وألقاه في السجن.

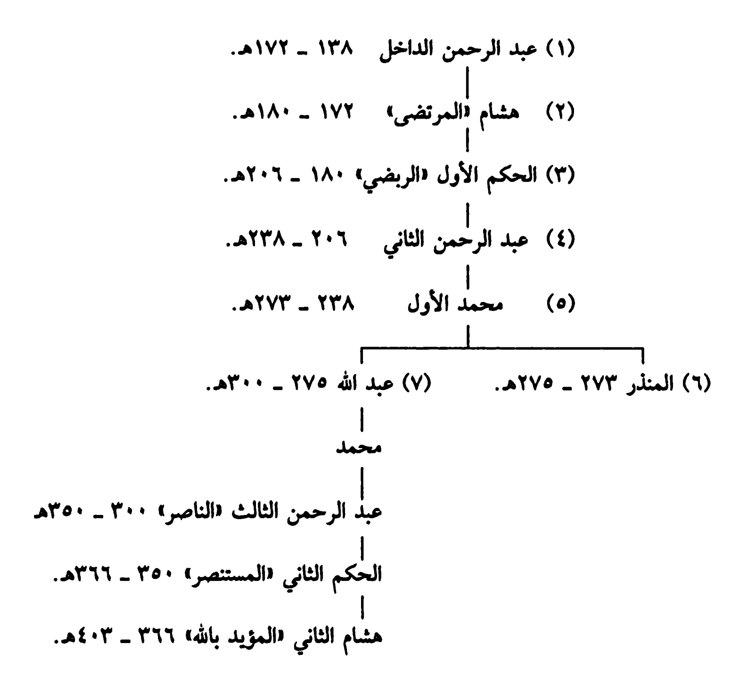
سار أبو عبد الله إلى سجلماسة بعد أن دخل تاهرت، وعندما اقترب من سجلماسة بعث وفداً إلى اليسع بن ميمون يُلاطفه، ويُبعد فكرة القتال من الحساب خوفاً على عبيد الله إلا أن اليسع قد قتل رسل أبي عبد الله، فأعاد أبو عبد الله الملاطفة وإرسال الرسل، فأعاد اليسع بن ميمون قتل الرسل فما كان من أبي عبد الله إلا أن جدّ السير لحصار سجلماسة، فخرج إليه اليسع وجرى قتال ضارٍ بين الطرفين لم يُفرّق بينهما سوى هجوم الظلام، فلما جنّ الليل فرّ اليسع وصحبه وأبناء أسرته، وعندما تنفّس الفجر خرج أهل المدينة لاستقبال أبي عبد الله، وأعلموه أن اليسع قد فرّ

بجماعته، فدخل المدينة، وأخرج عبيد الله وابنه من السجن، وأرسل في طلب اليسع فقُبض عليه فسُجن ثم قُتل.

ترك عبيد الله القداحي قائده إبراهيم بن غالب المزاني عاملاً له على سجلماسة وسار هو إلى رقادة، ولكن لم يلبث أن ثار الخوارج الصفرية على إبراهيم بن غالب وقتلوه وجنده الخمسمائة الذين بقوا معه، وولّى الصفرية عليهم الفتح بن ميمون الملقّب «واسول»، ولم يستطع عبيد الله إعادة نفوذه إلى سجلماسة لما عنده من شغلٍ في قضية أبي عبد الله الشيعي وثورة كتامة، وإنما كان الفتح يظهر شيئاً من التقية بعدم الثورة، وبقي الفتح صاحب النفوذ في سجلماسة حتى توفي سنة ٣٠٠هـ، فبايع الصفرية عندها أخاه أحمد بن ميمون فبقي كذلك حتى عام ٣٠٩هـ، حيث أرسل عبيد الله القائد مصالة بن حبوس فدخل سجلماسة، وقتل أحمد بن ميمون، وقد حاول مصالة بن حبوس استرضاء الصفرية فلم يُعيّن لهم والياً، بل ولّى المعتزّ بن محمد بن ساور بن ميمون، ثم جعله بعد مدةٍ عاملاً لعبيد الله، واستمر في عمله حتى توفي سنة ٣٢١هـ.



١٢" ـ الأندلس: كان أمير الأندلس أيام الخليفة العباسي المعتضد هو عبد الله بن محمد الأول، وكان مكروهاً، فكثرت الفوضى في أيامه، وانفصلت مقاطعات عن الدولة، واشتدّت وطأة النصارى في الشمال، ولعل أبرز ما حدث في الأندلس في تلك المرحلة حركة عمر بن حفصون الذي ارتدّ إلى النصرانية، وأثار سكان الجبال في مقاطعة غرناطة، وهزم جيوش الأمير عبد الله بن محمد أكثر من مرةٍ، وأصبحت إشبيلية تنافس قرطبة.



وفاة المعتضد:

اعتلّ المعتضد في شهر ربيع الثاني سنة تسعٍ وثمانين ومائتين علّةً صعبةً، وكان مزاجه قد تغيّر، وتحسّنت حاله قليلاً ثم انتكس، ومات يوم الاثنين لثمانٍ بقين من ربيع الثاني من السنة نفسها. وقال ابن المعتز:

طار قلبي بجناح الوجيب
جزعاً من حادثات الخطوب
وحذاراً أن يُشاك بسوءٍ
أسد الملك وسيف الحروب

وعندما احتضر المعتضد قال:

تمتّع من الدنيا فإنك لا تبقى
وخذ صفوها ما إن صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر، إني أمنته
فلم يُبق لي حالاً ولم يدع لي حقاً
قتلت صناديد الرجال فلم أدع
عدوّاً، ولم أمهل على ظنّةٍ خلقا
وأخليت دار الملك من كل بازلٍ
وشتّتهم غرباً ومزّقتهم شرقاً
فلما بلغت النجم عزّاً ورفعةً
ودانت رقاب الخلق أجمع لي رقا
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي
فها أنا ذا في حفرتي عاجلاً ملقى
فأفسدت دنياي وديني سفاهةً
فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقى؟
فيا ليت شعري بعد موتي ما أرى
إلى نعمةٍ لله أم ناره ألقى؟

وقال عبد الله بن المعتزّ[1] يرثيه:

(١) عبد الله بن محمد المعتزّ بالله بن جعفر المتوكل بن محمد=

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً
وأنت والد سوءٍ تأكل الولدا
أستغفر الله بل ذا كله قدر
رضيت بالله رباً واحداً صمداً
يا ساكن القبر في غبراء مظلمةٍ
بالظاهرية مقصى الدار منفردا
أين الجيوش التي كنت تشحنها؟
أين الكنوز التي لم تحصها عددا؟
أين السرير الذي قد كنت تملؤه؟
مهابةً من رأته عينه ارتعدا
أين القصور التي شيّدتها فعلت
ولاح فيا سنا الإبريز فاتقدا

= المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس: الشاعر المجيد، خليفة يومٍ وليلةٍ ولد ببغداد سنة ٢٤٧هـ، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ منهم، وجاءته النكبة من حيث يسعد الناس. آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي، واستصغره القواد فخلعوه، وأقبلوا على ابن المعتزّ فبايعوه بالخلافة، ولقّبوه «المرتضى بالله»، فأقام يوماً وليلةً، ووثب عليه غلمان المقتدر، فخلعوه، وعاد المقتدر فقبض عليه، وسلّمه إلى خادمٍ له اسمه مؤنس، فخنقه سنة ٢٩٦هـ.

قد أتعبوا كل مرقال[1] مذكرة
وجناء تنثر من أشداقها الزبدا
أين الأعادي الأولى ذللت صعبهم؟
أين الليوث التي صيّرتها بددا؟
أين الوفود على الأبواب عاكفة
ورد القطا صفر ما جال واطردا
أين الرجال قياماً في مراتبهم
من راح منهم ولم يطمر فقد سعدا
أين الجياد التي حجّلتها بدم؟
وكنّ يحملن منك الضيغم الأسدا
أين الرماح التي غذّيتها مهجا؟
مذ متّ ما وردت قلباً ولا كبدا
أين السيوف وأين النبل مرسلة
يصبن من شئت من قربٍ وإن بعدا
أين المجانيق أمثال السيول إذا
رمين حائط حصنٍ قائمٍ قعدا
أين الفعال التي كنت تبدأها
ولا ترى أنّ عفواً نافعاً أبدا

(١) مرقال: هو هاشم بن عتبة.

أين الجنان التي تجري جداولها؟

وتستجيب إليها الطائر الغَرِدا

أين الوصائف كالغزلان راتعةً؟

يسحبن من حُللٍ مُوْشِيّةٍ جددا

أين الملاهي وأين الراح تحسبها

ياقوتة كسيت من فضةٍ زَرَدا

أين الوثوب إلى الأعداء مبتغياً؟

صلاح ملك بني العباس إذ فسدا

ما زلت تقسر منهم كل قَسْوَرةٍ

وتحطم العالي الجبار معتمدا

ثم انقضيت فلا عين ولا أثر

حتى كأنك يوماً لم تكن أحداً

لا شيء يبقى سوى خيرٍ تُقدّمه

ما دام ملك لإنسانٍ ولا خلدا

وكانت خلافته تسع سنواتٍ وتسعة أشهرٍ وتسعة عشر يوماً، وكان عمره يوم توفي ستاً وأربعين سنةً وسبعة أشهرٍ.

شخصية المعتضد:

كان المعتضد أسمر، نحيف الجسم، معتدل

القامة، قد وخطه الشيب، في مقدم لحيته طول، وفي رأسه شامة بيضاء.

• كان المعتضد شهماً، جلداً، موصوفاً بالرجولة، لقي الحروب وعُرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيامٍ، وهابه الناس، ورهبوه، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيبته.

• كانت أيامه طيبة، كثيرة الأمن والرخاء، أسقط المكوس ونشر العدل، ورفع الظلم عن الرعية.

• كان يُسمّى «السفّاح الثاني» لأنه جدّد ملك بني العباس، وكان قد خَلِق وضعف وكاد يزول، وكان في اضطرابٍ منذ مقتل جعفر المتوكل ٢٤٧هـ.

• كان أمر الخلافة قد ضعف في أيام عمه المعتمد فلما ولي المعتضد أقام شعارها ورفع منارها. وكان شجاعاً فاضلا من رجالات قريش حزماً وجرأةً وإقداماً وعزماً، وكذلك كان أبوه الموفّق.

• في أول سنةٍ استخلف فيها منع الورّاقين من بيع كتب الفلسفة وعلم الكلام، ومنع القصّاص والمنجمين من القعود في الطريق.

• أمر سنة ٢٨٢هـ بإنشاء الكتب إلى جميع العمال في النواحي والأمصار بترك افتتاح الخراج في النيروز

الذي هو نيروز العجم، وتأخير ذلك إلى اليوم الحادي عشر من شهر حزيران وهو الشهر السادس الشمسي أي مع بداية الصيف تقريباً، وسُمّي ذلك النيروز المعتضدي، وأُنشئت الكتب بذلك من الموصل حيث كان المعتضد.

• كان يمسك عن صرف الأموال في غير وجهها، فلهذا كان بعض الناس يعدّه بخيلاً، ومن الناس من يعدّه من الخلفاء الصالحين، ومنهم من يشبهه بعمر بن عبد العزيز في بني أمية.

• كان يقدم على الأسد وحده لشجاعته. قال جعيف السمرقندي الحاجب: كنت مع مولاي المعتضد في بعض متصيداته، وقد انقطع عن العسكر، وليس معه غيري، إذ خرج علينا أسد فقصد قصدنا، فقال لي المعتضد: يا جعيف أفيك خير اليوم؟ قلت: لا والله، قال: ولا أن تمسك فرسي وأنزل أنا؟ فقلت: بلى، قال: فنزل عن فرسه، وغرز أطراف ثيابه في منطقته، واستلّ سيفه ورمى بقرابه إليّ، ثم تقدّم إلى الأسد، فوثب الأسد عليه، فضربه بالسيف فأطار يده فاشتغل الأسد بيده، فضربه ثانيةً على هامته ففلقها، فخرّ الأسد صريعاً، فدنا منه فمسح سيفه في صوفه، ثم أقبل إليّ

فأغمد سيفه في قرابه، ثم ركب فرسه فذهبنا إلى العسكر. قال: فصحبته إلى أن مات، فما سمعته ذكر ذلك لأحدٍ، فما أدري من أيّ شيءٍ أعجب؟ من شجاعته؟ أم من عدم احتفاله بذلك حيث لم يذكره لأحدٍ؟ أم من عدم عتبه عليّ حيث ضننت بنفسي عنه، والله ما عاتبني في ذلك قط[1].

• قال: والله ما سفكت دماً حراماً منذ ولّيت الخلافة إلا بحقه.

• قال للقاضي إسماعيل بن إسحاق القاضي: أيها القاضي، والله ما حللت سراويلي على حرام قطّ.

• ترك من الأولاد الذكور: علي المكتفي، وجعفر المقتدر، ومحمد القاهر بالله، وهارون. وترك من البنات إحدى عشرة بنتاً. وترك في بيت المال سبعة عشر ألف ألف دينار.

الملاحظة:

لقد استطاع المعتضد بقوته وحزمه وشجاعته وبأسه أن يُوطّد الأمن وأن يقمع الفتن فعاش الناس في هناءٍ وسعادةٍ يتهيّبون الخليفة ويحذرون نقمته غير أنه في

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

الوقت نفسه استطاع المتلوّنون أن يُدخلوا بعض الشوائب عند بعض العامة بما صاغوه من زورٍ ومن كذبٍ، وبما ادّعوه عن فكرة المهدي، وبما حمّلوه من صفاتٍ خارجةٍ عن طاقاتٍ البشر بما يملكونه من مكرٍ وخبثٍ، واستعانوا بأبناء ميمون القداح بن ديصان اليهودي، وكان التعاون بين أبناء مهرويه بقايا المجوس وبين أحفاد ديصان، وإن كان كلا الجانبين قد أظهر الإسلام وأبدى الالتزام به كما استغلّ هذا التحالف العدواني للإسلام عواطف بعض العامة بمحبتهم لآل بيت رسول الله ﷺ، فيزعمون نسباً لمن يدّعون أنهم أئمة أو مهديون يصل إلى آل بيت رسول الله ﷺ، ويُعطونهم صفاتٍ خاصةً، وإمكاناتٍ خارقةً وطاقاتٍ فوق طاقات البشر.

وصحيح أن التحالف لا يستمرّ لأنّ لكل طرفٍ مرامي بعيدةً خاصةً به يسعى إليها ويعمل جاهداً لها، وإن كان هدم ما بناه المسلمون عاملاً مشتركاً، فإن تهدّم ما بُني وضعُف الكيان وتصدّع أمكن للمخربين إزالة ما كان صرحاً شامخاً وإقامة بيوتٍ للنار مكانه أو موضعاً للعجل محلّه وكل للذي يُعنى به ساعٍ، ولكن الله يفعل ما يشاء، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

هذا يخطط ماكراً وذاك يمكر مخططاً، وكلاهما يستغلّ المغفّلين بخبثٍ يُحرّكونهم بالعاطفة، ويدّعون أنهم معهم، وأنهم يُرشدونهم إلى الهدى، غير أنهم يسيرون بهم إلى الغيّ ويحملونهم إلى الضلال، ويبغون أن يركبوهم ليصلوا بهم إلى ما تهوى الأنفس.

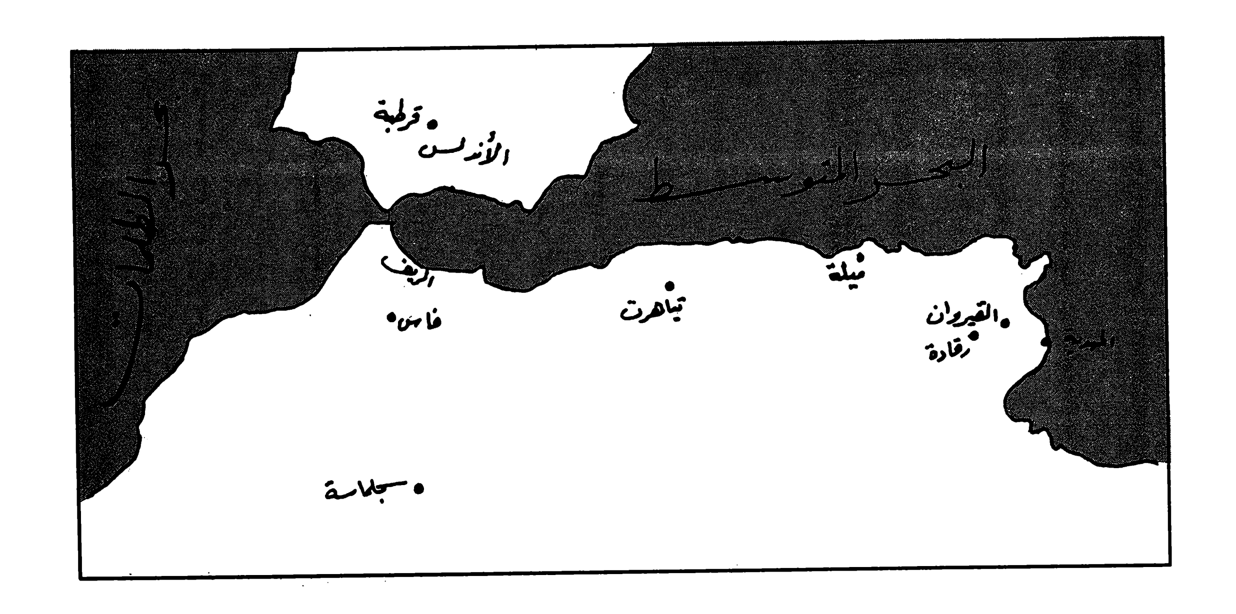
قد حصل أحفاد ديصان على النجاح الموقت إذ حصل عبيد الله المهدي على الغلبة في المغرب ثم أسّس الدولة العبيدية (الفاطمية)، وبعدها انتقلت إلى مصر، وامتدت وشملت أرجاء واسعةً، ودامت عدة قرون (٢٩٧ ـ ٥٦٧). وهو كما نعلم عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان. وكان العلماء في مصر يتحدّونهم إظهار نسبهم، ويلقون لهم الرسائل، ثم غدت هذه الدولة تراثاً للخلف فأخذ الثناء عليها دوره ـ مع الأسف ـ عصبيةً وجهلاً.

ولم يحصل أبناء مهرويه على النجاح الذي حققه أحفاد ديصان غير أنهم أفسدوا مثلهم في الفكر، ورسخت بعض المفهومات الخاطئة في الأذهان إلى اليوم وربما وصلت إلى مرحلة الضلال كتلك التي نسبوها لمن سمّوهم الأئمة، أو التي طعنوا بها من صُوّروا لهم أنهم أعداؤهم من صحابة رسول الله ﷺ.

إذن حصل أحفاد ديصان ومن يرتبط معهم بالعقيدة كأتباع محمد بن نصير، ومن يلتقي معهم بالهدم وعداوة الإسلام كأبناء مهرويه، حقّق هؤلاء جميعاً تشويهاً وإفساداً وتجزئةً وافتراقاً. أما الذين مشوا وراءهم عاطفةً فقد كانوا يُداسون بالأرجل أثناء الطريق، وكان وقود الحربْ إذا اشتْعلت، إضافةً إلى ما حملوا في عقولهم ما قدّمه لهم أحفاد ديصان وأبناء مهرويه ورسخ في أذهانهم مع الزمن وتشرّبته قلوبهم، وربما ضلّ بعضهم وذلك هو الخسران المبين فنرجو الهداية لنا ولهم.

وهذا نتاج جهود المتلوّنين والقداحيين للعمل ضد الإسلام في هذه المرحلة.





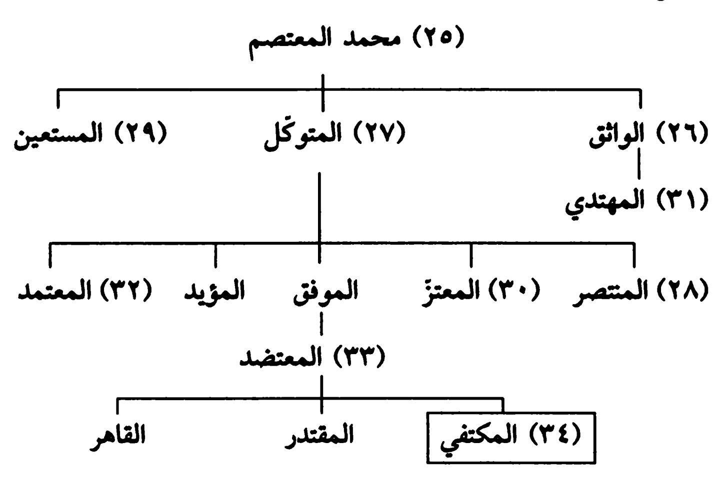
بحر الظلمات
قرطبة
الأندلس
البحر المتوسط
الريف
فاس
تياهرت
ميلة
القيروان
رقادة
المهدية
سجلماسة

الفَصل السَّابع

٣٤ - المكتفي بالله

٢٨٩ - ٢٩٥هـ

المكتفي بالله هو أبو محمد علي بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفّق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



المكتفي بالله قبل الخلافة:

ولد المكتفي في غرّة شهر ربيع الثاني سنة أربعٍ وستين ومائتين، وأمه أم ولدٍ تركية اسمها «جيجك»، ويضرب بحسنها المثل.

استخلف أبوه سنة تسعٍ وسبعين ومائتين فكان عمر المكتفي يومذاك خمس عشرة سنةً، ولم يُعرف عنه شيء حتى بويع بالخلافة وذلك لأن شخصية أبيه المعتضد لم تدع له مجالاً للظهور أو للحديث عنه.

عهد إليه أبوه بالخلافة فبويع أثناء مرض أبيه يوم الجمعة بعد العصر لإحدى عشرة بقيت من ربيع الثاني سنة تسعٍ وثمانين ومائتين.

توفي أبوه المعتضد بالله يوم الاثنين لثمانٍ بقين مع ربيع الثاني سنة تسعٍ وثمانين ومائتين، وكان المكتفي يومها بالرقة، فقام له بالبيعة الوزير القاسم بن عبيد الله أبو الحسن، وضبط له ما خلّف أبوه في بيوت المال، وقسّم العطاء بين الجند، وكتب إلى المكتفي، فقدم بغداد منحدراً في سُمَيْرية (سفينة نهرية)، فوافى بغداد في السابع من جمادى الأولى من السنة نفسها، أي بعد وفاة المعتضد بخمسة عشر يوماً، وكان يوماً مشهوداً.

خلافة المكتفي:

دخل المكتفي داره بالحسنيّ في بغداد يوم الثلاثاء الثامن من جمادى الأولى، فلما صار إلى منزله أمر بهدم المطامير التي كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم، وصيّرها مساجد، وردّ أملاك الناس إليهم، وكان أبوه قد أخذها لبناء قصرٍ، وأحسن السيرة، فأحبّه الناس، ودعوا له.

قتال الروم:

بقي القتال على جبهة الروم ضعيفاً لا يتعدّى إثبات الوجود وإبداء شيءٍ من القوة.

ولي القاسم بن سيما سنة ٢٨٩هـ غزو الصائفة بالثغور الجزرية، وأُطلق له ما يحتاج إليه من المال. أغار الروم على ثغر «الحَدَث» في شعبان سنة ٢٩١هـ.

غزا غلام زُرافة الروم، وفتح مدينة «أنطاكية» في شهر رمضان سنة ٢٩١هـ.

أغار الروم في مطلع سنة ٢٩٢هـ على ثغر «مرعش» فنفر أهل «المصيصة» وأهل «طرسوس» وردّوا عدوان الروم.

جرت مفاداة بين المسلمين والروم في شهر ذي القعدة سنة ٢٩٢هـ.

هاجم الروم ديار الإسلام سنة ٢٩٣هـ.

غزا ابن كيغلغ الروم من طرسوس فغنم، وأسر، وسبى أربعة آلاف نفسٍ، وأصاب دواب، ومواشي كثيرةً، ومتاعاً، وطلب بطريق من البطارقة الأمان، فحصل عليه، ثم أسلم، وذلك في مطلع سنة ٢٩٤هـ.

وكاتب البطريق «أندرونقس» السلطان يطلب الأمان، وكان على حرب أهل الثغور من قبل صاحب الروم، فأُعطي ذلك، فخرج، وأخرج نحواً من مائتي رجلٍ من المسلمين كانوا أسرى في حصنه. وكان صاحب الروم قد وجّه إليه من يقبض عليه بإمرة أحد البطارقة، غير أن «أندرونقس» قد أعطى السلاح للمسلمين الذين كانوا في حصنه أسرى، وأخرج معهم بعض بنيه، فكبسوا البطريق الموجّه إليه للقبض عليه ليلاً، فقتلوا ممن معه خلقاً كثيراً، وغنموا ما في عسكره. وكان رستم قد خرج في أهل الثغور المسلمين في جمادى الأولى قاصداً «أندرونقس» لينقذه، فوصل إلى مدينة «قونية» بعد الوقعة، وعلم البطارقة بمسير المسلمين إليهم فانصرفوا، ووجّه «أندرونقس» ابنه إلى رستم، ووجّه رستم كاتبه وجماعةً من البحارة، فباتوا في الحصن، فلما أصبحوا خرج «أندرونقس» ومن معه

من أسارى المسلمين، ومن صار إليهم منهم، ومن وافقه على رأيه من النصارى، وأخرج ماله ومتاعه إلى معسكر المسلمين، وخرّب المسلمون قونية، ثم قفلوا راجعين إلى طرسوس وأندرونقس وأسارى المسلمين، ومن مع أندرونقس من النصارى.

وافى رسل ملك الروم بكتاب منه إلى الخليفة المكتفي يسأله الفداء بمن في بلاده من المسلمين من في بلاد الإسلام من الروم، وأن يُوجّه الخليفة المكتفي رسولاً إلى بلاد الروم ليجمع الأسرى من المسلمين الذين في بلاده، وليجتمع هو معه على أمرٍ يتفقان عليه، ويتخلّف «بسيل» الخادم في طرسوس ليجتمع إليه الأسرى من الروم في الثغور ليأخذهم مع صاحب السلطان إلى موضع الفداء. وأقام رسل ملك الروم باب الشماسية مدخل بغداد، ثم أُدخلوا بغداد ومعهم هدية من ملك الروم عشرة من أسارى المسلمين، فقُبلت منهم، وأُجيب صاحب الروم إلى ما سأل. وتمّ الفداء في شهر ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ. وكان عدد من فودي من الرجال والنساء ثلاثمائة ألف نفسٍ من الطرفين.

الحركات:

نشطت القرامطة في غربي ديار الخلافة، فشُغل

ذلك السلطان، ووجدت فوضى في مناطق نشاط القرامطة فتحرّك أصحاب الأطماع، كما برزت المنافسة في بعض الأقاليم رغبةً في السيطرة، وذلك في شرقي ديار الخلافة بعد أن رأوا انصراف السلطان إلى قتال القرامطة.

طبرستان:

أناب صاحب خراسان إسماعيل بن أحمد بن نوح على طبرستان محمد بن هارون بعد أن قتل محمد بن زيد الطالبي، فلم يلبث محمد بن هارون أن خلع الطاعة، وكاتب أهل الريّ محمد بن هارون ليأتي إلى بلدهم، ويتولّى أمرها، وذلك لأن العامل على بلدهم «أوكرتُمُش» التركيّ قد أساء السيرة فيهم، فحاربه، وانتصر محمد بن هارون، وقتل «أوكرتُمُش»، وقتل كذلك ابنين له، وقائداً من قواد السلطان يقال له: «أبرون» وهو أخو «كيغلغ» ودخل محمد بن هارون الريّ، واستولى عليها.

وجرت معركة في شهر شعبان سنة ٢٨٩هـ بين قوات إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان وبين ابن جُسْتان الديلمي بطبرستان، وقد هُزم ابن جُستان.

وسار إسماعيل بن أحمد نحو الريّ فخرج له

محمد بن هارون في ثمانية آلافٍ، وجرت معركة بين الفريقين هُزم فيها محمد بن هارون، واتجه بألفٍ من أصحابه نحو بلاد الديلم مستجيراً، ودخل إسماعيل بن أحمد الريّ، وصار زهاء ألف رجلٍ ممن انهزم من أصحاب محمد بن هارون إلى باب السلطان.

القرامطة:

اتجهت أنظار زكرويه بن مهرويه، وهو في مخبئه، إلى بلاد الشام، إذ رأى ضعف الطولونيين فيها فأرسل ابنه يحيى الذي عُرف بالشيخ غير أنه قُتل على أبواب دمشق سنة ٢٩٠هـ. وبعث زكرويه ابنه الحسين دعماً لأخيه، وقد عُرف الحسين بصاحب الخال، كما تلقّب بالمهدي.

عجز الحسين بن زكرويه عن دخول دمشق، فاتجه إلى حمص بعد طلبه من قبل أهلها، فدخلها، وأطاعه أبناؤها، ثم سار إلى «سلمية» ونكّل بأهلها، وركّز تنكيله على من يسكنها من بني هاشم، وعلى أسرة عبيد الله بن حسين القداحي حيث يعمل كل منهما لنفسه، ويسعى لمراميه الخاصة التي يعمل بها، حسب اختلاف العقيدة.

سار الحسين بن زكرويه إلى حماه، وبعلبك،

والمعرة وعمل القتل في أهل كل بلدةٍ دخلها. وبعث طغج بن جفّ جيشاً من دمشق بقيادة غلام له يُدعى بشير لقتال القرامطة، ووقع القتال بين الطرفين، فهزم القرامطة بشيراً وقتلوه، وذلك في ستٍ من ربيع الثاني سنة ٢٩٠هـ. وكذلك بُعث أبو الأغرّ لقتال القرامطة فتوجّه إلى حلب في عشرة آلاف مقاتل في منتصف رمضان سنة ٢٩٠هـ، وجاء القرامطة فباغتوا بقيادة المطوّق قوات أبي الأغرّ وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأفلت أبو الأغرّ، ومعه حوالي ألف رجلٍ ودخلوا حلب، وصار القرامطة على أبواب حلب فخرج إليهم أبو الأغرّ بمن بقي معه من أصحابه ومعه أهل البلد، ثم انصرف القرامطة بعد أن أخذوا من السلاح والأموال والمتاع الكثير.

مضى الخليفة المكتفي من بغداد بمن معه من الجيش نحو الشام حتى انتهى إلى الرقة، فنزلها، وأخذ يبعث الجيوش إلى القرامطة جيشاً بعد جيشٍ، وذلك في ثلاث عشرة من ذي القعدة سنة ٢٩٠هـ.

وسار بدر الحمامي صاحب ابن طولون من دمشق باتجاه القرامطة فنازلهم، وهزمهم، وأعمل السيف فيهم، وفرّ من أُفلت منهم نحو البادية.

وجّه الخليفة المكتفي في أثر القرامطة الحسين بن حمدان بن حمدون وغيره من القادة، وتولّى الكاتب محمد بن سليمان أمر قتال القرامطة، وبُثت الجيوش بين حمص وحماه. والتقى جند السلطان في معركة مع القرامطة قرب مدينة حماه، وعلى بعد اثني عشر ميلاً منها، وكان الحسين بن زكرويه صاحب الشامة قد قدّم أصحابه وتخلّف عنهم. ولما التقى الجمعان هُزم القرامطة، وقُتل منهم عدد كبير، ووقع بالأسر مثلهم، وتفرّق الباقون في البوادي، وتبعهم أصحاب السلطان. ولما رأى الحسين بن زكرويه ما نزل بأصحابه من الهزيمة حمّل أخاه أبا الفضل مالاً، وطلب منه أن يختفي بالبادية حتى يظهر هو في مكانٍ فعندها يأتي إليه ومعه ما حمّله من مالٍ. وركب هو صاحب الشامة الحسين بن زكرويه وابن عمه عيسى بن مهرويه المسمّى المدثّر، والمطوّق صاحبه وغلام له روميّ، وأخذ دليلاً، وسار يريد الكوفة عرضاً في البرّيّة، حتى انتهى إلى وضعٍ يُعرف بالدالية من أعمال طريق الفرات، فنفذ ما كان معهم من الزاد والعلف، فوجّه من كان معه ليأخذ له ما يحتاجون إليه، فدخل الدالية المعروفة بدالية ابن طوق لشراء حاجةٍ، فأنكروا زيّه، وسئل عن أمره فجمجم، فأُخبر المسؤولون الخبر، فأُتي إليهم، وحملوا

إلى المكتفي بالرقة، وأُدخل صاحب الشامة الرقة يوم الاثنين لأربعٍ بقين من شهر المحرم سنة ٢٩١هـ، ومعه المطوّق والمدثر على جملين. ثم إن الخليفة المكتفي خلّف عساكره مع محمد بن سليمان، وانطلق هو إلى بغداد مع خاصته وغلمانه وخدمه، كما مشى معه القاسم بن عبيد الله، وفي بغداد ضُربت أعناق صاحب الشامة والمدثّر والمطوق وبعض من معهم وصُلبوا، وذلك لسبعٍ بقين من شهر ربيع الأولى سنة ٢٩١هـ، وكان عدد الذين قتلوا يومذاك أربعةً وثلاثين رجلاً.

كان قد استأمن عدد من الأعراب من بني العليص إلى الخليفة وإلى واليه على منطقة الرحبة القاسم بن سيما وذلك بعد هزيمة القرمطي، لكن يبدو أن نفوسهم بقيت مشحونة ضدّ الإسلام وأهله، ومملوءةً برغبات النفس الدنيئة، فقرّروا الغدر بالمسلمين ومباغتة أهل الرحبة صباح عيد الفطر والناس في صلاتهم، فيقتلون، وينهبون، ويحرقون، ثم يولّون الأدبار هاربين في البادية، ومختفين ناكثين بعهد الأمان، فانتبه القاسم بن سيما إليهم، ومكر بهم، فوقعوا في الفخّ، فقتل منهم وأسر مائةً وخمسين سوى من غرق بنهر الفرات، وحَمل الأسرى منهم إلى بغداد.

وظهر على طريق الفرات أخ لحسين بن زكرويه واجتمع حوله اللصوص والسوقة، واتجه نحو دمشق، وعاث الفساد في كل طريقٍ سلكها، ووصل إلى ضواحي دمشق في شهر جمادى الأولى سنة ٢٩٣هـ، ثم انحرف عنها، واتجه إلى طبرية ودخلها بعد حربٍ، وقتل أكثر أهلها، وعامل الشام يومذاك أحمد بن كيغلغ، وهو في مصر يقاتل إبراهيم الخليجي.

بعد أن قُتل ابنا زكرويه يحيى والحسين بعث زكرويه رجلاً يُعلّم الصبيان بقرية تدعى «الزابوقة» من أعمال الفلّوجة على نهر الفرات إلى الغرب من بغداد، ويُسمّى هذا الرجل عبد الله بن سعيد، ويكنى أبا غانم، فتسمّى نصراً ليُخفي أمره، فدار على أحياء بني كلبٍ يدعوهم إلى رأيه، فلم يقبله منهم أحد سوى رجلٍ من بني زياد، يُدعى «المقدام بن كيال» غير أن أبا غانم استهوى طوائف من الأصبغيين المنتمين إلى الفواطم، وسواقط من بني العليص، وصعاليك من سائر بطون كلب، وقصد ناحية الشام، وعامل السلطان على الشام أحمد بن كيغلغ في مصر يقاتل إبراهيم الخليجي، فانتهز أبا غانم الفرصة وسار إلى مدينتي بُصرى، وأذرعات (درعا) فحارب أهلها، ثم آمنهم، فلما استسلموا قتل

مقاتليهم، وسبى ذراريهم، واستصفى أموالهم، ثم سار يؤمّ دمشق، فخرج إليه صالح بن الفضل نائب أحمد بن كيغلغ، فظهروا عليهم، وأثخنوا فيهم، ثم أغروهم ببذل الأمان لهم، فقتلوا صالح بن الفضل، وفضّوا عسكره، ولم يطمعوا في مدينة دمشق، وكانوا قد صاروا إليها، فدافعهم أهلها عنها، فقصدوا طبرية مدينة جند الأردن، فقاتلهم إبراهيم بن بغامردي عامل أحمد بن كيغلغ على الأردن، فكسروه، وبذلوا الأمان له، ثم غدروا به، فقتلوه ونهبوا طبرية، وسبوا النساء، وقتلوا طائفةً من أهلها. فبعث لهم الخليفة الحسين بن حمدان مع عددٍ من القادة، فلما وصل الخبر إلى القرامطة بطلبهم اتجهوا نحو الشرق وساروا إلى السماوة على نهر الفرات بين البصرة والكوفة، فتبعهم الحسين بن حمدان يطلبهم في برية السماوة، ثم ترك الحسين متابعتهم لعدم وجود الماء، وعاد إلى الرحبة. وسار القرامطة مع نصر إلى بلدة «هيت» فأغاروا عليها مع شروق الشمس لتسعٍ بقين من شهر شعبان سنة ٢٩٣هـ، فنهبوا ما حولها، وأحرقوا، وقتلوا من استطاعوا قتله، وقد زاد عدد من قتلوه على مائتي إنسانٍ بين رجلٍ وامرأةٍ وصبيّ، وأخذوا ما قدروا عليه من الأموال والمتاع، منها ثلاثة آلاف راحلةٍ، مع كمياتٍ كبيرةٍ من الحبوب، وأقاموا

بها بقية اليوم الذي داهموها والذي بعده ثم رحلوا عنها بعد المغرب إلى البراري، وجاء إلى هيت محمد بن إسحاق بن كُنداجيق في جيشٍ كثيفٍ لقتال القرامطة ثم تبعه بعد أيام مؤنس الخازن.

ولم يكن القرامطة قد دخلوا مدينة «هيت» بل حاصروها، ولم يتمكّنوا من اقتحامها لمناعة سورها الذي احتمى أهلها خلفه، وكل ما حصل عليه القرامطة من نهبٍ إنما كان من ضواحي هيت، ولما عجّل عليهم الخليفة بالجيوش هربوا، ثم كتب الخليفة إلى الحسين بن حمدان بالمسير من جهة الرحبة إليهم ليجتمع هو ومحمد بن إسحاق على الإيقاع بهم، فلما أحسّ الكلبيون من القرامطة بإشراف الجند عليهم رأوا إنقاذ أنفسهم بقتل أبي غانم المسمّى نصراً، فوثبوا عليه وفتكوا به، وتفرّد بقتله رجلٍ منهم يقال له الذئب بن القائم، وانطلق إلى باب السلطان متقرّباً بما كان منه ومستأمناً لقومه، فنال جائزةً، وقد عُرف له ما أتاه، وكُفّ عن طلب قومه، فمكث أياماً ثم هرب.

واقتتلت القرامطة هناك، فصار مقدام بن الكيال إلى ناحية طيءٍ، وصارت فرقة منهم إلى بني أسد المقيمين بنواحي «عين التمر» قرب الأنبار، فجاورهم،

وأرسلوا وفداً إلى السلطان يعتذرون مما كان منهم، ويسألون إقرارهم في جوار بني أسدٍ، فأجيبوا إلى ذلك.

وكتب السلطان إلى الحسين بن حمدان بن حمدون بالعمل على معاودة اجتثاث أصول القرامطة. وكان زكرويه بن مهرويه قد أنفذ لأتباعه رجلاً مقدماً من أهل السواد يُسمّى القاسم بن أحمد بن علي ويعرف بأبي محمد، فأعلمهم أن عمل الذئب بن القائم قد أنفره عنهم، وثقل قلبه عليهم، وأن وقت ظهورهم قد حان. وقد مشى معه أعداد كثيرة من أهل الكوفة. وأمرهم زكرويه أن يخفوا أمرهم، وأن يظهروا السير نحو الشام، وأن يسيروا نحو الكوفة حتى يُصبّحوها غداة يوم النحر، وهو يوم الخميس لعشرٍ تخلو من شهر ذي الحجة سنة ٢٩٣هـ، فإنهم لا يمنعون عنها، وسيظهر لهم، وينجز وعده لهم الذي كانت رسله تأتيهم به، وأن يحملوا القاسم بن أحمد معهم. فامتثلوا أمره، ووافوا الكوفة وقد انصرف الناس عن مصلّاهم مع إسحاق بن عمران عامل السلطان بها، وكان الذين وافوا باب الكوفة منهم ثمانمائة فارسٍ بإمرة الذبلانيّ بن مهرويه، قتلوا عشرين رجلاً ممن لحقوهم من العامة، وبادر الناس إلى الكوفة فدخلوها، وتنادوا السلاح، فنهض إسحاق بن عمران بأصحابه، ودخل مدينة الكوفة من

القرامطة زهاء مائة فارسٍ من الباب المعروف بباب كِندة، فاجتمعت العامة عليهم فقتلوا منهم حوالي عشرين فارساً، وأخرجوا الباقين من المدينة، وخرج إسحاق بن عمران ومن معه من الجند، فالتقوا مع القرامطة، واستمرّ القتال بينهما حتى وقت العصر يوم النحر، ثم انهزم القرامطة نحو القادسية، وأصلح أهل الكوفة سورهم وخندقهم، وقاموا مع أصحاب السلطان يحرسون مدينتهم ليلاً ونهاراً.

وكتب إسحاق بن عمران إلى السلطان يستمدّه، فندب للخروج إليه جماعةً من القواد، وكل واحدٍ منهم على أصحابه دون أن يكون هناك قائد عام للجميع. واستنهض القاسم بن سيما رؤساء الأعراب للوقوف في وجه القرامطةِ وليجتمعوا بديار مضر. وأُرسلت الكتب إلى أصحاب السلطان المتفرّقين في مصر الشام ليحضروا وجاء مدد السلطان لإسحاق بن عمران فخرج في رجاله إلى زكرويه بن مهرويه الذي خرج من مخبئه.

والتقى إسحاق بن عمران برجاله مع زكرويه بن مهرويه بأصحابه يوم الاثنين لتسعٍ بقين من شهر ذي الحجة سنة ٢٩٣هـ على مقربةٍ من القادسية وعلى بعدٍ أربعة أميالٍ منها في مكانٍ يُعرف بـ «الصومر». وبدت

علائم النصر في بداية الأمر إلى جانب المسلمين، غير أن زكرويه كان قد نصب لهم كميناً خلفهم، ولم يشعروا به، فلما انتصف النهار خرج الكمين، ورآه أصحاب السلطان وراءهم فهُزموا أقبح هزيمةٍ، وقُتل منهم أكثر من ألف وخمسمائة رجلٍ، وقوي أمر زكرويه بما أخذ أصحابه في هذه الوقعة وبما أحرزوا من فوزٍ.

قصد زكرويه قوافل الحاج العائدة من الموسم، فاعترض قافلةً يوم الأحد لإحدى عشرة خلت من المحرّم سنة ٢٩٤هـ، فقتل وأصحابه وسبى وأفسد الكثير. وتعرّضوا للقافلة الثانية في اليوم التالي، فقتلوا أكثر حجاجها، وذكر أن عددهم كان عشرين ألفاً، فلم ينجُ منهم إلا اليسير، وذُكر أن ما أخذه القرامطة من هذه القافلة من المال والأمتعة الفاخرة ما قيمته ألفي ألف دينارٍ. ووصل زكرويه إلى «فيد» منتصف الطريق بين مكة والمدينة، وقد عاث في الأرض الفساد نهباً وقتلاً وسبياً وخطفاً، وأكبر جرائمه كانت ما ارتكبه مع قوافل الحجاج إذ نكّل بهم أبشع وأقذر تنكيلٍ.

وفي أول شهر ربيع الأول سنة ٢٩٤هـ أنهض الخليفة المكتفي وصيف بن صوارتكين ومعه جماعة من القواد، فنفذوا من القادسية على طريق خَفَّان، فالتقى

وصيف يوم السبت لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ٢٩٤هـ مع القرمطي زكرويه بن مهرويه، فاقتتلوا يومهم، ثم حجز بينهم الليل، فباتوا يتحارسون، ثم عادوا للقتال، فقتل جيش السلطان منهم مقتلةً عظيمةً، وخلصوا إلى القرمطي زكرويه، فضربه أحد الجند بالسيف على قفاه وهو مولّ ضربةً وصلت إلى دماغه، فأُخذ أسيراً هو وخليفته وجماعةً من خاصّته وأقربائه، فيهم ابنه وكاتبه وزوجته، واحتوى الجند على مافي عسكره، وعاش زكرويه خمسة أيامٍ ثم مات.

وأخذ الأعراب بطريق مكة رجلين يُعرف أحدهما بالحداد والآخر بالمنتقم، وذُكر أن المعروف بالمنتقم منهما هو أخو زوجة زكرويه، فدفعوهما إلى نزار عامل السلطان بالكوفة، فوجههما نزار إلى السلطان، وذُكر عن الأعراب أنهما جاءا يدعوانهم إلى الخروج على السلطان.

اجتمع أعراب من كليب والنمر وأسد وغيرهم على الحسين بن حمدان بن حمدون وذلك في شهر رمضان سنة ٢٩٤هـ، فهزموه حتى وصل إلى باب حلب.

وحاصر أعراب طيءٍ أمير الموسم وصيف بن

صوارتكين بـ «فيد» مدة ثلاثة أيامٍ، ثم خرج إليهم فقاتلهم فقتل منهم عدداً فانهزموا، ورحل وصيف من «فيد» بمن معه من الحاج. وبعث السلطان إلى هؤلاء الأعراب الحسين بن موسى فقتل من رجالهم سبعين رجلاً وأسر جماعةً.

مصر:

بعث الخليفة المكتفي إلى مصر محمد بن سليمان لقتال هارون بن خمارويه وإنهاء أمر بني طولون، فوصل محمد بن سليمان إلى حدود مصر في شهر المحرم سنة ٢٩٢هـ. كما وجّه الخليفة المكتفي إلى مصر دميانة غلام يازمان، وأمره بركوب البحر والمضي إلى مصر ودخول النيل، وقطع المواد الغذائية عمن بمصر من الجند، فمضى ودخل النيل حتى وصل إلى الجسر، فأقام به، وضيّق عليهم، وزحف محمد بن سليمان إليهم بالجيوش حتى دنا من الفسطاط، وكاتب القواد الذين بها، فكان أول من خرج إليه بدر الحمامي، وكان رئيس القوم فأضعف ذلك من معنويات المصريين، ثم تتابع من يستأمن إليه من قواد المصريين، فلما بلغ هارون بن خمارويه ذلك وبقية من معه زحفوا إلى محمد بن سليمان، فكانت بينهم معارك، وقُتل هارون، وبلغ

محمد بن سليمان الخبر، فدخل بأصحابه الفسطاط، واحتوى على دور آل طولون، وأخذهم جميعاً، وهم بضعة عشر رجلاً، فقيّدهم وسجنهم، واستصفى أموالهم، وكتب إلى الخليفة بذلك، وكانت المعارك بينهم في شهر صفر سنة ٢٩٢هـ.

وكتب السلطان إلى محمد بن سليمان في إرسال جميع آل طولون وقادتهم إلى بغداد وألا يترك أحداً منهم بمصر ولا بالشام، ففعل ذلك.

تخلّف أحد قادة الطولونيين المعروف بالخليجي ويسمّى إبراهيم عن محمد بن سليمان في آخر حدود مصر مع جماعةٍ استمالهم من الجند وغيرهم، ومضى إلى مصر مخالفاً للسلطان، وانضمّ إليه في طريقه جماعة تُحبّ الفتنة حتى كثر أتباعه، فلما وصل إلى مصر أراد عيسى النوشري العامل الذي أُنيب على مصر أراد محاربته لكنه عجز عن ذلك لكثرة أتباع الخليجي، فانحاز عيسى عنه إلى الاسكندرية وأخلى الفسطاط فدخلها الخليجي.

وندب السلطان لمحاربة الخليجي وإصلاح أمر المغرب فاتكاً مولى المعتضد وضمّ إليه بدر الحمامي وجعله مشيراً عليه فيما يعمل، وضمّ إليه جماعةً من

القواد وجنداً كثيراً، وأُمرا بسرعة الخروج، فخرج فاتك وبدر الحمامي من بغداد لاثنتي عشرة خلت من شوال سنة ٢٩٢هـ.

وكان قد التقى الخليجي وأحمد بن كيغلغ بمعركةٍ بالقرب من العريش، فانتصر الخليجي وهُزم أحمد بن كيغلغ أبشع هزيمةٍ، فنُدب للخروج إلى مصر جماعة من القواد في بغداد بينهم إبراهيم بن كيغلغ مدداً لمن كان قد خرج مع فاتك وبدر الحماميّ.

التقى الخليجي مع جيوش السلطان، وكانت معارك كثيرة وكان آخرها هزيمة الخليجي وقتل أكثر أصحابه، وانهزم الباقون، فظفر بهم جند الخليفة، واحتووا على معسكرهم، وهرب الخليجي حتى دخل الفسطاط، واختبأ عند رجلٍ من أهل البلد، ودخل فاتك وأصحابه الفسطاط فلما استقرّوا بها دُلّ على الخليجي، وعلى من اختبأ من أتباعه فقُبض عليهم وسُجنوا، ثم حُملوا إلى بغداد، فأُدخلوا إليها في النصف من شهر رمضان سنة ٢٩٣هـ، فأمر الخليفة المكتفي بسجنهم مُكبّلين، وعادت مصر إلى الخلافة العباسية، وحكمها الإخشيديون حتى سنة ٣٥٧هـ، حيث جاء العبيديون بعد وفاة كافور الإخشيدي.

المغرب:

نشطت دعوة أبي عبد الله الشيعي في المغرب، وأصبحت ذات قوةٍ، وكذلك وصل عبيد الله المهدي سليل ميمون القداح بن ديصان إلى مدينة سجلماسة بالمغرب، غير أن إمام الخوارج الصفرية اليسع بن ميمون بن مدرار قد سجنه عندما عرفه بعد أن أرسل له زيادة الله الأغلبي يعلمه بضيفه، وبقي سجيناً حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعي من سجنه سنة ٢٩٦هـ.

وكانت إمارات الأغالبة والأدارسة والخوارج الإباضية والصفرية في ضعفٍ وتراجعٍ لصالح ما يحمله أبو عبد الله الشيعي.

شخصية المكتفي:

كان معتدل القامة، دُرّيّ اللون، أسود الشعر، حسن اللحية. وكان يُضرب بحسنه المثل في زمانه. كان قوي الشخصية لكن اشتدّت عليه أمور الحكم بنشاط القرامطة ومكر المتلوّنين.

توفي شاباً وعمره إحدى وثلاثون سنةً.

وخلّف من الأولاد: محمداً، وجعفراً، والفضل، وعبد الله، وعبد الملك، وعبد الصمد، وموسى، وعيسى، وهارون، والعباس.

كان وزيره القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب[١] فمات في شهر ذي القعدة سنة ٢٩١هـ، فاستوزر العباس بن الحسن[٢] وكان على شرطته مؤنس[٣] والواثقي، ثم سوسن مولاه وحاجبه، وعلى قضاء بغداد يوسف بن يعقوب القاضي، وابنه محمد،

---

(١) القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي، ولد سنة ٢٥٨هـ، وزير من الكتاب الشعراء له غزل رقيق استوزره الخليفة المعتضد سنة ٢٨٨هـ بعد أبيه عبيد الله، ولما مات المعتضد سنة ٢٨٩هـ قام العباس بأعباء الخلافة، وعقد البيعة للمكتفي في غيبته بالرقة، ووزر له، وتزّوج ابنه محمد بنتاً للمكتفي، ولقّب القاسم بولي الدولة، وعظمت مكانته، وتوفي سنة ٢٩١هـ.

(٢) العباس بن الحسن بن أيوب الجرجرائي أو المادراني، أبو أحمد: ولد سنة ٢٤٧هـ، كان أديباً بليغاً، وكان القاسم بن عبيد الله يعجب من سرعة قلمه، ويقول: تسبق يده لفظي، ولما مات المكتفي قام العباس بالبيعة للمقتدر، وقام بأعمال الدولة إلى أن قتله الحسين بن حمدان بن حمدون من رجال ابن المعتزّ غيلةً سنة ٢٩٦هـ.

(٣) مؤنس الخادم الملقب بالمظفر المعتضدي ولد سنة ٢٣١هـ، ومع أنه أحد الخدام الذين بلغوا رتبة الملوك. كان من خدم الخليفة المعتضد، وكان أبيض، فارساً شجاعاً من الساسة الدهاة، بقي ستين سنةً أميراً، وندب لحرب العبيديين، وولي دمشق للمقتدر، ثم حاربه، وقُتل المقتدر وخلفه أخوه القاهر بالله، فلما تمكّن القاهر قتله سنة ٣٢١هـ.

وأبو خازم عبد الحميد، وعبد الله بن علي بن أبي الشوارب بعد أبي خازم.

قال المكتفي في عِلّته التي مات بها: والله ما آسى إلا على سبعمائة ألف دينارٍ صرفتها في أبنيةٍ ما احتجت إليها، وكنت مستغنياً عنها، أخاف أن أُسأل عنها، وإني استغفر الله منها.

وفاة المكتفي:

توفي المكتفي لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ، وبذا يكون قد توفي شاباً فلا يزيد عمره على إحدى وثلاثين سنةً وسبعة أشهرٍ واثني عشر يوماً. وتكون خلافته ست سنواتٍ وستة أشهرٍ وتسعة عشر يوماً.

الملاحظة:

نجح تخطيط المتلوّنين إذ توقّف الخلاف بين أبناء الأسرة العباسية على الخلافة، وحدث تشويه في العقيدة وقد يصل إلى التهديم تحت عنوان محبة آل بيت رسول الله ﷺ، وادعاء بعضهم الانتماء إليهم، إذ زعم هذا الانتماء بعض المجوس منهم زكرويه بن مهرويه وأبناؤه، والحسن بن بهرام (أبو سعيد الجنّابي) وأبناؤه،

وشارك اليهود في هذا الزعم بالانتماء منهم ميمون القداح بن ديصان وأبناؤه العبيديون، ومحمد بن نصير وأتباعه و. . . وتبعهم العوام بالعاطفة فكانوا هم وقود المعارك، وكان الأدعياء للتشويه والتهديم إضافةً إلى المكر والتخطيط يختفون ويظهرون يدّعون المعجزات والآيات. وكان القرامطة، وكان العبيديون، وكان أتباع ابن نصير، وكانت حركات تنادي بـ «الرضا» من آل محمد، وتجد التأييد والعاطفة ولكن تحت هذا اللواء المرفوع والشعار المطروح مكر مخبوء وسمّ مدسوس فالأقوال مغطّاة، والمناداة مقنّعة، والأفكار تقية مخترعة غير مسبوقةٍ إلا من الذين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.

والفكرة خاطئة من الأساس باطلة من الجذور، فالصلة بالإيمان، والقرابة بالتقوى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش

(١) سورة هود: ٤٥ ـ ٤٦.

اشتروا لأنفسكم لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً»[1].

وهذا يدل على أنه ليس للقرابة دور ولكن المغرضين أعلنوا هذا الموضوع ونادوا به في محاولةٍ للتشويه برفع فئةٍ من عوام المسلمين له والسير وراءه وانضمام آخرين عاطفةً إضافةً إلى أصحاب الأهواء وذوي الأهداف التخريبية، وهم المحرّكون للموضوع أصلاً والمستغلّون له والمستفيدون من عواطف العامة.

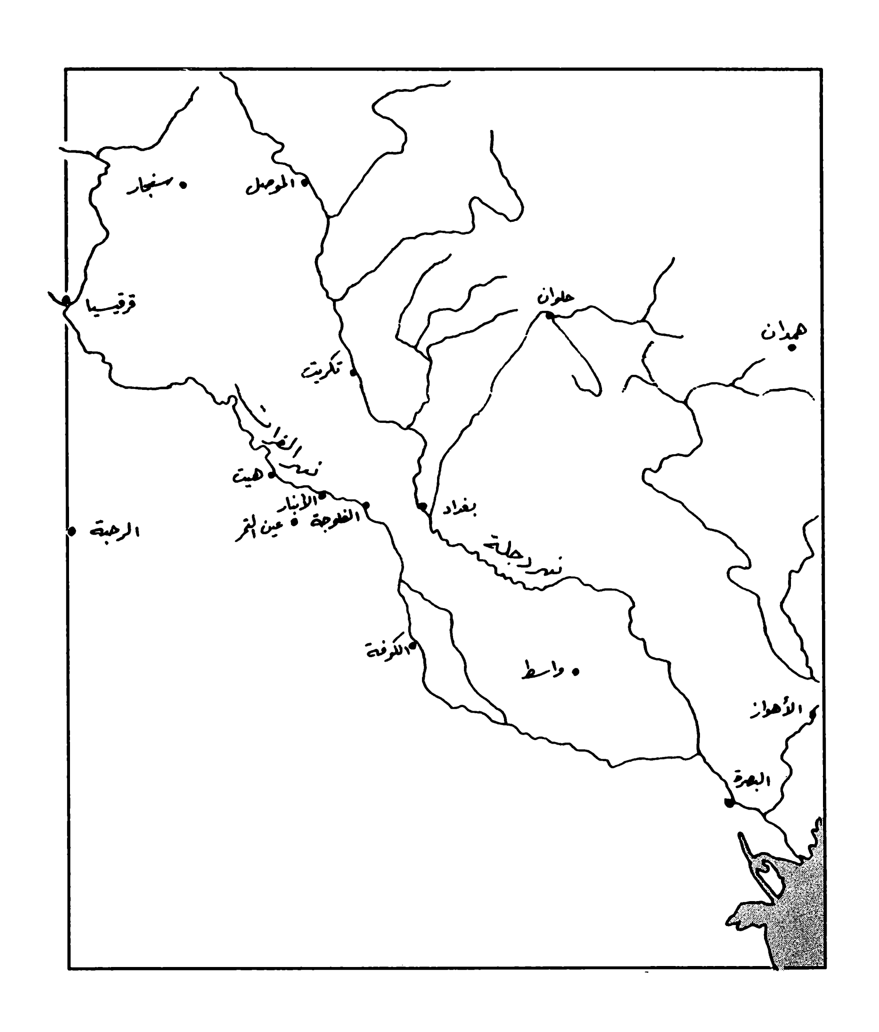
نشط القرامطة في تلك المرحلة، وعملوا على تأدية دورهم في بثّ السموم والتشويه والإفساد حتى قُضِي عليهم فانقرضوا، وبقيت لهم جذور، فيوجد اليوم من يفخر بهم من أهل الضلال. ورسخت أقدام العبيديين حيناً من الدهر حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ سنة ٥٦٧هـ، وبقيت بدع مما

(١) متفق عليه.

أوجدوا، وأفكار مكرٍ مما دسّوا وصاغوا، والتحف أتباع ابن نصير بغطاء الضعف حتى تواتيهم فرصة رفع الغطاء فيُؤدّوا دوراً. فادعاء النسب واستحلال الفرج والمال هي وسائل تلك الجماعات.

واستطاعت هذه الفرق إضعاف الخلافة بتشتيت قوتها وبثّ السموم في جسمها وأفكار أبنائها، وكان الأعداء ينتظرون زيادةً في انحلالها للانقضاض عليها لذا لم يقوموا بهجماتٍ قويةٍ عليها يُعيد إليها راية الجهاد بل كانت غارات إثبات وجودٍ. إذن كان ضعف الخلافة من الداخل وليس من ضربات الأعداء. وهذا كله ثمرة مكر المتلوّنين وعمل الذين غضب الله عليهم.





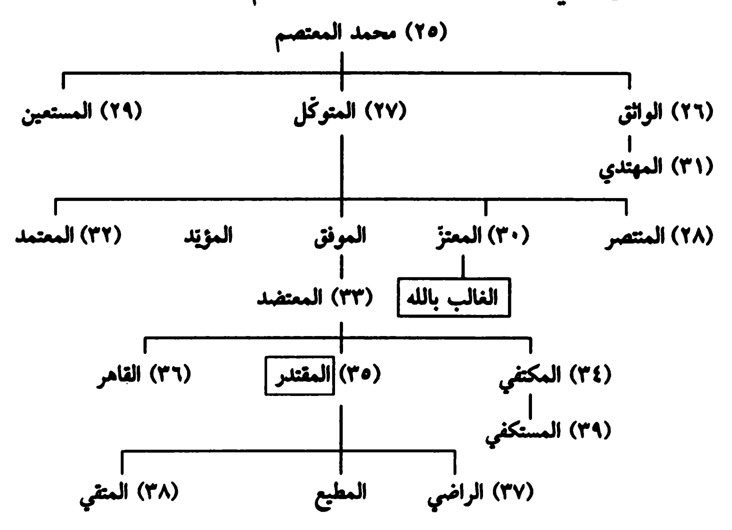
سنجار
الموصل
قرقيسيا
حلوان
همذان
تكريت
نهر الفرات
هيت
الأنبار
الفلوجة
عين التمر
الرحبة
بغداد
نهر دجلة
الكوفة
واسط
الأهواز
البصرة

الفصل الثامن

٣٥ - المقتدر بالله

٢٩٥ - ٣٢٠هـ

المقتدر بالله هو أبو الفضل جعفر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



المقتدر بالله قبل الخلافة:

ولد جعفر المقتدر يوم الجمعة لثمانٍ بقين من شهر رمضان من سنة اثنتين وثمانين ومائتين، فكان عمره يوم وفاة أخيه علي المكتفي ثلاث عشرة سنةً، وأمه أم ولد تركية يقال لها: «شغب» ويقال: «غريب».

ولما اشتدّت عِلّة أخيه المكتفي سأل عنه، فصحّ عنده أنه احتلم أي نضجّ وأصبح مكلّفاً فعهد إليه بالخلافة، ولم يكن قد عهد لأحدٍ قبل ذلك.

وتوفي المكتفي لاثنتي عشرة خلت من شهر ذي القعدة من سنة خمسٍ وتسعين ومائتين، فبويع جعفر بن المعتضد بالخلافة بعد أخيه، ولم يلِ الخلافة أصغر منه، فإنه وليها وله ثلاث عشرة سنةً. ولُقّب المقتدر بالله.

خلافة المقتدر بالله:

لما بويع جعفر المقتدر غسّل أخاه المكتفي، وصلّى عليه، ودفنه في موضعٍ من دار محمد بن عبد الله بن طاهر. ولما بويع استصغره الوزير العباس بن الحسن فتحدّث مع الآخرين من أصحاب الكلمة والنفوذ، وتمّ اجتماع جماعةٍ منهم من كُتّابٍ وقوادٍ

وقضاةٍ، واتفق رأيهم على خلع المقتدر، ثم تناظروا فيمن يستخلفونه مكانه، وكان اجتماعهم في مطلع سنة ستّ وتسعين ومائتين، فاجتمع رأيهم على أن يكون خليفته هو عبد الله بن محمد المعتزّ بن جعفر المتوكل[1]، وناظروه في ذلك فأجابهم إلى ذلك على ألا يكون في ذلك سفك دمٍ ولا حرب، فأخبروه أن الأمر يسلّم عفواً، وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكتّاب قد رضوا به. فبايعهم على ذلك. فبلغ المقتدر ذلك، فأصلح حال الوزير ابن الحسن، ودفع إليه أموالاً أرضته، فرجع عن ذلك، وأما الباقون فإنهم ركبوا إليه في العشرين من ربيع الأول سنة ستّ وتسعين ومائتين والمقتدر يلعب الأكرة، فهرب ودخل، وأُغلقت الأبواب. وكان الرأس في ذلك محمد بن داود بن

---

(١) عبد الله بن محمد المعتزّ بالله بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد: ولد سنة ٢٤٧هـ وهي السنة التي قُتل فيها جده جعفر المتوكل، فكان عمره يوم اتفقوا على استخلافه ثمانيةً وأربعين سنةً، وهو أبو العباس، الشاعر، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء العرب ويأخذ عنهم، وصنّف كتباً، ومنها: الزهر والرياض، والبديع، والآداب، والجوارح والصيد، وحلي الأخبار، وأشعار الملوك، وطبقات الشعراء.

الجراح وأبو المثنى أحمد بن يعقوب القاضي، وواطأ محمد بن داود بن الجراح جماعةً من القواد على الفتك بالمقتدر والبيعة لعبد الله بن المعتزّ، وكان العباس بن الحسن على مثل رأيهم، فلما رأى العباس أمره مستوثقاً له مع المقتدر بدا له غير ما كان عزم عليه من ذلك، فحينئذٍ وثب به الآخرون فقتلوه، وكان الذي تولّى قتله بدر الأعجميّ، والحسين بن حمدان بن حمدون، ووصيف بن صوارتكين، وذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلةً بقيت من شهر ربيع الأول، كما قُتل جماعة مع الوزير، وأرسل إلى ابن المعتزّ فجاء، وحضر القواد والقضاة والأعيان، وبايعوه بالخلافة، ولقّبوه «الغالب بالله»، فاستوزر محمد بن داود بن الجراح، واستقضى أبا المثنى أحمد بن يعقوب، ونفذت الكتب بخلافة ابن المعتزّ.

وبعث ابن المعتزّ إلى المقتدر يأمره بالانصراف إلى دار محمد بن طاهر لكي ينتقل ابن المعتز إلى دار الخلافة، فأجاب، ولم يكن قد بقي معه إلا جماعة يسيرة، فقالوا: يا قوم نُسلّم هذا الأمر ولا نجرّب نفوسنا في دفع ما نزل بنا، فلبسوا السلاح، وقصدوا المحزم وبه ابن المعتزّ، فلما رآهم من حوله ألقى الله

في قلوبهم الرعب، فانصرفوا منهزمين دون قتالٍ، وهرب ابن المعتز ووزيره محمد بن داود بن الجراح وقاضيه أحمد بن يعقوب، ووقع القتل والنهب في بغداد. وقبض المقتدر على القضاة والقواد والكتّاب الذين خلعوه، وسُلّموا إلى مؤنس الخازن فقتلهم إلا أربعةً سلموا من القتل منهم القاضي أبو عمر، وحُبس ابن المعتزّ، ثم أخرج فيما بعد ميتاً، واستقام الأمر للمقتدر، فاستوزر أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات، فسار سيراً حسناً، وكشف المظالم، وحضّ المقتدر على العدل، ففوّض المقتدر إليه الأمور كلها لصغره، واشتغل هو باللهو واللعب، والإنفاق من الخزائن.

خروج مؤنس الخازن:

بلغ مؤنس الخازن سنة سبع عشرة وثلاثمائة أن الخليفة المقتدر يريد أن يُسلّم الإمرة مكانه إلى هارون بن غريب، فصعب عليه الأمر لما كان له من مكانةٍ، وكان يُعرف باسم «المظفّر» لذا خرج عليه لاستعادة مكانه وتثبيت أقدامه، وركب معه سائر الجيش والأمراء والجنود، وجاءوا إلى دار الخلافة، فهربت خواص المقتدر، وأُخرج المقتدر بعد العشاء من داره وذلك ليلة

أربع عشرة من شهر المحرم سنة سبع عشرة وثلاثمائةٍ، وأُخرج معه أمه، وخالته، وحرمه، ونُهب بيت أمه، وأُشهد عليه بالخلع. وأُحضر أخوه محمد بن المعتضد، وبايعه مؤنس والأمراء، ولقّبوه «القاهر بالله»، وفوّضت الوزارة إلى محمد بن علي بن مقلة[1]، وذلك يوم السبت، وجلس القاهر بالله يوم الأحد، وكتب الوزير عنه إلى البلاد، وعمل الموكب يوم الاثنين، فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة ورزق السنة، ولم يكن مؤنس حاضراً، فارتفعت الأصوات، فقتلوا الحاجب، ومالوا إلى دار مؤنسٍ يطلبون المقتدر ليردّوه إلى دار

---

(١) محمد بن علي بن الحسين بن مقلة، أبو علي: وزير، من الشعراء الأدباء، يضرب بحسن خطه المثل. ولد في بغداد سنة ٢٧٢هـ، وولي جباية الخراج في بعض أعمال فارس، ثم استوزره المقتدر العباسي سنة ٣١٦هـ، ولم يلبث أن غضب عليه فصادره، ونفاه إلى فارس سنة ٣١٨هـ. واستوزره القاهر بالله سنة ٣٢٠هـ، فأُتي به من بلاد فارس، فلم يكد يتولّى الأعمال حتى اتهمه القاهر بالله بالتآمر على قتله فاختبأ سنة ٣٢١هـ واستوزره الراضي بالله سنة ٣٢٢هـ، فسجنه مدةً، وأخلى سبيله، ثم علم أنه كتب إلى أحد الخارجين عليه يُطمعه بدخول بغداد، فقبض عليه، وقطع يده اليمنى، فكان يشدّ القلم على ساعده ويكتب به، فقطع لسانه سنة ٣٢٦هـ وسجنه، ومات في سجنه سنة ٣٢٨هـ.

الخلافة، وكان قد حُبس فيها، فحملوه على أعناقهم من دار مؤنسٍ إلى قصر الخلافة، وأخذ القاهر، فجيء به وهو يبكي، ويقول: الله الله في نفسي فاستدناه المقتدر وقبّله، وقال له: يا أخي أنت والله لا ذنب لك، والله لا ينالك مني سوء أبداً، فطب نفساً. وسكن الناس، وعاد الوزير فكتب إلى الأقاليم بعودة الخليفة إلى خلافته، وبذل المقتدر الأموال في الجند.

وتجدّدت الوحشة بين الخليفة المقتدر بالله وبين المظفر مؤنس، وذلك أن الخليفة ولّى الحسبة لرجلٍ اسمه محمد بن ياقوت، وكان أميراً على الشرطة، فقال مؤنس: إن الحسبة لا يتولّاها إلا القضاة والعدول وهذا لا يصلح لها، ولم يزل بالخليفة حتى عزل محمد بن ياقوت عن الحسبة والشرطة أيضاً، وصلحت الحال بين الخليفة ومؤنس، ثم تجدّدت الوحشة بينهما في ذي الحجة سنة تسع عشرة وثلاثمائةٍ، وذلك أن مؤنساً بلغه أن الوزير الحسين بن القاسم قد وافق جماعةً من القواد في تدبير مؤامرةٍ عليه فتنكّر مؤنس للحسين. وبلغ الحسين أن مؤنساً قد تنكّر له وأنه يريد أن يكبس داره ليلاً، ويقبض عليه، فتنقّل في عدة مواضع، وكان لا يحضر إلى داره إلا بكرةً، ثم إنه انتقل إلى دار

الخلافة. فطلب مؤنس من الخليفة المقتدر عزل الحسين بن القاسم ومصادرته، فأجاب إلى عزله ولم يصادره، وأمر الحسين بلزوم بيته، فلم يقنع مؤنس بذلك، فبقي في وزارته. وذكر الحسين عند الخليفة المقتدر أن مؤنساً يريد أخذ ولده أبي العباس - وهو الراضي - من داره بالمخرم والمسير به إلى الشام والبيعة له، فردّ الخليفة المقتدر الوزير الحسين إلى دار الخلافة. وكتب الحسين إلى هارون بن غريب يستقدمه إلى بغداد، وكذلك كتب إلى محمد بن ياقوت - وهو بالأهواز - يأمره بالإسراع إلى بغداد، وكلاهما خصم لمؤنس، فشعر مؤنس أن الحسين يسعى بالتدبير ضده.

خرج الخادم مؤنس من بغداد في شهر المحرم سنة عشرين وثلاثمائة مغاضباً الخليفة، وخرج بأهله ومماليكه متوجّها نحو الموصل. وفي الطريق أمر مولاه «يسري» بالرجوع إلى بغداد ليسلّم الخليفة المقتدر رسالةً يستوضح أمره ويُعاتبه في أشياء، فلما وصل يسري إلى بغداد، أمر الوزير الحسين بن القاسم يسري أن يسلّمه الرسالة، فامتنع من تسليمها إلا إلى الخليفة، فأحضره الوزير بين يديه وأمره أن يقول له ما في الرسالة فأبى، وقال: ما أمرني بهذا صاحبي، فشتمه الوزير وشتم

صاحبه مؤنساً، وأمر بضربه ومصادرته بثلاثمائة ألف دينارٍ، وأخذ خطه بها، وأمر بنهب داره، ثم أمر الوزير بالقبض على أملاك مؤنس وأملاك من معه، فحصل من ذلك على مالٍ عظيمٍ، وارتفعت مكانة الوزير عند الخليفة، ولقّبه «عميد الدولة»، وضرب اسمه على الدراهم والدنانير، وتمكّن من الأمور جداً، فعزل وولّى وقطع ووصل أياماً يسيرةً، وفرح بنفسه حيناً قليلاً، وأرسل إلى هارون بن غريب في الحال، وإلى محمد بن ياقوت يستحضرهما إلى الحضرة عوضاً عن مؤنس، فصمّم المظفّر مؤنس في سيره فدخل الموصل، وجعل يقول لأمراء الأعراب: إن الخليفة قد ولّاني الموصل وديار ربيعة، فالتفّ حوله خلق كثير منهم، وجعل ينفق فيهم الأموال الجزيلة وله عليهم قبل ذلك أيادٍ سابغة.

وكتب الوزير الحسين بن القاسم إلى آل حمدان - وهم ولاة الموصل وتلك النواحي - يأمرهم بمحاربته، فركبوا إليه في ثلاثين ألفاً، وواجههم مؤنس في مماليكه وخدمه مع ثمانمائة رجلٍ، فهزمهم، ولم يقتل منهم سوى رجلٍ واحدٍ، يقال له: داود، وكان من أشجعهم، وكان مؤنس قد ربّاه وهو صغير، ودخل مؤنس الموصل فقصدته العساكر من كل جانبٍ يدخلون

في طاعته لإحسانه إليهم قبل ذلك، من بغداد والشام ومصر والأعراب، حتى صار في جحافل من الجنود، وأما الوزير الحسين بن القاسم فقد ظهر عجزه فعزله المقتدر في شهر ربيع الثاني من سنة عشرين وثلاثمائةٍ، وولّى مكانه الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات[1]، وكان آخر وزراء المقتدر. وأقام مؤنس بالموصل تسعة شهورٍ، ثم ركب في الجيش قاصداً بغداد ليُطالب المقتدر بأرزاق الجند وإنصافهم، وذلك في شهر شوال سنة عشرين وثلاثمائةٍ.

سار مؤنس ـ وقد بعث بين يديه الطلائع ـ حتى نزل بباب الشماسية ببغداد، وقابله عنده محمد بن ياقوت وهارون بن غريب على كرهٍ منه. وأشير على الخلفية المقتدر أن يستدين من والدته مالاً ينفقه على

---

(١) الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات، أبو الفتح: وزير من الكتاب من أعيان الدولة العباسية، يقال له: ابن جنزابة وهي أمه، وكانت روميةً، استوزره المقتدر بالله سنة ٣٢٠هـ، ثم عُزل عن الوزراة، وولي الخراج بمصر والشام، وأُعيد إلى الوزراة بعد المقتدر، فلم يستقر بها طويلاً لاختلال حالها، وتحكّم الترك والديلم في الدولة، وانصرف في رحلةٍ إلى الشام فتوفي بالرملة سنة ٣٢٧هـ. وهو والد المحدّث وزير الإخشيديين بمصر أبي الفضل بن جعفر بن جنزابة.

الجند، فقال: لم يبق عندها شيء، وعزم الخليفة إلى الهرب إلى واسط، وأن يترك بغداد إلى مؤنس حتى يتراجع أمر الناس ثم يعود إليها، فردّه عن ذلك محمد بن ياقوت، وأشار عليه بمواجهة مؤنس وأصحابه، فإنهم متى رأوا الخليفة هربوا كلهم إليه وتركوا مؤنساً، فركب الخليفة وهو كاره وبين يديه الفقهاء والناس حوله، فوقف على تلٍّ عالٍ بعيدٍ عن المعركة، ونودي في الناس من جاء برأسٍ فله خمسة دنانير، ومن جاء بأسيرٍ فله عشرة دنانير.

ثم بعث إليه أمراؤه يعزمون عليه أن يتقدّم فامتنع من التقدّم إلى محل المعركة، ثم ألحّوا عليه فجاء بعد تمنّع شديدٍ، فما وصل إليهم حتى انهزموا وفرّوا راجعين، ولم يلتفتوا إليه ولا عطفوا عليه، فكان أول من لقيه من أمراء مؤنس عليّ بن بليق، فلما رآه ترجّل وقبّل الأرض بين يديه، وقال: لعن الله من أشار عليك بالخروج في مثل هذا اليوم. ثم وكّل به قوماً من المغاربة البربر، فلما تركهم وإياه شهروا عليه السلاح، فقال لهم: ويلكم أنا الخليفة. فقالوا: قد عرفناك يا...، إنما أنت خليفة... تنادي في جيشك من جاء برأسٍ فله خمسة دنانير؟ وضربه أحدهم بسيفه

على عاتقه فسقط على الأرض، وذبحه آخر، وتركوا جثته، وقد سلبوه كل شيءٍ كان عليه، ثم دُفن في موضعه.

ولما انتهى المغاربة إلى مؤنس ـ ولم يكن حاضراً الوقعة ـ وعلم ما حدث لطم رأس نفسه ووجهه، وقال: ويلكم لم آمركم بهذا، قاتلكم الله، والله لنُقتلنّ كلنا. ثم ركب مؤنس ووقف عند دار الخلافة حتى لا تنهب. وهرب هارون بن غريب وأمثاله إلى المدائن. وكان فعل مؤنس هذا سبباً لطمع ملوك الأطراف بالخلفاء، وضعف أمر الخلفاء جداً إضافةً إلى ما كان عليه المقتدر من التبذير وطاعة النساء.

قتال الروم:

بقي القتال على جبهة الروم كما كان إذ لا يريد الروم شنّ حربٍ واسعةٍ على ديار الإسلام خوفاً من تحرّك المسلمين وإعلان الجهاد، فإذا ما ارتفعت راية الجهاد فلا حظّ للروم ولا لغيرهم من إحراز النصر على المسلمين بل إن الهزيمة ستلحق بهم، وهم على شبه يقينٍ من ذلك وكأنهم يرون فرارهم أمام المسلمين رأي العين، لذا كانوا يكتفون بالقيام ببعض الغارات بين الحين والآخر دلالةً على قيام دولتهم وإمكانية قتالهم إذا

اقتضت الضرورة، كما يقومون ببعض الهجمات أحياناً للسبب نفسه. أما المسلمون فلم تكن أوضاعهم بأفضل حالاً من الروم فمن ناحيةٍ فقد أخلد أكثرهم إلى الدنيا واستمتعوا بطيّباتها وغبّوا من شهواتها، ومن ناحيةٍ ثانية قد أشغلتهم أوضاعهم الداخلية فالمتلوّنون يعملون هدماً والذين غضب الله عليهم يعملون تقويضاً، فشغل القرامطة الخلافة وكذا العبيديون أحفاد ديصان و. . . ومع ذلك فلا بُدّ للمسلمين من أن يقوموا ببعض الغزو لتبقى لهم هيبة في نفوس الأعداء، وليعلم الروم أن الثغور الإسلامية محمية ومشحونة بالمرابطين فلا يطمع الطامعون بها.

في نصف شعبان سنة ٢٩٦هـ أُمر مؤنس الخادم بالتوجّه إلى طرسوس للغزو، فسار في عسكرٍ كثيفٍ وجماعةٍ من القواد. وغزا الصائفة من ثغر ملاطية في آخر سنة ٢٩٦هـ، ومعه أبو الأغرّ السُّلميّ، وقد انتصر على الروم، وأخذ عدداً من الأسرى، وورد الخبر على الخليفة لستّ خلون من المحرم سنة ٢٩٧هـ. وعاد المقتدر فبعث القاسم بن سيما في شوال من سنة ٢٩٧هـ لغزو الصائفة ببلاد الروم في جمعٍ كثيفٍ من الجند، فقام بالغزو في مطلع سنة ٢٩٨هـ.

وغزا الصائفة من جهة طرسوس رستم بن بردوا، وحقّق بعض النصر.

وفي سنة ٣٠١هـ غزا الصائفة حسين بن حمدان بن حمدون من جهة طرسوس، وتمّ له فتح عددٍ من حصون الروم، وقتل عدداً كبيراً من رجالهم.

وبعث السلطان سنة ٣٠٢هـ الوزير علي بن عيسى بن داود[1] في ألفي فارس لغزو الصائفة دعماً لبشر خادم ابن أبي الساج، وهو والي طرسوس من قبل السلطان، فلم يتيسّر لهم غزو الصائفة، فغزوها شاتيةً في أيام بردٍ وثلجٍ، وقد تمّ لهم فتح عددٍ من الحصون،

(١) علي بن عيسى بن داود بن الجراح، أبو الحسن البغدادي الحسني، وزير المقتدر والقاهر، وأحد العلماء في بغداد، فارسي الأصل، نشأ كاتباً كأبيه، وولي مكة واستقدمه المقتدر إلى بغداد سنة ٣٠٠هـ، فولّاه الوزارة، فأصلح الأحوال، وأحسن الإدارة، وحُمدت سيرته، ثم عزله المقتدر سنة ٣٠٤هـ، وحبسه، وأبعده إلى مكة سنة ٣١١هـ ومنها إلى صنعاء، وأذن له بالعودة سنة ٣١٢هـ، وولي فيها الاطلاع على أعمال مصر والشام، فكان يتردّد إليهما، وأعاده المقتدر إلى الوزارة فرجع إلى بغداد سنة ٣١٤هـ، ونقم عليه سنة ٣١٦هـ فعزله وقبض عليه. ثم جعل له النظر في الدواوين سنة ٣١٨هـ، فكانت حياته ملؤها الاضطراب، وتوفي في بغداد سنة ٣٣٤هـ.

وسبي ألفي رأسٍ، وأسر مائةٍ وخمسين من البطارقة، وأخذ غنائم كثيرةٍ.

أرسل ملك الروم سنة ٣٠٥هـ وفداً إلى بغداد في طلب الهدنة والمفاداة، فأكرم الخليفة المقتدر الوفد، وسيّر مؤنساً الخادم ليحضر الفداء، وجعله أميراً على كل بلدٍ يدخله يتصرّف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه، وسيّر معه عدداً من الجنود، وأطلق لهم أرزاقاً واسعةً، وبعث معه مائةً وعشرين ألف دينارٍ لفداء أسارى المسلمين.

وسار محمد بن نصر الحاجب سنة ٣١٠هـ من الموصل فغزا الروم من ناحية قاليقلا، ودخل أهل طرسوس ملاطية فظفروا وبلغوا من بلاد الروم ما لم يظنوه ثم عادوا غانمين.

وغزا المظفر مؤنس الخادم بلاد الروم سنة ٣١١هـ فغنم، وفتح عدة حصونٍ، وغزا «ثمال» في البحر، وقد غنم كثيراً، وأخذ ألف رأسٍ من السبي.

كتب ملك الروم الدمستق في بداية سنة ٣١٤هـ إلى أهل السواحل أن يحملوا إليه الخراج فأبوا عليه فركب إليهم في جنوده، فعاث في الأرض الفساد، ودخل ثغر ملاطية فقتل من أهلها ما شاء له هواه أن

يقتل، وأسر عدداً، وأقام بها ستة عشر يوماً، ووصل أهلها إلى بغداد مستنجدين بالخليفة.

دخل الروم مدينة «سميساط»، وأخذوا جميع ما فيها، ونصبوا فيها خيمة الملك، وضربوا الناقوس في جامعها، فأمر الخليفة مؤنس الخادم بالتجهّز إليهم، وأكرمه. ثم جاءت الأخبار بأن المسلمين وثبوا على الروم فقتلوا منهم عدداً كبيراً جداً.

ولما تجهّز مؤنس للمسير إلى الروم جاءه بعض الخدم فأعلمه أن الخليفة يريد أن يقبض عليه إذا دخل لوداعه، وقد حُفرت له حفرة مغطاة في دار الخلافة ليقع فيها، فأحجم عن الذهاب، وجاءت إليه الأمراء من كل جانبٍ ليكونوا معه على الخليفة، فبعث إليه الخليفة رقعةً بخطه يحلف له أن هذا الأمر الذي بلغه ليس بصحيحٍ، فطابت نفسه وركب إلى دار الخلافة في غلمانه، فلما دخل على الخليفة خاطبه مخاطبةً فيها إكرام، وحلف له أنه طيّب القلب عليه، وله عنده الصفاء الذي يعرفه، ثم خرج من بين يديه معظماً مكرماً، وركب العباس بن الخليفة والوزير ونصر الحاجب في خدمته لوداعه، وكبر الأمراء بين يديه مثل الحجّاب، وكان خروجه يوماً مشهوداً، قاصداً بلاد الثغور لقتال الروم.

ودخل ثمال متولّي طرسوس بلاد الروم سنة ٣١٩هـ فأوقع بهم موقعةً عظيمةً قتل منهم خلقاً كثيراً، وأسر حوالي ثلاثة آلاف رجلٍ، وغنم كثيراً، ثم أوقع بهم مرةً ثانيةً. وكتب ابن الديراني الأرمني إلى الروم يحثّهم على الدخول إلى بلاد الإسلام مقاتلين، ووعدهم بالنصر منه والإعانة، فدخلوا في جحافل عظيمةٍ جداً، وانضمّ إليهم الأرمني، فركب إليهم مفلح غلام يوسف بن أبي الساج، وهو يومئذٍ نائب أذربيجان، وتبعه عدد كبير من المتطوعين، فقصد أولاً بلاد ابن الديراني فقتل من الأرمن نحواً من مائة ألفٍ، وأسر عدداً كبيراً، وغنم أموالاً جزيلةً. وتحصّن ابن الديراني في قلعةٍ له هناك، وكاتب الروم فوصلوا إلى سميساط فحاصروها، فبعث أهلها يستصرخون سعيد بن حمدان نائب الموصل، فسار إليهم مسرعاً، فوجد الروم على وشك دخولها، فلما علموا بقدومه رحلوا عنها، واجتازوا ملاطية فنهبوها، ورجعوا صاغرين إلى بلادهم، ومعهم ابن نفيس المتنصّر، وقد كان من أهل بغداد. وركب سعيد بن حمدان في آثار القوم فدخل بلادهم فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسر كثيراً، وغنم أشياء كثيرةً.

المغرب:

قويت شوكة أبي عبد الله الشيعي في إفريقية فوجّه له زيادة الله الثالث أبو مضر أمير بني الأغلب جيشاً بقيادة أحد أبناء عمومته الأغالبة، وقد بلغ قوام هذا الجيش أربعين ألف مقاتلٍ إضافةً إلى من لحق بهم، وعند اللقاء انتصر أبو عبد الله الشيعي وهُزم جيش بني الأغلب، فلما وصل خبر الهزيمة إلى زيادة الله علم أنه لا مقام له لأن هذا الجمع هو آخر ما انتهت إليه قدرته، فجمع ما عزّ عليه من أهلٍ ومالٍ وعزم على الهرب إلى بلاد المشرق، وأظهر للناس أنه قد جاء خبر هزيمة أبي عبد الله الشيعي، وأمر بإخراج رجالٍ من السجن فقتلهم، وأعلم خاصّته حقيقة الحال، وأمرهم بالخروج معه، فأشار عليه بعض أهل دولته بأن لا يفعل ولا يترك ملكه، وقال له: إن أبا عبد الله لا يجسر عليك، فشتمه وردّ عليه رأيه، وقال: أحبّ الأشياء إليك أن يأخذني بيدي، وانصرف كل واحدٍ من خاصته وأهله يتجهّز للمسير معه، وأخذ ما أمكنه حمله، وسار زيادة الله ومن معه عن إفريقية إلى مصر سنة ستّ وتسعين ومائتين، فلم يزل سائراً حتى وصل إلى طرابلس الغرب فدخلها، فأقام بها تسعة عشر يوماً،

ورأى بها أبا العباس أخا أبي عبد الله الشيعي، وكان قد حبسه في القيروان فهرب إلى طرابلس، فلما رآه أحضره، واستجوبه هل هو أخو أبي عبد الله؟ فأنكر، وقال: أنا رجل تاجر، قيل عني أنني أخو أبي عبد الله فحبستني، فقال له زيادة الله: أنا أطلقك فإن كنت صادقاً في أنك تاجر فلا نأثم فيك، وإن كنت كاذباً وأنت أخو أبي عبد الله فليكن للصنيعة عندك موضع وتحفظنا فيمن خلفناه وراءنا وأطلقه. وكان من كبار أهله وأصحابه إبراهيم بن أبي الأغلب فأراد قتله وقتل رجلٍ آخر كانا قد عرضا أنفسهما على ولاية القيروان، فعلما ذلك، وهربا إلى مصر، وقدما على العامل بها عيسى النوشري فتحدثا معه، وسعيا بزيادة الله، وقالا له: إنه يُمنّي نفسه بولاية مصر، فوقع ذلك في نفسه، وأراد منعه من دخول مصر إلا بأمر الخليفة من بغداد، فوصل زيادة الله ليلاً، وعبر الجسر إلى الجيزة قهراً، فلما رأى ذلك عيسى النوشري لم يمكنه منعه فأنزله بدار ابن الجصّاص، ونزل أصحابه في مواضع كثيرةٍ، فأقام ثمانية أيامٍ، ورحل يريد بغداد، فهرب عنه بعض أصحابه وفيهم غلام له وأخذ منه مائة ألف دينارٍ فأقام عند عيسى النوشري، فأرسل النوشري إلى الخليفة ـ

وهو المقتدر بالله ـ يعرفه حال زيادة الله وحال من تخلّف عنه بمصر، فأمره بردّ من تخلّف عنه إليه مع المال، ففعل، وسار زيادة الله حتى بلغ الرقة، وكتب إلى الوزير ـ وهو محمد بن الفرات ـ يسأله في الإذن له لدخول بغداد، فأمره بالتوقّف، فبقي على ذلك سنةً فتفرّق عنه أصحابه، وسعى به إلى المقتدر، وقيل له: يردّه إلى المغرب يطلب بثأره، فكتب إليه بذلك، وكتب إلى النوشري بإنجاده بالرجال والعُدد والأموال من مصر ليعود إلى المغرب، فعاد إلى مصر، فأمره عيسى النوشري بالخروج إلى «ذات الحمام» ليكون هناك إلى أن يجتمع ما يحتاج إليه من الرجال والمال، ففعل، وماطله فطال مقامه وتتابعت به الأمراض، فعاد إلى مصر، وقصد بيت المقدس، فتوفي بالرملة، ودُفن بها.

كان عبيد الله بن الحسين (المهدي) من أحفاد ديصان قد وصل إلى سجلماسة، وقد سجنه أميرها اليسع بن ميمون بن مدرار بعد أن عرفه. وانتصر أبو عبد الله الشيعي على جيش الأغالبة، وهرب بعدها زيادة الله إلى المشرق، وجاء أبو عبد الله ودخل رقادة يوم السبت غرة شهر رجب سنة ستٍ وتسعين ومائتين فنزل ببعض قصورها وفرّق دورها على كتامة، ولم يكن بقي أحد من أهلها فيها.

ولما استقرّت الأمور لأبي عبد الله الشيعي في رقادة أتاه أخو أبو العباس محمد ففرح به وكان هو الكبير، فسار أبو عبد الله في رمضان سنة ٢٩٦هـ من رقادة واستخلف أخاه أبا العباس وأبا زاكي، وسار في جيوشٍ عظيمةٍ واتجه نحو الغرب فخافته زناتة وزالت القبائل عن طريقه، وجاءته رسلهم، ودخلوا في طاعته، فلما اقترب من سجلماسة وانتهى خبره إلى اليسع بن ميمون بن مدرار أمير سجلماسة أرسل إلى عبيد الله (المهدي) وهو في سجنه يسأله عن نسبه وحاله وهل إليه قصد أبو عبد الله، فحلف له عبيد الله أنه ما رأى أبا عبد الله ولا عرفه وإنما أنا رجل تاجر، فاعتقله في دارٍ وحده، وكذلك فعل بولده أبي القاسم، وجعل عليهما الحرس، واستجوب ولده أيضاً فما حال عن كلام أبيه، واستجوب رجالاً كانوا معه، وضربهم، فلم يُقرّوا بشيءٍ، وسمع أبو عبد الله ذلك فشقّ عليه فأرسل إلى اليسع يتلطّفه، وأنه لم يقصد الحرب، وإنما له حاجة مهمة عنده ووعده الجميل، فرمى الكتاب وقتل الرسل، فعاوده بالملاطفة خوفاً على عبيد الله (المهدي)، ولم يذكره له، فقتل الرسل أيضاً، فأسرع أبو عبد الله، ونزل عليه، فخرج إليه اليسع، وقاتله يومه ذلك، وافترقوا فلما جنّ الليل هرب اليسع وأهله وأصحابه، وبات أبو

عبد الله ومن معه في غمّ عظيمٍ لا يعلمون ما صنع بعبيد الله (المهدي) وولده، فلما أصبح خرج إليه أهل البلد، وأعلموه بهرب اليسع، فدخل هو وأصحابه البلد، وأتوا المكان الذي فيه عبيد الله فاستخرجه واستخرج ولده، فكانت في الناس مسرة عظيمة كادت تذهب بعقولهم، فأركبهما ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يقول للناس: هذا مولاكم وهو يبكي من شدة الفرح حتى وصل إلى فسطاطٍ قد ضُرب له فنزل فيه، وأمر بطلب اليسع، فطُلب فأُدرك فأُخذ وضُرب بالسياط ثم قُتل، فلما ظهر عبيد الله (المهدي) أقام بسجلماسة أربعين يوماً، ثم سار إلى إفريقية (تونس) وأحضر الأموال من انكجان، فجعلها أحمالاً، وأخذها معه، ووصل إلى رقادة في العشر الأخير من ربيع الثاني من سنة سبعٍ وتسعين ومائتين، وزال ملك بني الأغلب، وملك بني مدرار من الخوارج الصفرية الذين منهم اليسع، وكان لهم مائة وثلاثون سنةً منفردين بسجلماسة، وزال ملك بني رستم في تاهرت وهم من الخوارج الأباضية، ولهم مائة وستون سنةً منفردين بتاهرت، وملك عبيد الله (المهدي) جميع ذلك.

ولما اقترب عبيد الله من رقادة تلقّاه أهلها وأهل القيروان وأبو عبد الله ورؤساء كتامة مشاةً بين يديه،

وولده خلفه فسلّموا عليه، فردّ ردّاً جميلاً، وأمرهم بالانصراف، ونزل بقصرٍ من قصور رقادة، وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد، وتلقّب بالمهدي أمير المؤمنين، وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة وأحضروا الناس بالعنف والشدّة ودعوهم إلى مذهبهم فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبى حُبس، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس ـ وهم قليل ـ وقُتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم، وقسم على وجوه كتامة أعمال إفريقية، ودوّن الدواوين وجبى الأموال، واستقرّت قدمه، ودان له أهل البلاد، واستعمل العمال عليها جميعاً، فاستعمل على جزيرة صقلية الحسن بن أحمد بن أبي خنزير فوصل إليها في العاشر من ذي الحجة سنة سبعٍ وتسعين ومائتين، وقد أساء السيرة بأهل البلد فثاروا عليه وأخذوه وسجنوه، وكتبوا إلى عبيد الله بذلك، واعتذروا، فقبل عذرهم، واستعمل عليهم علي بن عمر البلويّ فوصل إليهم في آخر ذي الحجة سنة تسعٍ وتسعين ومائتين.

ووقع الخلاف بين عبيد الله (المهدي) وبين أبي عبد الله الشيعي ولا بد من أن يقع فكلاهما يرضع من مصدرٍ يختلف عن الآخر ويتحرّك بتوجّهٍ خاصٍ، وله

مرمًى يُباين مرمى الآخر، ويكفي أن نعرف أن عبيد الله حفيد ديصان اليهودي وأن أبا عبد الله قد استقى من رستم بن الحسين بن حوشب بن داذان المجوسي الأصل، ويغلب على عبيد الله المكر بينما أبو عبد الله كانت تغلب عليه العاطفة وإن رسخت في نفسه أفكار شاذة وخطيرة أخذها من المصدر الذي استقى منه وتمكّنت حتى صار يتحرّك بها ولا يدري ما ترمي إليه وإلى أين ترميه.

عندما استقرت لعبيد الله (المهدي) الأوضاع سنة سبعٍ وتسعين ومائتين، واستقامت له البلاد، ودانت له العباد، وباشر الأمور بنفسه كفّ يد أبي عبد الله ويد أخيه أبي العباس عن التدخّل بأمرٍ أو التصرّف بشأنٍ فعظم على أبي العباس الفطام عن الأمر والنهي والأخذ والعطاء فأقبل يزري على عبيد الله في مجلس أخيه ويتكلّم فيه، وأخوه ينهاه، ولا يرضى فعله، فلا يزيده ذلك إلا لجاجاً، ثم أنه أظهر أبا عبد الله على ما في نفسه، وقال له: ملكت أمراً فجئت بمن أزالك عنه، وكان الواجب عليه أن لا يُسقط حقك، ولم يزل حتى أثّر في قلب أخيه، فقال يوماً لعبيد الله: لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كتامة آمرهم وأنهاهم لأني عارف

بعاداتهم لكان أهيب لك في أعين الناس. وما أن سمع عبيد الله هذه الكلمة حتى تحرّك ما في النفس من حقدٍ، صحيح أنها كانت كلمة عادية لا تدلّ على شيءٍ لكن النفس المشحونة بالضغائن المليئة بالأحقاد، والمخطط الذي يرمي التفرّد يجعل الكلام العادي خطيراً. وكان عبيد الله يسمع ما يجري بين أبي عبد الله وأخيه ويرسم، وقد تحقّق له، غير أنه ردّ ردّاً لطيفاً. وصار أبو العباس يشير إلى المقدّمين بشيءٍ من ذلك، فمن رأى منه قبولاً كشف له ما في نفسه، وقال: ما جازاكم على ما فعلتم، وذكر لهم الأموال التي أخذها من جبل «اكنجان» وتابع هلّا قسمها فيكم! ويصل ذلك إلى عبيد الله فيضمر في نفسه، وأبو عبد الله يداري. ثم صار أبو العباس يقول: إن هذا ليس الذي كنا نعتقد طاعته، وندعو إليه لأن المهدي يختم بالحجة ويأتي بالآيات الباهرة. فأخذ قوله بقلوب كثيرٍ من الناس منهم. وكان رجل من كتامه يقال له: شيخ المشايخ فواجه عبيد الله (المهدي) بذلك، وقال: إن كنت المهدي فأظهر لنا آيةً فقد شككنا فيك فقتله عبيد الله، فخافه أبو عبد الله، وعلم أن عبيد الله قد تغيّر عليه، فاتفق هو وأخوه ومن معهما على الاجتماع عند أبي زاكي، وعزموا على قتل عبيد الله، واجتمع معهم قبائل

كتامة إلا قليلاً منهم، وكان معهم رجل يظهر أنه منهم، وينقل ما يجري إلى عبيد الله، ودخلوا عليه مراراً ولم يجسروا على قتله، فاتفق أنهم اجتمعوا ليلةً عند أبي زاكي فلما أصبحوا لبس أبو عبد الله ثوبه مقلوباً ودخل على عبيد الله فرأى ثوبه فلم يعرفه به، ثم دخل عليه ثلاثة أيامٍ والثوب على حاله، فقال له عبيد الله: ما هذا الأمر الذي أذهلك عن إصلاح ثوبك فهو مقلوب منذ ثلاثة أيامٍ فعلمت أنك ما نزعته؟ فقال: ما علمت بذلك إلا ساعتي هذه، قال: أين كنت البارحة والليالي قبلها؟ ألم تبت في دار أبي زاكي؟ قال: بلى، قال: وما الذي أخرجك من دارك؟ قال: خفت، قال: وهل يخاف الإنسان إلا من عدوّه؟ فعلم أن أمره قد ظهر لعبيد الله، فخرج وأخبر أصحابه فخافوا وتخلّفوا عن الحضور عند عبيد الله، فذكر ذلك لعبيد الله وعنده رجل يقال له: ابن القديم كان من جملة القوم، وعنده أموال كثيرة من أموال زيادة الله الأغلبي، فقال: يا مولاي إن شئت أتيتك بهم، ومضى فجاء بهم، فعلم عبيد الله صحة ما قيل عنه، فلاطفهم وفرّقهم في البلاد، وجعل أبا زاكي والياً على طرابلس، وكتب إلى عاملها أن يقتله عند وصوله، فلما وصل إليها قتله عاملها، وأرسل رأسه إلى عبيد الله، وهرب ابن القديم، فأُخذ، وأمر عبيد الله

بقتله فقُتل، وأمر عبيد الله رجلاً يدعى «عروبة». ورجالاً معه أن يرصدوا أبا عبد الله وأخاه أبا العباس، ويقتلوهما، فلما وصلا إلى قرب القصر حمل عروبة على أبي عبد الله، فقال: لا تفعل يا بني، فقال: إن الذي أمرتنا بطاعته قد أمرنا بقتلك، فقُتل هو وأخوه في اليوم الذي قُتل فيه أبو زاكي، فقيل: إن عبيد الله صلّى على أبي عبد الله، وقال: رحمك الله أبا عبد الله وجزاك خيراً بجميل سعيك. وجرت فتنة بسبب قتلهما، وجرّد أصحابهما السيوف، فركب عبيد الله وأمن الناس فسكنوا، ثم تتبعهم حتى قتلهم. وثارت فتنة ثانية بين رجال قبيلة كتامة وبين أهل القيروان قُتل فيها عدد كبير، فخرج عبيد الله، وسكن الفتنة، وكفّ دعاته عن طلب الشيعة من العامة.

لما استقامت الدولة لعبيد الله عهد لولده أبي القاسم نزار بالخلافة من بعده. ورجعت كتامة إلى بلادهم فأقاموا طفلاً، وقالوا: هذا هو المهدي، ثم زعموا أنه نبيّ يُوحى إليه، وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت، وزحفوا إلى مدينة ميلة، فبلغ ذلك عبيد الله فأخرج ابنه أبا القاسم فحصرهم فقاتلوه فهزمهم وتبعهم حتى أجلاهم عن ديارهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وقتل

الطفل الذي أقاموه. وخالف عليه أهل صقلية مع ابن وهب، فأنفذ إليهم أسطولاً فدخل جزيرة صقلية، وأتى بابن وهب فقتله، وخالف عليه أهل تاهرت قاعدة الخوارج الأباضية سابقاً فغزاها ودخلها، وقتل أهل الخلاف، وقتل جماعةً من بني الأغلب بـ «رقادة» كانوا قد رجعوا إليها بعد وفاة زيادة الله.

وتوطّدت الدولة العبيدية في المغرب ولما كثر الادّعاء إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأحياناً إلى أخيه عقيل بن أبي طالب، رضي الله عنه، وإلى أبنائهما، وزاد عدد الخارجين عن الطاعة للخلاقة، وهذا يدّعي العلوية وذاك ينتسب للطالبية دون صحةٍ في النسب ولا صدقٍ في العمل أحبّ العبيديون أن يجعلوا انتسابهم محصوراً في أبناء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، من فاطمة بنت رسول الله ﷺ؛ لذا أطلقوا على أنفسهم اسم «الفاطميين».

كان عامل جزيرة صقلية علي بن عمر البلوي شيخاً ليناً فلم يرض أهل صقلية بسيرته فعزلوه من أنفسهم، وولّوا أحمد بن قرهب فبعث سريةً إلى جزيرةٍ صغيرةٍ إلى الشرق من جزيرة صقلية تدعى «قلورية»، وقد حققت هذه السرية نصراً، وحصلت على غنائم

وأسرى من الروم. ثم بعث ابنه إلى قلعة «طبرمين» وأمره بحصارها وذلك سنة ثلاثمائةٍ، فحاصرها مدة ستة أشهرٍ، ثم اختلف عليه العسكر إذ كرهوا المقام فأحرقوا خيمته، وأرادوا قتله فمنعهم العرب. ودعا أحمد بن قرهب الناس إلى طاعة الخليفة العباسي المقتدر بالله فأجابوه إلى ذلك، فخطب له بصقلية وقطع خطبة عبيد الله. وبعث أحمد بن قرهب جيشاً عن طريق البحر إلى ساحل إفريقية فالتقى مع أسطول عبيد الله (المهدي) وعلى مقدمته الحسن بن أبي خنزير فأحرق الصقليون أسطول عبيد الله وقتلوا الحسن بن أبي خنزير وحملوا رأسه إلى أحمد بن قرهب. وسار الأسطول الصقلي إلى مدينة صفاقُس وخرّبها الجند، وساروا إلى طرابلس وفيها القائم بن عبيد الله فرجعوا. ووصلت منح الخليفة المقتدر بالله إلى أحمد بن قرهب. وانطلقت مراكب صقلية إلى «قلورية» فحصلت على غنائم، ثم انطلق الأسطول الصقلي إلى إفريقية فالتقى مع أسطول عبيد الله، فهُزم الأسطول الصقلي وفقد أكثر مراكبه، وانتصر أسطول العبيديين. وضعف بعدها أمر أحمد بن قرهب، وطمع فيه الناس، وعصوا أمره، وكاتبوا عبيد الله، ثم كاتب أهل صقلية عبيد الله أيضاً، وكرهوا الفتنة وثاروا على ابن قرهب وأخذوه أسيراً سنة ثلاثمائةٍ

وسجنوه ثم بعثوا به مع جماعةٍ من خاصته إلى عبيد الله فأمر بقتلهم فقُتلوا، واستعمل على صقلية أبا سعيد موسى بن أحمد، وسيّر معه جماعةً من شيوخ كتامة، وحاول أهل صقلية قتاله لكنه انتصر عليهم، وقهرهم فاضطروا إلى الخضوع.

بعث عبيد الله (المهدي) سنة إحدى وثلاثمائةٍ عسكراً مع ولده نزار أبي القاسم باتجاه مصر فاستولت على برقة في شهر ذي الحجة، ثم اتجهت إلى الإسكندرية فاستولت عليها، ثم إلى الفيوم فدخلتها، وضيّقت على السكان فبعث الخليفة المقتدر مؤنساً الخادم في جيش كثيفٍ هزم عسكر العبيديين الذين اضطروا للرجوع إلى المغرب.

رجع عبيد الله (المهدي) فبعث جيشاً من إفريقية (تونس) إلى الإسكندرية بقيادة «حباسة» فسار بحراً وغلب على الإسكندرية، وتقدّم نحو الجنوب، وبلغ ذلك الخليفة المقتدر فبعث مؤنساً الخادم إلى مصر لمحاربة حباسة وأمدّه بالسلاح والأموال فسار إليها فالتقى العسكران في شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثمائةٍ فاقتتلوا قتالاً شديداً فقُتل من الفريقين أعداد كبيرة، وكذا كان الجرحى، والتقوا في عدة معارك،

وأخيراً هُزم جند العبيديين في جمادى الآخرة من السنة نفسها، وولّوا الأدبار، وقد خسروا سبعة آلاف رجلٍ بين قتيلٍ وأسيرٍ، ولما رجعوا إلى المغرب قتل عبيد الله المهدي قائده حباسة.

خالف عروبة بن يوسف الكتامي بالقيروان عبيد الله (المهدي)، والتفّ حول عروبة جموع كثيرة فأرسل عبيد الله إليهم مولاه غالباً فاقتتلوا قتالاً شديداً على أطراف القيروان فقُتل عروبة وعدد من أبناء عمومته وجمع كثير من أصحابه.

وفي سنة ثلاثٍ وثلاثمائةٍ بنى عبيد الله مدينة «المهدية» على الساحل الشرقي لتونس (اليوم) إلى الشرق من القيروان وإلى الجنوب قليلاً وعلى بُعد خمسين كيلومتراً، وقد بُدىء بالبناء لخمسٍ خلون من ذي القعدة سنة ٣٠٣هـ.

بعث عبيد الله (المهدي) سنة ٣٠٦هـ جيشاً كثيفاً مع ابنه أبي القاسم نزار إلى مصر فوصل إلى الإسكندرية في ربيع الثاني سنة ٣٠٧هـ فدخلها وخرج منها عامل الخليفة المقتدر، وارتحل أبو القاسم نحو الفسطاط فدخل الجيزة، وضمّ إليه أقاليم من الصعيد، وكتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى الدخول في طاعته فلم يقبلوا منه،

ووصلت الأخبار إلى بغداد فبعث الخليفة المقتدر بالله جيشاً بإمرة مؤنس الخادم في شهر شعبان وجدّ بالسير، فوصل إلى مصر، وكانت بينه وبين القائم بن عبيد الله عدة وقعاتٍ، ووصل من إفريقية ثمانون مركباً إلى مصر نجدةً إلى القائم فأرست بالإسكندرية وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامي وكانا شجاعين. وأمر الخليفة المقتدر بالله أن تسير مراكب من طرسوس إليهم، فانطلق خمسة وعشرون مركباً مجهّزةً تجهيزاً كاملاً وعلى مقدمتها أبو اليمن، والتقت المراكب بالمراكب، واقتتلوا عند ميناء رشيد، وتفوّقت مراكب الخليفة، وأحرقت عدداً من مراكب العبيديين، وأهلكت أكثر رجال هذه المراكب، وأسرت عدداً كبيراً، وكان بين الأسرى سليمان الخادم ويعقوب الكتامي، وقد قُتل عدد من الأسرى وأُطلق عدد، ومات سليمان الخادم في السجن بمصر، وحُمل يعقوب الكتامي إلى بغداد، ثم هرب منها، ورجع إلى إفريقية. وأما عسكر القائم فكان بينهم وبين مؤنس وعسكره وقعات، وكان الظفر فيها لمؤنس فلُقّب حينئذٍ بالمظفّر، ووقع الوباء في عسكر القائم فمات منهم كثير من الناس إضافةً إلى الخيل، وعاد من سلم إلى إفريقية، وسار عسكر مصر في أثرهم حتى بعدوا، فوصل القائم إلى المهدية في رجب سنة ٣٠٧هـ.

وسار جيش من صقلية سنة ٣١٣هـ مع أميرها سالم بن راشد، وأمدّهم عبيد الله المهدي بجيشٍ من إفريقية فدخلوا جنوبي إيطالية وغنموا غنائم كثيرةً، ثم رجعوا إلى موطنهم سالمين، وعادوا مرةً أخرى فاتجهوا إلى مدينة «ترانت» في جنوبي إيطالية فدخلوها بالسيف في شهر رمضان سنة ٣١٣هـ، وتجاوزها، ولكن أصابهم بعد ذلك مرض شديد، فاضطروا للعودة، وكان المسلمون في صقلية يغزون ما بقي من جزيرة صقلية بأيدي الرومان.

وأغارت زناتة على كتامة في المغرب ونالت منها فبعث عبيد الله (المهدي) قوةً بإمرة ابنه أبي القاسم، فسار حتى تجاوز مدينة «تاهرت» وقد تفرّقت رجال زناتة، ورجع أبو القاسم، وفي عودته اختط مدينةً وأسماها «المحمدية» وهي «المسيلة».

وظهر أبو يزيد الخارجي[١] في إفريقية سنة ٣١٦هـ، وكان يُكفّر أهل الملّة، ويستبيح الدماء والأموال والخروج على السلطان، وأصبحت حوله جماعة تُعظّمه.

---

(١) أبو يزيد بن كنداد: من قبيلة زناتة، أمه جارية، اختلط مع جماعة من النكارية فمال إليهم ثم انفرد ببعض الآراء الشاذة ومات سنة ٣٣٦هـ.

وفي سنة ٣٠٠هـ غزا قائد العبيديين مصالة بن حبوس[1] إمارة الأدارسة، والتقى به الأمير يحيى الرابع بن إدريس قرب مكناس، فهُزم الأدارسة، وحاصر العبيديون فاس، واضطر الأمير يحيى الرابع إلى الصلح على أن يدفع مبلغاً من المال، وأن يُبايع لعبيد الله (المهدي)، فتمّ ذلك سنة ٣٠٣هـ، وأصبح مصالة بن حبوس أمير فاس، وابن عمه موسى بن أبي العافية[2]

(١) مصالة بن حبوس المكناسي: أمير بربري، كانت له رياسة «مكناسة» القبيلة وبلادها، وعظم شأنها في أيامه، فتغلّبت على قبائل البربر في أنحاء «تازة»، وعندما استولى عبيد الله (المهدي) على المغرب كان مصالة من أكبر قادته، وولّاه عبيد الله على «تاهرت» والمغرب الأوسط، وزحف مصالة على المغرب الأقصى سنة ٣٠٥هـ، واستولى على فاس وسجلماسة، واستنزل يحيى بن إدريس من إمارته بفاس إلى طاعة عبيد الله، وأبقاه أميراً على فاس، وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مدينة مكناسة على سائر ضواحي المغرب وأمصاره، ورجع إلى القيروان فقتله محمد بن خزر الزناتي سنة ٣١٢هـ.

(٢) موسى بن أبي العافية بن أبي بسال بن أبي الضحاك المكناسي، مؤسس الإمارة المكناسية بالمغرب، وتُسمّى إمارة آل أبي العافية، عقد له ابن عمه مصالة بن حبوس سنة ٣٠٥هـ على المغرب وأقره عبيد الله (المهدي)، وتوسّع وخلع طاعة عبيد الله وخطب للأمويين بالأندلس، فأرسل له عبيد الله من يقاتله، واستمرت الحرب سجالاً حتى قتل موسى سنة ٣٤١هـ.

أمير بلاد المغرب، ولما عاد مصالة بن حبوس عام ٣٠٩هـ أوغر موسى بن أبي العافية صدره على يحيى الرابع بن إدريس فقبض عليه، ونفاه إلى بلاد الريف سنة ٣١٠هـ، ثم سجنه موسى بن أبي العافية، وأطلق سراحه بعد عشرين سنةً، وحُمل إلى بلدة المهدية عاصمة العبيديين فمات بها سنة ٣٣٢هـ.

وعندما اعتُقل يحيى الرابع بن إدريس سنة ٣١٠هـ ولّى مصالة بن حبوس على فاس ريحان الكتامي ولكن لم يلبث أن ثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم عام ٣١٠هـ، واستولى على فاس، وقتل ريحان الكتامي، وأخذ البيعة من الناس، وبدأ في قتال موسى بن أبي العافية، غير أن الحسن بن محمد قد مات سنة ٣١٢هـ، واستولى موسى على دولة الأدارسة الذين لجأ أكثرهم إلى بلاد الريف، وكانوا زعماء فيها، وتُعدّ هذه الدولة قد انتهت.

خلع موسى بن أبي العافية طاعة العبيديين، ودعا للأمويين بالأندلس، فأرسل عبيد الله (المهدي) له جيشاً ففرّ موسى من وجهه وترك مدينة فاس، فدخلها العبيديون إلا أن أميرهم قد قُتل ورجع موسى إليها، وعاد له نفوذه، ودعا للأمويين، وقد مات عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢هـ. واستمر موسى على قتال العبيديين حتى قُتل ٣٤١هـ.

القرامطة:

كان أبو سعيد الجنّابي (الحسن بن بهرام) قد سيطر على هجر والقطيف وسائر بلاد البحرين وأبلغ في الفواحش، وأفحش في المساوىء، وفي سنة ٣٠١هـ قتله في الحمّام خادم له صقلبي، فلما قتله استدعى رجلاً من أكابر رؤسائهم، وقال له: السيد يستدعيك فلما دخل قتله، ففعل ذلك بأربعة نفرٍ من رؤسائهم، واستدعى الخامس، ففطن لذلك، فأمسك بيد الخادم وصاح، فدخل الناس، وصاحت النساء، وجرى بينهم وبين الخادم مناظرات، ثم قتلوه، وكان أبو سعيد قد عهد إلى ابنه سعيد، وهو الأكبر، فعجز عن الأمر، فغلبه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان. وكان المقتدر قد كتب إلى أبي سعيد كتاباً ليناً فيما يُعاني مَن عنده من أسرى المسلمين، ويُناظره، ويُقيم الدليل على فساد مذهبه، وبعثه مع وفدٍ، فلما وصلوا إلى البصرة بلغهم خبر مقتل أبي سعيد، فأعلموا الخليفة بذلك، فأمرهم بالمسير إلى ولده، فأتوا أبا طاهر بالكتاب، فأكرم الرسل، وأطلق الأسرى، وبعثهم إلى بغداد، وأجاب على الكتاب.

وفي سنة ٣١١هـ قصد القرمطي أبو طاهر البصرة

في ألفٍ وسبعمائة فارسٍ فوصل إليها ليلاً، فنصب السلالم على سورها، وصعد أصحابه، ففتحوا الباب، وقتلوا الموكّلين به، وكان عامل البصرة سبك المفلحي فلم يشعر بهم إلا في السحر، ولم يعلم أنهم القرامطة بل اعتقد أنهم أعراب تجمّعوا، فركب إليهم ولقيهم فقتلوه، ووضعوا السيف في أهل البصرة، وقتلوا كل من لقوه من أهلها، وهرب الناس، فألقوا أنفسهم في الماء فغرق كثير منهم، وأقام أبو طاهر سبعة عشر يوماً في البصرة يحمل ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء، ثم عاد إلى بلده هجر. واستعمل المقتدر على البصرة محمد بن عبد الله الفارقي. وكان كلما بعث الخليفة المقتدر إليه جنداً ترك البلد خاوياً وفرّ هارباً.

وسار القرمطي أبو طاهر في عسكرٍ كثيفٍ من المفسدين ليلقى الحجاج وهم عائدون من أداء الموسم، فالتقى بقافلةٍ منهم في مطلع شهر المحرم سنة ٣١٢هـ كانت قد تقدّمت معظم الحاج وفيها كثير من أهل بغداد، فقطع عليهم الطريق فقاتلوه دفاعاً عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم، فقتل منهم كثيراً، وأخذ من نسائهم وأولادهم ما اختاره، واصطفى من أموالهم ما أراد، وحمل من الأمتعة ما رغب، وترك بقية الناس بعدما أخذ أموالهم وجمالهم وأبناءهم ونساءهم وزادهم على

بُعد الديار في تلك الفيافي والقفار بلا ماءٍ ولا زادٍ ولا محملٍ مع حرّ الشمس وخوف النفس. واتصل الخبر بباقي الحاج وهم بـ «فيد» فأقاموا بها حتى فني زادهم فارتحلوا مسرعين، وكان أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان[1] قد أشار عليهم بالعودة إلى وادي القرى، وأن لا يقيموا بـ «فيد» فاستطالوا الطريق، ولم يقبلوا منه لما يحمل من فكرٍ، وكان إلى أبي الهيجاء طريق الكوفة. فلما فني زادهم ساروا على طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة، وأخذوهم، وأسروا أبا الهيجاء، ثم أطلقوه. وأخذ أبو طاهر جمال الحجاج جميعها، وترك الحاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حرّ الشمس. وكان عدد الذين مع أبي طاهر ثمانمائة مقاتلٍ، وكان عمره سبعة عشر عاماً.

---

(١) أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبي العدوي، والد سيف الدولة الحمداني: أمير من القادة المقدمين في العصر العباسي، ولّاه المكتفي بالله الموصل وأعمالها سنة ٢٩٣هـ فأقام إلى أن عزله المقتدر بالله سنة ٣٠١هـ، فقدم بغداد، ثم أعاده، ثم قبض عليه سنة ٣٠٣هـ مع أخيه الحسين، وأطلقه سنة ٣٠٥هـ، وقلّده طريق خراسان والدينور فكان يتقلّد ذلك وهو مقيم ببغداد. وأخيراً قتله أحد رجال المقتدر سنة ٣١٧هـ في فتنة خلعه والبيعة للقاهر.

ولما وصل الخبر إلى بغداد كان يوماً شديداً، وقد كسرت العامة المنابر وسوّدت المحاريب يوم الجمعة لستّ خلون من شهر صفر سنة ٣١٢هـ. واتهم أبو الحسن علي بن الفرات بالتواطؤ على ما قد حدث بإبعاد مؤنس لما لابن الفرات من أفكارٍ نحو الرافضة. وكُتب إلى مؤنسٍ أن يحضر من الرقة، وطلب الخليفة المقتدر من ياقوت بالمسير إلى الكوفة ليمنعها من القرامطة، فخرج في جمعٍ كثير ومعه ولداه المظفر مؤنس ومحمد، وورد الخبر برجوع القرامطة فتوقّف مسير ياقوت، ووصل مؤنس المظفر إلى بغداد. وقُتل أبو الحسن علي بن الفرات وولده المحسن، واستوزر المقتدر بعد ذلك عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن خاقان.

أمر الخليفة مؤنساً الخادم بأن يسير إلى الكوفة لقتال القرامطة وأنفق الكثير على تجهيزه، وأطلق أبو طاهر القرمطي من كان معه من أسرى الحجاج، وكانوا ألفي رجلٍ وخمسمائة امرأةٍ، وأطلق أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان أيضاً. وكتب إلى الخليفة المقتدر يسأله البصرة والأهواز فلم يُجب إلى ذلك.

وخرج القرمطي أبو طاهر من هجر سنة ٣١٢هـ

يريد الحجاج الذين خرجوا ليشهدوا الموسم، وكان جعفر بن ورقاء الشيباني متقلّداً أعمال الكوفة وطريق مكة، فلما سار الحجاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفاً من أبي طاهر القرمطي، وخرج معه ألف رجلٍ من بني شيبان، وسار مع الحجاج من أصحاب السلطان ثمال صاحب البحر، وجني الصفواني، وطريف السبكري وغيرهم في ستة آلافٍ، فلقي أبو طاهر القرمطي جعفراً الشيباني فقاتله جعفر فبينما هو يقاتله إذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه فلم يثبت لهم، وانهزم من بين أيديهم بمن معه من بني شيبان، ولقي أبو طاهر القافلة الأولى فردّهم إلى الكوفة ومعهم عسكر الخليفة، وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة، وقتل منهم، وأسر جنياً الصفواني، وهرب الباقون والحجاج من الكوفة، ودخلها أبو طاهر، وأقام ستة أيامٍ بظاهر الكوفة، يدخل البلد نهاراً فيقيم في الجامع إلى الليل، ثم يخرج فيبيت في عسكره، ثم حمل من الكوفة ما استطاع حمله من الأموال والثياب وغير ذلك، وعاد إلى هجر، ودخل المنهزمون بغداد، فطلب الخليفة المقتدر من مؤنس المظفر بالخروج إلى الكوفة، فسار إليها فبلغها، وقد عاد القرامطة عنها فاستخلف عليها ياقوتاً، وسار مؤنس

إلى واسط، خوفاً عليها من أبي طاهر. وخاف أهل بغداد، وانتقل الناس فيها إلى الجانب الشرقي، ولم يحج في هذه السنة أحد من أهل بغداد.

وظهر سنة ٣١٢هـ رجل بين الكوفة وبغداد ادّعى أنه محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، وصدّقه على ذلك طائفة من الأعراب وأصحاب الأهواء، والتفّوا حوله، وقويت شوكته في شوال فأرسل إليه السلطان جيشاً فقاتلوه فهزموه، وقتلوا كثيراً من أصحابه، وتفرّق بقيتهم، وهذا الدعيّ هو أول الإسماعيلية.

وردت الأخبار إلى بغداد سنة ٣١٥هـ بمسير أبي طاهر القرمطي من هجر نحو الكوفة، ثم جاءت الأنباء من البصرة أنه اجتاز قريباً منهم نحو الكوفة، فكتب الخليفة المقتدر إلى يوسف بن أبي الساج يعرفه هذا الخبر ويأمره بالمبادرة إلى الكوفة فسار إليها من مدينة واسط آخر شهر رمضان، وقد أُعدّ له بالكوفة الإنزال له ولعسكره، فلما وصل إليها أبو طاهر القرمطي هرب نواب السلطان عنها واستولى عليها أبو طاهر وعلى كل ما أُعدّ ليوسف، فقوي أمر القرامطة بما حصلوا عليه.

ووصل يوسف إلى الكوفة بعد وصول القرمطي بيومٍ واحدٍ، فحال بينه وبينها، وكان وصوله يوم الجمعة لثمانٍ خلت من شوال سنة ٣١٥هـ، فلما وصل إليهم أرسل إليهم يدعوهم إلى طاعة الخليفة المقتدر فإن أبوا فموعدهم الحرب يوم الأحد، فقالوا: لا طاعة علينا لأحدٍ، والموعد بيننا الحرب صباح غدٍ، فلما كان الغد رأى يوسف قلّة القرامطة فاحتقرهم، فاقتتلوا من ضحوة النهار إلى غروب الشمس، وصبر الفريقان، فلما رأى أبو طاهر ذلك باشر الحرب بنفسه ومعه جماعة يثق بهم، فهزم أصحاب يوسف، وأسر يوسف نفسه وعدداً كبيراً من أصحابه، وكان أسره وقت المغرب، وحملوه إلى عسكرهم، ووصل الخبر إلى بغداد فخاف الناس من القرامطة خوفاً شديداً، وعزموا على الهرب إلى حلوان، وهمذان، ودخل المنهزمون بغداد أكثرهم رجالةً حفاةً عراةً، فبرز مؤنس المظفر ليسير إلى الكوفة فأتاه الخبر بأن القرامطة قد ساروا إلى «عين التمر» فأرسل قوةً لتمنع القرامطة من عبور نهر الفرات، كما بعث بقوةٍ أخرى من الجيش إلى الأنبار لحفظها ومنع القرامطة من العبور من هناك، ثم إن القرامطة قصدوا الأنبار فقطع أهلها الجسر، ونزل القرامطة غرب الفرات، وأنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة فأتوه بمراكب، ولم يعلم

أهل الأنبار بذلك، وعبر فيها ثلاثمائةٍ من القرامطة فقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم، وقتلوا منهم جماعةً، واستولى القرامطة على الأنبار، وعقدوا الجسر، وعبر أبو طاهر مع جماعة وخلف سواده بالجانب الغربي.

ولما ورد الخبر بعبور أبي طاهر إلى الأنبار خرج نصر الحاجب في عسكرٍ ضخمٍ فلحق بمؤنس المظفّر فاجتمع ما يزيد على مائةٍ وأربعين ألف مقاتلٍ، وكان ممن معه أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون، ومن إخوته أبو الوليد وأبو السرايا، وأشار أبو الهيجاء بقطع قنطرةٍ كانت على نهرٍ يفصل بينهما، ولما أشرف القرامطة على عسكر الخليفة رجع عدد كبير منهم إلى بغداد، وأراد القرامطة عبور النهر فلم يمكنهم لذا رجعوا إلى الأنبار، ولم يحدث قتال.

وسيّر مؤنس المظفر صاحبه يلبق في ستة آلاف مقاتلٍ إلى عسكر القرامطة غرب الفرات ليأخذوا المعسكر ولينقذوا يوسف بن أبي الساج، فاقتربوا منهم، وقد عبر أبو طاهر نهر الفرات إلى الجانب الشرقي منه، ولما جاءهم عسكر مؤنسٍ اقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم عسكر الخليفة، وعندها قتل أبو طاهر يوسف بن أبي الساج وجميع الأسرى من أصحابه. وقصد القرامطة

مدينة هيت، وكان الخليفة المقتدر قد سير إليها سعيد بن حمدان بن حمدون[1] وهارون بن غريب، فلما بلغها القرامطة رأوا أن عسكر الخليفة قد سبقوهم، فقاتلوهم على السور فقُتل من القرامطة عدد كبير، فرجع القرامطة عنها، ولما بلغ أهل بغداد خبر رجوع القرامطة عن هيت سكنت قلوبهم، وارتاحت نفوسهم.

وجاء إنسان إلى علي بن عيسى وأخبره أن في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار فأحضره وسأله فاعترف فقتله.

لما سار القرامطة من الأنبار وهيت رجع مؤنس المظفر إلى بغداد فدخلها في مطلع سنة ٣١٦هـ في الثالث من شهر المحرم، وسار أبو طاهر القرمطي إلى «الدالية» من طريق الفرات فلم يجد فيها شيئاً فقتل من أهلها جماعةً، ثم سار إلى «الرحبة» فدخلها في الثامن من شهر المحرم بعد أن حاربه أهلها فوضع فيهم السيف بعد أن ظفر بهم، فأُمر مؤنس المظفر بالمسير إلى الرقة فسار إليها في شهر صفر، وجعل طريقه على مدينة الموصل، فوصل إليها في ربيع الأول ونزل بها،

---

(١) سعيد بن حمدان: والد الشاعر أبي فراس الحمداني الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون.

وأرسل أهل «قرقبسيا» يطلبون من أبي طاهر الأمان فأمنهم وأمرهم أن لا يظهر أحد منهم بالنهار فأجابوه إلى ذلك، وبعث أبو طاهر سريةً إلى الأعراب بالجزيرة فنهبوا بيوت أهلها وأخذوا أموالهم، فخافهم الأعراب خوفاً شديداً، وهربوا من بين أيديهم، وقرّر أبو طاهر عليهم أتاوةً على كل رأسٍ دينار يحملونه إلى «هجر»، ثم انطلق أبو طاهر من الرحبة إلى الرقة فدخل أصحابه ضواحي الرقة وقتلوا منهم ثلاثين رجلاً، وأعان أهل الرقة أهل الضواحي فقتلوا من القرامطة جماعةً فقاتلهم أبو طاهر ثلاثة أيامٍ ثم انصرف عنهم في آخر ربيع الثاني، وبعث القرامطة سريةً إلى رأس العين، فطلب أهلها الأمان فأمنوهم، ثم سار القرامطة إلى «سنجار» فنهبوا الجبال، ونازلوا أهل بلدة «سنجار» فطلب أهلها الأمان فأمنوهم. وكان مؤنس المظفر قد وصل إلى الموصل فبلغه قصد القرامطة إلى الرقة فجدّ السير إليها، فسار أبو طاهر عنها، وعاد إلى الرحبة، ووصل مؤنس إلى الرقة بعد انصراف القرامطة عنها. ثم إن القرامطة قد ساروا إلى هيت، وكان أهلها قد أحكموا سورها فقاتلوهم فعادوا عنهم إلى الكوفة، فوصل الخبر إلى بغداد، فأخرج السلطان إليها هارون بن غريب، ونصر الحاجب، وجنيّ بن نفيس، ووصلت خيل القرمطي إلى

قصر ابن هبيرة فقتلوا منه جماعةً. ومرض نصر الحاجب إذ أصابته حُمّى حادّة فتجلّد وتابع، فلما قاربهم القرامطة اشتدّ مرضه فاستخلف نصر على جيشه أحمد بن كيغلغ، ورُدّ نصر إلى بغداد فمات في الطريق في أواخر شهر رمضان سنة ٣١٦هـ، فجعل مكانه على الجيش هارون بن غريب، ورتب ابنه أحمد بن نصر في الحجبة للخليفة المقتدر مكان أبيه، وانصرف القرامطة إلى البرية، وعاد هارون بن غريب بالجيش إلى بغداد فدخلها لثمانٍ بقين من شوال.

لما قوي أمر أبي طاهر القرمطي أظهر من كان يكتم اعتقاده بمذهب القرامطة من أهل سواد العراق خوفاً فأظهروا كفرهم، واجتمع منهم بضواحي واسط أكثر من عشرة آلاف رجلٍ، وولّوا أمرهم رجلاً يعرف بـ (حريث بن مسعود). واجتمعت طائفة أخرى بـ «عين التمر» ونواحيها، وولّوا أمرهم رجلاً يُسمّى عيسى بن موسى، وكانوا يدعون إلى عبيد الله (المهدي) الذي في المغرب، وسار عيسى بن موسى إلى الكوفة، ونزل بظاهرها وجبى الخراج، وصرف العمال عن السواد. وسار حريث بن مسعود إلى جهات واسط، وكان يتقلّد الحرب للسلطان بواسط جني بن نفيس فقاتلهم فهزموه. فسيّر الخليفة المقتدر بالله إلى حريث بن مسعود ومن

معه هارون بن غريب، وسيّر إلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة «صافيا البصري»، فأوقع بهم هارون، وأوقع صافي بمن سار إليهم، فانهزمت القرامطة وأُسر منهم كثير، وقُتل أكثر ممن أُسر، واضمحل أمر من ظهر من القرامطة بسواد العراق.

حجّ بالناس سنة ٣١٧هـ منصور الديلمي، وسار بالحجاج من بغداد إلى مكة فسلموا في الطريق، ولكن أبا طاهر القرمطي وافاهم بمكة يوم التروية (الثامن من ذي الحجة) فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه. وجلس أبو طاهر ـ لعنه الله ـ على باب الكعبة والرجال تُصرع حوله، والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام، وهو يقول:

أنـــا لله وبـــالله أنـــا

يـخلـق الـخلـق وأفـنيـهـم أنـا

ودخل رجل من القرامطة إلى حاشية الطواف، وهو راكب سكران، فبال فرسه عند البيت، ثم ضرب الحجر الأسود بدبوسٍ فكسره ثم اقتلعه، وألحد هذا اللعين في المسجد الحرام إلحاداً لم يسبقه إليه أحد ولا يلحقه فيه. وكانت إقامة القرمطي أبي طاهر بمكة أحد

عشر يوماً فلما عاد إلى بلاده رماه الله تعالى في جسده حتى طال عذابه وتقطّعت أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها، وتناثر الدود من لحمه.

ونهض إلى القرامطة أمير مكة محمد بن إسماعيل المعروف بابن مجلب في جماعةٍ من الأشراف فسألوه أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين، وقلع باب البيت، وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب فسقط فمات. وطرح القرمطي القتلى في بئر زمزم، ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قُتلوا بغير كفنٍ ولا غسلٍ ولا صُلّي على أحدٍ منهم، وأخذ كسوة البيت فقسّمها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة، رجع إلى هجر وأخذ معه الحجر الأسود. ولما بلغ ذلك عبيد الله (المهدي) بإفريقية كتب إليه يُنكر عليه ذلك، ويلومه ويلعنه، ويقول: قد حقّقت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت، وإن لم تردّ على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم، وتردّ الحجر الأسود إلى مكانه وتردّ كسوة الكعبة فأنا بريء منك. فلما وصل الكتاب إلى القرمطي أعاد الحجر الأسود[1] واستعاد ما

---

(١) أعيد الحجر الأسود في شهر ذي القعدة سنة ٣٣٩هـ أي بعد أخذه من البيت الحرام باثنتين وعشرين سنة حيث أُخذ سنة ٣١٧هـ.

أمكنه من أموال أهل مكة فردّه، وقال: إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على استعادتها[1].

---

(١) وسأل بعضهم هنا سؤالاً، فقال: قد فعل الله سبحانه وتعالى بأصحاب الفيل ما ذكره في كتابه، ولم يفعلوا بمكة ما فعله هؤلاء، ومعلوم أن القرامطة شرّ من اليهود والنصارى والمجوس، بل ومن عبدة الأصنام، وأنهم فعلوا بمكة ما لم يفعله أحد، فهلا عوجلوا بالعذاب والعقوبة، كما عوجل أصحاب الفيل؟ وقد أُجيب على ذلك إنما عوقبوا إظهاراً لشرف البيت، ولما يُراد به من التشريف العظيم بإرسال النبي الكريم، من البلد الذي فيه البيت الحرام، فلما أرادوا إهانة هذه البقعة التي يراد تشريفها، وإرسال الرسول منها أهلكهم سريعاً عاجلاً، ولم تكن شرائع مقرّرة تدلّ على فضله، فلو دخلوه وخرّبوه لأنكرت القلوب فضله. وأما هؤلاء القرامطة فإنما فعلوا ما فعلوا بعد تقرير الشرائع وتمهيد القواعد، والعلم بالضرورة من دين الله بشرف مكة والكعبة، وكل مؤمنٍ يعلم أن هؤلاء قد ألحدوا في البيت الحرام إلحاداً بالغاً عظيماً، وأنهم من أعظم الملحدين الكافرين، بما تبيّن من كتاب الله وسنة رسوله، فلهذا لم يحتج الحال إلى معالجتهم بالعقوبة بل أخّرهم الرب تعالى ليومٍ تشخص فيه الأبصار، والله سبحانه يُمهل ويُملي، ويستدرج ثم يأخذ أخذ عزيزٍ مقتدرٍ كما قال النبي ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. =

وما فعله عبيد الله (المهدي) حفيد ديصان من الإنكار على فعل القرمطي ليس إيماناً أو مكرمةً بل لتغطية ما يجري وإخفاء الأهداف الحقيقية التي ترمي إليها الحركات التي كانت تقوم حيث كانت تعمل كلها لضرب الإسلام وهدمه من الداخل مع أن قادتها والذين يقومون عليها يجعلون لأنفسهم نسباً يصل بهم إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عن طريق ابنيه الحسن والحسين، رضي الله عنهما، من زوجته فاطمة، رضي الله عنها، بنت رسول الله ﷺ، ويدّعون هذا النسب فيكسبون عاطفة عوام المسلمين حباً برسول الله ﷺ، وآل بيته، وبعدها يستحلّون الأموال والفروج فينضمّ إليهم أيضاً إضافةً إلى أصحاب العاطفة ذوو الشهوة للجنس، وأهل الطمع بالمال، ومحبو القتل والراغبون بالانتقام، لذا كنا نجد القتل والنهب

= وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٤٢].

وقال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة لقمان: ٢٤].

وقال: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة يونس: ٧٠].

البداية والنهاية ابن كثير.

واختطاف النساء، ويسكت أهل العاطفة طاعةً للقيادة وعصبيةً للحركة ومجاملةً للرفقة، ومعظم الحركات في هذه المرحلة وغيرها أخذت هذا المنحى وسلكت هذا المسلك، ومن هذه الحركات: القرامطة، والعبيديون (الفاطميون) وتلك الحركات التي لم تبلغ شأو هذه والتي كانت تظهر بين الفينة والفينة هنا وهناك وكلها تدّعي الانتساب لآل البيت، ويتبعها أولئك الذين ذكرناهم ممن يتبعون رغبات نفوسهم، وينطلقون وراء أهوائهم. فإذا أظهرت إحدى هذه الفرق الإلحاد الصريح، أو الانحراف الشديد انكشف الستر عنها وعن مثيلاتها فانزوى عنها أصحاب العواطف، وابتعد عنها الناس، وحاربها المسلمون، والمجتمع لا يزال مسلماً ملتزماً وصاحب عاطفةٍ. وهذا ما جعل العبيدي يُنكر على رفيقه القرمطي في سبيل مصلحة جماعتيهما ومصلحة باقي الرفاق. وفي مراسلته له وقوله ما يدلّ على خيوط الارتباط بينهما.

مشرق ديار الخلافة:

كان المشرق مجالاً للمنافسة والصراع بين الولاة بعضهم مع بعضٍ لتوسعة النفوذ أو الانتقام وحب السيطرة، فتغلّب سُبكري على طاهر بن محمد، ودخل

فارس، فما كان من الخليفة إلا أن أعطى سُبكري ولاية فارس، فسار الليث بن عليّ بن الليث الصفّار إلى فارس فدخلها، وطرد منها سُبكري، فبعث السلطان مؤنس الخادم لقتال الليث، فظفر مؤنس، وأسر الليث.

وكانت بلاد ما وراء النهر بيد السامانيين، وكان الخلاف بينهم وبين من جاورهم، كما وقع بين أفراد الأسرة نفسها. لقد دخل أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني سجستان سنة ٢٩٩هـ، وأخرج منها المعدل بن علي بن الليث وآل الصفّار، ثم قُتل أحمد بن إسماعيل بن أحمد سنة ٣٠١هـ قتله غلام له تركي، فوقع خلاف بعده بين ابنه نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد في بخارى وبين عمّ أبيه إسحاق بن أحمد في سمرقند. وكانت يد المتلونين تلعب في محاولةٍ لإبعاد نفوذ من كان في منأى عنهم.

قاعدة الخلافة:

كانت بغداد قاعدة الخلافة العباسية منذ أن رجع إليها الخليفة المعتمد على الله سنة ٢٧٠هـ، وفي بغداد يقيم الوزراء والقادة والولاة الذين يرسلون نواباً عنهم إلى الأقاليم المكلفين بإدارتها والإشراف عليها، وعدد من هؤلاء الكبار الذين يقيمون ببغداد من المتلوّنين يقع

بينهم الحسد واتهام بعضهم بعضاً ضمن مخططٍ مرسوم ومرمىً واضحٍ، وإذا كان بعضهم من غير جماعتهم فالعمل لإبعاده والسعي لإزالته، وعلى كل حالٍ ينعكس ذلك على ضعف الخلافة، ورمي الشحناء في النفوس.

فكان قتل الوزير العباس بن الحسن سنة ٢٩٦هـ، وجاء أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات وزيراً بعد ذلك ثم قُبض عليه سنة ٢٩٩هـ، وحلّ مكانه محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، ثم عُزل، وأُعيد أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات، ولكن حال مؤنس الخادم دون ذلك، فاستوزر الخليفة المقتدر عند ذلك أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح، ثم أُعيد أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات سنة ٣٠٤هـ، ولكن قبض عليه مرةً ثانيةً واستوزر الخليفة مكانه أبا العباس حامد بن العباس الخصيبي[١] ٣٠٦هـ، وذلك بعد مقتل الحسين بن حمدان، ورجع إلى الوزارة أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات بعد عزل أبي العباس

(١) حامد بن عباس، أبو محمد: وزير، من عمال العباسيين، كان يلي فارس، وأضيفت إليه البصرة، ثم طلب إلى بغداد، وولي الوزارة، ثم عزل سنة ٣١١هـ، وأرسل إلى واسط، فمات بها سنة ٣١١هـ.

سنة ٣١١هـ، ولكن لم يلبث أن قُتل هو وولده المحسن سنة ٣١٢هـ، واستوزر المقتدر مرةً ثانيةً أبا القاسم محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، ثم أُعيد أبو العباس حامد بن العباس الخصيبي، ثم رجع فعزله، وأعاد علي بن عيسى بن داود بن الجراح سنة ٣١٤هـ، ثم عزله سنة ٣١٦هـ، واستوزر أبا علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة، ثم عزل ابن مقلة سنة ٣١٨هـ واستوزر سليمان بن الحسن بن مخلد ثم عزله بعد سنةٍ وشهرين واستوزر أبا القاسم عبيد الله بن محمد الكلوذاني سنة ٣١٩هـ، واستوزر الحسين بن قاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، وبعد سبعة أشهرٍ عزله، واستوزر أبا الفتح الفضل بن جعفر.

ولم يختلف وضع القواد كثيراً عن وضع الوزراء، فقد كان القائد يُبعد ثم لم يلبث أن يعود إلى الوضع السابق من الثقة فكان مؤنس الخادم، ومؤنس الخازن، ونصر، ووصيف و.. وقد تفتّحت العيون على مؤنس الخادم وانتصاراته حتى عُرف بلقب المظفّر، وكيد له، وأُبعد مراتٍ وعاد إلى مكانته كذلك عدة مراتٍ، وارتفع مركزه في نظر نفسه. وهذا كله كان له الموقف غير الطيب للخلافة.

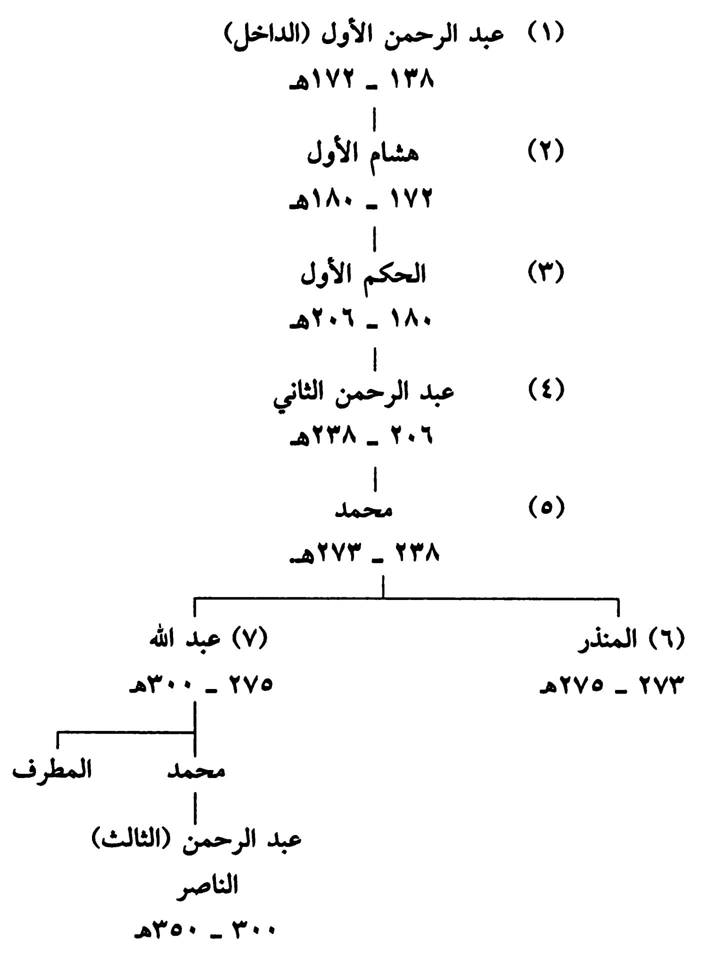
وكذا كثرت الحركات في طبرستان وكانت قاعدة

لأدعياء النسب الطالبي، وإذا ما ضعف أحدهم وهُزم فرّ إلى بلاد الديلم، فإن سنحت له الفرصة عاد ثانيةً وهكذا، وكانت أذربيجان محطّ أنظار الطامعين من ولاة ثغور الجزيرة وغيرهم من الولاة المجاورين أو ممن ينوب عليها.

ولم تكن أوضاع اليمن حسنةً فالمنازعات قائمة فالزيود في صعدة، وبنو زياد في زبيد، وبنو يعفر في صنعاء، والقرامطة يعيثون الفساد يهاجمون القرى والمدن ويقتلون ويسبون وينتهبون و. . .

الأندلس:

كان يحكم الأندلس في هذه المرحلة عبد الله بن محمد الأول (٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ)، وكان يتمتع بصفاتٍ حسنةٍ فهو ورع، متواضع، محب للخير، كثير العناية بشؤون الحكم، ونشر العدل، ورفع الظلم، وينظر المظالم بنفسه، وهو آخر الأمراء. وقد عيّن قبل وفاته حفيده عبد الرحمن الناصر بن محمد ولياً لعهده، ذلك أن أبا الناصر محمد بن الأمير عبد الله الذي كان مرشحاً للعهد بعد أبيه الأمير عبد الله قتله أخوه المطرف حسداً سنة ٢٧٧هـ حين بلغ السابعة والعشرين.



من عمره. وكان عمر عبد الرحمن الناصر ثلاثة أسابيع. وقد أولى الأمير عبد الله حفيده عبد الرحمن بن محمد عنايةً خاصةً، وعندما كبر جعله أميناً عاماً على بعض أعماله، وكان يسند إليه بعض المهمات ليرثه في حكم الأندلس.

وتوفي عبد الله بن محمد سنة ٣٠٠هـ، وتسلّم المهمة حفيده عبد الرحمن فقاد الجيوش بنفسه، فأنزل العصاة من حصونهم، وعفا عمن طلب الأمان وعاد إلى الطاعة، وأعلن الخلافة في الأندلس سنة ٣١٦هـ، وأنهى عهد الإمارة، وبذا أصبح خليفتان في ديار الإسلام. واستمر حكم عبد الرحمن الناصر نصف قرن إذ توفي سنة ٣٥٠هـ، وخلفه ابنه الحكم الثاني، وتلقّب بالمستنصر بالله.

شخصية المقتدر بالله:

كان المقتدر ربعةً من الرجال، حسن الوجه والعينين، بعيد ما بين المنكبين، حسن الشعر، مدور الوجه، مشرباً بحمرة، حسن الخلق، قد شاب رأسه وعارضاه، وكان معطاء جواداً، وله عقل جيد، وفهم وافر، وذهن صحيح، وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحرمين وأصحاب الوظائف. وكان كثير التنفّل بالصلاة والصيام والعبادة.

- كان قليل الظهور للعامة وحتى الخاصة محتجباً في داره.

- كان كثير التوسّع في النفقات، وزاد في رسوم الخلافة وأمور الرياسة.

• كان كثير العزل والولاية والتلوّن، ومُبذّراً. وقد غلبت عليه النساء.

• أمر الخليفة المقتدر بالله أن لا يستخدم اليهود والنصارى.

• كان يكنى أبا الفضل.

• قُتل يوم الأربعاء لثلاثٍ بقين من شهر شوال سنة ٣٢٠هـ، فكان عمره ثماني وثلاثين سنةً وشهراً وخمسة أيامٍ. وكانت مدة خلافته خمسةً وعشرين سنةً إلا ستة عشر يوماً. وتولّى ثلاثة من أبنائه الخلافة وهم: محمد أبو العباس (الراضي بالله)، وإبراهيم أبو إسحاق (المتقي لله)، والفضل أبو القاسم (المطيع لله).

وكان له ستة أولاد من البنين غير هؤلاء الخلفاء، وهم: إسماعيل، وعيسى، والعباس، وطلحة، وعليّ، وهارون.

الملاحظة:

حقّق المتلوّنون شيئاً من أهدافهم التي يبذلون جهدهم للوصول إليها، ومما حقّقوه:

١ ـ ضعف أمر الخلافة بهذه الحركات التي ظهرت والفتن التي وقعت والصراعات التي حدثت.

٢ ـ حدث غبش على التعاليم بما أحدثته الفرق التي ظهرت من قرامطةٍ وعبيديين، وجماعة ابن نصير و.. فكل فرقة تُعطي كبيرها لقب إمامٍ وتُضفي عليه صفات فوق مستوى البشر، وصارت كل جماعةٍ مهما كانت صغيرةً ومهما كانت الفكرة التي تحملها تفعل الفعل نفسه مع رئيسها، فإذا وُجد شخص ذا علمٍ أو ذا نسبٍ فليس غريباً أن يعطيه العامة تلك الصفات بل يرونه أولى من غيره بها، لذا كثر ادّعاء الأنساب، وزاد حمل تلك الصفات ولم يعد ذلك غريباً لدى العامة والجهلة.

استحلّت أكثر هذه الفرق الفروج والأموال لذا أسرع إليها أصحاب الشهوات وأهل الأطماع فكثر الأتباع، ولم يعد ما استحلّ من الكبائر عند الجهلة والعامة وذوي الأهواء، وفي الوقت نفسه قلّ الالتزام بالإسلام، ولم تعد تلك المنزلة التي كانت للعلماء من قبل، وصارت جرأة على بعض الأحكام والعلماء.

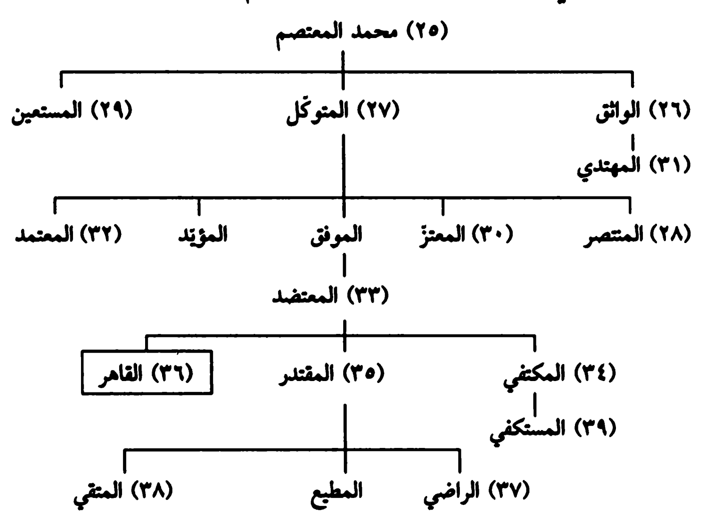
ومع كثرة ادّعاء الأنساب صارت مكانة لمن يدّعي النسب لآل البيت وصار للواحد منهم أتباع ومؤيديون وهذا مما يزيد في ظهور حركاتٍ أخرى تأخذ المنحى نفسه، وهي السهام التي يُوجّهها المتلوّنون على أهدافهم. ادعاء كاذب، وعمل باطل، وانحراف واضح، والسهام عسل مسموم، والهدف خفيّ بالنفس.

الفَصْلُ التَاسِعُ

٣٦ ـ القَاهِر بالله

٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ

القاهر بالله هو أبو منصور محمد بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



القاهر قبل الخلافة:

ولد سنة ٢٨٧هـ أيام خلافة أبيه المعتضد، وتوفي أبوه سنة ٢٨٩هـ وهو لا يزال صغيراً لم يتجاوز السنتين من العمر، وبويع أخوه المكتفي بالخلافة عام ٢٨٩هـ، وتوفي سنة ٢٩٥هـ، فبويع أخوه الثاني وهو المقتدر، وهو لا يزال دون السنة الثامنة من العمر.

وفي سنة ٣١٧هـ، وكان قد بلغ من العمر الثلاثين اشتدت الوحشة بين أخيه الخليفة المقتدر وبين مؤنس الخادم، وتفاقمت الحال إلى أن اجتمع الذين حول أخيه على خلعه وتولية أخيه محمد بن المعتضد، فبايعوه بالخلافة، وسلّموا عليه بها، ولقّبوه القاهر بالله، وذلك ليلة السبت النصف من شهر المحرم، فقلّد أبا علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الوزارة. وأُلزم المقتدر على أن يكتب كتاباً على نفسه بالخلع من الخلافة، وأشهد على نفسه بذلك جماعةً من الأمراء والأعيان.

وفي اليوم التالي وهو يوم الأحد السادس عشر من المحرم جلس القاهر بالله في مجلس الخلافة، وجلس بين يديه الوزير أبو علي بن مقلة، وكتب إلى العمال بالآفاق يخبرهم بولاية القاهر بالخلافة عوضاً

عن أخيه المقتدر بالله، وأطلق علي بن عيسى من السجن، وزاد في إقطاع جماعةٍ من الأمراء الذين قاموا بنصره، منهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان. فلما كان يوم الاثنين جاء الجند، وطلبوا أرزاقهم، وشغبوا، وبادروا إلى نازوك وقتلوه، وهو الذي ولّاه القاهر بالله الحجابة، وهرب الحجّاب، وهرب كذلك الوزير أبو علي بن مقلة، ونادى الجند، يا مقتدر.. يا منصور، ولم يكن مؤنس الخادم يومئذٍ حاضراً، وجاء الجند إلى باب مؤنس يُطالبونه بالمقتدر، فأغلق بابه دونهم. فلما رأى مؤنس الخادم أنه لا بدّ من تسليم المقتدر إليهم أمره بالخروج، فخاف المقتدر أن تكون حيلةً عليه، ثم تجاسر فخرج فحمله الرجال على أعناقهم حتى أدخلوه دار الخلافة، فسأل عن أخيه محمد (القاهر) وعن أبي الهيجاء بن حمدان ليكتب لهما أماناً، فلم يلبث أن جاءه خادم ومعه رأس أبي الهيجاء، ثم استدعى أخاه القاهر فأجلسه بين يديه واستدعاه إليه، وقبّله بين عينيه، وقال: يا أخي أنت لا ذنب لك، وقد علمت أنك مكره مقهور. والقاهر يقول: الله الله! نفسي يا أمير المؤمنين. فقال: وحق رسول الله ﷺ، لا جرى عليك مني سوء أبداً. وعاد ابن مقلة فكتب إلى الآفاق يعلمهم بعودة المقتدر إلى الخلافة، ورجعت الأمور إلى حالها الأول.

وهكذا بقي محمد القاهر خليفةً مدة يومين. وجعله الخليفة المقتدر عند والدته بصفة محبوس عندها، فكانت تُحسن إليه غاية الإحسان، وتشتري له السراري وتُكرمه غاية الإكرام.

خلافة القاهر بالله:

لما قُتل المقتدر بالله يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر شوال سنة ٣٢٠هـ عزم مؤنس الخادم على تولية أبي العباس محمد بن المقتدر بعد أبيه ليُطيّب قلب أم المقتدر التي قُتل ولدها، غير أن الأمراء والأعيان الذين حضروا المجلس لم يروا ذلك، فقال أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبختي: بعد التعب والنكد نبايع لخليفةٍ صبيٍّ له أم وخالات يطيعهنّ ويشاورهنّ؟ إذ كان عمر أبي العباس محمد بن المقتدر يوم ذلك ثلاث عشرة سنةً. ثم أحضروا محمد بن المعتضد ـ وهو أخو المقتدر ـ فبايعه القضاة والأمراء والوزراء، وكان عمره يومذاك ثلاثاً وثلاثين سنةً، ولقّبوه بالقاهر بالله، باللقّب الذي لُقّب به سنة ٣١٧هـ، يوم بويع لمدة يومين فقط.

وقيل: أُحضر هو ومحمد بن المكتفي، فسألوا ابن المكتفي أن يتولّى، فقال: لا حاجة لي في ذلك، وعمّي هذا أحقّ به، فسئل القاهر فأجاب فبويع. فكان

أول عملٍ قام به أن صادر آل أخيه المقتدر وعذّبهم، وضرب أم المقتدر حتى ماتت بالعذاب، ثم استدعى جماعةً من أولاد أخيه المقتدر، منهم: محمد، وهارون، والعباس، وعليّ، والفضل، وإبراهيم، فحبسهم، وسلّمهم إلى حاجبه علي بن يُلبق.

لم يرتح المقرّبون من القاهر من تصرّفاته الشديدة والمتناقضة أحياناً فرأى بعضهم خلعه، ومنهم الوزير أبو علي بن مقلة، والمظفّر مؤنس الخادم، والحاجب علي بن يُلبق، وجماعة من الأمراء فتشاوروا فيما بينهم على خلعه وتولية أبي أحمد بن المكتفي (ابن أخي القاهر)، وعقدوا له الأمر سراً. وحلف له يُلبق وابنه علي، والوزير أبو علي بن مقلة، والحسن بن هارون وبايعوه، ثم كشفوا الأمر لمؤنس، فقال لهم: لست أشك في شرّ القاهر بالله وخبثه، ولقد كنت كارهاً لخلافته، وأشرت بابن المقتدر وخالفتم، وقد بالغتم الآن بالاستهانة به، وما صبر على الهوان إلا من خبث طويته، فلا تعجلوا على أمرٍ حتى تؤنسوه وينبسط إليكم، ثم فتشوا لتعرفوا من واطأه من القواد ومن الساجية[1] ومن

(١) الساجية: نسبةً إلى يوسف بن أبي الساج.

الحجرية[1]، ثم اعملوا على ذلك، فقال علي بن يلبق والحسن بن هارون: ما يحتاج إلى هذه الإطالة فإن الحجابة لنا والدار في أيدينا وما نحتاج أن نستعين في القبض عليه بأحدٍ لأنه بمنزلة طائر في قفص، وعملوا على معاجلته. فاتفق أن سقط يلبق عن الدابة فاعتلّ ولزم منزله. فاتفق ابنه علي والوزير أبو علي بن مقلة وزينا لمؤنس خلع القاهر، وهونا عليه الأمر، فأذن لهما، فاتفق رأيهما على أن يظهروا أن أبا طاهر القرمطي قد ورد الكوفة في خلقٍ كثيرٍ، وأن علي بن يلبق سائر إليه في الجيش ليمنعه عن بغداد. فإذا دخل على الخليفة القاهر بالله ليُودّعه ويأخذ أمره فيما يفعل قبض عليه، فلما اتفقا على ذلك جلس ابن مقلة وعنده الناس فقال لأبي بكر بن قرابة: أعلمت أن القرمطيّ قد دخل الكوفة في ستة آلاف مقاتلٍ بالسلاح التام؟ قال: لا، قال ابن مقلة: قد وصلت إلينا كتب النواب بها بذلك، فقال ابن قرابة: هذا كذب ومحال فإن في جوارنا إنساناً من الكوفة وقد أتاه اليوم كتاب على جناح طائرٍ تاريخه اليوم يخبر بسلامة البلد والعباد. فقال له

(١) الحجرية: نسبةً إلى قبيلة حجر.

ابن مقلة سبحان الله أنتم أعرف منا بالأخبار، فسكت ابن قرابة. وكتب ابن مقلة إلى الخليفة يعرفه ذلك ويقول له: إني قد جهّزت جيشاً مع علي بن يُلبق ليسير يومنا هذا والعصر يحضر إلى الخدمة ليأمره مولانا بما يراه. فكتب القاهر بالله في جوابه يشكره ويأذن له في حضور وداع ابن يُلبق، فجاءت رقعة القاهر بالله - وابن مقلة نائم - فتركوها ولم يوصلها إليه. فلما استيقظ عاد وكتب رقعةً أخرى في المعنى فأنكر القاهر بالله الحال حيث قد كتب جوابه، وخاف أن يكون هناك مكر، وبينا هو في هذا إذ وصلت إليه رقعة طريف السبكري يذكر فيها أن عنده نصيحة وأنه قد حضر في زيّ امرأةٍ ليوصل إليه النصيحة، فاجتمع القاهر بالله به فذكر له جميع ما قد عزموا عليه وما فعلوه من التدبير ليقبض ابن يُلبق عليه إذا اجتمع به وأنهم قد بايعوا أبا أحمد بن المكتفي، فلما سمع القاهر بالله ذلك أخذ حذره، وأنفذ إلى الساجية وأحضرهم متفرقين، وكمنهم في ممرات القصر والرواقات، وحضر علي بن يُلبق بعد العصر ومعه عدد يسير من غلمانه في سلاحٍ خفيفٍ، وأمر جماعةً من عسكره بالركوب إلى أبواب دار الخليفة. وطلب الإذن من الخليفة فلم يأذن له فغضب وأساء أدبه، وقال: لا بد من لقائه شاء أم أبى، فأمر القاهر

بالله الساجية بردّه، فخرجوا إليه وشتموه وشتموا أباه وشهروا سلاحهم وتقدّموا إليه جميهم ففرّ أصحابه عنه، وعبر هو إلى الجانب الغربي واختفى من ساعته، فبلغ ابن مقلة الخبر فاستتر، واستتر الحسن بن هارون أيضاً. فلما سمع طريف الخبر ركب في أصحابه وعليهم السلاح وحضروا إلى دار الخليفة ووقف القاهر بالله فعظم الأمر حينئذٍ على ابن يُلبق وجماعتهم، وأنكر يلبق ما جرى لابنه، وسبّ الساجية، وقال: لا بدّ من المضيّ إلى دار الخليفة فإن كان الساجية فعلوا هذا بغير أمرٍ تقدّم قابلتهم بما يستحقونه، وإن كان بأمرٍ سألته عن سبب ذلك. فحضر دار الخليفة ومعه القواد الذين بدار مؤنس، فلم يوصله الخليفة إليه، وحبسه، وأمر بالقبض على أحمد بن زيرك صاحب الشرطة، وصار الجيش كله في الدار، فأنفذ القاهر بالله إليهم، وطيّب نفوسهم، ووعدهم الزيادة، وأنه يوقف هؤلاء على ذنوبهم ثم يُطلقهم ويُحسن إليهم.

وراسل الخليفة مؤنساً يسأله الحضور عنده ليعرض عليه ما وقع عليهم ليفعل ما يراه، وقال: إنه عندي بمنزلة الوالد، وما أحب أن أعمل شيئاً إلا عن رأيه، فاعتذر مؤنس عن الحركة، ونهاه أصحابه عن الحضور عنده، فلما كان الغد أحضر الخليفة طريفاً السبكري

وناوله خاتمه، وقال له: قد فوّضت إلى ولدي عبد الصمد ما كان المقتدر فوّضه إلى ابنه محمد، وقلّدتك خلافته، ورياسة الجيش، وإمارة الأمراء، وبيوت الأموال كما كان ذلك إلى مؤنس، ويجب أن تمضي إليه وتحمله إلى الدار فإنه ما دام في منزله يجتمع إليه من يريد الشرّ، ولا نأمن تولّد شغل، فيكون ها هنا مرفّهاً ومعه من أصحابه من يخدمه على عادته، فمضى إلى دار مؤنس وعنده أصحابه في السلاح ـ وهو قد استولى عليه الكبر والصلف ـ فسأله أصحاب مؤنس عن الحال فذكر سوء صنيع يُلبق وابنه فكلهم سبّهما، وعرفهم ما أخذ لهم من الأمان والعهود فسكتوا، ودخل إلى مؤنس وأشار عليه بالحضور عند الخليفة القاهر بالله وحمله عليه، وقال له: إن تأخّرت طمع ولو رآك نائماً ما تجاسر أن يوقظك. فسار مؤنس إليه فلما دخل الدار قبض القاهر بالله عليه، وحبسه ولم يره.

وفي أول شعبان استوزر القاهر بالله أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله، وعزل ابن مقلة من الوزارة، وختم دور مؤنس، ويُلبق، وعلي بن يُلبق، وابن مقلة، وأحمد بن زيرك، والحسن بن هارون. وأمر بنقل ما في دار ابن مقلة وإحراقها، وظهر محمد بن ياقوت وقام بالحجابة، ثم لم يلبث أن هرب إلى أبيه

بفارس إذ رأى كراهية طريف السبكري له.

وأمر الخليفة بالنداء على المستترين، وإباحة مال من أخفاهم، وهدم داره، وجدّ في طلب أبي أحمد بن المكتفي، فظفر به، وجعله بين حائطين وبنى ما بينهما، وهو حيّ حتى مات. وظفر كذلك بعلي بن يُلبق.

وشغب أصحاب مؤنس، وثاروا، وتبعهم سائر الجند، وأحرقوا طرف دار الوزير أبي جعفر، ونادوا بشعار مؤنس، وقالوا: لا نرضى إلا بإطلاق مؤنس. وكان كل واحدٍ من المحتجزين في منزلٍ، فمرّ الخليفة مع بعض رجاله على المنزل الذي فيه علي بن يُلبق فقتله، ثم على يُلبق فقتله، ثم على مؤنس فقتله، وأرسل إلى ابن يعقوب النوبختي وهو في مجلس وزيره أبي جعفر محمد بن القاسم فأخذه وحبسه، ورأى الناس من شدة القاهر بالله ما علموا معه أنهم لا يسلمون من يده، وندم كل من أعانه من سبك، والساجية، والحجرية حيث لم ينفعهم الندم.

وفي الثالث عشر من ذي القعدة سنة ٣٢١هـ يوم الثلاثاء قبض القاهر بالله على وزيره أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله، وعلى أولاده، وعلى أخيه عبيد الله، وحرمه، وحبسهم، وكان الوزير مريضاً،

وبقي الوزير محبوساً ثمانية عشر يوماً ومات فحُمل إلى منزله، وأطلق أولاده، واستوزر أبا العباس أحمد بن عبيد الله بن سليمان الخصيبي، وكانت وزارة أبي جعفر ثلاثة أشهرٍ واثني عشر يوماً.

ثم قبض على طريف السبكري وسجنه وبقي سجيناً يتوقّع القتل صباحاً ومساءً إلى أن خُلع القاهر بالله، وهذا الذي أسدى إليه ما أسدى ونقل إليه أخبار الذين تشاوروا على خلعه في بداية عهده.

خلع القاهر بالله:

كان الوزير السابق علي بن مقلة مختبئاً من الخليفة القاهر بالله، وكذا الحسن بن هارون والخليفة يطلبهما، فكانا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويُخوّفانهم من شرّه، ويذكران لهم غدره، ونكثه بالعهود مرةً بعد أخرى كقتل مؤنسٍ، ويُلبق، وعلي بن يُلبق بعد الأيمان لهم، وكقبضه على طريف السبكري بعد اليمين له مع نصح طريف له إلى غير ذلك، وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ليلاً تارةً في زيّ أعمى وتارةً في زيّ امرأةٍ ويُغريهم به. ثم إن القاهر بالله عمل حفراً في الدار فقيل لسيما، ولجماعة قواد الساجية والحجرية إنما عملها لأجلكم فازدادوا نفوراً، ونُقل لسيما أن القاهر بالله يريد قتله،

فجمع الساجية، وكان هو رئيسهم المقدم عليهم، وأعطاهم السلاح، وأرسلوا إلى الحجرية: إن كنتم موافقين لنا فجيئوا إلينا حتى يحلف بعضنا لبعضٍ، وتكون كلمتنا واحدة، فاجتمعوا جميعهم، وتحالفوا على اجتماع الكلمة وقتل من خالف منهم، ووصل ذلك إلى القاهر بالله ووزيره الخصيبي، فأرسل إليهم الوزير ما الذي حملكم على هذا؟ فقالوا: قد صحّ عندنا أن القاهر بالله يريد القبض على «سيما»، وقد عمل حفراً ليحبس فيها قوادنا ورؤساءنا. فلما كان يوم الأربعاء لستٍ خلون من جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ اجتمع الساجية والحجرية عند «سيما» وتحالفوا على الاجتماع على القبض على القاهر بالله، فقال لهم سيما: قوموا بنا الساعة حتى نُمضي هذا العزم فإنه إن تأخّر علم واحترز وأهلكنا. وبلغ ذلك الوزير فأرسل الحاجب سلامة، وعيسى الطبيب ليعلماه بذلك فوجداه نائماً فلم يقدرا على إعلامه بذلك، وزحف الحجرية والساجية إلى الدار، ووكّل «سيما» بأبوابها من يحفظها، وبقي هو على باب العامة، وهجموا على الدار من سائر الأبواب، فلما سمع القاهر بالله الأصوات والغلبة استيقظ وطلب باباً يهرب منه، فقيل له: إن الأبواب جميعها مشحونة بالرجال فهرب إلى سطح حمام، فلما

دخل القوم لم يجدوه، فأخذوا الخدم وسألوهم عنه، فدلّهم خادم صغير فقصدوه فرأوه وبيده السيف فاجتهدوا به فلم ينزل لهم، فألانوا له القول، وقالوا: نحن عبيدك، وإنما نريد أن نأخذ عليك العهود، فلم يقبل منهم، وقال: من صعد إليّ قتلته، فأخذ بعضهم سهماً، وقال: إن نزلت وإلا وضعته في نحرك، فنزل حينئذٍ إليهم، فأخذوه وساروا به إلى الموضع الذي فيه طريف السبكري، ففتحوه وأخرجوه منه، وحبسوا القاهر بالله مكانه وسملوا عينيه، وهرب وزير الخصيبي، وسلامة حاجبه. فكانت خلافته سنةً وستة أشهرٍ وثمانية أيامٍ.

وأودع القاهر بالله دار الخلافة برهةً من الدهر، ثم أخرج سنة ثلاثٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ إلى دار محمد بن طاهر، وقد نالته فاقة وحاجة شديدة، وسأل في بعض الأيام، ثم توفي سنة تسعٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ، وله ثنتان وخمسون سنةً، ودفن إلى جانب أبيه المعتضد.

شخصية القاهر بالله:

أمه أم ولد تدعى «فتنة».

• كان أهوج، بطّاشاً، سريع الانتقام، متناقضاً في تصرّفاته وفكره. فقد أمر بمنع الخمر والقيان والغناء

وبيع المغنيات، وكسر آلات اللهو، ولكن لم يمنع ذلك على نفسه.

• كان له من الأولاد: عبد الصمد، وعبد العزيز، وأبو القاسم، وأبو الفضل.

مشرق الخلافة:

ظهر آل بويه على الساحة السياسية وهم ثلاثة إخوة: عماد الدولة أبو الحسن عليّ، وركن الدولة أبو عليّ الحسن، ومعزّ الدولة أبو الحسن أحمد أولاد أبي شجاع بويه، ويعودون في نسبهم إلى الملك الفارسي يزدجرد بن هرمز بن شابور، فهم أصحاب مكانةٍ عند أهل العصبية الجاهلية الفارسية، وفي الوقت نفسه يُظهرون محبة آل البيت ويتشيّعون لهم ليكسبوا تأييد أصحاب العاطفة من العامة، كما يفعل الذين يريدون الظهور أو الذين يرغبون تمثيل دورٍ.

خرج أولاد بويه الثلاثة من بلاد الديلم مع «ماكان بن كالي» وكانوا من قادته، فلما هُزم «ماكان» أمام «مرداويج» وانسحب من البلدان التي سيطر عليها وهي طبرستان وجرجان، واتجه إلى نيسابور مهزوماً، عندها ترك أولاد بويه «ماكان» بإذنٍ منه، وساروا إلى «مرداويج» مع عددٍ من القادة أمثالهم فأكرمهم، وقلّد

كل واحدٍ من القواد الذين جاءوا إليه ناحيةً من نواحي الجبل، أما عماد الدولة بن بويه فقد أُعطي نيابة الكرخ، فأحسن فيها السيرة، فالتفّ الناس حوله وأحبوه، فحسده «مرداويج»، وبعث إليه يعزله عنها، ويستدعيه إليه، فامتنع من القدوم عليه، وسار إلى «أصبهان» فحاربه نائبها فهزمه عماد الدولة هزيمةً منكرةً، واستولى على أصبهان، وإنما كان معه سبعمائة فارسٍ فقهر بها عشرة آلاف فارسٍ حيث انسحب من المعركة عدد منهم حسب خطةٍ من المتلوّنين لرفع شأن عماد الدولة، فعظم في أعين الناس، فلما بلغ ذلك «مرداويج» قلق منه، فأرسل إليه جيشاً أخرجه من أصبهان، فقصد أذربيجان، فأخذها من نائبها، وحصل له من الأموال شيء كثير جداً، ثم أخذ بلداناً كثيرةً، واشتهر أمره، وبُعد صيته، وحسنت سيرته، فقصده الناس محبةً وتقديراً، فاجتمع إليه من الجند عدد كثير، وأخذت ألسنة المتلوّنين تبثّ الدعايات لعماد الدولة والوسائل التي عملها، حتى انتشرت له الدعايات وشاعت، وزادت الشائعات الحسنة عنه وعمت.

ولما غادر عماد الدولة أصبهان دخلها «وشمكير» أخو «مرداويج» وقائد الجيش الذي سار إليها، وملكها، فلما وصل الخبر إلى الخليفة القاهر بالله أرسل إلى

«مرداويج» قبل خلعه ليمنع أخاه عن أصبهان ويسلّمها إلى محمد بن ياقوت ففعل ذلك.

وكتب أبو طالب زيد بن علي النوبندجاني إلى عماد الدولة يُشير عليه بالمسير إلى شيراز ويُهوِّن عليه أمر محمد بن ياقوت ويُعرفه تهوّره واشتغاله بجباية الأموال وكثرة مؤونته ومؤونة أصحابه وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجُبنهم، فخاف ابن بويه أن يقصد محمد بن ياقوت مع كثرة عساكره وأمواله، إذ خشي أن يقع بين ياقوت وولده لذا لم يقبل ما أشار عليه أبو طالب زيد بن علي، ولم يبرح من مكانه، فعاد أبو طالب وكتب إليه يُشّجعه ويعلمه أن «مرداويج» قد كتب إلى ابن ياقوت يطلب مصالحته، فإن تمّ ذلك اجتمعا على محاربته ولم يكن له بهما طاقة، ويقول له: إن الرأي لمن كان في مثل حاله أن يعالج من بين يديه ولا ينتظر بهم الاجتماع والكثرة حتى يحدقوا به من كل جانبٍ، فإنه إذا هزم الذين بين يديه خافه الباقون ولم يقدموا عليه، ولم يزل أبو طالب يراسله إلى أن سار إلى «النوبندنجان»[1] في شهر ربيع الثاني سنة إحدى

(١) النوبندنجان: قلعة في بلاد فارس في جهات شيراز.

وعشرين وثلاثمائةٍ، وقد سبقته إليها مقدمة ابن ياقوت في نحو ألفي فارسٍ من شجعان أصحابه، فلما وافاهم ابن بويه لم يثبتوا له لمّا لقيهم، وانهزموا إلى «كركان»[1]، وجاءهم ياقوت في أصحابه جميعاً في هذا الموضع، وتقدّم أبو طالب إلى وكلائه بالنوبندجان بخدمة ابن بويه والقيام بما يحتاج إليه، وتنحّى هو عن البلد إلى بعض القرى حتى لا يظنّ فيه المواطأة له. وبعث عماد الدولة أخاه ركن الدولة الحسن إلى «كازرون»[2] وغيرها من أعمال فارس فأخذ منها أموالاً كثيرةً، وبعث ياقوت عسكر إلى «كازرون» فقاتلهم ركن الدولة فهزمهم، وعاد إلى أخيه سالماً. ثم انتهى إلى عماد الدولة مراسلة «مرداويج» وأخيه «وشمكير» إلى ياقوت ومراسلته إليهما، فخاف اجتماعهم فسار من «النوبندنجان» إلى «اصطخر» ثم إلى «البيضاء» وياقوت يتبعه، وانتهى إلى قنطرة على طريق «كرمان» فسبقه ياقوت إليها، ومنعه من عبورها، فاضطر إلى الحرب، ووقع القتال، وانتصر ابن بويه، وولّى ياقوت منهزماً، وتبعه ابن بويه بأصحابه

---

(١) كركان: بلدة في فارس.

(٢) كازرون: مدينة في فارس بين شيراز والخليج العربي في السفوح الغربية للجبال، ولا تزال عامرة.

يقتلون بخصومهم ويأسرون منهم.

ودخل عماد الدولة مدينة شيراز وامتلكها، ووجد أموالاً كثيرةً، وكتب إلى الراضي بالله، وكانت الخلافة قد أفضت إليه، كما كتب إلى الوزير أبي علي بن مقلة يُعرّفهما أنه على الطاعة، ويطلب منه أن يقاطع على ما بيده من البلاد، وبذل ألف ألف درهمٍ، فأُجيب إلى ذلك. وبعث الخليفة القاهر إليه رسولاً يعطيه اللواء والهبة بعد أن يستلم منه المال، غير أن عماد الدولة قد أخذهما قهراً، وغالط الموفود بالمال، حتى مات عنده سنة ٣٢٣هـ. وارتفعت مكانة عماد الدولة فقصده الرجال من الأطراف.

وتألّم «مرداويج» مما ناله ابن بويه فقصد أصبهان للتدبير عليه، وكان بها أخوه «وشمكير» لأنه لما خُلع القاهر بالله وتأخّر محمد بن ياقوت عنها عاد إليها «وشمكير» بعد أن بقيت تسعة عشر يوماً دون أميرٍ، فلما وصل إليها «مرداويج» ردّ أخاه «وشمكير» إلى الريّ.

كرمان:

خرج أبو علي محمد بن الياس من ناحية كرمان إلى بلاد فارس، وبلغ اصطخر، فأظهر لياقوت أنه يريد أن يستأمن إليه حيلةً ومكراً، فعلم ياقوت مكره فعاد إلى كرمان فسيّر إليه السعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان

«ماكان بن كالي» في جيشٍ كثيفٍ، فانهزم محمد بن الياس، واستولى «ماكان بن كالي» على كرمان نيابةً من صاحب خراسان. وكان محمد بن الياس من أصحاب نصر بن أحمد فغضب عليه وحبسه، ثم شفع فيه محمد بن عبيد الله البلغمي فأخرجه وسيّره مع محمد بن المظفر إلى جرجان، فلما خرج يحيى بن أحمد وإخوته ببخارى سار محمد بن الياس إليه فصار معه فلما دبر أمره سار محمد من نيسابور إلى كرمان فاستولى عليها، فأزاله «ماكان» عنها، فسار إلى الدينور، وأقام «ماكان» بكرمان، فلما غادرها رجع إليها محمد بن الياس[1].

قتال الروم:

كان القتال بين المسلمين والروم في هذه المرحلة ضعيفاً لشغل المسلمين بعضهم ببعضٍ، وتخطيط المتلوّنين الذين يتظاهرون بالإسلام، ولخوف الروم من المسلمين وانتظارهم حتى يزداد الخلاف فيما بينهم، ويقع الصراع بين قادتهم ويتسع الخرق.

وللاختبار قصد ملك الروم سنة ٣٢٢هـ مدينة ملاطية في خمسين ألفاً فحاصرهم، ثم أعطاهم الأمان حتى تمكّن

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

منهم، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسر مثلهم، والمسلمون مشغولون فيما بينهم أو منصرفون إلى دنياهم.

الملاحظات:

يلاحظ أن المتلونين قد رجعوا إلى فكرة إيقاع الخلاف بين أفراد الأسرة العباسية، فيخلع خليفة ويبايع أحد أقربائه الذين معه على صلةٍ مباشرة لتبقى البغضاء وتستمر الشحناء، مع تكرار عملية الخلع والبيعة لكن لم يحقق المتلوّنون أهدافهم التي يعملون لها ويسعون لتحقيقها.

يلاحظ أن المتلوّنين قد فكّروا في خطةٍ جديدةٍ وهي إظهار أسرةٍ منهم والتركيز عليها، وربما يعود الأمر لها، وإذا تعذّر الوصول إلى الهدف كاملاً حيث المجتمع مسلم ولا يمكن أن يقبل بذلك، لكن يمكن أن تكون هذه الأسرة بالمكانة الثانية بعد بني العباس، وربما الأولى من حيث الحركية ومُلك زمام الأمور.

وقع الاختيار على أسرةٍ يرجع نسبها إلى الأكاسرة حتى تكون محطّ اهتمام جميع من لم يدخل الإسلام إلى قلوبهم وموضع احترام الذين يضعون محلاً للعصبية، تلك هي أسرة بني بويه.

ووجّهت هذه الأسرة لتقيم في بلاد الديلم حيث يُعرف الإنسان بعد مدةٍ بمكان إقامته، وهكذا كان، وهكذا دُوّن. ومن المعلوم أن كل إنسانٍ يريد أن يمثّل دوراً بارزاً يقتضي إخفاء الحقيقة، وتغيير السياسة، أو تبديل الخطة فلا بدّ له من تغيير موطنه الأول والإقامة في موطنه الجديد مدةً حتى يُعرف به، وينسب إليه، وهذا ما فعله بنو بويه، ويصبح هذا الإنسان كأنه ذو شخصيةٍ جديدةٍ، ويتصرّف حسب الدور المهيّأ له والذي يُعطى له ليقوم به.

وما أن برز بنو بويه حتى أُعطوا صفاتٍ رائعةً من السيرة الحميدة، والأخلاق العالية، والحلم الذي لا نظير له، والأفكار المثالية، وأُشيع حولهم هذا كله، وردّد ذلك المتلوّنون جميعاً حتى انتشر وعمّ، ودوّن في الكتب الموالية والمخالفة بل وسجّل ذلك في الكتب كلها التي كُتبت في تلك المرحلة من الزمن، بل سجّلت لهم كرامات، فيقول ابن كثير عن عماد الدولة أبي الحسن علي بن بويه: «واشتهر أمره، وبعُد صيته، وحسُنت سيرته، فقصده الناس محبةً وتعظيماً، فاجتمع إليه من الجند خلق كثير، وجمّ غفير، فلم يزل يترقّى في مراقي الدنيا حتى آل به وبأخويه الحال إلى أن

ملكوا بغداد من أيدي الخلفاء العباسيين، وصار لهم فيها القطع والوصل، والولاية والعزل، وإليهم تجبى الأموال، ويرجع إليهم في سائر الأمور والأحوال»[1].

ويقول: «ثم اتفق الحال بعد ذلك أن صار إلى شيراز، وأخذها من نائبها ابن ياقوت بعد قتالٍ عظيمٍ، ظفر فيه ابن بويه بابن ياقوت وأصحابه فقتل منهم خلقاً وأسر جماعةً، فلما تمكّن أطلقهم وأحسن إليهم، وخلع عليهم، وعدل في الناس، وكانت معه أموال كثيرة قد استفادها من أصبهان والكرخ وهمدان وغيرها. وكان كريماً جواداً معطياً للجيوش الذين قد التفّوا حوله، ثم إنه أملق في بعض الأحيان وهو بشيراز، وطالبه الجند بأرزاقهم، وخاف أن ينحلّ نظام أمره وملكه، فاستلقى على قفاه يوماً مفكراً في أمره، وإذا حيّة قد خرجت من شقّ في سقف المكان الذي هو فيه، ودخلت في آخره، فأمر بنزع تلك السقوف، فوجد هناك مكاناً فيه شيء كثير من الذهب، نحو من خمسمائة ألف دينار، فأنفق في جيشه ما أراد، وبقي عنده شيء كثير.

وركب ذات يومٍ يتفرّج في جوانب البلد، وينظر

---

(١) البداية والنهاية: أحداث سنة ٣٢١هـ.

إلى ما بنته الأوائل، ويتعظ بمن كان فيه قبله، فانخسفت الأرض من تحت قوائم فرسه، فأمر فحُفر هنالك، فوجد من الأموال شيئاً كثيراً أيضاً. واستعمل عند رجلٍ خيّاطٍ قماشاً ليلبسه، فاستبطأه فأمر بإحضاره، فلما وقف بين يديه تهدّده ـ وكان الخياط أصمّ لا يسمع جيداً ـ فقال: والله أيها الملك ما لابن ياقوت عندي سوى اثني عشر صندوقاً لا أدري ما فيها. فأمر بإحضارها فإذا فيها أموال عظيمة تقارب ثلاثمائة ألف دينارٍ. واطلع على ودائع كانت ليعقوب بن الليث فيها من الأموال ما لا يُحدّ ولا يوصف كثرةً، فقوي أمره وعظم سلطانه جداً. وهذا كله من الأمور المقدرة لما يريد الله بهم من السعادة الدنيوية، بعد الجوع والقلّة ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[1].

ويقول ابن الأثير: «وقد ذكرنا مسير عماد الدولة ابن بويه إلى القنطرة وسبق ياقوت إليها، فلما وصل إليها ابن بويه وصدّه ياقوت عن عبورها اضطر إلى محاربته فتحاربا في جمادى الآخرة، وأحضر ابن بويه أصحابه ووعدهم أنه يترجّل معهم عند الحرب، ويقاتل

(١) سورة القصص: ٦٨. البداية والنهاية حوادث سنة ٣٢٢هـ.

كأحدهم، ومنّاهم ووعدهم الإحسان، وكان من سعادته أن جماعةً من أصحابه استأمنوا إلى ياقوت فلما رآهم ياقوت أمر بضرب رقابهم، فأيقن من مع ابن بويه أنهم لا أمان لهم عنده فقاتلوا قتال مستقتلٍ، ثم إن ياقوتاً قدّم أمام أصحابه رجالةً كثيرةً يقاتلون بقوارير النفط، فانقلبت الريح في وجوههم واشتدّت، فلما ألقوا النار عادت النار عليهم فعلقت في وجوههم وثيابهم، فاختلطوا، وأكبّ عليهم أصحاب ابن بويه فقتلوا أكثر الرجالة، وخالطوا الفرسان فانهزموا، فكانت الدائرة على ياقوت وأصحابه، فلما انهزم صعد على نشزٍ مرتفعٍ ونادى في أصحابه الرجعة فاجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارسٍ، فقال لهم: اثبتوا فإن الديلم يشتغلون بالنهب ويتفرّقون فنأخذهم فثبتوا معه، فلما رأى ابن بويه ثباتهم نهى أصحابه عن النهب، وقال: إن عدوّكم يرصدكم لتشتغلوا بالنهب فيعطف عليكم ويكون هلاككم فاتركوا هذا، وافرغوا من المنهزمين، ثم عودوا إليه، ففعلوا ذلك، فلما رأى ياقوت أنهم اطلعوا على قصده ولّى منهزماً، واتبعه أصحاب ابن بويه يقتلون ويأسرون ويغنمون الخيل والسلاح.

وكان معزّ الدولة أبو الحسن أحمد بن بويه ذلك

اليوم من أحسن الناس أثراً، وكان صبياً لم تنبت لحيته، وكان عمره تسع عشرة سنةً، ثم رجعوا إلى السواد فغنموا ووجدوا في سواده برانس لبود عليها أذناب الثعالب، ووجدوا قيوداً وأغلالاً، فسألوا عنها، فقال أصحاب ياقوت: إن هذه أُعدّت لكم لتجعل عليكم ويُطاف بكم في البلاد، فأشار أصحاب ابن بويه أن يُفعل بهم مثل ذلك فامتنع وقال: إنه بغي ولؤم ظفر، ولقد لقي ياقوت بغيه. ثم أحسن إلى الأسارى، وأطلقهم، وقال: هذه نعمة، والشكر عليها واجب يقتضي المزيد، وخيّر الأسارى بين المقام عنده واللحوق بياقوت، فاختاروا المقام عنده، فخلع عليهم، وأحسن إليهم، وسار من موضع الوقعة حتى نزل بشيراز، ونادى في الناس بالأمان، وبثّ العدل، وأقام لهم شحنةً يمنع من ظلمهم، واستولى على تلك البلاد، وطلب الجند أرزاقهم فلم يكن عنده ما يُعطيهم، فكاد ينحلّ أمره، فقعد في غرفةٍ في دار الإمارة بشيراز يُفكّر في أمره فرأى حيّةً خرجت من موضعٍ في سقف تلك الغرفة، ودخلت في ثقبٍ هناك، فخاف أن تسقط عليه فدعا الفراشين ففتحوا الموضع فرأوا وراءه باباً فدخلوه إلى غرفةٍ أخرى وفيها عشرة صناديق مملوءة مالاً

ومصوغاً، وكان فيها ما قيمته خمسمائة ألف دينارٍ، فأنفقها فثبت ملكه بعد أن كان قد أشرف على الزوال[1].

وحكي أنه أراد أن يفصّل ثياباً فدلّوه على خياطٍ كان لياقوت فأحضره فحضر خائفاً، وكان أصمّ، فقال له عماد الدولة: لا تخف فإنما أحضرناك لتُفصّل ثياباً فلم يعلم ما قال، فابتدأ وحلف بالطلاق والبراءة من دين الإسلام أن الصناديق التي عنده لياقوت ما فتحها فتعجّب الأمير من هذا الاتفاق، فأمره بإحضارها فأحضر ثمانية صناديق فيها مال وثياب قيمته ثلاثمائة ألف دينارٍ، ثم ظهر له من ودائع ياقوت وذخائر يعقوب وعمرو بن الليث جملةً كثيرةً فامتلأت خزائنه وثبت ملكه[2].

هذا ما شاع وانتشر وبقي مئات السنين حتى وصل إلى المؤرخين المخالفين للمتلوّنين حتى سجّلوه على أنه حقيقة، فكيف شيوع ذلك أيام الأحداث؟ إذن نجح المتلوّنون في رفع مكانة مجموعةٍ منهم، كما نجحوا بالدعاية لها في أوساط المجتمع كافةً، حتى غدت مقبولةً لدى الجميع.

---

(١) أية كرامة هذه!! خلف ثقب حية في السقف وجدوا باباً وغرفةً مملوءة بالمال.

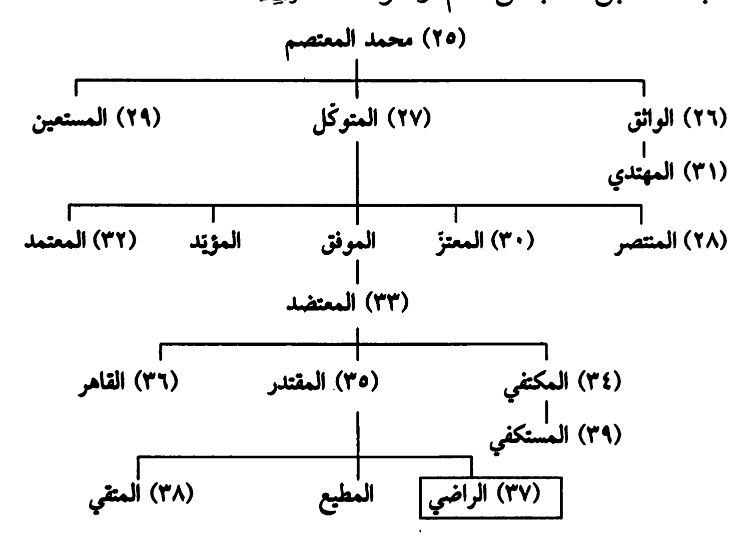
(٢) الكامل في التاريخ: أحداث سنة ٣٢٢هـ.

الفَصْلُ العَاشِر

٣٧ - الـرّاضِي بالله

٣٢٢ - ٣٢٩هـ

الراضي بالله هو أبو العباس محمد بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عم رسول الله ﷺ.



الراضي بالله قبل الخلافة:

ولد أبو العباس محمد بن المقتدر سنة ٢٩٧هـ، وأمه أم ولد رومية تُدعى ظلوم. وكان عمره يوم قُتل أبوه جعفر المقتدر ثلاثا وعشرين سنةً، فعزم مؤنس على توليته بعد أبيه ليطيب قلب أم المقتدر، غير أن جمهور من حضر من الأمراء لم يوافقوا على ذلك إذ استصغروه، وأحضروا محمد بن المعتضد، عمّ الراضي، وبايعوه، ولقّبوه القاهر بالله.

ولما استقرّ الوضع للقاهر بالله استعدى جماعةً من أولاد أخيه المقتدر منهم: أبو العباس محمد «الراضي» وهارون، والعباس، وعلي، والفضل، وإبراهيم، فأمر بمصادرتهم، وحبسهم، وسلّمهم إلى حاجبه علي بن يُلبق، وبقوا محتجزين حتى خُلع القاهر بالله.

خلافة الراضي بالله:

لما خلع الجند الخليفة القاهر بالله وسملوا عينيه أحضروا أبا العباس محمد بن المقتدر بالله فبايعوه بالخلافة، ولقّبوه الراضي بالله، وذلك يوم الأربعاء لستٍ خلون من جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ، وجاءوا بالقاهر بالله وهو أعمى قد سُملت عيناه، فأُوقف بين يديه فسلّم عليه بالخلافة وسلّمها إليه، فقام الراضي

بأعبائها. فأمر بإحضار أبي علي بن مقلة فسلّمه الوزارة، وجعل علي بن عيسى ناظراً معه، وأطلق كل من كان في حبس القاهر بالله، واستدعى عيسى طبيب القاهر بالله فصادره بمائتي ألف دينارٍ، وتسلّم منه الوديعة التي كان القاهر بالله أودعه إياها، وكانت جملةً كثيرةً من الذهب والفضة والجواهر النفيسة.

ولما خُلع القاهر بالله وولي الراضي بالله طمع هارون بن عريب في الخلافة لكونه ابن خال القاهر بالله، وكان نائباً على الكوفة والدينور وما سبذان، فدعا لنفسه، واتبعه عدد كبير من الجند والأمراء، وجبى الأموال، واستفحل أمره، وقويت شوكته، وقصد بغداد، فخرج إليه محمد بن ياقوت زأس الحجبة بجند بغداد جميعاً، فاقتتلوا فخرج في بعض الأيام هارون بن عريب يتقصّد لعله يعمل حيلةً في أسر محمد بن ياقوت، فتعثّرت به فرسه فسقط في نهرٍ، فضربه غلامه فقتله، وانهزم أصحابه، ورجع محمد بن ياقوت منتصراً فدخل بغداد بأبهةٍ.

وفي شهر رمضان سنة ٣٢٣هـ اجتمع جماعة من الأمراء على بيعة جعفر بن المكتفي، فظهر الوزير على أمرهم، فحبس جعفراً، ونُهبت داره، وحبس جماعةً ممن كان بايعه.

وخرج الحجاج في غفارة الأمير لؤلؤ، فاعترضهم أبو طاهر القرمطي فقتل أكثرهم، ورجع من انهزم منهم إلى بغداد، ولم يكن هناك حاج عن طريق العراق.

وكان مرداويج بن زياد الديلمي أحد المتلوّنين غير أنه كان يجاهر أحياناً بما يعمل له، وعندما عظم أمره في أصبهان زادت جُرأته على المجاهرة بأهدافه، فتحدّث أنه يريد أخذ بغداد، وأن يُمالىء صاحب البحرين رئيس القرامطة، وقد اتفقا على ردّ الدولة من العرب إلى العجم، وأساء السيرة في رعيته، ويزعم أن روح سليمان بن داود حلّت فيه، وله سرير من ذهب يجلس عليه والأتراك بين يديه، ويزعم أنهم الجن الذين سُخّروا لسليمان بن داود، وكان يسيء المعاملة لجنده ويحتقرهم غاية الاحتقار، كما أساء السيرة في رعيته ولا سيما في خواصه، وهو مقدّم الديلم، ويصرّح فيقول: أنا أردّ دولة العجم، وأمحق دولة العرب فتمالأ عليه خواصه حتى أمكنهم الله منه فقتلوه شرّ قتلةٍ في حمامٍ، وكان القائم بأعباء قتله أخصّ مماليكه وهو «بُجكم» التركي. ووافق المتلوّنون على قتله في سبيل كتمان ما يسعون إليه، إذ كان يفضح ذلك من باب الفخر. وكان ركن الدولة بن بويه رهينةً عنده، فأُطلق

لما قُتل، فذهب إلى أخيه عماد الدولة، وذهبت طائفة من الأتراك معه إلى أخيه، والتفّت طائفة منهم على «بُجكم»، فسار بهم إلى بغداد بإذن الخليفة له في ذلك، ثم صُرفوا إلى البصرة فكانوا بها.

وأما الديلم فإنهم بعثوا إلى أخي «مرداويج» وهو «وشمكير»، فلما قدم عليهم تلقّوه في الطريق حفاةً مشاةً فملكوه عليهم لئلا يذهب نفوذهم، فانتُدب إلى محاربته السعيد نصر بن أحمد الساماني نائب خراسان وما وراء النهر وما والاها من تلك البلاد والأقاليم فانتزع منه بلداناً كثيرةً.

وبعث عماد الدولة بن بويه إلى أصبهان فاستولى عليها وعلى بلاد الجبل فاتسعت إمارته وزاد نفوذه.

وفي سنة ٣٢٤هـ جاء الجند فأحدقوا بدار الخلافة، وقالوا: ليخرج إلينا الخليفة الراضي بالله بنفسه فيصلّي بالناس، فخرج فصلّى بهم وخطبهم، وقبض الغلمان على الوزير أبي علي بن مقلة، وسألوا الخليفة أن يستوزر غيره، فردّ الخيرة إليهم، فاختاروا علي بن عيسى، فلم يقبل، وأشار بأخيه عبد الرحمن بن عيسى، فاستوزره، وأُحرقت دار ابن مقلة، وسلّم هو إلى عبد الرحمن بن عيسى، فضُرب ضرباً عنيفاً، وأخذ من

أمواله الكثير، ثم عجز عبد الرحمن بن عيسى عن الوزارة، فعُزل بعد خمسين يوماً، وقُلّد الوزارة أبو جعفر بن القاسم الكرخي، فصادر من أموال علي بن عيسى، ومن أموال أخيه عبد الرحمن بن عيسى، ثم عُزل بعد ثلاثة أشهرٍ ونصف، وقُلد سليمان بن الحسين، ثم عُزل بأبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات.

وضعُف أمر الخلافة جداً، وبعث الخليفة الراضي بالله إلى محمد بن رائق(١) ـ وكان بواسط ـ

---

(١) محمد بن رائق: أبو بكر، أمير من الدهاة الشجعان، له شعر وأدب، كان أبوه من مماليك الخليفة المعتضد، وولي محمد شرطة بغداد للمقتدر سنة ٣١٧هـ، ثم إمارة واسط والبصرة، وولّاه الراضي إمرة الأمراء والخراج ببغداد سنة ٣٢٤هـ، وأمر أن يُخطب له على المنابر ثم قلّده طريق الفرات وديار مضر التي هي حران والرها وما جاورهما وجند قنسرين والعواصم، ورُدّت أمور الخلافة إليه، وظهر له تغيّر من الخليفة، فتوجّه إلى الشام، وأعلن أنه ولّاه عليها سنة ٣٢٨هـ فدخل دمشق وطرد عنها بدراً الإخشيدي، وزحف ليأخذ مصر فقاتله محمد بن طغج في العريش فانهزم محمد بن رائق، وعاد إلى دمشق، وتمّ الصلح بينهما على أن تكون الشام له، ومصر للإخشيد والحدود بينهما الرملة، وأقام نحو سنة، ورضي عنه الخليفة المتقي، فعاد إلى بغداد، وسلمه إمرة الأمراء، ولم=

يدعوه إليه ليوليه إمرة الأمراء ببغداد، وأمر الخراج، والرقابة في البلاد والدواوين جميعها، وأمر أن يخطب له على المنابر جميعها، وبعث إليه بالهبات، فقدم ابن رائق إلى بغداد على ذلك كله، ومعه الأمير «بجكم» التركي غلام «مرداويج». واستحوذ ابن رائق على أموال العراق كاملةً، ونقل أموال بيت المال إلى داره، ولم يبق للوزير تصرّف في شيء، ووهى أمر الخلافة جداً، واستقلّ نواب الأطراف بالتصرّف فيها، ولم يبق للخليفة حكم في غير بغداد ومعاملاتها، ومع هذا ليس له مع ابن رائق نفوذ في شيءٍ، ولا تفرّد بشيءٍ، ولا كلمة تُطاع، وإنما يحمل إليه ابن رائق ما يحتاج إليه من الأموال والنفقات وغيرها.

= يكد يستقر حتى زحف البريدي من واسط على بغداد فقاتله المتقي وابن رائق، واستنجد المتقي بناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان فبعث إليه أخاه سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان، ولقيه الخليفة المتقي وابن رائق بتكريت، وأخلص سيف الدولة للمتقي، ثم اجتمع ابن رائق بناصر الدولة في الجانب الشرقي من دجلة، ولما أراد الانصراف شبّ به فرسه، فسقط، فصرخ ناصر الدولة بغلمانه اقتلوه فقتلوه وذلك سنة ٣٣٠هـ. ولم يتمكّن أحد من الراضي تمكّنه منه، وهو الذي قطع لسان ابن مقلة ويده.

وهكذا صار أمر من جاء بعده من أمراء الأكابر، كانوا لا يرفعون رأساً بالخليفة، وأما بقية الأمصار:

البصرة بيد محمد بن رائق يولي فيها من شاء.

والأهواز إلى أبي عبد الله البريدي، وقد غلب عليها محمد بن ياقوت مع ما كان له من «تستر».

وأمر فارس بيد عماد الدولة بن بويه ينازعه فيها «وشمكير» أخو «مرداويج».

وكرمان بيد أبي علي محمد بن الياس بن اليسع.

وبلاد الموصل والجزيرة وديار بكر ومضر وربيعة مع بني حمدان.

ومصر والشام في يد محمد بن طغج[1].

---

(١) محمد بن طغج بن جفّ، أبو بكر، الملقّب بالإخشيد: مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر والشام، والدعوة فيها للخلفاء من بني العباس، تركي الأصل، مستعرب من أبناء المماليك، ولد سنة ٢٦٨هـ في بغداد، وبها نشأ، وظهرت كفايته فتقلّب في الأعمال إلى أن ولي إمرة الديار المصرية، واستقرّ بها سنة ٣٢٣هـ بعد حروب وفتن، وقد ولّاه الراضي بالله على مصر والشام والحجاز، ولقبه الإخشيد لأنه فرغاني، وكل من ملك بفرغانة يسمّى الإخشيد، وكان بخيلاً جباناً، له ثمانية آلاف مملوكٍ، يحرسه في كل ليلةٍ ألف مملوكٍ، ثم لا يثق حتى يمضي إلى خيام الفراشين فينام فيها، ثم كانت بينه وبين سيف=

وإفريقية والمغرب بيد العبيديين أحفاد ديصان.

والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر الأموي، وقد أعلن الخلافة وتسلّم شؤونها.

وخراسان وبلاد ما وراء النهر بيد السعيد نصر بن أحمد الساماني.

وطبرستان وجرجان بيد الديلم.

والبحرين واليمامة بيد القرمطي أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي.

وأخذ الصراع بين نواب الأمصار، ولم تبق هيبة للخلافة، فقد قاتل محمد بن رائق نائب الأهواز أبا عبد الله البريدي. وارتحل الوزير أبو الفتح بن الفرات من بغداد إلى الشام، وترك الوزارة فوليها أبو علي بن مقلة، وكانت وزارةً ضعيفةً جداً إذ لم يكن لصاحبها شيء مع محمد بن رائق الذي طمع في أموال ابن مقلة فطلبها منه، فجعل يماطله، فكتب ابن مقلة إلى «بجكم»

= الدولة الحمداني وقائع، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وإنطاكية وحمص وللإخشيد بقية بلاد الشام مضافة إلى مصر. وتوفي الإخشيد بدمشق سنة ٣٣٤هـ، ودفن في بيت المقدس، وكان موكبه يضاهي موكب الخلافة، وهو أستاذ كافور الإخشيدي.

يُطمعه في بغداد وأن يكون مكان محمد بن رائق، وفي الوقت نفسه كتب ابن مقلة إلى الخليفة الراضي بالله يطلب منه أن يسُلّمه ابن رائق وابن مقاتل، ويضمنهم بألفي دينارٍ، فبلغ ذلك ابن رائق فأخذ ابن مقلة وقطع يده، وقال: هذا أفسد في الأرض. ثم بلغ ابن رائق ما كتب ابن مقلة إلى «بجكم»، فأخذه وقطع لسانه وسجنه في مكانٍ ضيقٍ وليس عنده من يخدمه، ومات في سجنه.

ودخل «بجكم» بغداد سنة ٣٢٦هـ فقلّده الخليفة الراضي بالله إمرة الأمراء مكان محمد بن رائق، وأُسكن في دار مؤنس الخادم، وارتفعت مكانته جداً.

وبعث عماد الدولة بن بويه أخاه معزّ الدولة فأخذ الأهواز لأبي عبد الله البريدي، وانتزعها من يد «بجكم»

واستولى «لشكري» أحد أمراء «وشمكير» الديلمي على بلاد أذربيجان وانتزعها من يد رستم بن إبراهيم الكردي.

بويه «أبو شجاع»

علي أبو الحسن «عماد الدولة»   الحسن أبو علي «ركن الدولة»   أحمد أبو الحسين «معز الدولة».

وفي مطلع سنة ٣٢٧هـ خرج الخليفة الراضي بالله إلى الموصل لقتال ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن

حمدان نائبها، وخرج بين يدي الخليفة أمير الأمراء «بجكم»، وقاضي القضاة أبو الحسين عمر بن محمد بن يوسف، وقد استخلف مكانه على بغداد ولده القاضي أبا نصر يوسف بن عمر في منصب القضاء عن أمر الخليفة بذلك. فلما انتهى «بجكم» إلى الموصل نازل الحسن بن عبد الله بن حمدان فهزمه، وانهزم الحسن وأصحابه إلى نصيبين. واغتنم محمد بن رائق غيبة الخليفة عن بغداد فدخلها بألفٍ من القرامطة وأكثر فيها الفساد، ولكنه لم يتعرّض لدار الخلافة، ثم بعث إلى الخليفة يطلب منه المصالحة والعفو عما جنى، فأجابه إلى ذلك، وبعث إليه قاضي القضاة أبا الحسين عمر بن محمد بن يوسف، وارتحل ابن رائق عن بغداد، ودخلها الخليفة في جمادى الأولى سنة ٣٢٧هـ.

وركب ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه من الأهواز قاصداً بغداد فلما وصل إلى واسط علم الخليفة بذلك فركب مسرعاً مع «بجكم» يبغيان قتاله فخاف وعاد راجعاً إلى الأهواز، فرجع الخليفة و«بجكم» إلى بغداد أيضاً، غير أن ركن الدولة قد تملّك مدينة أصبهان من «وشمكير».

خرج أبو عبد الله البريدي إلى واسط وكتب إلى

«بجكم» يحثّه على الخروج إلى الجبل لاحتلاله فإن فعل فإنه سيساعده على أخذ الأهواز من يد عماد الدولة بن بويه، وكان قصد البريدي أن يخرج «بجكم» من بغداد فيدخلها هو. واستمع «بجكم» إلى كلام البريدي في بداية الأمر، فلما انفصل بالجنود بلغه قصد البريدي والمكيدة التي يريدها به، فرجع سريعاً إلى بغداد، وركب في جيشٍ كثيفٍ إليه، وأخذ الطرق عليه من كل جانبٍ، لئلا يشعر به إلا وهو يُداهمه. وكان «بجكم» قد تزوج ابنة عبد الله البريدي ولد أبي عبد الله البريدي. ولما شعر البريدي بقدوم «بجكم» هرب إلى البصرة، ثم فرّ منها، ودخل «بجكم» واسط. وتسلّط الديلم على جنده الذين خلفهم بالجبل ففرّوا سراعاً إلى بغداد.

واستولى محمد بن رائق على بلاد الشام فدخل حمص أولاً فأخذها، ثم انطلق إلى دمشق وعليها بدر بن عبد الله المعروف ببدر الإخشيد، وهو غلام محمد بن طغج بن جفّ، فأخرجه محمد بن رائق من دمشق قهراً واستولى عليها، ثم ركب ابن رائق في جيشٍ إلى الرملة فأخذها، ثم إلى عريش مصر فأراد دخولها فلقيه محمد بن طغج الإخشيد، فاقتتلا هناك، فهزمه محمد بن رائق، ولكن اشتغل أصحابه بالنهب ونزلوا بخيام

المصريين، فكرّ عليهم المصريون فهزموهم ونالوا منهم نيلاً عظيماً، وهرب محمد بن رائق في سبعين رجلاً من أصحابه، فدخل دمشق في حالٍ سيئةٍ، وأرسل له ابن طغج أخاه نصر بن طغج في جيش فاقتتلوا عند «اللجون»[1] في الرابع من ذي الحجة سنة ٣٢٨هـ، فهزم ابن رائق المصريين، وقُتل أخو الإخشيد فيمن قُتل، فغسّله ابن رائق وكفّنه، وبعث به إلى أخيه بمصر، وأرسل معه ولده، وكتب إليه يحلف أنه ما أراد قتله، ولقد شقّ عليه، وهذا ولدي فاقتد منه، فأكرم الإخشيد ولد محمد بن رائق، واصطلحا على أن تكون الرملة وما بعدها إلى ديار مصر للإخشيد، ويحمل الإخشيد إليه في كل سنةٍ مائةً وأربعين ألف دينارٍ، وما بعد الرملة إلى جهة دمشق لمحمد بن رائق.

القرامطة:

يستحلّ القرامطة الأموال والفروج، وكان أسهل السبل إلى ذلك قطع الطرق والغارة على المدن، ومن قطع الطرق اعتراض طريق الحجاج المزوّدين بالمؤن،

---

(١) اللجون: مرج في فلسطين إلى الغرب من بحيرة طبرية وعلى بعد ٣٢ كيلاً منها.

وترافقهم النساء، وليست لهم قوة إذ لم يخرجوا لقتال لذا كان النوال منهم سهلاً، وإضافةً إلى ما يحصل عليه القرامطة من هذا الاعتراض فهم يفسدون في الأرض وينشرون الفوضى، ويصدّون عن سبيل الله، وهذا أمل من آمالهم وهدف من أهدافهم.

خرج الحجاج من بغداد ليشهدوا موسم سنة ٣٢٣هـ، فاعترض سبيلهم القرمطي أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنّابي، وقاتلهم، وظفر بهم، فسألوه الأمان بعد أن نال منهم ما نال وأخذ ما أخذ، فأمّنهم على أن يرجعوا إلى بغداد ـ صدّاً عن سبيل الله ـ فرجعوا، وكان ذلك في الثاني عشر من ذي القعدة، وكان الأمان عن طريق جماعةٍ من أهل الكوفة من الطالبيين إذ خرجوا إلى أبي طاهر وسألوه أن يكفّ عن الحجاج، فكفّ عنهم، وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد، فرجعوا، وذلك عند القادسية، ولم يحجّ بهذه السنة من العراق أحد. وسار أبو طاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيامٍ ثم رحل عنها.

واختلف القرامطة سنة ٣٢٦هـ، وفسد حالهم، وقتل بعضهم بعضاً، وسبب ذلك أنه كان رجل منهم يقال له: ابن سنبر ـ وهو من خواص أبي سعيد الجنابي

القرمطي والمطّلعين على سرّه ـ وكان له عدوّ من القرامطة اسمه أبو حفص الشريك، فعمد ابن سنبر إلى رجلٍ من أصبهان، وقال له: إذا ملكتك أمر القرامطة أريد منك أن تقتل عدوي أبا حفص فأجابه إلى ذلك، وعاهده عليه، فأطلعه على أسرار أبي سعيد وعلامات كان يذكر أنها في صاحبهم الذي يدعون إليه، فحضر عند أولاد أبي سعيد، وذكر لهم ذلك، فقال أبو طاهر: هذا هو الذي يدعو إليه، فأطاعوه، ودانوا له حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله، وكان إذا كره رجلاً يقول له: إنه مريض ـ يعني أنك شكّ في دينه ـ ويأمر بقتله، وبلغ أبا طاهر أن الأصبهاني يريد قتله ليتفرّد بالملك، فقال أبو طاهر لإخوته: لقد أخطأنا في هذا الرجل، وسأكشف حاله، فقال له: إن لنا مريضاً فانظر إليه ليبرأ، فحضروا، وأضجعوا والدته، وغطّوها بإزارٍ فلما رآها قال: إن هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه، فقالوا له: كذبت، هذه والدتك، ثم قتلوه بعد أن قتل منهم خلقاً كثيراً من عظمائهم وشجعانهم، وكان هذا سبب تمسّكهم بـ «هجر» وترك قصد البلاد والإفساد فيها.

وانقطع طريق الحج من بغداد سنة ٣٢٣هـ بسبب القرامطة الذين يعيثون الفساد في البلاد، واستمرّ

انقطاعه حتى سنة ٣٢٧هـ حيث تدخّل بالأمر أبو علي يحيى بن محمد الطالبي، إذ كان القرامطة يدّعون احترامه وتقديره ما داموا يدّعون الانتساب إلى من ينتمي إليه، وهم أكذب من ادّعى، ووافق القرامطة أن يدفع لهم خمسة دنانير عن كل جملٍ، وسبعة دنانير عن المحمل، فاتفقوا معه على ذلك، فخرج الناس في هذه السنة إلى الحج على هذا الشرط، وكان في جملة من خرج: الشيخ أبو علي بن أبي هريرة أحد أئمة الشافعية، فلما اجتاز بهم طالبوه بالخفارة فثنى رأس راحلته ورجع، وقال: ما رجعت شُحّاً ولكن سقط عني الوجوب بطلب هذه الخفارة.

العبيديون:

مات عبيد الله بن الحسين حفيد ديصان في ربيع الأول من سنة ٣٢٢هـ، وقد تلقّب بالمهدي، وبنى مدينة المهدية على الساحل الشرقي لبلاد تونس بين خليج «الحمامات» وخليج «قابس» إلى الشرق من مدينة القيروان وعلى بُعد خمسين كيلاً منها، وقد ناهز الثالثة والستين من العمر، وكانت ولايته منذ دخل «رقادة» قاعدة الأغالبة سنة ٢٩٧هـ، وادّعى الإمامة إلى أن مات أربعاً وعشرين سنةً وشهراً وعشرين يوماً.

ولما مات عبيد الله قام بأمر (الخلافة) من بعده ولده نزار أبو القاسم الملقّب «القائم بأمر الله» وحين توفي أبوه كتم موته سنةً حتى دبّر ما أراده من الأمور، ثم أظهر ذلك، وعزّاه الناس فيه، وكان أبوه قد عهد إليه.

ثار على القائم جماعة فتمكّن منهم، وكان من أشدّهم رجل يقال له: ابن طالوت القرشيّ ثار في ناحية طرابلس، وزعم أنه ولد المهدي، فقاموا معه، وزحف إلى مدينة طرابلس فقاتله أهلها، ثم تبيّن للبربر كذبه فقتلوه، وحملوا رأسه إلى القائم.

وجهّز القائم جيشاً كثيفاً مع ميسور الفتى إلى المغرب فانتهى إلى فاس وإلى تكرور، وهزم خارجياً هناك، وأخذ ولده أسيراً، وعاد منتصراً.

وسيّر جيشاً في البحر، وقدّم عليهم رجلاً اسمه يعقوب بن إسحاق فوصل إلى مدينة «جنوه» في إيطالية فغنم وسبى، ورجع سالماً، ثم عادوا في السنة التالية، ودخلوا «جنوه»، ومرّوا على جزيرة سردينيا، وأوقعوا بأهلها، وأحرقوا مراكب كثيرةً وسيّر جيشاً آخر مع خادمه زيدان، وبالغ في النفقة عليهم وتجهيزهم إلى مصر، فدخلوا مدينة الإسكندرية، فأخرج إليهم محمد

الإخشيد عسكراً كثيفاً قاتلهم وانتصر عليهم، وقتل فيهم وأسر، ورجع العبيديون خائبين مفلولين.

وفي سنة ٣٢٥هـ خلع أهل «جرجنت» في صقلية طاعة أميرهم سالم بن راشد، وكان قد استعمله عليهم القائم بأمر الله العبيدي صاحب إفريقية، وكان سالم بن راشد سيء السيرة في الناس، فأخرج أهل «جرجنت» عامل العبيدي عليهم، فسيّر إليهم سالم جيشاً ضخماً من أهل صقلية وإفريقية، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانتصر عليهم أهل «جرجنت» ولاحقوهم، فخرج إليهم سالم فلقيهم واشتدّ القتال بينهم، وعظم الخطب فانهزم أهل جرجنت في شهر شعبان، فتعاطف معهم آخرون فخرجوا على سالم وخالفوه وعظم شغبهم عليه وقاتلوه في شهر ذي القعدة سنة ٣٢٥هـ فهزمهم وحصرهم بالمدينة، وأرسل إلى القائم بالمهدية يُعرّفه أن أهل صقلية قد خرجوا عن طاعته وخالفوا أوامره، ويستمدّه، فأمده القائم بجيشٍ استعمل عليه خليل بن إسحاق، فسار الجيش حتى وصل إلى صقلية، فرأى خليل من طاعة أهلها ما سرّه، وشكوا إليه ظلم سالم وجوره، وخرج إليه النساء والصبيان يبكون ويشكون، ولكن سالماً أخبر السكان أن القائم قد أرسل خليلاً

لينتقم منهم بمن قتلوا من عسكره فعاودوا الخلاف، فشرع خليل في بناء مدينةٍ على مرسى المدينة وحصّنها، ونقض كثيراً من المدينة وأخذ أبوابها، وسمّى المدينة التي بناها «الخالصة»، ونال الناس شدّة في بنائها، فبلغ ذلك أهل «جرجنت» فخافوا وتحقّق عندهم ما قال لهم سالم فحصّنوا مدينتهم واستعدّوا للحرب، فسار إليهم خليل في شهر جمادى الأولى سنة ٣٢٦هـ، وحصرهم، فخرجوا إليه، ووقع القتال، واشتدّ الأمر، وبقي محاصراً لهم ثمانية أشهرٍ لا يخلو يوم من قتالٍ، وجاء الشتاء فرحل عنهم في ذي الحجة إلى «الخالصة» فنزلها.

وما دخلت سنة ٣٢٧هـ حتى كان قد خالف على خليل أهل القلاع جميعاً، وأهل مازر، وذلك كله بسعي أهل «جرجنت» وبثّوا سراياهم، واستفحل أمرهم، وكاتبوا ملك القسطنطينية يستنجدونه فأمدّهم بالمراكب فيها الرجال والطعام، فكتب خليل إلى القائم يستنجده فبعث إليه جيشاً ضخماً، فخرج خليل بمن معه من أهل صقلية فحاصروا قلعة أبي ثور فملكوها، وكذلك قلعة البلوط فملكوها، وحاصروا قلعة «أبلاطنو» وأقاموا عليها حتى انتهت سنة ٣٢٧هـ، فلما دخلت سنة ٣٢٨هـ

رحل خليل بمن معه عن قلعة «أبلاطنو» وحاصر «جرجنت»، وأطال عليها الحصار، ثم رحل عنها، وترك عليها عسكراً يُحاصرونها مقدمهم أبو خلف بن هارون فدام الحصار إلى سنة ٣٢٩هـ، فهرب كثير من أهلها إلى بلاد الروم، وطلب الباقون الأمان فأمنهم على أن ينزلوا من القلعة، فلما نزلوا غدر بهم وحملهم إلى المدينة، فلما رأى أهل سائر القلاع ذلك أطاعوا فلما عادت المنطقة إلى طاعته رحل إلى إفريقية في ذي الحجة سنة ٣٢٩هـ، وأخذ معه وجوه أهل جرجنت، وجعلهم في مركبٍ، وأمر بثقبه وهو في لجة البحر فغرقوا.

وثار الخوارج الأباضيون في طرابلس على العبيديين غير أن حركتهم اقتصرت على أباضية قبيلة «هوارة» لذا كانت ضعيفةً، وأرسل القائم قوةً بحريةً حاصرت أهل طرابلس من جهة البحر، وقطعت عنهم المؤن فاضطروا إلى الاستسلام مقابل دفع مبلغٍ من المال وتسليم ثلاثةٍ من رؤسائهم حملوا إلى «رقادة» حيث قُتلوا هناك سنة ٣٣٠هـ.

وقامت ثورة أخرى للخوارج الأباضية في المغرب الأوسط وتُعدّ أهم الثورات التي واجهت العبيديين، وقد

قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد[1]، وقد ظهر منذ سنة

---

(١) مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث الزناتي النكّاري، أبو يزيد: ثائر من زعماء الأباضية وأئمتهم. بريري الأصل. كان يغلب عليه الزهد والتقشف، ويلبس جبّة صوفٍ قصيرة الكمين. ولد ونشأ في «قسطيلة» وكانت تابعةً لـ «توزو» ونشأ بتوزو، وخالط النكّارية وهم من الخوارج الصفرية، وسافر إلى «تاهرت» فكان معلماً للصبيان فيها، وانتقل إلى «تقيوس»، ثم أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر سنة ٣١٦هـ، فكثر أتباعه ولما مات عبيد الله (المهدي) سنة ٣٢٢هـ خرج بناحية جبال «أوراس» وتلقّب بشيخ المؤمنين، وقاتلته عساكر القائم العبيدي بن عبيد الله صاحب المغرب، وعظم أمره فزحف على «رقادة» في مائتي ألف مقاتلٍ، وامتلكها، وخضعت له القيروان سنة ٣٣٣هـ، وأرسل أحد قواده إلى «سوسة»، فاستباحها، وحاصر القائم في عاصمته «المهدية»، وجاع أهلها حتى أكلوا الميتة والدواب. ثم بدأت هزائم أبي يزيد بانتفاض بعض البربر عليه، فرجع إلى القيروان سنة ٣٣٤هـ، وغنم أهل المهدية معسكره، وتوالت المعارك، وانتفضت عليه «سوسة» فعاد إلى حصارها، ومات القائم العبيدي سنة ٣٣٤هـ، وتولّى ابنه المنصور، وأخفى موت أبيه، وخرج من المهدية، فالتقى بأبي يزيد على «سوسة» فكانت الحرب سجالاً، ثم انهزم أبو يزيد، وقُتل من أصحابه عدد كبير، وتعقّبه المنصور في جبالٍ ووعرٍ ومضائق، وكلما أدركه ثبت له أبو يزيد قليلاً ثم انهزم إلى أنْ حُصر في قلعة كتامة، واستأمن من الذين معه فأمنهم المنصور، ودخل القعلة عنوةً وأضرمها ناراً، فحمل أبو يزيد على أصحاب المنصور حملةً=

٣١٦هـ في جبال أوراس وقوي أمره سنة ٣٢٥هـ إذ انضمّت إليها الخوارج الإباضية بفرقها كلها، كما انضمّ إليها أهل السُّنّة ضدّ العبيديين الذين أساؤوا إلى الإسلام، وانتهكوا حرماته، فأرسل القائم العبيدي إلى عامله على «قسطيلة» ليحمل إليه أبا يزيد، فاعتقله أبو يزيد، فأرسل عندئذٍ القائم جيشاً قوياً حاصر منطقة الأوراس غير أن أبا يزيد قد تمكّن من فكّ الحصار، وانضمّت إليه بعض القبائل الأخرى فأحرز نصراً على جيوش العبيديين وتتبعهم، وبدأت المدن تسقط أمامه حتى دخل رقادة سنة ٣٣٣هـ، واتجه نحو المهدية، فخندق حولها القائم، وكاد ينتهي أمر العبيديين لولا استنهاض همّة «كتامة» و«صنهاجة» وخندقة القائم حول المهدية، وأرسل القائم الجيوش للقاء أبي يزيد لكنها هُزمت وتشتّت شملها، ولم يتابع أبو يزيد فلولها، وقوي بعدئذٍ أمر القائم. أما أبو يزيد فقد أخبر أمير الأندلس عبد الرحمن الناصر بالانتصارات التي أحرزها، وفرح المسلمون هناك إذ توقّعوا انتهاء أمر العبيديين وعودة القوة للمسلمين.

= منكرةً، فأفرجوا له وخرج، وأمر المنصور بطلبه، فألفوه جريحاً قد حمله ثلاثة من أصحابه، فجاءوا به إلى المنصور، فمات من جراحه بعد أسره بأربعةِ أيامٍ، وذلك سنة ٣٣٦هـ.

وثار الخوارج الصفرية أيضاً ضد العبيديين إذ استغلّ محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار فرصة ضعف ابن عمه سمكو بن محمد أبي المنتصر واشتعال ثورة الأباضيين فدعا لنفسه وخلع طاعة العبيديين، وتلقّب بالشاكر لله وأظهر تأييده للعباسيين لكسب أهل السنة إلى جانبه، وكان حسن السيرة، وهذا ما جعل بعضهم يقول: إنه كان من أهل السنة.

الروم:

كان في شهر ذي القعدة سنة ٣٢٦هـ فداء بين المسلمين والروم، وكان عدد من فودي من المسلمين ستة آلاف وثلاثمائةٍ بين ذكرٍ وأنثى، وكان القيّم به ابن ورقاء الشيباني، وتمّ على نهر «البدندون». وذلك بعد أن ورد كتاب من ملك الروم إلى الخليفة الراضي بالله مكتوب بالرومية ومترجم بالعربية، فالكتابة الرومية بماء الذهب، والعربية بماء الفضة، وعنوانه من رومانوس وقسطنطين واصطفانس عظماء ملوك الروم إلى الشريف البهي ضابط سلطان المسلمين. باسم الأب والابن وروح القدس الإله الواحد. الحمد لله ذي الفضل العظيم، الرؤوف بعباده، الجامع للمفترقات والمؤلف الأمم المختلفة

في العداوة حتى يصيروا واحداً، الذي جعل الصلح أفضل الفضائل، إذ هو محمود العاقبة في السماء والأرض. ولما بلغنا ما رُزقتَه أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدّمك من الخلفاء حمدنا الله... وحاصله طلب الهدنة بيننا وبينه. ووجّه مع الكتاب بهدايا ولطائف كثيرةٍ فاخرةٍ.

فكتب إليهم الخليفة الراضي بالله بإنشاء أحمد بن جعفر بن ثوابة. بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أبي العباس الإمام الراضي بالله أمير المؤمنين إلى رومانونس وقسطنطين واصطفانس رؤساء الروم السلام على من اتبع الهدى، وتمسّك بالعروة الوثقى، وسلك سبيل النجاة والزلفى.... ثم أجابهم إلى ما طلبوا.

الأندلس:

كان أمير الأندلس عبد الرحمن الناصر منذ سنة ٣٠٠هـ، وقد أعلن الخلافة وتسّمى بها سنة ٣١٦هـ، واستمرّ عهده حتى سنة ٣٥٠هـ، وفي هذه المرحلة وفي سنة ٣٢٥هـ خرجت الفرنجة إلى الأندلس التي للمسلمين فنهبوا وقتلوا وسبوا، وكان ممن قتل من المشهورين

جحاف بن يُمن[1]، قاضي بلنسية.

ووقعت فتنة في الأندلس سنة ٣٢٧هـ، وذلك عبد الرحمن الناصر الخليفة في الأندلس قتل وزيره أحمد بن إسحاق، فغضب أخوه أمية بن إسحاق، وكان نائباً على مدينة «شنترين» فارتدّ، ودخل بلاد النصارى، واجتمع بملك الجلالقة[2] «ردمير» ودلّهم على عورات المسلمين، فسار إليهم بجيشٍ كثيفٍ من الجلالقة، فخرج إليهم عبد الرحمن الناصر فأوقع بهم بأساً شديداً، وقتل من الجلالقة خلقاً كثيراً، ثم كرّ الفرنجة على المسلمين فقتلوا منهم خلقاً كثيراً قريباً ممن قتلوا منهم، وأرادوا اللحوق بالمسلمين غير أن أمية بن إسحاق أخذته الحمية فحال دون ذلك. وعاد عبد الرحمن الناصر فجهّز الجيوش إلى بلاد الجلالقة، وألحّوا عليهم بالغارات وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين. ثم ندم أمية بن إسحاق على ما صنع،

(١) جحاف بن يُمن، أبو جعفر: ولّاه عبد الرحمن الناصر قضاء بلنسية، واستشهد في غزو الروم (غزوة الخندق)، وخلّف في بلنسية عقباً تداولوا القضاء من بعده، وهو من رجال الحديث.

(٢) الجلالقة: نسبةً إلى جيليقية في شمالي شبه الجزيرة الأندلسية.

وطلب الأمان من عبد الرحمن، فبعث إليه بالأمان، فلما قدم عليه قبّله واحترمه.

وفاة الراضي بالله:

توفي الخليفة الراضي بالله في منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩هـ بعلّة الاستسقاء، فكانت خلافته ستّ سنواتٍ وعشرة أشهرٍ وعشرة أيامٍ، إذ كان قد بويع في السادس من جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ. وكان عمره يوم توفي إحدى وثلاثين سنةً وتسعة أشهرٍ إذ ولد في شهر رجب سنة ٢٩٧هـ.

شخصية الراضي بالله:

كان قصير القامة، أسمر اللون، أسود الشعر وسبطه، نحيف الجسم، في وجهه طول، وفي مقدم لحيته تمام، وفي شعرها رقة. وأراد أن يعهد إلى ولده الأصغر أبي الفضل، فلم يتفق له ذلك.

● كان سمحاً، كريماً، أديباً، شاعراً، فصيحاً، محباً للعلماء، سمع الحديث من البغوي، له شعر مدوّن.

● قالوا عنه: كان آخر خليفةٍ له شعر مدوّن، وآخر خليفةٍ خطب يوم الجمعة.

• وقد رثى أباه المقتدر فقال:

ولو أنّ حيّاً كان قبراً لميتٍ
لصيّرت أحشائي لأعظمه قبرا
ولو أن عمري كان طوع مشيئتي
وساعدني المقدور قاسمته العُمرا
بنفسي ثرى ضاجعت في تربة البلى
لقد ضمّ منك الغيث والليث والبدرا

وكان الخليفة الراضي بالله مع اهتمامه وحرصه دون المستوى المطلوب للمواجهة لمكر المتلوّنين، وخبث التخطيط، وحرص المتنفّذين على مصالحهم، وأطماع القياديين، وأسلوب الإمارة، وتباين الأهواء، ووجود من يوقع الخلاف، ويرمي البغضاء بين عمال الأقاليم ونواب الأمصار.

الملاحظات:

نجح المتلوّنون في مكرهم، ونالوا بعض أهدافهم، وحصلوا على ما خطّطوا له.

رفع المتلونون بعض أسرٍ منهم، وقدّموهم، ودعموهم بإمكاناتهم كلها حتى عُرفوا وظهروا، وعملوا على إبقائهم في مناطقهم ليحصلوا على التأييد عصبيةً، وحاولوا إبعادهم عن المناطق التي لا يسكنها أبناء

جنسهم كي لا يُعادوا عصبيةً. وقد أثاروا حولهم الدعايات الطيبة الرائعة وأشاعوها في كل مكانٍ حتى أحبّهم سكان الأمصار جميعاً، وذاع صيتهم بين أهالي الأقاليم كلها، ورُوِّجت حولهم أخبار المكارم، وأنباء الفضائل، وأول هذه الأسر التي حظيت بهذا كله بنو بويه الذين ذكرنا بعض ما رُوّج عنهم.

ودعم المتلوّنون بعض من أيّدهم من العرب عاطفةً، ووافقهم مصلحةً وتقرّب إليهم حظوةً، وأشاعوا حولهم الدعاية الطيبة، وروّجوا لهم المحاسن فارتفعت مكانتهم، ونالوا شهرةً، وأعطوهم الولاية والنيابة في المنطقة العربية كي لا يكونوا غرباء، ويحظوا بالتأييد عاطفةً، حيث يجد السكان عادةً الغلط الصغير كبيراً فيما إذا كان الوالي غريباً عنهم. وممن نال هذه المكانة بنو حمدان الذين أخذ نجمهم يظهر ويتألّق ما داموا يحملون رأي المتلوّنين.

وسعى المتلوّنون في زيادة الخلافات في قاعدة الخلافة وما حولها كي يتمكّن أعوانهم من الظهور بالدعم والتأييد، فكان القادة في خلافاتهم والولاة في صراعاتهم، ورجال النيابة في تعدّياتهم، فبدأ المجال ينفتح أمام بني بويه وبني حمدان وأمثالهم، وتعلو كلمتهم، وترتفع مكانتهم.

أما مغرب ديار الخلافة فكان تحت إدارة العبيديين بل أعلنوا خلافةً لهم مخالفةً للنظام الإسلامي الذي لا يسمح بقيام خليفتين في وقتٍ واحدٍ، فكيف وقد صاروا ثلاثة خلفاء في بغداد، وقرطبة، والمهدية.

وإذا كان هناك تباين بين المتلوّنين والعبيديين في المرامي البعيدة لاختلاف الأصول بين زرادشت وديصان غير أن هناك تقارباً ولقاءً في الأهداف القريبة من محاولةٍ لإضعاف المسلمين والعمل على ضربهم والهدم في الأفكار والمبادئ للخلاف والإضعاف بالفرقة والإبعاد عن فكرة الجهاد.

وكان القرامطة في البحرين يعملون أيضاً نخراً وإفساداً وتشجيعاً لاستحلال الفروج والأموال.

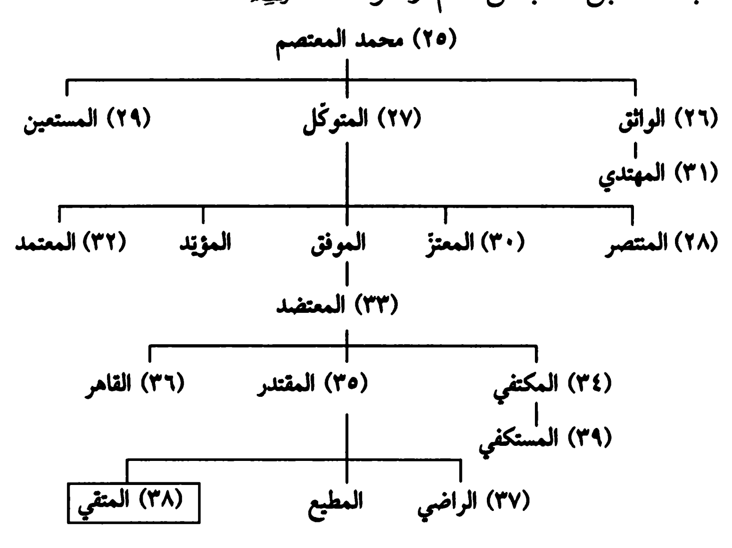


الفَصلُ الحَادِي عَشر

٣٨ - المُتّقي لله

٣٢٩ - ٣٣٣هـ

المتقي لله هو أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



المتقي لله قبل الخلافة:

ولد المتقي لله سنة خمسٍ وتسعين ومائتين، وأمه أَمة تدعى «خَلوب» وقيل: «زهرة»، وهو أكبر من أخيه الراضي بالله. ولم يكن للمتقي دور قبل خلافته حيث لم تدع الفوضى لأحدٍ بالظهور، ولم يسمح القادة لأحدٍ بالبروز، كما لم تكن هناك أدوار تنتظر من يُؤدّيها.

خلافة المتقي:

لما مات الراضي بالله في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٣٢٩هـ بقي الأمر في الخلافة موقوفاً بانتظار قدوم أبي عبد الله الكوفي كاتب «بجكم» أمير الأمراء الذي كان بـ «واسط». فورد كتاب «بجكم» مع أبي عبد الله الكوفي يأمر فيه بأن يجتمع مع أبي القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضي كل من تقلّد الوزارة وأصحاب الدواوين والقضاة والأعيان والعباسيون، ويشاورهم الكوفي فيمن يرتضونه خليفةً، فجمعهم واستشارهم فذكر بعضهم إبراهيم بن المقتدر، ولكن لم يتفقوا، وتفرّقوا، وفي اليوم التالي اتفقوا عليه، فأُحضر إلى دار الخلافة، وأرادوا بيعته، فصلّى ركعتي الاستخارة وهو على الأرض، ثم صعد إلى الكرسي بعد الصلاة، ثم صعد إلى السرير، وبايعوه في العشرين من

ربيع الأول، وعُرضت عليه ألقاب فاختار «المتقي لله»، وبايعه الناس كافةً، فلم يُغيّر على أحدٍ، ولا غدر بأحدٍ، وبعث بالهبة والهدية إلى «بجكم» بواسط.

أقرّ الخليفة المتقي لله في الوزارة أبا القاسم سليمان بن الحسن ولكن لم يكن له من الوزارة إلا اسمها إذ كان التدبير كله بيد أبي عبد الله الكوفي كاتب «بجكم»، وجعل المتقي لله حاجباً له سلامة الطولوني.

مقتل ماكان بن كالي:

كان أبو علي بن محمد بن المظفر بن محتاج قد سار إلى جرجان وأخرج «ماكان» عنها، فاتجه إلى طبرستان وأقام بها، وأقام أبو علي بجرجان، ثم استخلف عليها إبراهيم بن سيمجور، وسار هو إلى «الريّ» في شهر المحرم من سنة ٣٢٩هـ، فوصل إليها في ربيع الأول وبها «وشمكير بن زيار» أخو «مرداويج». وكان عماد الدولة بن بويه وأخوه ركن الدولة يكاتبان أبا علي ويحثّانه على السير إلى «وشمكير» ويعدانه بالمساعدة، وقصدهما أن تؤخذ الريّ من وشمكير، فإذا أخذها أبو علي لا يمكنه المقام بها لاتساع ولايته بخراسان فيغلبان عليها. وبلغ أمر اتفاقهم إلى «وشمكير» فكاتب «ماكان بن كالي» يستخدمه، ويعرفه

الحيل، فسار «ماكان بن كالي» من طبرستان إلى الريّ، وسار أبو علي، وأتاه عسكر ركن الدولة بن بويه، فاجتمعوا معه بإسحاقأباد، والتقوا هم و«وشمكير»، ووقف «ماكان بن كالي» في القلب، وباشر الحرب بنفسه، وعبأ أبو علي أصحابه كراديس، ودار القتال، وترجّل «ماكان» وأبلى بلاءً حسناً، وأبدى شجاعةً فائقةً، وأتاه سهم فوقع في جبينه فنفذ في الرأس حتى طلع من قفاه فسقط ميتاً، وهرب «وشمكير» ومن سلم معه إلى طبرستان فأقام، واستولى أبو علي على الريّ.

مقتل بجكم:

بعث أبو عبد الله البريدي جيشاً من البصرة إلى الأهواز، فأرسل بجكم جيشاً عليه «توزون» إلى الأهواز، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت الدائرة على «توزون» في البداية، فكتب إلى «بجكم» يطلب منه أن يلحق به، فسار إليهم «بجكم» من واسط في منتصف شهر رجب سنة ٣٢٩هـ، فلقيه في الطريق كتاب من «توزون» بأنه ظفر بهم وهزمهم، فأراد الرجوع إلى واسط، فأشار عليه بعض أصحابه بأن يتصيد فقبل منه، وسار إلى الصيد، واعتدى في سيره على بعض الأكراد هناك، فطعنه غلام منهم برمحٍ من خلفه فقتله. واختلف

جنده من بعده فسار الديلم نحو البريدي، وسار الأتراك إلى واسط، وأخرجوا «تكينك» من السجن، وكان قد حبسه «بجكم»، فسار «تكينك» بالأتراك إلى بغداد، وأظهروا الطاعة للخليفة المتقي لله، واستولى المتقي على دار «بجكم»، وأخذ ماله منها. وكانت أيام «بجكم» على بغداد سنتين وثمانية أشهرٍ وتسعة أيامٍ.

وحدّثت البريدي نفسه ببغداد، فأنفق الخليفة أموالاً جزيلةً في الجند ليمنعوه من ذلك، فركب الخليفة المتقي لله بنفسه ليمنعه من دخول بغداد، فخالفه البريدي ودخل بغداد في الثاني من رمضان سنة ٣٢٩هـ، ونزل بالشفيع، فلما تحقّق المتقي ذلك بعث إليه يُهنئه، وأرسل إليه بالأطعمة، وخوطب بالوزير، ولم يخاطبه بإمرة الأمراء. فأرسل البريدي يطلب من الخليفة المتقي لله خمسمائة ألف دينارٍ فامتنع الخليفة من ذلك، فبعث إليه يتهدّده ويتوعّده ويُذكّره ما حلّ بالمعتزّ والمستعين والمهتدي والقاهر، واختلفت الرسل بينهما، ثم كان آخر ذلك أن بعث الخليفة إليه بذلك قهراً، ولم يتفق اجتماع الخليفة والبريدي ببغداد حتى خرج البريدي منها إلى واسط، وذلك أنه ثارت عليه الديالمة، والتفّوا حول كبيرهم «كورتكين» وقدّم الأتراك عليهم «تكينك»

غلام «بجكم»، وسار الديلم إلى دار البريدي فأحرقوا دار أخيه أبي الحسين التي كان ينزلها، وانضمّ إليهم «تكينك» وصاروا يداً واحدةً، واتفقوا على السير إلى البريدي في مقرّة ونهب ما عنده من الأموال فساروا إلى «النجمي»، ونفرت عن البريدي طائفة أخرى من جيشه يقال لها: «البجكمية»، وذلك لأنه لما قبض المال من الخليفة لم يعطهم منه شيئاً، ووافقهم العامة، فقطع البريدي الجسر، ووثب العامة بالجانب الغربي على أصحاب البريدي فهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابه، واتجهوا إلى واسط، وكانت مدة إقامته في بغداد أربعةً وعشرين يوماً، وقد هرب من بغداد مع انتهاء شهر رمضان.

إمارة كورتكين:

لما هرب البريدي استولى «كورتكين» على الأمور ببغداد، ودخل إلى الخليفة المتقي لله فقلّده إمرة الأمراء، وخلع عليه، واستدعى علي بن عيسى وأخاه عبد الرحمن، ففوّض إلى عبد الرحمن تدبير الأمور من غير تسميةٍ بوزارة، ثم إن كورتكين قبض على تكينك التركي في الخامس من شوال سنة ٣٢٩هـ، وأغرقه في الماء، وتفرّد بالأمر. ثم إن العامة تظلّمت من الديلم لأنهم كانوا

يأخذون منهم دورهم، فشكوا ذلك إلى كورتكين فلم يشكهم، فمنعت العامة الخطباء أن يصلوا في الجوامع، واقتتل العامة والديلم ووقع أعداد من القتلى من كلا الفريقين، وذلك في شهر شوال سنة ٣٢٩هـ.

عودة محمد بن رائق:

كتب الخليفة المتقي لله إلى أبي بكر محمد بن رائق صاحب الشام يستدعيه ليخلّصه من الديلم ومن البريدي، فركب إلى بغداد في جيشٍ عظيمٍ. وكان الأتراك البجكمية قد ساروا إلى الموصل غير أنهم لم يجدوا عند ابن حمدان ما يريدون فساروا إلى الشام إلى ابن رائق، وكان فيهم من القواد: توزون، وخجخج، وصغون، ونوشتكين فلما وصلوا إلى ابن رائق أطمعوه في العودة إلى العراق، ثم وصل إليه كتاب الخليفة المتقي لله.

سار محمد بن رائق من الشام في عشرين رمضان، واستخلف على الشام أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتلٍ، فلما وصل إلى الموصل تنحّى عن طريقه ناصر الدولة الحسن بن حمدان فتراسلا ثم اتفقا على أن يتصالحا، وحمل ابن حمدان إليه مائة ألف دينارٍ، فلما اقترب ابن رائق من بغداد خرج كورتكين

بجيشه ليُقاتله، فدخل ابن رائق بغداد من غربيها، ورجع كورتكين بجيشه فدخل من شرقيها، ثم تصافّوا ببغداد للقتال، وساعدت العامة ابن رائق على كورتكين فانهزم الديلم وقُتل منهم عدد كبير، وهرب كورتكين واختفى، واستقرّ أمر ابن رائق، وخلع عليه الخليفة، وركب هو وإياه في دجلة فظفر ابن رائق بكورتكين فأودعه السجن الذي في دار الخلافة.

لم يرتح محمد بن رائق للبريدي لأنه أخّر المال، فانحدر ابن رائق إلى واسط فهرب بنو البريدي إلى البصرة، وتوسّط لهم أبو عبد الله الكوفي حتى رجعوا إلى واسط وأدّوا ما عليهم من مالٍ، وعاد ابن رائق إلى بغداد، وذلك سنة ٣٣٠هـ، وشغب الجند وفيهم توزون وغيره من القواد على ابن رائق ورحلوا إلى أبي عبد الله البريدي بواسط، فلما وصلوا إليه قوي بهم، واضطر ابن رائق إلى مداراته، فكاتب أبا عبد الله البريدي بالوزارة، وبعث إليه بالخلع. ثم وردت الأخبار إلى بغداد بعزم البريدي على المسير إلى بغداد، فأزال ابن رائق اسم الوزارة عنه، وأعاد أبا إسحاق القراريطي.

استيلاء البريدي على بغداد:

سيّر أبو عبد الله البريدي أخاه أبا الحسين إلى

بغداد في الجيش من الأتراك والديلم كلهم، وعزم محمد بن رائق على التحصّن بدار الخلافة فأصلح سورها ونصب عليه المنجنيق، وجرى القتال وانهزم أهل بغداد، واستولى أصحاب البريدي على دار الخلافة ودخلوا إليها لتسعٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٠هـ، وهرب الخليفة المتقي لله وابنه الأمير أبو منصور في نحو عشرين فارساً، ولحق بهم ابن رائق في جيشه فساروا جميعاً نحو الموصل.

قتل أصحاب البريدي من وجدوا في دار الخلافة من الحاشية ونهبوها، وأخذوا «كورتكين» من سجنه وبعثه أبو الحسين إلى أخيه بواسط. ونزل أبو الحسين بدار مؤنس التي يسكنها ابن رائق.

جعل أبو الحسين على الشرطة بشرقي بغداد «توزون» وفي الجانب الغربي «نوشتكين»، وحدثت فوضى في بغداد فاقتتل الديلم والعامة، ووقع قتال بين الأتراك وجماعةٍ من القرامطة في الخفاء فانهزم القرامطة وغادروا بغداد.

مقتل محمد بن رائق:

كان الخليفة المتقي لله وهو في طريقه إلى الموصل قد بعث إلى ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن

حمدان يستمدّه على البريديين، فأرسل أخاه سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان نجدةً له في جيشٍ كثيفٍ، فلقي الخليفة وابن رائق بتكريت قد انهزما، فرجع سيف الدولة معهما إلى الموصل، وتردّدت الرسل بين ناصر الدولة وابن رائق حتى تعاهدا واتفقا، فحضر ناصر الدولة ونزل على الجانب الشرقي من نهر دجلة فعبر إليه الأمير أبو منصور بن الخليفة المتقي وابن رائق يُسلّمان عليه، فلما أرادوا الانصراف من عنده ركب ابن المتقي وأراد ابن رائق الركوب، فقال له ناصر الدولة: تقيم اليوم عندي لنتحدث فيما نفعله، فاعتذر ابن رائق بابن المتقي، فألحّ عليه ابن حمدان فاستراب به وانفلت منه وأراد الركوب فشبّ به الفرس فسقط فصاح ابن حمدان بأصحابه اقتلوه فقتلوه وألقوه في دجلة.

ابن حمدان أمير الأمراء:

لم قَتل الحسن بن عبد الله بن حمدان محمد بن رائق أرسل إلى الخليفة المتقي لله وهو في تكريت كتاباً يقول له فيه: إنه علم أن ابن رائق أراد أن يغتاله ففعل به ما فعل، فردّ عليه المتقي ردّاً جميلاً ـ ولم يكن باستطاعته سوى ذلك ـ وأمره بالمسير إليه. فسار ابن حمدان إلى المتقي لله، فخلع عليه، ولقّبه ناصر الدولة

وجعله أمير الأمراء وذلك في مستهل شعبان سنة ٣٣٠هـ، وخلع المتقي كذلك على أخي ناصر الدولة وهو أبو الحسين علي بن عبد الله بن حمدان ولقّبه سيف الدولة. وكان قتل ابن رائق يوم الاثنين لتسعٍ بقين من شهر رجب. ولما قُتل ابن رائق وبلغ خبر مقتله إلى الإخشيد محمد بن طغج صاحب مصر سار إلى دمشق وكان بها محمد بن يزداد نائباً عن ابن رائق، فاستأمن إلى الإخشيد وسلّم إليه دمشق، فأقرّه عليها، ثم نقله إلى مصر وجعله على شرطتها.

ولما بلغ خبر مقتل محمد بن رائق إلى بغداد فارق أكثر الأتراك أبا الحسين البريدي لسوء سيرته، فهرب خجخج إلى المتقي. ثم تحالف توزون ونوشتكين والأتراك على مداهمة أبي الحسين البريدي، فغدر نوشتكين فأعلم البريدي الخبر، فاحتاط وأحضر الديلم عنده، وقصده توزون فحاربه الديلم، وعلم توزون غدر نوشتكين به فعاد ومعه عدد كبير من الأتراك، وسار نحو الموصل في الخامس من رمضان فقوي بهم الحسن بن عبد الله بن حمدان وعزم على التوجّه إلى بغداد، واستعدّ وتوجّه هو والخليفة المتقي. واستعمل على أعمال الخراج والضياع بديار مضر وهي: الرها،

وحرّان، والرقة أبا الحسن علي بن طياب وسيّره من الموصل، وكان على ديار مضر أحمد بن علي بن مقاتل نائباً لمحمد بن رائق فاقتتلوا، فقتل أبو الحسن علي بن طياب خصمه واستولى على ديار مضر.

ولما قارب الخليفة المتقي وناصر الدولة بن حمدان بغداد هرب منها إلى واسط أبو الحسين البريدي بعد أن أقام بها ثلاثة أشهرٍ وعشرين يوماً. ودخل المتقي لله بغداد ومعه بنو حمدان في جيوشٍ كثيرةٍ وذلك في شوال سنة ٣٣٠هـ، ففرح المسلمون فرحاً شديداً، وبعث الخليفة إلى أهله ـ وكان قد أخرجهم إلى سامراء ـ فردّهم، وتراجع أعيان الناس إلى بغداد بعد ما كانوا قد رحلوا عنها. وردّ الخليفة أبا إسحاق الفزاري إلى الوزارة، وولّى «توزون» شرطة جانبي بغداد.

خرج بنو حمدان نحو واسط، وسار أبو الحسين البريدي من واسط إليهم ببغداد، فأقام ناصر الدولة بالمدائن، وسيّر أخاه سيف الدولة وابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان في الجيش إلى قتال البريدي فالتقوا بعد المدائن بفرسخين، واقتتلوا عدة أيامٍ آخرها رابع ذي الحجة، وكان توزون، وخجخج والأتراك مع ابن حمدان، فانهزم سيف الدولة ومن معه

إلى المدائن وبها ناصر الدولة فردّهم وأضاف إليهم من كان عنده من الجيش فعاودوا القتال فانهزم أبو الحسين البريدي، وأُسر جماعة من أعيان أصحابه، وقُتل جماعة، وعاد أبو الحسين البريدي منهزماً إلى واسط، ولم يستطع سيف الدولة اتباعه إليها لما في أصحابه من الوهن والجراح. ولما استراح سيف الدولة وأصحابه تابعوا المسير من موضع المعركة إلى واسط فرأوا البريديين قد هربوا باتجاه البصرة، فأقام بواسط ومعه الجيش. وأما ناصر الدولة فكان قد عاد إلى بغداد ومعه الأسرى على الجمال، وقد دخل بغداد في الثالث عشر من ذي الحجة سنة ٣٣٠هـ. ونظر ناصر الدولة في المصالح العامة فأصلح معيار الدينار فضرب دنانير سمّاها الإبريزية.

وعزل الخليفة المتقي لله عن الحجابة بدر الخرشني، وولاّها سلامة الطولوني، وجعل بدر الخرشني على طريق الفرات فسار إلى الإخشيد فأكرمه فاستنابه على دمشق فمات بها.

اختلف الترك على سيف الدولة في واسط فهرب منها قاصداً بغداد، وبلغ أخاه أمير الأمراء ناصر الدولة خبره فخرج من بغداد إلى الموصل فنهبت داره، وكانت

دولته على بغداد سنةً وشهراً وخمسة أيامٍ، وجاء سيف الدولة إلى بغداد بعد خروج أخيه منها فطلب من الخليفة أن يمدّه بمالٍ يتقوّى به على حرب توزون، فأمدّه، فوزّع ما أخذه على أصحابه، وحين سمع بقدوم توزون خرج من بغداد ودخلها توزون في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٣٣١هـ، فخلع عليه الخليفة، وجعله أمير الأمراء، واستقرّ أمره ببغداد، وعند ذلك رجع البريدي إلى واسط، وأخرج من كان بها من أصحاب توزون، وكان في أسر توزون غلام لسيف الدولة يقال له: ثمال، فأرسله إلى مولاه ليخبره حاله، ويرفع أمره عند آل حمدان.

تزوج أبو عبد الله البريدي من ابنه توزون وصارا يداً واحدةً على الخليفة، وكان توزون بواسط فأرسل ابن شيرزاد في ثلاثمائة فارسٍ إلى بغداد فأفسد فيها، واستقلّ بالأمر فقطع ووصل دون مراجعة الخليفة المتقي لله. فغضب الخليفة وخرج منها مغاضباً له، خرج بأهله وأولاده ووزيره ومن تبعه من الأمراء، قاصداً الموصل إلى بني حمدان، فتلقّاه سيف الدولة من تكريت[1]، ثم جاء ناصر الدولة إلى تكريت أيضاً.

---

(١) تكريت: مدينة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، =

بعد أن خرج الخليفة المتقي من بغداد زاد إفساد ابن شيرزاد، وظلم أهلها. وبعث يعلم توزون بخروج المتقي من بغداد، فاتجه مسرعاً نحو تكريت فالتقى مع سيف الدولة واشتبك معه في معركةٍ ربحها عليه، وأخذ معسكره ومعسكر أخيه ناصر الدولة، ثم إن سيف الدولة استعدّ وكرّ عليه لكنه هُزم ثانيةً، وانهزم الخليفة المتقي وناصر الدولة وسيف الدولة من الموصل إلى نصيبين، وجاء توزون ودخل الموصل وأرسل إلى الخليفة يطلب رضاه، فأرسل الخليفة يقول: لا سبيل إلى ذلك إلا بمصالحة بني حمدان، فاصطلحوا، وضمن ناصر الدولة بلاد الموصل بمبلغٍ ضخمٍ وهو ثلاثة ملايين وستمائة ألفٍ، ورجع توزون إلى بغداد، وأقام الخليفة عند بني حمدان في الموصل.

وفي غيبة توزون هذه عن واسط أقبل إليها معزّ الدولة بن بويه في جمعٍ كبيرٍ من الديلم، واتجه توزون مسرعاً إليها أيضاً فاقتتلا بضعة عشر يوماً، وكان نهاية المعركة هزيمة معز الدولة، وقتل عددٍ كبيرٍ من جيشه،

= وتقع على الجانب الغربي من نهر دجلة، وفيها قلعة بناها سابور بن أزدشير، أما المدينة فهي نسبةً إلى تكريت بنت وائل.

وأسر جماعةٍ من كبار أصحابه. ثم عاود توزون ما كان يعتريه من مرض الصرع، فشُغل بنفسه، ورجع إلى بغداد.

وفاة أبي عبد الله البريدي:

كانت الأموال قد قلّت في يد أبي عبد اللهالبريدي، فكان يقترض من أخيه أبي يوسف، فيعطيه القليل، ثم يُشنّع عليه ويذمّ تصرّفه بمال الجند، إلى أن مال الجند إلى أبي يوسف، وأعرض غالبهم عن أبي عبد الله، فخشي أن يقدّموه، فأرسل إليه طائفةً من غلمانه فقتلوه غيلةً، ثم انتقل إلى داره، وأخذ جميع حواصله وأمواله، فكان قيمة ما أخذ منه من الأموال - ما يقارب ثلاثمائة مليون دينار - ولم يُمتّع بعده إلا ثمانية أشهرٍ، مرض فيها مرضاً شديداً بالحمّى الحادة، حتى كانت وفاته في شوال من سنة ٣٣٢هـ، فقام مقامه أخوه أبو الحسين، فأساء السيرة في أصحابه، فثاروا عليه، فلجأ إلى القرامطة واستجار بهم، فقام بالأمر من بعده أبو القاسم بن أبي عبد الله البريدي في بلاد واسط والبصرة وتلك النواحي من الأهواز وغيرها[١].

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

المصالحة بين الخليفة المتقي وتوزون:

عندما أقام الخليفة المتقي بالموصل عند بني حمدان ظهر له منهم تضجّر، وأنهم يرغبون في مفارقته، فكتب إلى توزون بالصلح، فاجتمع توزون مع القضاة والأعيان وقرؤوا كتاب الخليفة وقابله بالسمع والطاعة، وحلف له، ووضع خطة بالإقرار له ولمن معه بالإكرام والاحترام.

وكان الخليفة المتقي قد أرسل وهو في الموصل إلى الإخشيد محمد بن طغج صاحب مصر والبلاد الشامية أن يأتيه، فأقبل إليه في المنتصف من المحرم سنة ٣٣٣هـ، وخضع للخليفة غاية الخضوع، وكان يقوم بين يديه كما تقوم الغلمان، ويمشي والخليفة راكب، ثم عرض عليه أن يسير معه إلى الديار المصرية أو يقوم ببلاد الشام، لكنه أبى عليه[١]، فأشار عليه بالمقام مكانه بالموصل، ولا يذهب إلى توزون، وحذّره من مكر توزون وخديعته، فلم يقبل ذلك، وكذلك أشار عليه وزيره أبو الحسين بن مقلة فلم يسمع. وأهدى

---

(١) يبدو أن الخليفة قد رأى أن في تعدد مراكز الخلافة تشتيت للأمة، وتعدد مراكز القوة مدعاة للصراع، لذا رفض الإقامة في قاعدة غير بغداد.

محمد بن طغج للخليفة هدايا كثيرةً فاخرةً وكذلك إلى الأمراء والوزير، ثم رجع إلى بلاده، ومرّ بحلب فانحاز عنها صاحبها أبو عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، وكان ابن مقاتل بها فأرسله إلى مصر نائباً عنه حتى يعود إليها.

ركب الخليفة المتقي في نهر دجلة يريد بغداد، وأرسل إلى توزون فاستوثق منه ما كان حلف له من الأيمان فأكدها وأقرها، فلما قرب الخليفة من بغداد خرج إليه توزون ومعه العساكر، فلما رأى الخليفة قبّل الأرض بين يديه، وأظهر له أنه قد وفى له بما كان حلف له عليه، وأنزله في منظرته، ثم جاء فاحتاط على من مع الخليفة من الكبراء، وأمر بسمل عينيّ الخليفة، فسُملت عيناه، فصاح صيحةً عظيمةً سمعها الحريم فضجّت الأصوات بالبكاء فأمر بضرب الدبادب حتى لا تُسمع أصوات الحريم. ثم اتجه مباشرةً إلى بغداد فبايع المستكفي بالخلافة.

السامانيون:

توفي نصر بن أحمد بن إسماعيل صاحب خراسان وما وراء النهر في رجب سنة ٣٣١هـ بعد مرضٍ استمرّ ثلاثة عشر شهراً بمرض السلّ، وقام بالأمر مكانه ابنه

نوح بن نصر. وكانت ولاية نصر بن أحمد ثلاثين سنةً، وثلاثةً وثلاثين يوماً، وكان عمره ثماني وثلاثين سنةً، حيث وُلد سنة ٢٩٣هـ، وتولّى الأمر سنة ٣٠١هـ بعد مقتل أبيه، فاستصغره أهل ولايته فكفله أصحاب أبيه.

أقام نوح بن نصر ببخارى بعد أن ولي الأمر، وكانت أيامه فتناً واضطراباتٍ بلغت به إلى أن ذهبت منه ثم عادت إليه، وتوفي في بخارى سنة ٣٤٣هـ.

وكانت هناك صلات ضمنية بين السامانيين والعبيديين (الفاطميين) من حيث العقيدة والأهداف والمرامي البعيدة، وقد كتب نصر بن أحمد إسماعيل الساماني إلى عبيد الله (المهدي): أنا في خمسين ألف مملوكٍ يطيعونني وليس على المهدي بهم كلفة ولا مؤونة، فإن أمرني بالمسير سرت إليه، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه، فأجابه بخط يده أن يلزم مركزه.

الأندلس:

كان عبد الرحمن الناصر الأموي يحكم الأندلس منذ سنة ٣٠٠هـ، وقد أعلن نفسه خليفةً، وتمكّن له الوضع، وقضى على من وقف في وجهه أو قصده معانداً أو جاءه مهاجماً، واستمرّ حكمه حتى سنة ٣٥٠هـ.

قتال الروم:

كانت ثغور الشام والجزيرة الفراتية أقرب ما يكون إلى الهدوء ينتظر الروم زيادة الشقاق بين المسلمين، وفي الوقت نفسه يخشونهم، ويخافون إعلان الجهاد، والمسلمون مشغولون بخلافاتهم ودنياهم، وليس للدعوة من نصيبٍ إلا في صدور فئةٍ قليلةٍ لها مكانتها الاجتماعية ولكن لا باع لها في حركة الجيوش، وإصدار الأوامر إذ كان ذلك متعلّقاً في القواد، قواد الجماعات الشعوبية، ونوّاب الأقاليم القائمة تبعاً للشعوب أيضاً.

وتقدّم الروم كنوعٍ من اختبار قوة المسلمين فوصلوا إلى قرب حلب فقتلوا خلقاً كثيراً، وقبضوا على نحوٍ من خمسة عشر ألفاً أخذوهم أسرى، وذلك سنة ٣٣٠هـ.

وفي العام نفسه تقدّم نائب طرسوس في بلاد الروم، فقتل، وسبى، وغنم، وأسر عدداً من البطارقة المشهورين بينهم وغيرهم عدداً كبيراً.

وفي سنة ٣٣٢هـ في شهر ربيع الأول جاء ملك الروم الدمستق في ثمانين ألف مقاتلٍ إلى رأس العين، فدخلها، ونهب ما فيها، وسبى وقتل نحواً من خمسة

عشر ألفاً، وأقام بها ثلاثة أيامٍ، فثارت حمية الأعراب من حولها، فقصدوه من كل وجهٍ وقاتلوه قتالاً شديداً حتى انجلى عنها، ولم يكن هناك من يقودهم وغيرهم للجهاد.

قتال الروس:

جاءت جماعة من الروس عن طريق بحر الخزر من جهة أذربيجان فقصدوا بلدة «بردعة»[1] فحاصروها، فلما ظفروا بأهلها قتلوهم عن آخرهم، وأخذوا أموالهم، وسبوا من استحسنوا من نسائهم، ثم مالوا إلى بلدة «المراغة»[2]، فوجدوا بها ثماراً، فأكلوا منها وأكثروا فأصابهم وباء شديد فمات أكثرهم، وكان إذا مات أحدهم دفنوا معه ثيابه وسلاحه، وأقبل عليهم المرزبان بن محمد فقتل منهم، وانتهى أمرهم.

القرامطة:

مات رئيس القرامطة أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنّابي في شهر رمضان من سنة ٣٣٢هـ، وقام

---

(١) بردعة: مدينة في أقصى أذربيجان.

(٢) المراغة: مدينة في أذربيجان إلى الشرق من جنوبي بحيرة «أرومية» بخمسةٍ وعشرين كيلاً.

بأمر القرامطة إخوته الثلاثة: أبو القاسم سعيد، وأبو العباس الفضل، وأبو يعقوب يوسف، ولم يختلف ثلاثتهم في شيءٍ حيث كانت كلمتهم واحدةً، وكان لهم سبعة وزراء متفقين فيما بينهم لم يختلفوا.

نهاية الخليفة المتقي لله:

بعد أن أمر توزون بسمل عيني الخليفة المتقي فسُملت، عاد توزون مباشرةً إلى بغداد فبايع المستكفي بالله ابن عم المتقي لله، وذلك في العشر الأواخر من شهر صفر سنة ٣٣٣هـ، فكانت خلافته ثلاث سنواتٍ وأحد عشر شهراً وخمسة أيامٍ. وعاش بعد خلعه وسمل عينيه حتى سنة ٣٥٧هـ، فتوفي وهو ابن اثنتين وستين سنةً منها أربع وعشرون سنةً أعمى قد سُملت عيناه، سجيناً في جزيرةٍ مقابلةٍ للسندية.

أما توزون فلم يحل عليه الحول حتى مات. ولما بلغ القاهر أن المتقي قد سُملت عيناه، قال: صرنا اثنين نحتاج إلى ثالثٍ.

شخصية المتقي لله:

كان كثير الصوم والتعبّد، ولم يشرب نبيذاً قط، وكان يقول لا أريد نديماً إلا المصحف، ولم يتسَر على

جاريته التي كانت له. ولم يكن له من الخلافة سوى الاسم. ولم يترك الخلافة لأنه لو تركها لعمّت الفوضى، وزادت الخلافات، وكثرت الادعاءات، فيكفي بقاؤه حصرها.

ولم يترك من الأولاد سوى واحدٍ هو أبو المنصور إسحاق.

الملاحظات:

استمرّ المتلوّنون في خط سيرهم، وقد رأوا أملاً فيه، فالصراعات ما تنقطع في دار الخلافة بين رجالاتها وأمراء أمرائها وقادتها، فهم الذين بيدهم القوة، والخليفة عاجز عن فعل شيءٍ، لأن الجند ينقادون لأمرائهم، وغلمانه ورجاله قلّة أمام الآخرين. والقواد يغدقون الأموال على جندهم فيزداد ارتباطهم بهم، والأموال يحصلون عليها بوسائل غير مشروعةٍ وغالباً ما يجبرون الخليفة على تقديمها.

وأسماء القواد تدلّ على أنسابهم وانتماءاتهم، وإن كانوا غالباً يضمّنونها ويزيّنونها بأسماء وكنى أخرى كسباً للعاطفة وتعميةً للأنساب وإظهاراً للإسلام وادعاءً لتوجّهٍ هم بعيدون عنه وإنما هو ثوب يتجمّلون به ويخفون حقيقتهم (علي، أبو الحسن، الحسين، وعلوية وربما

الحسن وهو قليل ودون إيمان بذلك).

أما الذين حملوا الإسلام بالأصل فقد أُبعدوا تخطيطاً كما أنهم هم ابتعدوا عندما رأوا ذلك وشُغلاً بدنياهم وإخلاداً إلى الأرض لذا نالهم ما نالهم بأمر الله وحكمته.

وأبقى المتلوّنون أسرة بني بويه المرشّحة لدورٍ تقوم به بعيدةً عن النزاعات والمعمعة والصراعات والعجعجة بل يشيعون الدعايات الكبيرة لها، ويروّجون الفضائل لها، حتى تغدو بل غدت أملاً لحمل مسؤوليةٍ في التهدئة وإنهاء الممارسات الفردية للقواد.

وكذا وُجّهت الأنظار إلى بني حمدان الذين يمشون مع التيار ويحملون رأى المتلوّنين جهالةً من جهةٍ ومصلحةً من جهةٍ ثانيةٍ فلم يخوضوا في الوحل إلى الركب، ولم يدخلوا في النزاعات إلى أطراف آذانهم بل كانوا أملاً عند الشدّة، ومحطّ الأنظار عند الضيق، وشدّاً للوثاق مع بيت الخلافة فقد عقد أبو منصور إسحاق الابن الأوحد للخليفة المتقي لله عقده على علوية بنت ناصر الدولة الحسن بن عبد الله أبي الهيجاء بن حمدان على صداق مائة ألف دينارٍ وألف ألف درهمٍ، وولي العقد على الجارية المذكورة أبو عبد الله

محمد بن أبي موسى الهاشمي، ولم يحضر ناصر الدولة. وضرب ناصر الدولة سكةً ضرب فيها ناصر الدولة عبد آل محمد.

وأما الخليفة فلم يستطع أن يقف في وجه التيارات العسكرية إن صحّ أن نُسمّيها ذلك، ولم يكن بإمكانه إلا المسايرة أو التنازل عن الخلافة وفسح المجال للقواد للتصرّف بالأمة حسب أهوائهم، وقد أشرنا إلى انتماءاتهم، ويُعرفون من أسمائهم، وإذا تُرك الأمر لأهوائهم نُكبت الأمة، ودالت دولتها، وزال سلطانها، وتحكّمت بها طغمة لا تصلح لشيءٍ. إذن ما كان على الخليفة إلا المسايرة، ومحاولة دفع الشرور، واللجوء إلى أخفّ الضررين واتخاذ الحكمة ما أمكنه ذلك، وهذا ما سار عليه.

ولجأ المتلوّنون إلى عدم قتل الخليفة عندما يعجزون عن إخضاعه لهم تماماً والسيطرة عليه وجعله يقوم بتنفيذ كل ما يرغبون، وربما رأوا في صلاحه ومحبّة الرعية له ما يحول دون إخضاعه لأهوائهم ومراميهم، فالمقتول يُنسى بعد مدةٍ وقد يوجدون مبرراتٍ لقتله، وربما تدور على الألسن أسباب موضوعة وغير صحيحة لقتله، فتختلط الأقوال، وينتهي

الأمر، ولا تُعرف قسوة القتل، وأثر المعاناة، وقد أوجد المتلّونون موضوع سمل العيون بـ (مكحل «ميل») محمّىً بالنار فإضافةً إلى ما فيه من العذاب فإن مسمول العينين يبقى عبرةً للآخرين الذين يتولّون بعده إذ يخافون فيخضعون ولا يخالفون، ويبقون أداةً بأيدي المسيطرين الذين بيدهم الأمر من المتلوّنين الذين يطمعون بهذا. ويبقى الخليفة صورةً ويقوم بالأمر المتلوّنون.

وهذا لأن المجتمع لا يدين لخليفةٍ إلا إذا كان ممن حمل لواء الإسلام وسار بالدعوة إليه للعالم، وهذا فكر أولئك الماكرين الذين يتحرّكون مستترين ويروّجون الشائعات الهدّامة بإعطاء بعض الرجال صفاتٍ فوق مستوى البشر.

وأما القرامطة والعبيديون فمرضيٌ عنهم ضمناً، ويُؤيّدهم المتلوّنون واقعاً، ويسكت عنهم الذين بيدهم القوة البشرية فعلاً، وهذا ما جعلهم يرتعون كما يريدون، ويتحكّمون في بعض الأقاليم الواسعة ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ .

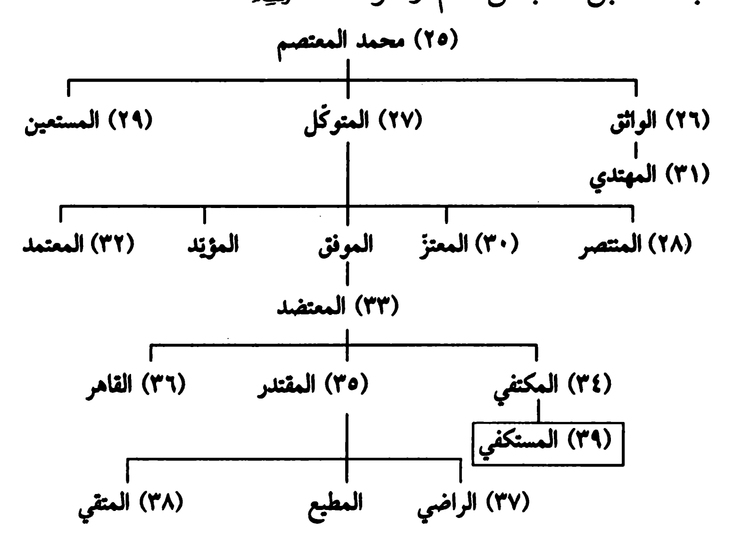


الفصل الثاني عشر

٣٩ - المستكفي بالله

٣٣٣ - ٣٣٤هـ

المستكفي بالله هو أبو القاسم عبد الله بن علي المكتفي بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ



المستكفي قبل الخلافة:

ولد عبد الله بن علي المكتفي سنة ٢٩٢هـ. وأمه أم ولد اسمها غصن. ولم يكن له دور في الحياة العامة قبل الخلافة بل لم يكن لغيره من بني العباس حتى الخليفة لم يكن سوى الاسم والمهمة الملقاة على عاتقه. وكان عمره يوم بويع بالخلافة إحدى وأربعين سنةً.

خلافة المستكفي بالله:

لما رجع توزون إلى بغداد وقد سمل عيني المتقي لله، استدعى ابن عمّ المتقي لله وهو عبد الله بن علي المكتفي، فبايعه ولقّبه المستكفي بالله، وذلك في العشر الأواخر من شهر صفر سنة ٣٣٣هـ، وجلس توزون بين يديه، وخلع عليه المستكفي، وأُحضر المتقي لله بين يديه وهو مسمول العينين، وبايعه، وأخذ المستكفي منه البردة والقضيب.

استوزر المستكفي بالله أبا الفرج محمد بن علي السامري يوم الأربعاء لستٍ بقين من صفر، ثم عزله توزون بعد أربعين يوماً، وأغرمه ثلاثمائة ألف دينارٍ وردّ إلى الوزارة أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد[١].

---

(١) محمد بن يحيى بن شيرزاد، أبو جعفر، كان وزيراً لـ «بجكم».

وحبس المستكفي سلفه في الخلافة المتقي لله في السجن، وطلب أبا القاسم الفضل بن المقتدر، وهو الذي ولي الخلافة بعد ذلك، ولُقّب المطيع لله، فاختفى منه ولم يظهر مدة خلافة المستكفي، فأمر المستكفي بهدم داره التي عند دجلة.

مقتل أبي الحسين البريدي:

قدم أبو الحسين البريدي في شهر ربيع الأول سنة ٣٣٣هـ إلى بغداد مستأمناً إلى توزون فأمنه، وأنزله أبو جعفر بن شيرزاد إلى جانب داره وأكرمه، وطلب أن يقوي يده على ابن أخيه وضمن له أنه إذا أخذ البصرة يوصل إليه مالاً كثيراً فوعدوه النجدة والمساعدة، فأنفذ ابن أخيه مالاً كثيراً خدم به توزون وابن شيرزاد فأنفذوا له الخلع وأقروه على عمله، فلما علم أبو الحسين البريدي بذلك سعى في أن يكتب لتوزون ويقبض على ابن شيرزاد، فعلم ابن شيرزاد بذلك فسعى به إلى أن قُبض عليه، وقُيّد، وضُرب ضرباً عنيفاً، وكان الفقهاء والقضاة قد أفتوا بإحلال دمه، فقُتل ونهبت داره، وكان قتله في منتصف ذي الحجة ٣٣٣هـ.

نقل الخليفة السابق القاهر:

نقل القاهر من دار الخلافة إلى دار ابن طاهر،

وهو سجين مسمول العينين، وكان قد بلغ به الضرّ والفقر شيئاً كثيراً.

مسير معز الدولة إلى واسط:

سار أبو الحسين معز الدولة أحمد بن بويه إلى مدينة واسط ودخلها في آخر رجب سنة ٣٣٣هـ، فلما سمع توزون بذلك سار هو والخليفة المستكفي من بغداد إلى واسط، فلما سمع معز الدولة بمسيرهم إليه فارقها في السادس من رمضان، ووصل الخليفة المستكفي وتوزون إلى واسط، فأرسل أبو القاسم البريدي يضمن البصرة فأجابه توزون إلى ذلك، وضمنه، وسلّمها إليه، وعاد الخليفة وتوزون إلى بغداد فدخلاها في الثامن من شوال من سنة ٣٣٣هـ.

دخول سيف الدولة الحمداني حلب:

كان سيف الدولة علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بالرقة مع الخليفة السابق المتقي لله، فلما رجع المتقي إلى بغداد، وعاد الإخشيد باتجاه مصر بقي في حلب «يأنس المؤنسي» فقصده سيف الدولة، فلما نزل حلب فارقها «يأنس» وسار إلى الإخشيد فدخلها سيف الدولة، وملكها، ثم سار منها إلى حمص، فلقيه بها

عسكر الإخشيد محمد بن طغج صاحب الشام مع مولاه كافور فاقتتلوا فانهزم عسكر الإخشيد وكافور، وملك سيف الدولة مدينة حمص، وسار إلى دمشق فدافع عنها أهلها وتحصّنوا، فرجع، وكان الإخشيد قد خرج من مصر إلى الشام، وسار خلف سيف الدولة فالتقيا بـ «قنسرين» فلم يظفر أحد العسكريين بالآخر، ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة، فلما عاد الإخشيد إلى دمشق رجع سيف الدولة إلى حلب. ولما ملك سيف الدولة حلب سارت الروم إليها فخرج إليهم فقاتلهم بالقرب منها، فانتصر عليهم.

مسير الخليفة المستكفي إلى الموصل:

سار الخليفة المستكفي ومعه توزون من بغداد إلى الموصل قاصدين ناصر الدولة بن حمدان لأنه أخّر حمل المال الذي عليه من ضمان البلاد، واستخدم غلماناً هربوا من توزون، وكان الاتفاق بينهم أن لا يقبل أحداً من عسكر توزون. فلما خرج الخليفة وتوزون من بغداد ترددت الرسل في الصلح، وتوسّط أبو جعفر بن شيرزاد بالأمر، وانقاد ناصر الدولة لحمل المال، ولما تقرّر الصلح عاد المستكفي وتوزون إلى بغداد.

موت توزون:

مات توزون في مطلع سنة ٣٣٤هـ في شهر المحرم منها، وكان قد أُصيب بالصرع، وكان موته في داره في بغداد، وكانت مدة إمارته سنتين وأربعة أشهرٍ وتسعة عشر يوماً، وكتب له ابن شيرزاد مدة إمارته غير ثلاثة أيامٍ. ولما مات توزون كان ابن شيرزاد بـ «هيت» لتخليص أموالها، فلما بلغه الخبر عزم على عقد الإمارة لناصر الدولة بن حمدان، فاضطربت الأجناد وعقدوا الرياسة عليهم لابن شيرزاد، فحضر ونزل بباب حرب في مستهل شهر صفر، وخرج عليه الأجناد جميعهم واجتمعوا عليه، وحلفوا له، ووجّه إلى الخليفة المستكفي ليحلف له، فأجابه إلى ذلك، وحلف له بحضرة القضاة والعدول، ودخل إليه ابن شيرزاد، وعاد مكرماً يخاطب بأمير الأمراء، وزاد الأجناد زيادةً كثيرةً فقلّت الأموال عليه، فأرسل إلى ناصر الدولة مع أبي عبد الله بن محمد بن أبي موسى الهاشمي - وهو بالموصل - يطالبه بحمل المال ويعده بردّ الرياسة إليه، وأنفذ له خمسمائة ألف درهمٍ وطعاماً كثيراً ففرّقها في عسكره فلم يؤثر، فقسّط الأموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم لأرزاق الجند، وظلم الناس ببغداد،

وظهر اللصوص وأخذوا الأموال، وجلا التجار. واستعمل على واسط «ينال كوشة» وعلى تكريت «اللشكري»، فأما «ينال» فإنه كاتب معزّ الدولة بن بويه، واستقدمه وصار معه، وأما «الفتح اللشكري» فإنه سار إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، وصار معه، فأقرّه على تكريت.

استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد:

لما كاتب «ينال كوشة» معز الدولة بن بويه ـ وهو بالأهواز ـ ودخل في طاعته سار معز الدولة نحوه فاضطرب الناس ببغداد، فلما وصل إلى «باجسري» اختفى الخليفة المستكفي بالله وابن شيرزاد، وكانت إمارته ثلاثة أشهرٍ وعشرين يوماً، فلما استتر سار الأتراك إلى الموصل، فلما ابتعدوا ظهر المستكفي بالله وعاد إلى بغداد إلى دار الخلافة، وقدم أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي صاحب معز الدولة إلى بغداد فاجتمع بابن شيرزاد بالمكان الذي استتر فيه.

ثم اجتمع المهلبي بالمستكفي فأظهر المستكفي السرور بقدوم معز الدولة، وأعلمه إنما استتر من الأتراك ليتفرّقوا فيحصل الأمر لمعز الدولة دون قتالٍ. ووصل معز الدولة إلى بغداد لإحدى عشرة ليلةً خلت

من شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ، فنزل بباب الشماسية ودخل من الغد إلى الخليفة المستكفي وبايعه وحلف له المستكفي. ثم سأله معز الدولة أن يأذن لابن شيرزاد بالظهور، وأن يأذن أن يستكتبه فأجابه إلى ذلك. فظهر ابن شيرزاد ولقي معزّ الدولة فولّاه الخراج وجباية الأموال. فخلع الخليفة على معز الدولة ولقّبه ذلك اليوم معز الدولة، ولقّب أخاه علياً عماد الدولة، ولقّب أخاه الحسن ركن الدولة، وأمر أن تُضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم. ونزل معز الدولة بدار مؤنسٍ، ونزل أصحابه في دور الناس فلحق الناس من ذلك شدّة عظيمة، وصار رسماً عليهم بعد ذلك ـ وهو أول من فعله ببغداد ولم يعرف بها قبله ـ وجُعل للمستكفي بالله كل يومٍ خمسة آلاف درهمٍ لنفقاته، وربما تأخّرت عنه فأقرت له مع ذلك ضياع سُلّمت له تولّى أمرها كاتبه أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي.

خلع المستكفي بالله من الخلافة:

في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ حضر معز الدولة والناس عند الخليفة كما حضر رسول صاحب خراسان، ثم حضر رجلان من نقباء الديلم وهما يصيحان فتناولا يد الخليفة المستكفي بالله

فظنّ أنهما يريدان تقبيلها فمدّها إليهما فجذباه عن سريره، وجعلا عمامته في حلقه، ونهض معز الدولة، واضطرب الناس، ونهبت الأموال، وساق الرجلان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة، فاعتقل فيها، ونُهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء، وقُبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي، وقُطع لسان «علما» المرأة المشرفة على دار المستكفي، وأُحضر أبو القاسم الفضل بن المقتدر فبويع بالخلافة، وسُملت عينا المستكفي، وأودع السجن، فلم يزل مسجوناً حتى كانت وفاته سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة.

شخصية المستكفي بالله:

كان مربوع القامة مليحاً، معتدل البدن، أبيض مشرباً بحمرةٍ خفيف العارضين، قد وخطه الشيب.

ولي الخلافة سنةً وأربعة أشهرٍ ويومين، ثم خُلع وسُملت عيناه، وتوفي سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ وهو معتقل في داره وله من العمر ست وأربعون سنةً وشهران.

الملاحظات:

لقد ضعف مركز الخلافة كثيراً، ومن يتولّى هذا

المنصب لا بدّ له من أن يكون صورةً يُحرّكها أصحاب النفوذ الذين يملكون القوة، ويخضع لهم أكثر القواد فالخليفة الجديد يرى أمامه ثلاثة خلفاء على قيد الحياة في السجن مسمولي العيون، وفي وضعٍ يُرثى له صحياً واجتماعياً. ومادياً وهم القاهر بالله، والمتقي لله، والمستكفي بالله. وهم: عمّ الخليفة الجديد المطيع، وأخوه، وابن عمه. فلا بدّ له من أن يسمع ويُطيع، ويُنفّذ ما يراه رجال القوة، وبذا أصبحت الخلافة اسماً فقط، ومن يحمل اسمها ليس له من الأمر شيء وصاحب الكلمة هو الذي يُطيعه، ويأتمر بأمره القادة، وهو غالباً صاحب تجمّعٍ شعوبيٍ، ذي عصبيةٍ وحقدٍ على هازم قومه ومزيل عقيدة أرومته.

ولم يكن هؤلاء المتلوّنون سوى فئةٍ قليلةٍ من شعبٍ أخذ الإسلام بكل جوارحه وطرح الجاهلية بمعانيها كلها من داخل نفسه إيماناً وتصديقاً، وهذه نقطة يجب أن نضعها في مكانها، ثم أخذت تلك الفئة القليلة تُثير فكرة العصبية والجاهلية في محاولةٍ لغرسها في التربة التي تجدها ملائمةً، وربما وجدت ما يناسبها فنمت ورسخت جذورها وتفرّعت سوقها فقوي شأن المتلوّنين، وخاصةً بعد أن أقبل آخرون من شعوبٍ

أخرى، واحدها ذو أرومةٍ أساسيةٍ أقبلوا عاطفةً وأخذوا من غير درايةٍ فكان لهم أثر عند المتلونين، وعلى غيرهم كمعاول هدم ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ.

ومن يتتبع صلات وحركات أصحاب القوة والنفوذ بعضهم مع بعضٍ يصل إلى المرمى الواحد، فصلة ابن شيرزاد بناصر الدولة بن حمدان من جهةٍ وبمعز الدولة بن بويه من جهةٍ ثانيةٍ، واستعمال «ينال كوشه» كاتب معز الدولة على واسط، و«الفتح اللشكري» رجل ناصر الدولة على تكريت، والتحرّك على مسارٍ واحدٍ كل له مدلولاته وأبعاده.



الخاتمة

وأخيراً نجح المتلوّنون بالوصول إلى بعض أهدافهم، فقد ضعفت الخلافة إلى درجةٍ كبيرةٍ، وغدا الخليفة مضطراً لأن يكون رهن إشارة الفئة القوية المتحكّمة بقاعدة الخلافة والتي لها مؤيّدون في بقية الأقاليم يتبعون لها ويخضعون لسلطانها، كما لها جماعات تسير على نهجها فكرياً وتدعمها عاطفةً وتظنّ أن الأمر لا يتعدّى ذلك حيث تجهل مراميها العصبية وأحقادها التي تُخفيها.

وصل بنو بويه إلى قمة النفوذ فهم سادة بغداد قاعدة الخلافة، والخليفة يتحرّك حسب توجيهاتهم ولا يتصرّف بشيءٍ دون رأيهم، ومعظم أمصار مشرق الخلافة يتوجّه برأيهم ونوابها يُعيّنون من قبلهم، يطيعونهم تقرّباً، ويتقرّبون إليهم زُلفى، وربما كان بعضهم يُؤيّدهم عصبيةً سواء أكان يعرف بُعد مراميهم أم لا يعرف سوى صلة الأرومة وقرب النسب، والدعايات تُوجّه لهم، والشائعات تُذاع لمصلحتهم بحذاقةٍ ودرايةٍ وخبثٍ مرسومٍ ومخططٍ مهيّأٍ له ومكرٍ محكمٍ.

وحصل بنو حمدان على موقعٍ متميّزٍ في شمالي المنطقة العربية من مشرق ديار الخلافة بصفتهم يعودون إلى أصولٍ عربيةٍ، ويحسبون أنهم يلتقون مع بني بويه على الدعوة إلى خلافة جماعةٍ مخصّصةٍ قريبةٍ من رسول الله ﷺ، محبةً للرسول الكريم، رغم عدم وجود هذا الحصر في الإسلام، ورغم محاربتهم هم أنفسهم للحصر، ولكن هذا ينشد كسب عاطفة المسلمين للوصول إلى هدفه وذاك ينشد إيجاد الخلاف وزجّ مبادئ في الإسلام ليست منه، وإعطاء بعض ذوي الفضل والعلم صفات فوق مستوى البشر في سبيل التهديم والعبث.

وبين هؤلاء وأولئك نواب أقاليمٍ في صراعٍ وقواد في خلافٍ، وسادة في تطاحنٍ، ومعارك تدور بين الأطراف، ووقائع لا تنقطع بين الفرقاء، هذا الذي يظهر على الساحة، ويبدو للناس، غير أن هناك أيدي تُخطّط بالخفاء وعقولاً تُوجّه بالسّر تُخفي الحقيقة، وتُغيّر الرؤية الظاهرة، فقد يقع قتال بين فريقين من أرومةٍ واحدةٍ، ولكن لا تجري دماء، ولا تقع خسائر وإن حدث ذلك فإنما يكون من غلمان ومؤيدي الفريقين من أرومةٍ ثانيةٍ، والمهم التعمية عن الترابط بين أبناء

أرومةٍ واحدةٍ والعصبية لها ولعقيدتها السابقة فتكون الأحداث مكشوفةً وتُقرأ صفحات الوقائع صريحةً لا تحتاج ترجمةً ولا تُعوزها أدلة وبراهين.

ويرتع العبيديون في المغرب ينفثون سمومهم، ويشيعون في الأوساط ما يُخالف الإسلام، وليست هناك أية مقاومةٍ من قبل الخلافة في المشرق بل لا تدعم هذه الخلافة مصر التي تتبعها ضد هجمات العبيديين، ولذلك كانت هناك خيوط اتصالٍ بين المتلوّنين والعبيديين من عداء للإسلام وأهله وحملته، ومن هذه الخيوط طرح الشبهات على الإسلام.

وكذا يرتع القرامطة في المناطق التي يسيطرون عليها دون إعلان حربٍ صارخةٍ عليهم في سبيل القضاء عليهم. وما هذا التواني أيضاً إلا بسبب الالتقاء في بعض الأهداف البعيدة، والتقارب في وجهات النظر، فبعضهم أولياء بعضٍ وإن عملوا على ذرّ الرماد بالعيون والقيام بتمثيل بعض الأدوار التي ظاهرها الخلاف وحقيقتها الائتلاف، فإن مرمى السهام واحد. فالله وليّ الصابرين.. والحمد لله رب العالمين.



المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الحادي عشر